
ديڤيد غران
مكتبة 1676
قتلة
زهرة القمر
جرائم قتل الأوساج
وولادة مكتب التحقيقات الفدرالي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



قتلة زهرة القمر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الطبعة الأولى 2023

ISBN: 978-6144-58-594-8

تنقيح الترجمة: **إيلي عساكر**

تدقيق لغوي: **وفيق زيتون**

صورة الكاتب على الغلاف: **Matt Richman ©**

تصميم الغلاف: **ريتا كلزي**

الإخراج الفني: **بسمة تقي**

Original Title: **Killers Of The Flower Moon**

إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: 8375 -11 بيروت، لبنان
هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com
البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com
مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

ديڤيد غران

قتلة زهرة القمر

جرائم قتل الأوساج
وولادة مكتب التحقيقات الفدرالي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



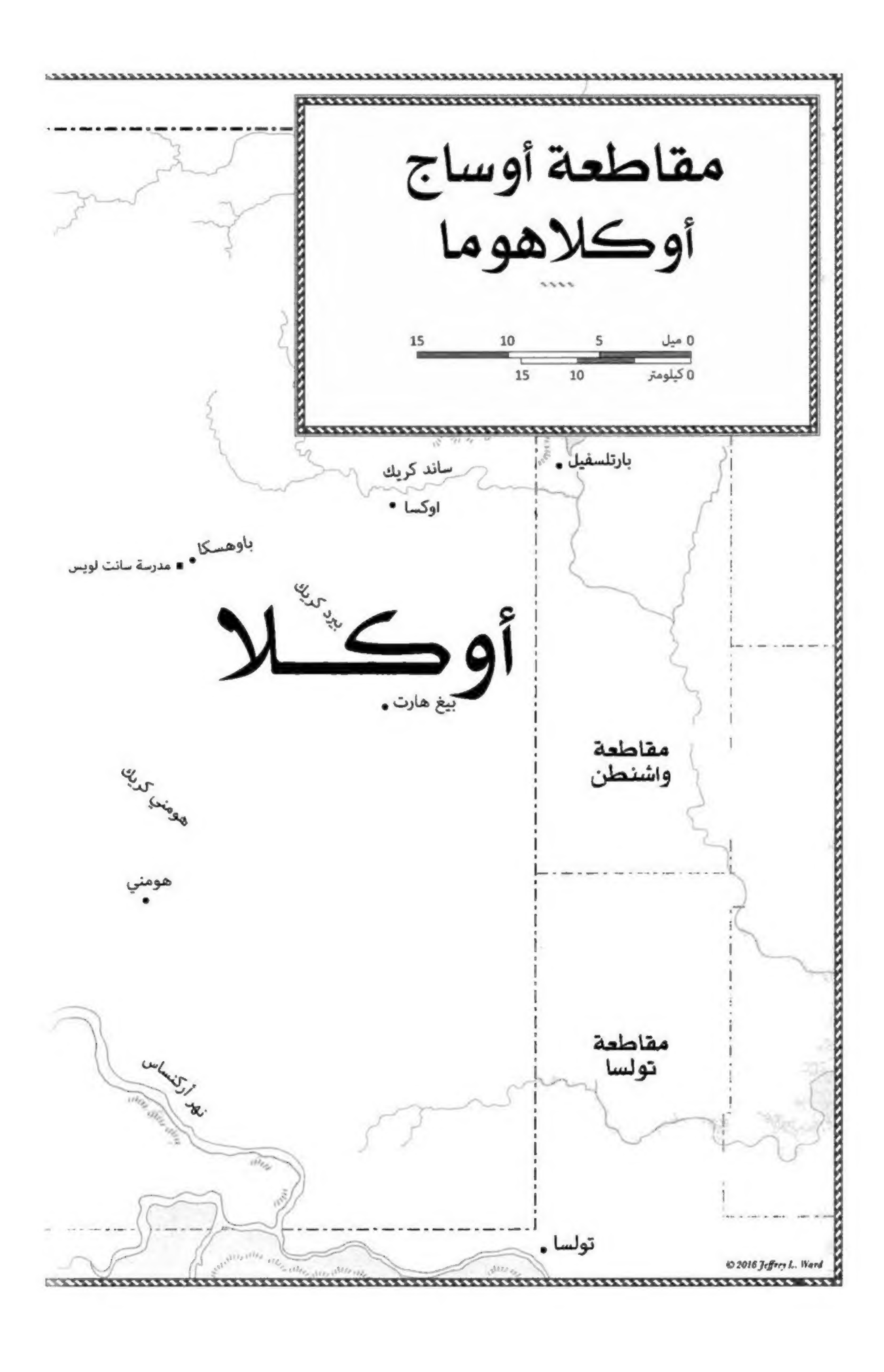
المحتويات

سجلَ الوقائع الأوَل: المرأة المميَزة

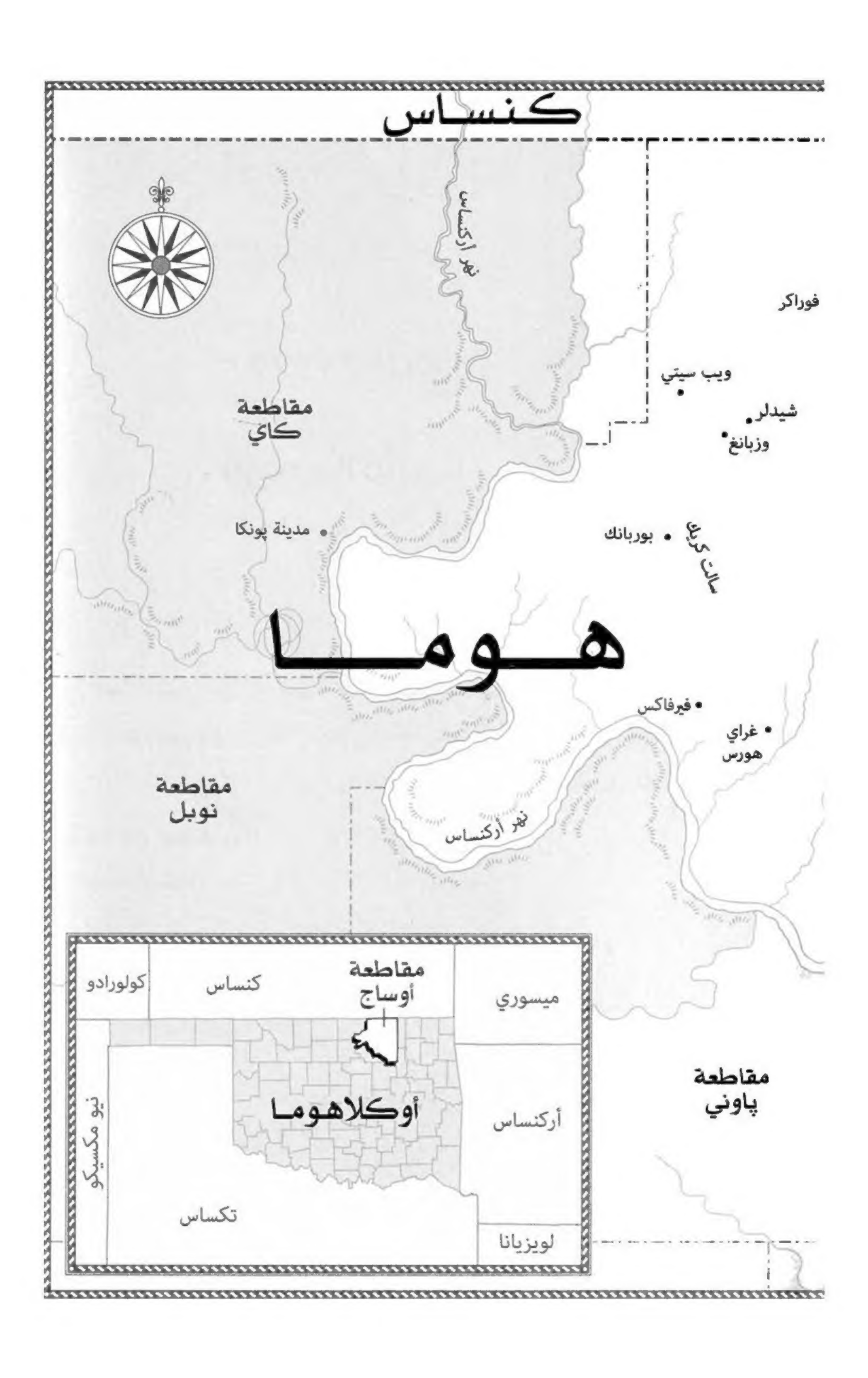
سجلَ الوقائع الثاني: رجل الأدلَة

سجلّ الوقائع الثالث: المراسل

إلــى أمّــي وأبــي



مقاطعة أوساج
أوكلاهوما
0 ميل
5
10
15
0 كيلومتر
10
15
بارتلسفيل
ساند كريك
اوكسا
باوهسكا
مدرسة سانت لويس
بيرد كريك
أوكلا
بيغ هارت
مقاطعة
واشنطن
هومني كريك
هومني
مقاطعة
تولسا
نهر أركنساس
تولسا
© 2018 Jeffrey L. Ward



كنساس
نهر أركنساس
فوراكر
ويب سيتي
شيدلر
وزبانغ
مقاطعة
كاي
مدينة بونكا
بوربانك
سالت كريك
هوما
فيرفاكس
غراي
هورس
مقاطعة
نوبل
نهر أركنساس
مقاطعة
أوساج
كولورادو
كنساس
ميسوري
نيو مكسيكو
أوكلاهوما
أركنساس
مقاطعة
باوني
تكساس
لويزيانا

سجلّ الوقائع الأوّل:

المرأة المميّزة

«لم يكن هناكَ من شرٍّ يُفسد تلك الليلة المؤاتية، ذلك لأنّها أصغت؛ لم يكن هناك صوت للشرّ؛ فحتّى البوم الصرّار لم يعكّر هذا السكون، لقد عرفَتْ ذلك لأنّها أصغت طوال الليل».

جون جوزيف ماثيوز،

«صن داون»

1 الاختفاء

تنتشر في نيسان/أبريل ملايين الأزهار الصغيرة، كأزهار الثّالوث واللوتس الزرق والأزهار البرّية فوق تلال السنديان، وفوق المروج الشاسعة في إقليم الأوساج في أوكلاهوما[1]. ووصف مؤرّخ الأوساج الكاتب جون جوزيف ماثيوز كويكبة بتلات الأزهار هذه، كما لو أنّ «الآلهة قد تركت قصاصات ورق ملوّنة»[2]. عندما تبدأ ذئاب البراري بالعواء بشكلٍ مقلقٍ تحت ضوء القمر المكتمل في شهر أيار/مايو، تبدأ النباتات الأكثر طولًا، مثل نباتات المكحّلة والسوزان ذات العيون السود، بالزحف إلى الصغيرة لتسرق ضوءها وماءها، وتتكسّر أعناق الأزهار الصغيرة وتُرفرف بتلاتها بعيدًا، ولا يطول الأمر قبل أن تكون قد دُفنت جميعها تحت الأرض. ولهذا السبب، يشير هنود قبيلة الأوساج إلى قمر شهر أيار/مايو باعتباره القمر الذي يقتل الأزهار.

في 24 أيار/مايو من العام 1921، شعرت مولي بوركهارت، وهي من سكّان مستوطنة الأوساج في مقاطعة غراي هورس، في أوكلاهوما، بالخوف من أنّ شيئًا ما قد حدث لإحدى أخواتها الثلاث، آنّا براون[3]. فقبل ثلاثة أيام اختفت آنّا البالغة من العمر أربعة وثلاثين عامًا، وهي أكبر من مولي بأقل من سنة واحدة. كانت آنّا تقضي وقتها مع الأصدقاء حتى الفجر، بالرقص والشرب على سبيل «المرح»، كما وصفتها عائلتها باستخفاف. ولكنْ هذه المرّة مرّت ليلة واحدة، ومن ثم أُخرى، ولم تظهر آنّا أمام منزل أختها مولي كما جرت العادة، بشعرها الأسود الطويل الباهت قليلًا وعينيها الداكنتين اللتين كانتا تلمعان مثل الزجاج.

كانت آنّا تحب، عندما تدخل المنزل، أن تخلع حذاءها بطريقة ينزلق من رجليْها. وقد افتقدت مولي صوت خطوات آنّا المريح وهي تتحرّك على مهل في المنزل. وبدلًا من ذلك، كان هناك صمتٌ كصمت السهول. كانت مولي قد فقدت أختها ميني منذ

حوالى ثلاث سنوات، حيث جاء خبر وفاتها سريعًا ومروّعًا. وعلى الرغم من أنّ الأطبّاء أرجعوا سبب وفاتها إلى مرض «هزال غريب»[4]، فإنّ مولي ساورتها الشكوك، فأختها ميني كانت في السابعة والعشرين من عمرها، وتتمتّع بصحّة جيدة.

نُقشت أسماء مولي وأخواتها مثَل والديهنّ، على لائحة الأوساج، ما يعني أنهنّ كنّ من بين أعضاء القبيلة المسجلين، وما يعني أيضًا أنهنّ كنّ يملكن ثروةً كبيرةً.

رُحِّل الأوساج في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر من أراضيهم في كانساس إلى محميّةٍ صخرية، يُفترض أن لا قيمة لها في شمال شرق أوكلاهوما، ليتمّ الكشف بعد عقود، عن أنّ هذه الأرض تقع فوق أحد أكبر احتياطيات النفط في الولايات المتحدة. وللحصول على هذا النفط، كان لا بد للمنقّبين من أن يدفعوا لهم بدل الإيجارات والعائدات.

في أوائل القرن العشرين بدأ كلّ شخص في القائمة القبلية بتلقي شيكات ربع سنوية. وكان المبلغ في البداية بضعة دولارات فقط، ولكن مع مرور الوقت، تمّ رصد مزيد من النفط، وزادت الأرباح من المئات إلى الآلاف. وأخذت الدفعات تزداد كلّ عام، بطريقة تشبه انضمام جداول البراري إلى مدينة سيمارون الواسعة والموحلة، حتى أنّ جميع أفراد القبيلة راكموا ملايين وملايين الدولارات. (في العام 1923 فقط، تلقّت القبيلة أكثر من 30 مليون دولار، أيّ ما يُعادل اليوم أكثر من 400 مليون دولار). واعتُبِر الأوساج من أغنى الشعوب في العالم بالنسبة إلى دخل الفرد.

عنونت صحيفة نيويورك الأسبوعية أوتلوك Outlook: «انْظُر! هل تُصَدِّق عَينَيْك» (Lo and behold)[5]، بدلًا من الموت جوعًا، يتمتّع الهندي بدخلٍ ثابت، ما جعل المصرفيين يحسدونه على ما هو عليه».

أُصيب الناس بالذهول من ازدهار قبيلة الأوساج، إذ كانت لديهم في بادئ الأمر فكرة خاطئة عن الصورة الأوّلية للهنود الحمر والتي تُنسب الى أوّل اتصالٍ وحشي مع البيض، وهي الخطيئة الأصلية التي وُلدت عليها البلاد.

أثار الصحافيون إعجاب قرّائهم بقصصٍ عن «الأثرياء» و«أصحاب الملايين الحمر»[6]، بقصورهم المبنية من الطوب والتراكوتا وبثريّاتهم وبخواتمهم الماسية

ومعاطفهم المصنوعة من الفرو وسيّاراتهم التي يقودها سائق خاص[7]. وقد تأثّر الكاتب بفتيات الأوساج اللواتي درسنَ في أفضل المدارس الداخلية، وارتدين أفضل الملابس الفرنسية الفخمة. «وكأنّ امرأة شابّة جميلة جدًّا من شوارع باريس قد ضلّت طريقها إلى هذه المدينة الصغيرة»[8].

سعى المراسلون في الوقت نفسه إلى إلقاء الضوء على أيّ علامات لطريقة حياة الأوساج التقليدية، فلطالما كانت الفكرة عن بربرية الهنود الحمر راسخة في ذهن كلّ أفراد الشعب. وأشار أحد المقالات إلى «دائرة من السيارات باهظة الثمن تُحيط بنار معسكر مفتوح، حيث أصحاب الألوان البرونزية والأغطية الزاهية يطبخون اللحوم بأسلوبٍ بدائي»[9]. وتمّ أيضًا، توثيق صورة أُخرى لوصول الأوساج - بطائرة خاصة - إلى حفلٍ يؤدّون فيه رقصاتهم، ما جعله مشهدًا «يفوق قدرة الروائي على التصوير»[10]. وقد لُخِّص موقف الناس تجاه الأوساج، عندما ذكرت جريدة «واشنطن ستار» أنّه أصبح من المناسب تحويل الرثاء السابق من[11] «انظرْ! إنّه الهنديّ الأحمر الفقير» إلى «انظرْ! إنّه الهنديّ الأحمر الغني».

كانت غراي هورس واحدة من أقدم المستوطنات في المحمية الهندية الأميركية. هذه البؤر الاستيطانية ومن ضمنها بلدة فيرفاكس المجاورة، والتي يسكنها حوالى 1500 شخص، ويوهوسكا، عاصمة الأوساج، التي يبلغ عدد سكانها أكثر من 6000 شخص - بدت وكأنها رؤى محمومة. وكانت الشوارع مزدحمة برعاة البقر، والباحثين عن الثروة، والمهرّبين، والعرّافين، ورجال الطبّ، والخارجين على القانون، والحرّاس الأميركيين، ومتموّلي نيويورك، وأباطرة النفط. وتسارعَتْ السيّارات على طول مسارات الخيول المرصوفة، وطغت رائحة الوقود على رائحة البراري، وطلّت الغربان من على أسلاك الهاتف. وانتشرت أيضًا المطاعم والمقاهي ودور الأوبرا وحدائق البولو.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ مولي لم تكن تُنفق ببذخٍ، كما فعل بعض جيرانها، بل بَنَت منزلًا خشبيًّا جميلًا في غراي هورس بالقرب من كوخ عائلتها القديم المكوّن من عيدان متشابكة ومغطّاة بلحاء الشجر وحُصر منسوجة. كانت تمتلك سيارات عدّة وكان لديها طاقم من الخدم، لا كبرياء لهم ولا مبادئ، وقد سخر مستوطنون كُثُر من هؤلاء

العمّال المهاجرين. كان الخدم في الغالب من السود أو المكسيكيين، وقد أبدى زائر من المحمية الهندية الأميركية في أوائل العشرينيات من القرن الماضي ازدراءه من رؤية «حتى البيض» يؤدّون «جميع المهام الوضيعة المتعلّقة بالمنزل التي، حتى الأوساج لن يؤدّوها»[12].

كانت مولي الأخيرة من بين الذين رأوا آنّا قبل أن تختفي. في ذلك اليوم، 21 أيار/مايو، استيقظت مولي قُبيل الفجر، وهي عادة متأصّلة فيها منذ أن كان والدها يصلّي كلّ صباح إلى الشمس. كانت مولي متعوّدة على جوقة المروج وعلى طائرِ الطيْطَوَى ودجاج البراري، والتي غطَّت عليها أصواتُ حَفْرِ الأرض. وعلى عكس كثير من صديقاتها، اللواتي تجنّبن ملابس الأوساج التقليدية، حافظت مولي على لفّ بطّانية هندية حول كتفيها. لم تصفّف مولي شعرها بقصّة قصيرة flapper bob، وبدلًا من ذلك، تركت شعرها الأسود الطويل يتدلّى على ظهرها، كاشفًا عن وجهها اللافت للنظر، بعظام وجنتيها المرتفعتين وعينيها البنّيتين الكبيرتين.

نهض معها زوجها إرنست بوركهارت، وهو رجلٌ أبيض يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، ويتمتّع بوسامة ممثلي الشاشة في أفلام الغرب الأميركي، بشعرٌ بنّي قصير، وعينين زرقاوين، وذقنٍ مربّعٍ. لكنَّ أنفه، الذي بدا كما لو أنه تعرّض إلى لكمة أو اثنتين في الحانة، جعل وسامته غير كاملة.

كان إرنست مسحورًا بحكايات تلال الأوساج وذكريات الحدود الأميركية، حيث قيل إنّ رعاة البقر والهنود ما يزالون يتجوّلون فيها. نشأ إرنست في تكساس، لوالدٍ كان مزارع قطن فقيرًا. وفي التاسعة عشرة من عمره، في العام 1912، حزم حقيبته، وغادر منزل والديه وذهب للعيش مع خاله وهو مُربّي ماشية متسلّط اسمه ويليام. ك. هيل، يقطن في فيرفاكس. قال إرنست ذات مرّة عن خاله هيل الذي أصبح والده البديل: «إنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يطلب منك أن تفعل شيئًا»[13]. على الرغم من أنّ إرنست، في الغالب، كان يقوم بمهام لخاله هيل، لكنه كان يعمل أحيانًا سائق أُجرة. وهكذا التقى مولي، حيث كان يقود السيارة بها في جميع أنحاء المدينة.



▬ ▬ ▬ ▬ مولي بوركهارت

مالَ إرنست إلى شرب الويسكي ولعب البوكر الهندية مع رجال سيّئي السمعة، لكنه، على الرغم من خشونته، بدا شخصًا حنونًا، ويملك شيئًا من عدم الطمأنينة، إلّا أن مولي وقعت في حبّه. نشأت مولي تتحدّث لغتها الأم، ولكنها تعلّمت اللغة الإنكليزية في المدرسة؛ ومع ذلك، درس إرنست لغتها الأمّ حتى يستطيع التحدّث معها بأريحية. وكان يعتني بها لأنها كانت تعاني من مرض السكّري، ومن آلامٍ في مفاصلها وضمورٍ في بطنها. وبعد أن سمع أنّ رجلًا آخر كان معجبًا بها، اعترف لها بأنه لا يستطيع العيش من دونها. لم يكن سهلًا عليهما الزواج، فقد سخر أصدقاؤه منه ونعتوه بالـ Squaw Man وهو لفظ عنصري يُطلق على الفتاة الهندية التي تقوم بأعمال الرجال. وعلى الرغم من أنّ أخوات مولي الثلاث كنّ متزوّجات من رجالٍ بيض، فقد شعرت بمسؤولية أن ترتّب زواجها بحسب تقاليد قبيلة الأوساج، كما فعل والدها.

لم تفهم مولي، التي مارست وعائلتها مزيجًا من معتقدات الأوساج والمعتقدات الكاثوليكية، لماذا منحها اللّه الحبّ، ليأخذه منها لاحقًا. لذلك، تبادلت وإرنست الخواتم في العام 1917، وتعاهدا أن يحب كلٌّ منهما الآخر إلى الأبد.



إرنست بوركهارت

ومع حلول العام 1921، كان لديهما ولدان، إليزابيث وعمرها عامان، وابنهما جيمس وعمره ثمانية أشهر ولقبه «كاوبوي». اعتنت مولي أيضًا بوالدتها المسنّة ليزي، التي انتقلت إلى منزلها بعد وفاة والدها. وبسبب مرض السكّري الذي تعاني منه مولي، كانت ليزي تخشى أن تموت ابنتها صغيرة وناشدت بناتها الأخريات رعايتها. وفي الحقيقة، كانت مولي الوحيدة التي اعتنت بهنّ جميعًا.

كان من المفترض أن يكون يوم 21 أيار/مايو يومًا ممتعًا لمولي. كانت تحبّ ترفيه ضيوفها واستضافتهم إلى مأدبة غداء صغيرة، بعد أن ارتدت ملابسها، وأطعمت طفليها. غالبًا ما كان كاوبوي يعاني من أوجاع أذن رهيبة، فكانت تنفخ في أذنيه حتى يتوقّف عن البكاء. حافظت مولي على منزلها مرتبًا بدقّة، وكانت تصدر التعليمات إلى خدمها لهذه الغاية. ضجّ المنزل بحركة الجميع ما عدا ليزي، التي أقعدها المرض في الفراش. وطلبت مولي من إرنست الاتصال بآنّا ليرى إذا كان باستطاعتها المجيء للمساعدة في الاعتناء بليزي على سبيل التغيير. وكونها البكر، كانت آنّا تتمتّع بمكانة خاصة عند والدتها، وعلى الرغم من أن مولي هي من اعتنت بليزي، كانت آنّا، هي الابنة المدلّلة لوالدتها.

عندما أخبر إرنست آنّا أنّ والدتها بحاجة إليها، وعدته بأن تستقلّ سيارة أجرة وتتوجّه إلى هناك مباشرة. عند وصولها كانت آنّا تنتعل حذاءً أحمر، وترتدي تنورة وبطانية هندية متطابقتي اللون، وكانت في يدها محفظة من جلد التمساح. قبل دخولها، مشّطت شعرها، الذي بعثرته الرياح، على عجل، ووضعت البودرة على وجهها. وقد لاحظت مولي، مع ذلك، أن مشيتها كانت غير مستقرّة، وتشابكت كلماتها، فعرفت أنها ثملة.

لم تستطع مولي إخفاء استيائها. وكان قد وصل بعض الضيوف، من بينهم اثنان من إخوة إرنست، برايان وهوراس بوركهارت، انتقلا إلى مقاطعة الأوساج، بحثًا عن الذهب الأسود (النفط)، وكانا غالبًا ما يساعدان الخال هيل في مزرعته. ومن الضيوف أيضًا، واحدة من عمّات إرنست التي أطلقت عباراتٍ وأوصافًا عنصرية عن الهنود، وآخر ما كانت تريده مولي هو أن تستفزّ آنّا العمّة العجوز.

بدأت آنّا في إحداث بلبلة عندما خلعت حذاءها وأخذت قارورة من حقيبتها وفتحتها، وقد فاحت رائحة الويسكي اللاذعة منها. وأصرّت على أنها بحاجة إلى رميها قبل أن تضبطها السلطات - لأنه كان قد مرّ عامٌ على حظر الخمور بحسب القانون - وقد عرضت على الضيوف جرعة ممّا وصفته بأنه أفضل مشروب محظور.

عرفت مولي أنّ آنّا كانت مضطربة للغاية. فقد طلّقت زوجها مؤخّرًا، وهو مستوطن يُدعى أودا براون، وكان يملك شركة سيّارات للأجرة. ومنذ ذلك الحين، باتت آنّا تقضي

وقتها في المحميّة الهندية الأميركية الصاخبة، في بلدات مثل وزبانك، التي كانت مكانًا دائمًا للترفيه، يمضي فيه عمّال النفط وقتهم، حيث قيل، إن الناس يشربون طوال النهار ويمرحون طوال الليل. وأفاد مسؤول حكومي في الولايات المتحدة أنّ «الفجور والانْغِماس في الشهَوات والشرّ موجودة هنا، من القمار، والشرب، والزنا، والكذب، والسرقة والقتل»[14]. وافتتنت آنّا بالأماكن الموجودة في أطراف الشوارع المظلمة، حيث بدت الأبنية فخمة ومرتّبة من الخارج، ولكنها تحتوي على غرف مخفية مليئة بالمشروبات الروحية. وقد أخبر أحد خدّام آنّا السلطات لاحقًا إنها تشرب كثيرًا من الويسكي، «وإنّ أخلاقها منحلّة جدًّا[15] مع الرجال البيض».



مولي (إلى اليمين) مع أختيها آنا (في الوسط) وميني

بدأت آنّا في منزل مولي بمغازلة أخ إرنست الأصغر، برايان[16]، الذي كانت تواعده أحيانًا. كان برايان أكثر غموضًا من إرنست وكان لديه عينان ملوّنتان غامضتان، وشعر رقيق يسرّحه إلى الخلف. ووصفه رجل قانون يعرفه بأنه عامِل في قطاع النفط الخام. وعندما طلب برايان من خادمة في مأدبة الغداء أن تذهب للرقص معه في تلك الليلة، قالت آنّا إنه إذا أَغْوَى امرأة أخرى فسوف تقتله.

كانت عمّة إرنست تتمتم في هذه الأثناء، بصوت عالٍ على مسمع الجميع، كيف كانت مذعورة من أنّ ابن أخيها قد تزوج من الهنود الحمر. وكان من السهل على مولي الرد بمهارة بأنّ أحد الخدم الذين كانوا يساعدون العمّة كان من البيض، وهذا تذكير فظّ بتراتبية النظام الاجتماعي للمدينة.

واصلت آنّا سلوكها العنيف حيث بدأت بمشاجرة الضيوف، ووالدتها، وأختها مولي، وقال أحد الخدم للسلطات في وقت لاحق: «كانت تشرب ولم أستطع فهم لغتها، لكنهما كانتا تتشاجران». وأضاف أيضًا: «لقد أمضوا وقتًا عصيبًا مع آنّا، وكنت خائفًا»[17].

في ذلك المساء، خطّطت مولي لرعاية والدتها، بينما أخذ إرنست الضيوف إلى فيرفاكس، التي تبعد خمسة أميال إلى الشمال الغربي لمقابلة هيل ومشاهدة مسرحية موسيقية متنقّلة Bringing Up Father تحكي عن مهاجر إيرلندي فقير ربح مليون دولار في اليانصيب، وكافح من أجل الاندماج في المجتمع الراقي. كان برايان في تلك الليلة يعتمر قبّعة رعاة البقر، وكانت عيناه الشبيهتان بأعين القطط تطلّان من تحت القبّعة، وقد عرض أن يوصل آنّا الى منزلها.

غسلت مولي ملابس آنّا قبل مغادرتهما وأعطتها بعضًا من الطعام لتأكله، وتأكّدت من محو آثار السكر عنها بحيث يمكنها رؤية أختها بسلوكها المعتاد والمشرق والساحر. وقد ظلّتا سويًّا، وتقاسمتا لحظةً من الهدوء والمصالحة. ثم ودّعت آنّا أُختها بابتسامةٍ أظهرت وميض حشوة ذهبٍ داخل أسنانها.

ازداد قلق مولي مع مرور كلّ ليلة. وقد أصرّ برايان على أنّه أخذ آنّا مباشرة إلى المنزل وأنزلها قبل التوجّه إلى العرض. وبعد مضي الليلة الثالثة دفعت مولي بطريقتها الهادئة ولكن القوية، الجميع إلى العمل، وأرسلت إرنست لتفقّد منزلها. وعند وصوله هزَّ

إرنست مقبض الباب الأمامي الذي كان مغلقًا، وبدت غرف الداخل مظلمة ومهجورة من النافذة.

وقف إرنست وحيدًا هناك في الحرّ. قبل أيّام قليلة، كان المطر قد أزال غبار الأرض، ولكن بعد ذلك أشرقت أشعة الشمس بلا رحمة عبر أشجار السنديان. كانت الحرارة ترتفع في هذا الوقت من السنة، حيث تجعل الحشائش الطويلة تتكسّر تحت الأقدام، ويمكن للمرء أن يرى عن بُعد، ومن خلال الضوء المتلألئ، الأطراف الهيكلية للرافعات.

خرجت خادمة آنّا الوحيدة، التي كانت تعيش في المنزل المجاور. فسألها إرنست: «هل تعرفين أين آنّا؟»[18].

قالَتْ الخادمة إنّها قبل المطر، توقّفَتْ عند منزل آنّا لإغلاق أيّ نوافذ مفتوحة: «فقد اعتقدْتُ أن الماء سيدخل إلى البيت»[19]. ولكنّ الباب كان مغلقًا، ولم يكن هناك أيُّ أثرٍ لها. لقد اختفَتْ آنّا.

انتشرت أخبار غيابها عبر المدن، وانتقلت الأخبار من شرفةٍ إلى شرفة، ومن متجرٍ إلى آخر[20]. وتأجّج القلق عندما أفادت التقارير بأنّ فردًا آخر من قبيلة الأوساج، ويُدعى تشارلز وايتهورن، قد اختفى قبل أسبوع من اختفاء آنّا. كان وايتهورن البالغ من العمر ثلاثين عامًا شابًّا لطيفًا وذكيًا، وكان متزوّجًا من امرأة بيضاء اللون ومن قبيلة شايان[21]. وقد أشارت إحدى الصحف المحلية إلى أنه «كان يتمتّع بشعبية بين كلٍّ من البيض وأفراد قبيلته»[22]. ولقد غادر منزله في 14 أيار/مايو في الجزء الجنوبي الغربي من المحمية إلى پوهوسكا، ولم يعد.

ومع ذلك، كان هناك سببٌ لعدم ذُعر مولي. كان من المتصوَّر أنّ آنّا قد تسلّلت خارج منزلها بعد أن أوصلها برايان وتوجّهت إلى مدينة أوكلاهوما أو عبر الحدود إلى مدينة كانساس المتوهّجة. وربما كانت ترقص في أحد أندية الجاز التي كانت تُحبّ زيارتها، متجاهلةً الفوضى التي تركتها خلفها، وستعود إلى المنزل قريبًا. وحتى إن كانت آنّا قد تعرّضت لمشكلة، فهي تعرف كيف تحمي نفسها، إذ غالبًا ما كانت تحمل مسدّسًا صغيرًا في محفظتها المصنوعة من جلد التمساح. وعليه، طمأن إرنست مولي إلى أنها ستعود إلى المنزل قريبًا.

بعد أسبوع من اختفاء آنّا، كان عامل نفط يقف على تلّة تبعد ميلًا من شمال وسط مدينة پوهوسكا عندما لاحظ شيئًا ما ظاهرًا بالقرب من قاعدة الرافعات. اقترب العامل ووجد جثّة متعفّنة، أُطلقَتْ رصاصتان بين عيني صاحبها كما لو أنه أُعدم.

كان الجو حارًّا ورطبًا وصاخبًا على سفح التلّ. وهزّت المثاقيب الأرض بسبب رواسب الحجر الجيري، وترجّحت مخالب الرافعات الكبيرة ذهابًا وإيابًا. وقد تجمّع أشخاص آخرون حول الجثّة، التي كانت شديدة التحلّل لدرجة أنه كان من المستحيل التعرف إليها، وفي أحد الجيوب كان هنالك رسالة، سحبها للخارج شخصٌ ما، وبدأ بقراءتها. كانت الرسالة موجّهة إلى تشارلز وايتهورن. وهكذا عُرف مكان اختفاء وايتهورن.

في الوقت نفسه، كان رجلٌ يصطاد السنجاب في ثري مايل كريك، بالقرب من فيرفاكس، مع ابنه المراهق وصديقه. وفي حين كان الرجلان يشربان من جدول ماء، رصد الصبي سنجابًا وأطلق النار عليه، وكانت هناك موجة من الحرارة والضوء. راقب الصبي السنجاب وهو يفارق الحياة على حافة وادٍ. وطارده وشقَّ طريقه نزولًا من منحدر شديد إلى مَجرى حيث كان الهواء أكثر كثافة وحيث كانت تُسمع همهمة الجدول. وجد السنجاب والتقطه ثم صرخ: «يا أبي!»، وفي خلال الوقت الذي وصل إليه والده، زحف الصبي على صخرة وأشار نحو حافة الجدول وقال: «هناك شخص ميْت»[23].

كان هناك جسدٌ منتفخ ومتحلّل كما يبدو لامرأة أميركية هندية، كانت ممدّدة على ظهرها، وشعرها ملفوف في الوحل وعيناها الفارغتان متجهتان إلى السماء، والديدان تأكل جثّتها.

هرع الرجلان والصبي من الوادي وانطلقوا بسرعة عبر البراري في عربتهم التي تجرّها الخيول، والغبار يحوم حولهم، وعندما وصلوا إلى الشارع الرئيسي في فيرفاكس، لم يتمكّنوا من العثور على أيٍّ من رجال القانون. توقّفوا عند شركة تُدعى بيغ هيل وهو متجر عام كبير، وأخبروا المالك، سكوت ماتيس، بما حدث، فذهب مع رجال عدّة إلى الجدوَل. وهناك قاموا بدحرجة الجثّة على مقعد عربة وجرى سحبها بالحبال إلى أعلى الوادي، ومن ثمّ وضعوها داخل صندوق خشبي في ظلّ شجرة سنديان.

عندما غطّى متعهّد دفن الموتى الجثّة المتضخّمة بالملح والثلج، بدأت تتقلّص كما لو كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة. وقد حاول متعهّد دفن الموتى تحديد ما إذا كانت المرأة

آنّا براون، التي كان يعرفها، قال: «الجسد كان متحلّلًا ومنتفخًا إلى درجة الانفجار ونَتِنًا»[24]، وأضاف لاحقًا: «كانت الجثّة سوداء مثل زنجي»[25].

لم يتمكّن هو والرجال الآخرون من تحديد هويّة الجثّة. ولكنّ ماتيس، الذي أدار شؤون آنّا المالية اتصل بمولي التي قادت موكبًا حزينًا برفقة إرنست وبرايان، وريتا أخت مولي، وزوج ريتا، بيل سميث نحو الجدول. وتبعهم أناس كُثُر ممّن عرفوا آنّا، ومنهم الفضولي كيلي موريسون، الذي جاء مع زوجته من الأوساج، وهو أحد أشهر مهرّبي المخدّرات وباعة المنشّطات في المقاطعة.

وصلت مولي وريتا واتجهتا نحو الجثّة، وكانت الرائحة كريهةً جدًّا. وكانت الطيور الجارحة تُحلّق بكثافةٍ في السماء. وكان من الصعب على مولي وريتا أن تميّزا وجه آنّا - الذي لم يبقَ منه شيء تقريبًا - لكنهما تعرّفتا على البطّانية الهندية والملابس التي غسلتها مولي لها، ومن ثم أخذ بيل، زوج ريتا، العصا وفتح فمها، وكان بإمكانهم رؤية حشوات آنّا الذهبية. وقال بيل: «هذه آنّا بالتأكيد»[26].

بدأت ريتا بالبكاء، فقادها زوجها بعيدًا. وقالت مولي: «نعم، الجثّة تعود لآنّا». وكانت مولي الوحيدة التي حافظت دائمًا على رباطة جأشها في أسرتها. وعندما غادرت الجدول مع إرنست تركت وراءها أوّل تلميح بالشر، الذي هدّد، ليس بتدمير عائلتها فحسب، ولكن قبيلتها أيضًا.

2 قضاء وقدر أم من صُنع الإنسان؟

أُجري تحقيق الطبيب الشرعي في الوادي[1] على عجلٍ، وتشكّلَتْ لجنة التحقيق من محلّفين يرأسها قاضي الصلح. وكانت التحقيقات تستند إلى زمنٍ كان المواطنون العاديون يتحمّلون إلى حدٍّ كبيرٍ عبء التحقيق في الجرائم والحفاظ على النظام. فقد عارض الجمهور إنشاء إدارات الشرطة لسنوات بعد الثورة الأميركية، خوفًا من أن تُصبح قوىً للقمع. وبدلًا من ذلك، استجاب المواطنون للدعوة إلى مطاردة المشتبه بهم. وأشار قاضي المحكمة العليا بنجامين ن. كاردوزو في إحدى المرّات، إلى أنّ هذه الملاحقات: «لم تجرِ بشكلٍ ضعيف وبخطوات متخلّفة، ولكن بأمانة وشجاعة وبأدوات ومرافق ملائمة وفي متناول اليد»[2]. ولم تظهر إدارات الشرطة في الولايات المتحدة إلّا في منتصف القرن التاسع عشر، بعد انتشار المدن الصناعية واندلاع سلسلة من أعمال الشغب في المناطق الحضرية، وبعد تجاوز الخوف ممّا يسمّى بالطبقات الخطرة من الولاية.

ومع وفاة آنّا، تمّ تجاوز النظام غير الرسمي لحفظ الأمن للمواطنين، ولكن بقاياه ظلت قائمة، لاسيّما في الأماكن التي ما تزال موجودة على هامش الجغرافيا والتاريخ.

واختار قاضي الصلح المحلّفين من بين الرجال البيض في الوادي، بمن فيهم ماتيس، وعيّنوا لتحديد ما إذا كانت آنّا قد ماتت قضاءً وقدرًا، أو كانت جنايةً بشريّة، وكُلّفوا من أجل محاولة التعرّف على ظروف الجريمة وملحقاتها. واستدعيَ طبيبان وهما الأخوان جيمس وديفيد شون، اللذان كانا يعتنيان بأسرة مولي، لإجراء تشريحٍ للجثّة. حيث تفقّدا الجثّة، وحولهما أعضاء من لجنة التحقيق، وبدآ في تشخيصها.

جاء في دليلٍ مهمٍّ للطبّ الشرعي الجنائي في القرن التاسع عشر بأنه: «عندما يعاين الطبيب[3] الجثّة عليه ملاحظة كلّ شيء». فكلّ جثّة تحكي قصّتها الخاصّة. فكِسْر عظمة اللّامِي - وهي عظمة في الرقبة تدعم اللسان - قد يشير إلى أنّ الشخص مات خنقًا. ويمكن أيضًا أن تكشف العلامات الموجودة على العنق كيف جرى الخَنْق، إذا ما

استخدم فيها القاتل يديه العاريتين أم الحبل. حتى أظفار الضحيّة الممزّقة يمكن أن تتحدّث عن صراع مصيري.



الوادي الذي عُثر فيه على جثة آنا براون

قام الطبيبان شون بإعداد لوحٍ خشبي كطاولة مؤقّتة وأخرجا من الحقيبة الطبيّة، بعض الأدوات البدائية، بما فيها المنشار. وانخفضت الحرارة وانتشر الذباب. وفحص الطبيبان الملابس التي كانت آنّا ترتديها - سروالها وتنّورتها - للبحث عن أيّ ثقوبٍ أو بقعٍ غير عادية، ولكنهم لم يجدوا شيئًا، لذلك فقد حاولوا تحديد وقت الوفاة لكن ذلك أصعب ممّا يعتقده البعض خاصة عندما يكون عمر الجثة أكثر من أيامٍ عدّة. اعتقد العلماء في القرن التاسع عشر بأنهم قد حلّوا اللغز من خلال دراسة المراحل التي يمر بها الجسم بعد الموت، من تصلّب الأطراف (صَمَلٌ مَوْتِي) إلى تغيّر درجة حرارة الجثّة (بُرُودَةُ المَوت) وإلى تغيّر لون الجلد من الدم الراكد (الزرقة الرِّمّية) ولكن سرعان ما أدرك علماء الأمراض أنّ كثيرًا من المتغيّرات - من الرطوبة في الهواء إلى نوع الملابس على الجثّة - قد تؤثّر على معدّل تحلّل الجسد للسماح بإعطاء وقت دقيق لساعة الوفاة، ومع ذلك، يمكن تقدير وقت الوفاة التقريبي. لذلك قرر الأخوان شون إعطاء الوقت التقريبي لوفاة آنّا وهو ما بين خمسة أيام إلى سبعة.

قام الطبيبان بتحريك رأس آنّا قليلًا في الصندوق الخشبي. عندها صاح أحدهما «لقد أُطلقت النار عليها!»[4]، وذلك عندما انزلق جزءٌ من فروة رأسها، حيث كُشف عن ثقب دائري تمامًا في الجزء الخلفي من جمجمتها. وأثار هذا الخبر بلبلةً بين الرجال ونظروا عن قرب، فرأوا أنّ محيط الثقب كان بالكاد محيط رصاصة، واعتقد ماتيس أنّ رصاصةً من عيار 8 ملم (0.32 إنش) قد تسبّبت بالجرح، وتتبّع الرجال مسار الرصاصة - حيث دخلت مباشرة إلى أسفل الرأس - ولم يعد هناك شكٌّ بأن موت آنّا جريمة قتلٍ بدمٍ باردٍ.

كان رجال القانون آنذاك ما يزالون هواةً إلى حدٍّ بعيد. ونادرًا ما كانوا يرتادون أكاديميات التدريب أو ينكبّون على تعلّم الطرائق العلمية المستجدّة للكشف عن الجرائم، مثل تحليل بصمات الأصابع وأنماط الدم. وكان رجال القانون، الحدوديين خصوصًا، مقاتلين ومتعقّبين بالدرجة الأولى حيث يُتوقّع منهم ردع الجريمة والقبض على المسلّحين المعروفين، أحياء إذا أمكن، وأمواتًا إذا لزم الأمر. في العام 1928، على أثر وفاة رجل قانون مخضرم كان قد عمل في منطقة الأوساج، جاء في صحيفة تولسا ديلي ورلد: «حينها، كان الضابط هو القانون حرفيًّا، ولم يكن ليقف بينه وبين تنفيذ القتل سوى تقديره والضغط بإصبعه على الزناد. وغالبًا ما انطوى الأمر على مجابهة ما بين فردٍ أعزل وقطيع من الشياطين الماكرة»[5]. وإذ تلقّى رجال القانون هؤلاء أجورًا زهيدة واستُخدموا لسرعتهم في إشهار السلاح، لا غرابة في أن يكون الحجاب الفاصل بين الصالح منهم والطالح ضبابيًّا. فقد شغل زعيم «عصابة دالتون»، وهي مجموعة شائنة من الخارجين عن القانون من القرن التاسع عشر، منصب رجل القانون الأوّل في محمية الأوساج.

وبالتزامن مع مقتل آنّا، كان عمدة مقاطعة الأوساج الذي أخذ على عاتقه الحفاظ على الانتظام العام يدعى هارڤ م. فرياس. كان في الثامنة والخمسين من العمر، ويزن مئة وثلاثة وستين كلغ. جاء في كتاب صدر في العام 1916 عن تاريخ أوكلاهوما وصفٌ لفرايس بأنه «كان مرعب الأشرار»[6]. ولكن كانت هناك أيضًا تمتمات بأنه كان متهاونًا مع بعض العناصر الإجرامية، فقد أطلق العنان للمقامرين والمهرّبين مثل: كيلسي موريسون

وهنري غرامر، الذي كان بطلًا في مسابقات رعاة البقر والذي سُجن لارتكابه جريمة قتلٍ، بالإضافة إلى سيطرته على التوزيع المحلّي لمشروب الويسكي «مون شاين». وقد اعترف أحد عمّال غرامر في وقتٍ لاحقٍ للسلطات قائلًا: «لقد تأكّدت أنه إذا تمّ توقيفي في يومٍ من الأيّام... فسأخرج في غضون خمس دقائق»[7]. وقد أصدرت مجموعة من المواطنين من مقاطعة الأوساج سابقًا قرارًا «نيابةً عن رجال الدين، وإنفاذ القانون، وآداب المنزل، والأخلاق»، ينصّ على أنّ «الأشخاص الذين يعتقدون بأنّ ضابط القانون المُحلّف عليه أن يُنفّذ القانون، مدعوّون بموجب هذا القرار إلى رؤية عمدة المقاطعة فرياس على الفور أو الكتابة إليه، وحثّه على أداء واجبه الذي أقسم على تنفيذه»[8].

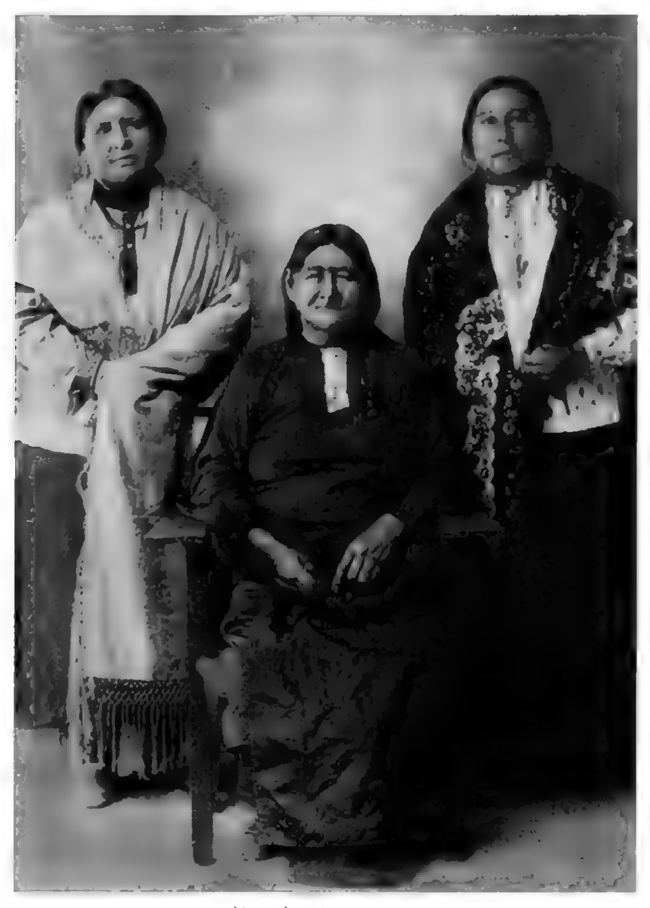
عندما أُبلغ العمدة فرياس بمقتل آنّا، كان منشغلًا آنذاك بجريمة قتل وايتهورن، فأرسل في البداية أحد معاونيه لجمع الأدلة. وكان لبلدة فيرفاكس قائد للشرطة، وهو الذي انضمّ إلى المعاونِ في الوادي بينما كان الأخوان شون يشرّحان الجثّة. ولتحديد سلاح الجريمة، احتاج رجال القانون الرصاصة التي يبدو أنها استقرت في جمجمة آنّا، فنشر الأخوان شون جمجمتها، ثمّ رفعا دماغها بعناية ووضعاه على اللوح الخشبي. ويتذكّر ديفيد شون أنّ: «دماغها كان في حالة يُرثى لها»[9]. فالتقط العصا وتقصّى الدماغ وأعلن أنه لم يعثر على الرصاصة في أيّ مكان.

نزل رجال القانون إلى الجدول لتنظيف مكان جريمة القتل. ووجدوا على صخرة الضفّة بقع دم تشير إلى المكان الذي استقرّ جسد آنّا فيه. ولم يكن هناك أثرٌ لرصاصة، ولكن أحد رجال القانون لاحظ وجود زجاجةٍ على الأرض، كانت مليئة جزئيًا بسائل صافٍ، فاحت منها رائحة مشروب «مون شاين»، وتوقع رجال القانون أنّ آنّا كانت جالسة على الصخرة تشرب عندما جاء شخص من خلفها وأطلق عليها الرصاص من مسافة قريبة ما تسبّب بسقوطها.

اكتشف المارشال آثار إطارات سيارتينٍ قيد التشغيل بين الطريق والوادي، فنادى كلًّا من معاون العمدة وأعضاء التحقيق الذين هرعوا إليه، وبدا الأمر كما لو أنّ كلتا السيّارتين دخلتا إلى الوادي من الجنوب الشرقي، ثم عادتا.

كان رجال القانون غير مدرّبين على طرائق الطبّ الشرعي، ولذلك لم يُجمع أيّ دليل آخر، فهم لم يتركوا انطباعًا عن علامات الإطارات، ولم يتم نفض الغبار عن

الزجاجة بحثًا عن بصمات الأصابع أو حتّى فحص جسد آنّا وبقايا البارود. بل لم يصوّروا حتى مشهد الجريمة الذي في أيّ حال، عبث به أناس كُثُر.



مولي (إلى اليمين) مع أختها آنا ووالدتهما ليزي

على الرغم من ذلك، جلب شخص ما أحد أقراط آنّا إلى والدتها، التي كانت مريضة جدًا لدرجة أنها لم تستطع الذهاب إلى الجدول. وتعرّفت ليزي على الأقراط فورًا. آنّا ماتت، وكما هي الحال مع كلّ الأوساج، كانت ولادة أطفالها أعظم نعمة من واه كون تاه Wah'kon-tah، وهي قوّة الحياة الغامضة التي تتغلغل في الشمس والقمر والأرض والنجوم. وهي أيضًا القوّة التي بنى الأوساج حياتهم حولها لقرون، راجين أن يتحقّق بعض النظام للخروج من الفوضى والاضطراب على الأرض؛ هذه القوّة موجودة وغير موجودة؛ فهي المُستتِرة، والبعيدة، والمعطاءة، والرائعة، وغير المتجاوبة.

تخلّى كثير من الأوساج عن معتقداتهم التقليدية، لكنّ ليزي ظلَّت متمسّكة بها. (واشتكى ذات مرة مسؤول حكومي أميركي من أنّ النساء مثل ليزي «يحافظن على الخرافات القديمة ويسخرن من الأفكار والعادات الحديثة»)[10]. والآن شخص ما، أو شيء ما، أخذ ابنة ليزي الكبرى والمفضّلة قبل ساعتها. وربما كانت هذه علامة على أنّ «واه كون تاه» قد سحب بركاته، وأنّ العالم ينزلق إلى فوضى أكبر. وقد ازدادت صحة ليزي سوءًا، كما لو أنّ الحزن هو المرض بحدّ ذاته.

اعتمدت مولي على إرنست للحصول على الدعم. وأشار محامي يعرفهما إلى أنّ «إخلاصه لزوجته[11] الهندية وأطفاله غير عادي... ومذهل»[12]. فلقد واسى مولي عندما بدأت بتنظيم جنازة آنّا، فكان هناك زهور إلى جانب تابوت معدني أبيض وشاهدة قبرٍ من الرخام. وقد طلب متعهّدو دفن الموتى أجورًا باهظة لجنازة الأوساج، في محاولة لخداعهم، وهذا لم يكن استثنائيًا، فالحانوتي طالب بمبلغ 1450 دولارًا للنعش و100 دولار لإعداد الجسد وتحنيطه، و25 دولارًا أجرة عربة نقل الموتى. وبحلول الوقت الذي تمّ فيه فرز الملحقات، بما في ذلك قفّازات حفار القبور، كانت التكلفة الإجمالية خيالية. وكما قال محامٍ في البلدة: «لقد كان الأمر كذلك حتى لا تتمكّن من دفن هندي من الأوساج بتكلفة أقل من 6 آلاف دولار»[13]. وهو مبلغ يعادل - بعد احتساب معدّلات التضخم - حوالى 80 ألف دولار اليوم.

تم ترتيب الجنازة لتعكس تقاليد الأوساج والتقاليد الكاثوليكية[14]. وكانت مولي قد ذهبت إلى مدرسة تبشيرية في پوهوسكا، وكانت تحضر القدّاس بانتظام، وتحبّ الجلوس في المقاعد وتنظر إلى الضوء الصباحي عبر النوافذ وتستمع إلى موعظة الكاهن، وتحبّ أيضًا الاختلاط بالأصدقاء. كان هناك كثير من الأشياء ليوم الأحد.

بدأت مراسم تشييع آنّا في الكنيسة، وكان وليام هيل، خال إرنست، مقرّبًا من عائلة آنّا ومولي وكان أحد حاملي النعش. وردّد الكاهن نشيدًا إيقاعيًّا من القرن الثالث عشر «يوم الحساب» والذي توّج بالدعاء:

يا يسوع اللطيف والمبارك،

امنح موتنا الراحة الأبدية.

بعد أن رشَّ الكاهن الماء المقدّس على تابوت آنّا، أرشدت مولي عائلتها والمعزّين الآخرين إلى مقبرة في غراي هورس، حيث تقع بقعة هادئة ومنعزلة تطلّ على البراري. ولقد تمّ دفن والد مولي وشقيقتها ميني هناك في قطعة أرضٍ مجاورة، وبجانبهما قبر حُفر حديثًا، رطب ومظلم، في انتظار نعش آنّا، الذي تمّ نقله إلى حافّة موقع القبر. كان شاهد قبرها يحمل نقش «قابلني في السماء». ويتمّ عادةً في المقبرة رفع غطاء التابوت لآخر مرّة قبل الدفن، ما يسمح للأحبّاء بالقول وداعًا. ولكن حالة جسد آنّا جعلت ذلك مستحيلًا. وما أثار قلقهم هو أنهم لم يتمكّنوا من الرسم على وجهها للإشارة إلى قبيلتها وعشيرتها، وهو تقليد في جنازات الأوساج. وإذا لم تحدث طقوس الرَسم هذه، فإنّ مولي تخشى من ضياع روح آنّا. كما قامت مولي وعائلتها أيضًا بوضع ما يكفي من الطعام في النعش لمدّة ثلاثة أيام لآنّا، من أجل رحلتها التي يشير إليها الأوساج بأرض الصيد السعيد.

بدأ المعزّون الأكبر سنًّا، مثل والدة مولي، في تلاوتهم ترانيم صلواتهم، على أمل أن يسمعها «واه كون تاه». وقد وثّق المؤرّخ والكاتب العظيم جون جوزيف ماثيوز (1894 - 1979)، الذي كان نصفه من الأوساج، كثيرًا من تقاليد القبيلة. وكتب في وصفه الصلاة النموذجية: «عندما كنت صغيرًا ملأت روحي بالخوف والحلاوة والمرارة، والشوق الغريب. وعندما انتهت، جلست في نشوة الخوف وكنت أتمنّى بشدّة أن يكون هناك مزيد منها، ومع ذلك كنت خائفًا من أن يكون هناك مزيد. وبدا لي لاحقًا، وبعد أن بدأت أفكر، أنّ هذه الترنيمة المحركة للمشاعر، تدخلني دائمًا في نوبةٍ من الإحباط قبل أن تنتهي»[15].

وقفت مولي مع إرنست أمام المقبرة وكان بإمكانها سماع كبار السنّ يغنّون أغنية الموت التي تتداخل معها أصوات بكائهم. كان أودا براون، زوج آنّا السابق، في حالة ذهول لدرجة أنه وقف بعيدًا. وبالضبط عند الظهر - عند بلوغ الشمس ذروتها، وهي التي تعتبر أعظم مظهر من مظاهر اللغز العظيم - أمسك الرجال بالنعش وبدأوا بإنزاله في الحفرة. وشاهدت مولي النعش الأبيض اللامع وهو يغرق في الأرض حتى استُبدل بالنحيب الطويل المؤلم صوت التراب الذي يُهال على غطاء النعش.

3 ملك تلال الأوساج

سبّب مقتل آنّا براون وتشارلز وايتهورن ضجّة كبيرة. وقد عنونت صحيفة پوهوسكا ديلي كابيتال Pawhuska Daily Capital أنه تمّ اكتشاف قضيتي القتل المنفصلتين[1] في الوقت نفسه، وانتشرت النظريات حول من قد يكون المسؤول. فعندما تمّ انتشال رصاصتين من جمجمة وايتهورن، يبدو أنهما جاءتا من مسدس عيار 0.32، وهو من نوع السلاح نفسه المشتبه به في مقتل آنّا. هل كان مصادفة أنّ كلتا الضحيتين كانتا من أثرياء الهنود، وفي الثلاثينات من العمر؟ أو ربّما كان هذا عمل قاتل متسلسل - مثل دكتور إتش إتش هولمز، الذي قتل على الأقل سبعة وعشرين شخصًا، كثير منهم في خلال العام 1893 في وورلدز فير World's Fair في شيكاغو؟

اعتمدت ليزي على مولي للتعامل مع السلطات. في خلال حياة ليزي، ابتعد الأوساج عن تقاليدهم بشكلٍ دراماتكيّ. وكتب لويس ف. بيرنز، وهو مؤرّخ أوساج أنه بعد اكتشاف النفط، كانت القبيلة «تنحرف إلى عالمٍ غريب»، مضيفًا: «لم يكن هناك شيء مألوف للتشبّث به والبقاء عائمًا في عالم ثراء البيض»[2]. في الماضي، كانت عشيرة الأوساج، والتي تضمّ مجموعة تُعرف باسم المسافرين في الضباب، تأخذ زمام المبادرة كلّما خضعت القبيلة لتغييرات مفاجئة أو تدخّل عوالم غير مألوفة.

شعرت مولي بالحيرة من الاضطرابات حولها في كثير من الأحيان، إلّا أنها استلمت زمام الأمور، وأصبحت المسافرة الحديثة في الضباب، فكانت تتكلّم الإنكليزية وهي متزوجة من رجل أبيض، ولم تستسلم للإغراءات التي أذت كُثُرًا من الأفراد الشباب في القبيلة، بمن فيهم آنّا. ويعتبر بعض الأوساج، ولاسيّما كبار السنّ مثل ليزي، النفط نعمة ملعونة. «يومًا ما سيذهب هذا النفط ولن يكون هناك مزيد من المال كلّ بضعة أشهر من الأب الأبيض العظيم»، وقال رئيس أوساج في العام 1928: «عندما تنعدم السيّارات الفاخرة والملابس الجديدة عندها فقط سأعرف أنّ شعبي سيكون أسعد»[3].

ضغطت مولي على السلطات للتحقيق في مقتل آنّا، ولكن معظم المسؤولين أبدوا اهتمامًا متواضعًا بها اعتبروه «إينجن متوفّى» (إينجن - مصطلح بغيض يُطلق على الأميركيين الأصليّين). لذلك لجأت مولي إلى خال إرنست، ويليام هيل الذي أصبحت اهتماماته التجارية تهيمن على المقاطعة، وأصبح مدافعًا محليًّا قويًّا عن القانون والنظام لحماية ما أسماه «أرواح تخشى الله»[4].

كان لهيل وجهٌ فظّ، وشعرٌ أسود صلبٌ، وعينان يقظتان صغيرتان مجوّفتان، واستقرّ في المحمية قبل عقدين من الزمن تقريبًا. وكأنه النسخة الحقيقية من قصة توماس فوكنرسوتبن، يبدو أنه جاء من العدم، رجلٌ لا ماضي معروف له، وصل إلى الإقليم حاملًا ملابسه على ظهره وكتاب العهد القديم البالي بين يديه. وصفه شخصٌ كان يعرفه جيدًا بأنه «نموذج عن الكفاح من أجل الحياة والثروة في حالة الحضارة البكر»[5].

وجد هيل عملًا كراعي بقر في مزرعة. قبل انتشار القطارات في الغرب، كان يقود رعاة البقر الماشية من تكساس إلى إقليم الأوساج، حيث كانت القطعان ترعى العشب المورق، ومن ثم إلى كانساس، لشحنها إلى المسالخ في شيكاغو ومدن أخرى. غذّت هذه الدوافع الافتتان الأميركي برعاة البقر، ولكن العمل لم يكن سهلًا. كان هيل يكدح ليلًا ونهارًا مقابل أجرٍ زهيد. قاد هيل القطعان عبر العواصف، والبَرَد، والبرق والرمال، ونجا من تدافع الماشية، عندما بدأ بتوجيه الماشية إلى دوائر أصغر قبل أن ترتطم به. وفاحَتْ من ملابسه رائحة العرق والزِبل وتهشّمَتْ بعض عظامه لا بل تكسّرَتْ، ولكنه في النهاية، قام بادّخار واقتراض ما يكفي من المال لشراء قطيع في إقليم الأوساج، ويتذكّر الرجل الذي استثمر في عمله أنّ «هيل رجلٌ من بين أكثر الرجال الذين عرفتهم في حياتي حيوية ونشاطًا، فحتى عندما يعبر الشارع، كان يعبر كما لو أنه يسعى وراء شيء كبير»[6].



وليام هيل يتنافس في مسابقة لربط الماشية بالحبل عندما كان راعي بقر أميركيًا

ولكن سرعان ما أفلس هيل، ومرَّ بفشلٍ مريرٍ أخمد شعلة طموحه، لكنه بعد ذلك بدأ في تجارة الماشية مرّة أخرى. وكان ينام في السهول في كثير من الأحيان، وحده غاضبًا في خيمة معرّضًا للبرد والرياح، ووصفه أحد المراسلين بعد سنوات بأنه: «كان يسير أمام النار مثل حيوان مقيّد. ويفرك بعصبية يديه أمام شعلة النار. كان وجهه إلى حدٍّ ما متوهّجًا من البرد والحماس»[7]. كان يعمل مثل شخص محموم لا يخشى الجوع فقط، بل يخشى غضب الله من العهد القديم وأنه قد يعاقبه مثل أيّوب.

أصبح خبيرًا في وَسْمِ القطعان، ونزع القرون، وإخصاء الحيوانات، وبيع الماشية، وعندما ارتفعت أرباحه اشترى مزيدًا من الأراضي من الأوساج والمستوطنين حتى جمع خمسة وأربعين ألف فدان من أرقى أراضي الرعي في المحافظة. بالإضافة إلى ثروته الصغيرة، وبعد ذلك، ذهب للعمل على نفسه بالطريقة الأميركية المذهلة. فاستبدل ببنطاله الممزّق وقبعة رعاة البقر بدلة أنيقة وربطة عنق وقبّعة من اللبّاد. وكانت عيناه



وهيل بعد التحول إلى سيّد نبيل واقفا مع ابنته وزوجته

تتطلعان من خلال نظارة ذات إطار دائري مميّز. وتزوّج من معلمة وأنجب منها ابنته التي تعشقه. وبدأ بإلقاء الشعر أيضًا. وصف پاوني بيل الأسطوري وهو نجم عروض أفلام الغرب وشريك بوفالو بيل، هيل بأنه «سيّد نبيل وراقٍ»[8].

عُيّن نائب عمدة احتياطيًّا في فيرفاكس، وكان المنصب شرفيًّا، ولكنه خوّله حمل شارة وقيادة مجموعة مسلّحة، واحتفظ في بعض الأحيان بمسدس واحد في جيبه الجانبي وآخر على خاصرته وهما يرمزان، كما يقول، إلى سلطته كضابط للقانون.

مع نمو ثروته وسلطته سعى السياسيون إلى دعمه، وكانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون الفوز من دون مباركته. كان هيل الأكثر دهاء بين منافسيه، وبسبب ذلك كان له أعداء كثر من الذين أرادوا موته، فقد اعترف أحد الأصدقاء بأن «بعضهم كانوا يكرهونه»[9]، واعتبرته مولي بوركهارت مع كثر غيرها، أنه أكبر متبرّع لمقاطعة الأوساج، فقد كان أوّل من ساعد الأوساج قبل أن يكتشفوا النفط، متبرّعًا بالمال للجمعيات الخيرية والمدارس والمستشفيات، وكان يوقّع رسائله كالاتي «القس دبليو ك. هيل» كونه الواعظ في المقاطعة. وقال طبيب محلي: «لم أستطع تذكّر عدد المرضى الذين تلقوا عناية طبية على نفقته ولا كيف أُشبعت أفواه جائعة كثيرة بفضله»[10]. وكتب هيل لاحقًا رسالة إلى مساعد زعيم القبيلة، قائلًا: «الأوساج هم أفضل الأصدقاء في حياتي.... سأكون دائمًا صديقهم الحقيقي»[11]. في هذه البقيّة من الحدود الأميركية تمّ تبجيل هيل باعتباره «ملك تلال الأوساج».

تردّد هيل كثيرًا إلى منزل مولي لاصطحاب إرنست، وظهر بعد وقت قصير من دفن آنّا، لتعزية مولي ووالدتها، وتعهّد بإحقاق الحق لآنا.

بمعرفة الواثق والعارف بأسرار عالم البيض، العالم الغامض للبيض (فهو غالبًا ما كان يضع دبّوسًا مرصّعًا بالماس من مَحْفلٍ ماسُونِيّ)، لا يبدو مهمًّا أنّه لم يؤدِّ دورًا رسميًا في التحقيق بجريمة القتل. فكما ذكر أنه هو وآنّا «كانا صديقين وفيين»[12]، ولطالما أعرب عن عاطفته تجاهها. وفي خلال زيارته الأخيرة، كان بإمكان مولي رؤيته هو وإرنست، يتحدّثان عن مطاردة قاتل أُختها أيًّا يكن.

واصل فريق قاضي التحقيق الجنائي التحقيق جنبًا إلى جنب مع المدّعي العام في المقاطعة، في قضية وفاة آنّا، وبعد فترة وجيزة على دفنها، ذهبت مولي للإدلاء بشهادتها

في جلسة استماع في فيرفاكس في مكتب وزارة الداخلية للشؤون الهندية - المشرف على العلاقات الحكومية مع القبائل، وقد أعيد تسميته لاحقًا بمكتب الشؤون الهندية - كان لديهم وكيل ميداني مخصّص لإقليم الأوساج يعرف مولي. قال إنها كانت «راغبة في أن تفعل كلّ ما في وسعها من أجل... جلب المذنبين إلى العدالة»[13]. وفّرت السلطات مترجمًا لمولي، ولكنها أشارت له بالتوقّف، وتحدّثت بلغة إنكليزية مقتضبة، كما تعلّمتها وهي صغيرة من الراهبات.

وصفت مولي للمحلّفين المرّة الأخيرة التي زارتها فيها آنّا في منزلها، وقالت: «إنها غادرت عند غروب الشمس». وبدأ مسؤول حكومي بطرح الأسئلة عليها:

- كيف ذهبت؟

- ذهبت بالسيّارة.

- من كان معها؟

- برايان بوركهارت.

- هل لاحظتِ في أيّ اتجاهٍ ذهبا؟

- نحو فيرفاكس.

- هل كان يوجد أيّ شخص آخر في السيّارة مع برايان وآنّا؟

- لا، فقط برايان وآنّا.

- هل رأيتها مرّةً أخرى قبل وقوع الجريمة؟

بقيت مولي ثابتة، وقالت: «لا».

- وهل رأيت جثّتها بعد العثور عليها؟

- نعم.

- كم مرَّ من الوقت عندما رأيتها تغادر مكان والدتك مع برايان بوركهارت؟

- حوالى خمسة أو ستة أيام.

- أين رأيتِ الجثّة؟

- في المرعى... هناك![14]

بدت مولي حريصة على الإجابة على كلّ أسئلة المحقّق، للتأكّد من عدم تفويت أيّ شيء، وبالكاد سألها القاضي والمحلّفون أيّ شيء. وربّما قاموا بذلك عن قصد بسبب إجحافهم؛ لأنها امرأة ولأنها من الأوساج. ولقد استجوبت اللجنة بعمق أكثر برايان بوركهارت، الذي بدأ كثير من السكان المحليين بالشكّ فيه؛ خاصّةً أنه كان آخر شخص شوهِد مع آنّا قبل أن تختفي.

افتقر برايان إلى المظهر الجميل كأخيه إرنست، زوج مولي، وكان هناك شيء بارد حول مظهره؛ كانت عيناه ثابتتين بشكل غير مريح. وذات مرّة قبض عليه هيل وهو يسرق من منزله ماشية. ولتعليم ابن أخته درسًا، اشتكى عليه عند السلطات.

سأل المدّعي العام في المقاطعة برايان عن اليوم الذي قال فيه إنه أوصل آنّا إلى منزلها.

- عندما أوصلتها، إلى أين ذهبت؟

- ذهبت إلى المدينة

- متى كان الوقت؟

- حوالى الساعة ٥ أو ٤:٣٠.

- ألم ترها منذ ذلك الحين؟

- لا، سيدي.

وتوقف المدّعي العام بعد فترة وسأله: «هل أنت متأكّد».

- نعم، سيدي[15].

تمّ استجواب إرنست أيضًا في جلسة استماع لاحقة، وضغط عليه أحد مسؤولي إنفاذ القانون بشأن أخيه: «هل تفهم أنه هو آخر شخص شُوهد مع هذه المرأة، آنّا براون؟»

أجاب إرنست: «أنا أفهم»، مضيفًا أنّ برايان قال له إنه تركها في منزلها، هذه قصته.

- هل تصدّق ذلك؟

- نعم، سيدي[16].

احتجزت السلطات برايان بعد الجلسة الأولى. ولسوء حظ مولي، احتجزت إرنست أيضًا، في حال كان يتستّر على أخيه الأصغر. لكن سرعان ما تمّ إطلاق سراحهما بسبب عدم وجود دليل كافٍ على تورط برايان، بخلاف حقيقة أنه هو آخر شخص كان مع آنّا قبل أن تختفي. وعندما سُئل إرنست عمّا إذا كان لديه أيّ معلومات حول كيف لاقت آنّا حتفها؟ قال: «لا»، مضيفًا: «لا أعرف أعداءً لها أو أيّ شخص آخر يكرهها».

كانت النظرية السائدة أنّ قاتلها جاء من خارج المحمية، وهم من كانوا أعداء القبيلة الذين تمت محاربتهم في السهول، والآن جاءوا في شكل لصوص مسلحين وعنيفين وعدائيين. لم يؤدِّ إقرار الحظر إلّا إلى تفاقم شعور الإقليم بالخروج على القانون من خلال تشجيع الجريمة المنظّمة. وعلى حد تعبير أحد المؤرخين «خلق أعظم صفقة إجرامية في التاريخ الأميركي»[17].

لم يكن هناك كثير من الأماكن الفوضوية في البلاد على غرار مقاطعة الأوساج، حيث تجلّت الرموز العرفية للغرب والتقاليد التي ربطت المجتمعات. وبحسب ما قيل، فقد تجاوزت مداخيل النفط القيمة الإجمالية لمداخيل فورات الذهب في الغرب القديم، وجذبت هذه الثروة كلّ أنواع الأشرار والأوغاد من جميع أنحاء البلد. وحذّر مسؤول في وزارة العدل الأميركية من ذلك، بحيث أنّ غالبية المطارَدين المتوارين موجودون في تلال الأوساج، «ربّما أكثر من أيّ مقاطعة أخرى في الولاية أو أيّ ولاية في الاتحاد»[18].

كان من بين الرجال، العنيد إيرفين طومسون الذي كان معروفًا باسم بلاكي، ربّما بسبب بشرته الداكنة. (كان ينحدر من سلالة شيروكي الهندية) أو ربّما بسبب قلبه المظلم. فقد وصفه أحد رجال القانون بأنه «أقسى رجل تعاملت معه على الإطلاق»[19]. والأكثر شهرة كان آل سبنسر، أو ما يُسمى بطَيف الإرهاب، وهو الذي انتقل في طريقة هروبه بعد ارتكابه جرائمه من الخيول الراكضة إلى السيّارات السريعة، وورث عن جيسي جيمس لقب الخارج عن القانون الأكثر شهرةً في المنطقة. ذكرت جريدة أريزونا ريببليكن Arizona Republican أنّ سبنسر، «بعقله المريض وحبّه المضلِّل للمغامرة»، أَعجَب «جزء من سكان البلاد الذين يتابعون أخبار المُثُل العليا المزيّفة»[20]. وقد صُنِّف أعضاء عصابته، بمن فيهم ديك غريغ وفرانك «جيلي» ناش، بأنهم من بين أخطر الخارجين على القانون في ذلك الزمن.

رجال القانون يستولون على جهاز تقطير مشروب الويسكي «مون شاين» في مقاطعة الأوساج في العام 1923

أعضاء عصابة آل سبنسر يحتجزون آخرين من مجموعتهم بهدف المزاح

كانت النظرية المثيرة للاضطراب حول وفاة آنّا هي أنّ القاتل يعيش بينهم كالحمل الوديع. وبدأت مولي وآخرون في إثارة الشكوك حول زوج آنّا السابق، أودا براون الذي زَعَم أنه رجل أعمال، لكنه قضى معظم وقته بالشرب والمرح. وبالعودة إلى الأحداث الماضية، بدا أسلوبه المضطرب دراميًّا انفعاليًّا. كتب محقّق في مذكراته: «ربّما كان هذا حزنًا حقيقيًّا أو.. للتأثير»[21]. بعد أن طلّقته آنّا، حرمته من الميراث، وتركت كلّ ثروتها تقريبًا لامّها ليزي. كلّف براون محاميًا، وحاول من دون جدوى الطعن في الوصية. وخلص المحقّق إلى أنّ براون: «إنسان، ومستعد لفعل أيّ شيء تقريبًا من أجل المال»[22].

بعد أسابيع عدة من الجنازة، اعتُقل رجل في كانساس لتزويره الشيكات، وقد أرسل رسالة إلى العمدة فرياس مدّعيًا أنّ لديه معلومات بخصوص مقتل آنّا.

كتب، «السيد المحترم، أرجو أن أكون عونًا لك». لكنه لم يفشِ ما كان يعرفه. ومع ذلك، وعند تلقّي الرسالة، انطلق العمدة في ما وصفته الصحافة كـ «سيّارة سريعة». وهيل الذي أُبلغ بشأن الاختراق المحتمل، هرع إلى السجن كذلك. ادّعى المزوّر في أثناء الاستجواب، وهو رجل صعب المراس يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، أنّ براون دفع له 8 آلاف دولار لقتل آنّا. ووصف كيف أطلق عليها النار في رأسها، وكيف حمل جسدها بين ذراعيه وأنزلها إلى الجدول[23].

قام عدد من رجال القانون بعد فترة وجيزة من اعترافه بإلقاء القبض على براون عندما كان في پوهوسكا للعمل.

عنونت پوهوسكا ديلي كابيتال Pawhuska Daily Capital الخبر: اعتراف قاتل آنّا براون بالجريمة. وأضافت: «كما تمّ اعتقال أودا براون زوج المرأة»[24].

شعرت مولي وعائلتها بالدمار من فكرة أنّ أودا كان مسؤولًا عن مقتل آنّا، لكن فكرة مواجهة العدالة واستهم، ربّما من خلال حبل المشنقة أو الكرسي الكهربائي. لكن في غضون أيام، اعترفت السلطات بعدم وجود دليل يدعم مزاعم المزوّر، ولا يوجد دليل على أنه كان في مقاطعة الأوساج وقت الجريمة، أو أنّ براون قد اتّصل به في أيّ وقت من الأوقات. لم يكن لدى السلطات خيار سوى الإفراج عن براون. نُقل عن العمدة قوله: «الكلام كثير، ولكن ينقصنا الدليل، الكلام وحده لا يكفي»[25].

كان المدّعي العام في المقاطعة مدينًا بانتخابه لهيل، جزئيًّا على الأقل، مثل كُثر من المسؤولين. عندما ترشّح للمنصب للمرّة الأولى، أخبره مستشاروه أنه يجب عليه الحصول على تأييد هيل، فقام برحلات عدّة إلى مزرعة هيل. لكنه لم يستطع العثور عليه مطلقًا. وأخيرًا قال له مفتّش الماشية: «إذا أردت رؤية بيل هيل، يجب عليك أن تصل إلى مزرعته باكرًا، وأقصد باكرًا جدًّا»[26]. لذا، في الثالثة صباحًا، أوقف المحامي سيّارته الفورد طراز T (Model T) في المزرعة ونام في السيّارة. لم يمضِ وقت طويل حتى أيقظه رجل شرس يدقّ على نافذته، طالبًا معرفة لماذا يتعدّى على ممتلكات الآخرين؟

كان هذا الشخص هو ويليام هيل، فشرح المحامي الهدف من مجيئه. وأدرك هيل أنه يعرف والدي المحامي، اللذين قاما بإيوائه ذات مرّة في أثناء عاصفة ثلجية. ووعد هيل بأن يوجّه التصويت لصالحه. وأشار أحد مستشاري المحامي إلى أنّ هيل «لا يكذب على أحد، وإذا قال إنه سيفعل شيئًا ما، فسيفعله»[27]. في يوم الانتخابات، حصد المحامي كل أصوات المقترعين في تلك المنطقة من المقاطعة.

ظلّ هيل مقرّبًا من المدّعي العام في المقاطعة وتشاور معه ومع مسؤولين آخرين بشأن مقتل آنّا. في النهاية، قرّر المدّعي العام في المقاطعة البحث مرّة أخرى عن الرصاصة، الأمر الذي استعصى على الأطبّاء الشرعيين في أثناء تشريح جثّة آنّا. استحصل على أمر من المحكمة من أجل استخراج جثّة آنّا المدفونة.

طُلب من سكوت ماتيس، وهو صاحب شركة تجارية وصديقًا لهيل ومولي، الإشراف على المَهمّة المروّعة، وذهب إلى المقبرة ومعه الحانوتي وحفّار القبور. لم يكن العشب على ضريح آنّا قد نما. وبدأ الرجال في حفر التراب بمجارفهم، ثم مدّوا أيديهم للأسفل ورفعوا النعش الذي كان أبيض في يوم من الأيّام، وأصبح الآن أسود، وفتحوا الغطاء بالقوّة وفاحت رائحة فظيعة، كأن الموت نفسه قد ملأ الهواء.

ظهر في المقبرة الأخوان شون اللذان أجريا أوّل تشريح للجثّة. جدّدا بحثهما عن الرصاصة. هذه المرّة لبس الأخوان قفّازات. أمسكا ساطورًا وفصلا رأس آنا عن جسدها «كأنه قطعة من النقانق»[28]، كما وصف المشهد متعهّد دفن الموتى لاحقًا، ولكن، مرّةً أخرى، لم يجد الأخوان شيئًا. يبدو أنّ الرصاصة قد اختفت.

أوقف قاضي الصلح تحقيقاته في تموز/يوليو من العام 1921، وخلص إلى أنّ وفاة آنّا براون حصلت «على أيدي أطراف مجهولة»[29]، الخلاصة نفسها التي تمّ الوصول إليها في قضية وايتهورن. احتفظ القاضي بالأدلّة القليلة التي جمعها، في حال ظهرت معلومات جديدة.

في غضون ذلك، كانت ليزي - التي امتلكت سابقًا الطاقة والعزيمة نفسها مثل مولي - قد اشتدّ المرض عليها. وبدت كأنها تنجرف بعيدًا كلّ يوم، لتصبح واهية؛ كان الأمر كما لو كانت تعاني من مرض الهزال الغريب نفسه الذي أصاب ميني.

لشدة يأسها، لجأت مولي إلى المعالجين الروحانيين في قبيلة الأوساج الذين كانوا يرفعون أناشيدهم إلى سماء الشرق متى تلوّنت بالأحمر القاني. ولجأت إلى الأخوين شاون وهما من الجيل الجديد للأطباء الذين حملوا عقاقير الأدوية التي صنعوها في حقائب سود. ولم يفلح شيء على ما بدا.

أبقت مولي عينها ساهرة على والدتها التي كانت أحد الأوتاد الأخيرة التي أبقت على نمط حياة أسلاف القبيلة قائمة. وإن لم يكن بإمكانها شفاء أمّها، فإنها تمكّنت من إطعامها وتسريح شعرها الفضي الطويل الجميل وردّه عن وجهها. وجهٍ خطّطته التجاعيد وعلته التعابير، وجهٍ لمّا تزل هالته ظاهرة.

في أحد أيام شهر تموز/يوليو، بعد أقل من شهرين من مقتل آنّا، توقّفت ليزي عن التنفّس، ولم تستطع مولي إحياءها. أُخذت روح ليزي إلى يسوع المسيح، الربّ والمخلّص، ومن قِبل واه كون تاه، اللغز العظيم. غرقت مولي في حزنها، وردّدت صلاة الحداد الخاصة بالأوساج:

ارحميني أيتها الروح العظيمة!

هل ترين، أنا أبكي إلى الأبد،

جفّفي عيني وامنحيني الراحة[30].

كان بيل سميث، صهر مولي، من أوائل الذين تساءلوا عمّا إذا كان هناك شيء يثير الفضول بشأن وفاة ليزي. فبعد وقت قصير من مقتل آنّا ووايتهورن، أعرب بيل عن إحباطه العميق من التحقيق الذي أجرته السلطات، وقد بدأ التحقيق بنفسه. ومثل مولي، أذهله الغموض الغريب لمرض ليزي. لم يحدّد أيّ طبيب السبب، وفي الواقع، لم

يكشف أحد عن أيّ سبب طبيعي لموتها. وكلّما بحث بيل، وتشاور مع الأطبّاء والمحقّقين المحلّيين، تأكّد من أنّ ليزي ماتت ميتة غير طبيعية وبطريقة مخيفة. لقد سُمِّمت. وتأكّد بيل من أنّ الوفيّات الثلاث جميعها مرتبطة - بطريقة ما - بـخزان الأوساج الجوفي من الذهب الأسود.

═════

4 محميّة تحت الأرض

كانت مولي، عندما اكتُشف النفط للمرّة الأولى وتدفّق المال فجأة وبسرعة جنونية[1]، في العاشرة من عمرها. وشهدت عن كثب الجنون الذي أعقب ذلك. اعتمد شيوخ القبيلة على مولي، لحفظ التاريخ المعقّد لسيطرة القبيلة على هذه الأرض الغنية بالنفط في القرن السابع عشر، عندما استولى الأوساج على معظم الجزء المركزي من البلد، وهو إقليم يمتدّ ممّا يُعرف الآن بولاية ميسوري وكانساس إلى أوكلاهوما، وإلى أقصى الغرب، وصولًا إلى سلسلة جبال روكي.

اشترى الرئيس توماس جيفرسون إقليم لويزيانا من الفرنسيين في العام 1803، وهو الإقليم الذي يحتوي على الأراضي التي يسيطر عليها الأوساج. وأبلغ جيفرسون سكرتيرته في البحرية «أنّ الأوساج أمّةٌ عظيمةٌ، وأنه يجب أن يكون لدينا موقف شجاعٌ، لأننا ضعفاء في أرضهم وبائسون»[2]. والتقى وفدٌ من شيوخ الأوساج الرئيس جيفرسون في البيت الأبيض في العام 1804، وقد أخبر وزير البحرية أنّ الأوساج عادةً ما يكون طول محاربيهم أكثر من ست أقدام مضيفًا: «كانوا أفضل الرجال الذين رأيتهم على الإطلاق»[3].

خاطب جيفرسون الشيوخ في الاجتماع، بكلمة «أبنائي»، وقال: «لقد مضى وقتٌ طويل على الأحداث التي حصلت في الماضي بين أجدادنا. وقد أصبحت الآن طيَّ النسيان، ويبدو أنّ هذه الأرض نمت وازدهرت مثلكم تمامًا... نحن جميعًا الآن أسرة واحدة». وتابع: «عند عودتكم أخبروا شعبكم أني مرشدهم وأبوهم، وأنّ أمّتنا لن تعرفنا إلّا كأصدقاء ومحسنين»[4].

في غضون أربع سنوات، أجبر جيفرسون الأوساج على التخلّي عن أراضيهم بين نهر أركنساس ونهر ميسوري. وصرح رئيس الأوساج أنّ شعبه «لا خيار له، إمّا أن يوقّع على المعاهدة وإما أن يكون عدوًّا للولايات المتحدة»[5]. أُجبروا على التخلّي عن حوالى مئة مليون فدّان على مدى العقدين التاليين من أرض أسلافهم الأوساج، ووجدوا ملجأً

في نهاية المطاف في منطقة مساحتها 16 ألف كلم[2]، عرضها 80 كم وطولها 200، في جنوب شرق ولاية كانساس. وكان هذا هو المكان الذي بلغ فيه والد مولي ووالدتها سن الرشد.

وُلِد والد مولي حوالى العام 1844 وهو شابٌّ من الأوساج، ويُدعى وني كاه إيسي. كان يرتدي عادةً طِماقًا مهدّبًا وينتعل جزمة موكاسّان من جلد الغزال؛ ويضع على وسطه حزامًا منسوجًا يحمل كيس التبغ الخاص به ويحمل في يده فأس توماهوك. وغالبًا ما كان صدره عاريًا، ورأسه محلوقًا، باستثناء قطعة من الشعر تمتد من تاج الرأس إلى رقبته، وكانت منتصبة، مثل قمّة خوذة مقاتلي إسبارطة.مكتبة سُر مَن قرأ

دافع وني كاه إيسي إلى جانب محاربين آخرين عن القبيلة من الهجمات، وقبل التوجّه إلى المعركة كان يرسم وجهه بالفحم الأسود ويصلّي إلى واه كون تاه، مؤكّدًا أنّ الوقت قد حان، على حد تعبير الأوساج، «لجعل جسد العدو مضرّجًا بالدماء على الأرض». وعندما كبر وني كاه إيسي، وهو المعروف بحكمته واتزانه، أصبح شخصية بارزة في القبيلة، من خلال قدرته على دراسة كلّ حالة قبل اختيار مسار العمل. وعندما أنشأت القبيلة بعد سنوات، أوّل نظام قضائي لها، وهو نظام يقضي معظمه في جرائم بسيطة، انتُخِب واحدًا من القضاة الثلاثة.

نشأت ليزي[6] أيضًا في المحمية في كانساس، حيث كانت تساعد في إعالة أسرتها، بحصاد الذرة وبجرّ الخشب من المسافات البعيدة. وكانت تنتعل جزمة موكاسّان، وترتدي طماقًا، وتنّورة من القماش، وتضع بطّانية حول كتفيها، وتصبغ جزءًا من منتصف شعرها باللون الأحمر، رمزًا إلى طريق الشمس. ووصفها وكيل الشؤون الهندية لاحقًا بأنها «مجتهدة» و«شخص خلوق»[7].

عندما كانت ليزي ووني كاه إيسي صغيرين، كانت عائلتاهما وبقية أفراد القبيلة يحزمون قليلًا من ممتلكاتهم كالملابس، والفراش، والبطّانيات، والأواني، واللحوم المجفّفة، مرّتين في السنة، وينطلقون بخيولهم في شهرين مقدّسين لصيد الجواميس. عندما ترصد المجموعة الاستكشافية قطيعًا، يتسابق وني كاه إيسي والصيّادون الآخرون على خيولهم عبر السهول، وكانت حوافر الخيول تقرع الأرض مثل الطبول، وأَعْرافُ الفرَس تضرب على وجوه الرجال اللامعة. وقال طالب طبّ فرنسي رافق القبيلة في رحلة

صيد في العام 1840: إنّ «السباق لا يرحم.... بمجرّد الوصول إلى الحيوان البِيسُون، يحاول الحيوان الهرب في اتجاهٍ آخر، كي يخدع عدوّه؛ وعندما يرى نفسه محاصرًا، يغضب وينقلب ضد المعتدي عليه»[8].

كان وني كاه إيسي يرسم قوسه وسهمه بهدوء. ويعتبر الأوساج هذه الطريقة أكثر فعالية من الرصاصة. ويتذكّر طالب الطبّ جروح حيوان البيسون القاتلة، «يتقيأ الوحش دمًا ويسقط على ركبتيه قبل أن يقع على الأرض»[9]. وبعد قطع الذيل - تذكارًا للمنتصر- يُستفاد من كلّ جزء في البيسون: اللحم يجُفّف، والقلب يُدخَّن، والأمعاء تُصنع نقانق. والزيوت من دماغ البيسون تُفرك على الجلد الذي يتحوّل بعد ذلك إلى أغطية جلدية وأغطية للنُّزُل. وما يزال هناك مزيد ليُستفاد منه: تتحوّل القرون ملاعق، والشعر أوتارًا للأقواس، والشحم وقودًا للمشاعل. عندما سُئل رئيس الأوساج لماذا لا يتبنّى طريقة الرجل الأبيض السريعة، قال: «أنا راضٍ تمامًا عن ظروفي. توفّر الغابات والأنهار جميع دعوات الطبيعة بكثرة»[10].

أكّدت الحكومة الأميركية للأوساج أنّ أراضي كانساس ستبقى موطنهم إلى الأبد، ولكن بعد فترة طويلة أصبحوا تحت حصار المستوطنين. وكان من بينهم أسرة لورا أنغلز وايلدر التي كتبت لاحقًا «منزل صغير على المرج» (Little House on the prairie)، وهو كتاب يروي تجاربها. تسأل لورا والدتها في أحد المشاهد:

- لماذا لا تحبّين الهنود، أماه؟

- لا أحبّهم فحسب؛ ولا تلعقي أصابعك، لورا.

- هذا البلد للهنود، أليس كذلك؟ لماذا جئنا إلى بلدهم، إذا كنت لا تحبّينهم؟

أوضح والد لورا لها في إحدى الأمسيات أنّ الحكومة ستجعل الأوساج يرحلون قريبًا: «لهذا السبب نحن هنا، لورا. سوف يستقرّ البيض في كلّ أرجاء هذا البلد، وسنحصل على أفضل قطعة أرضٍ، لأننا وصلنا إلى هنا أولًا، وسوف نختار ما يحلو لنا»[11].

وبالرغم من ذلك، ذُكر في الكتاب، أنّ عائلة أنغلز تركت المحميّة تحت تهديد الجنود بإزالتهم. بدأ كثير من المحتلّين أخذ الأرض بالقوة. في العام 1870، طُرد الأوساج من مساكنهم، ونُهبت قبورهم، فوافقوا على بيع أراضيهم في كانساس للمستوطنين مقابل 1.25 دولار للفدان. ومع ذلك، فقد ذبح المستوطنون كثيرًا من الأوساج وشوّهوا

أجسادهم وسلخوها عندما نفد صبرهم. وقال أحد وكلاء شؤون الهنود الحمر: «السؤال هنا يطرح نفسه، من هم المتوحشون بين هذين الشعبين؟»[12]

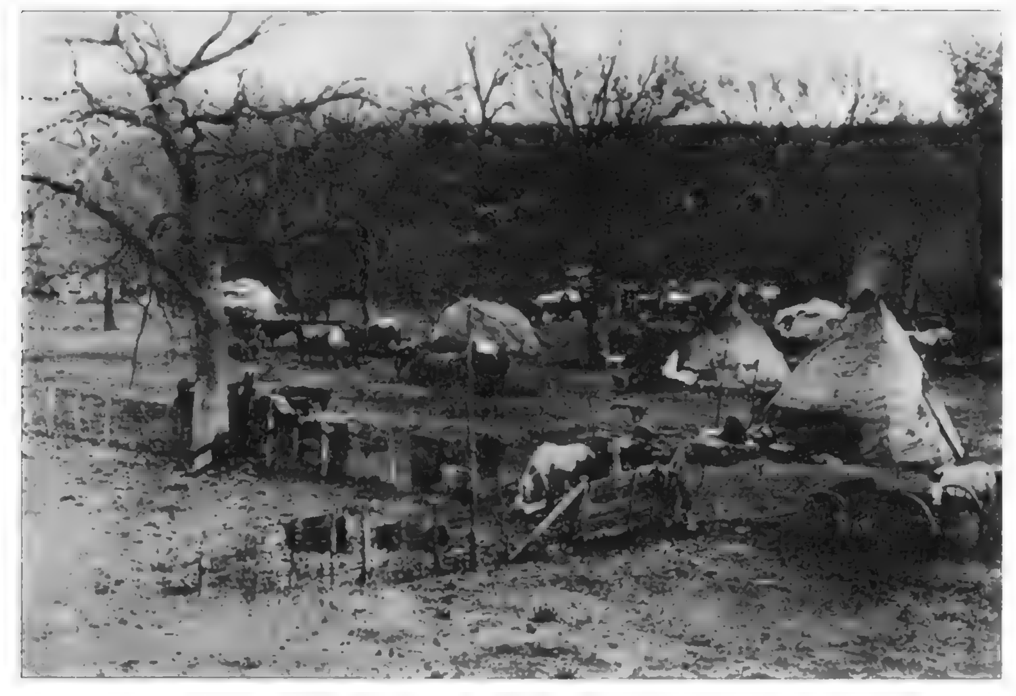
بحث الأوساج عن وطنٍ جديدٍ. وناقشوا شراء ما يقرب من 1.5 مليون فدان من قبيلة الشيروكي في ما كان يُعرف آنذاك بالإقليم الهندي - وهي منطقة تقع جنوب كانساس أصبحت نقطة النهاية على درب الدموع لقبائل كثيرة طُردت من أراضيها. تطلّع الأوساج إلى منطقة غير مأهولة وهي أكبر من ولاية ديلاوير، وقال أحد وكلاء شؤون الهنود الحمر: «إنّ معظم البيض اعتبروا أنّ الأرض مكسورة وصخرية وعقيمة ولا تصلح للزراعة»[13] .

وقف رئيس الأوساج واه تي آن كاه في المجلس، وقال: «سيكون شعبي سعيدًا في هذه الأرض. الرجل الأبيض لا يستطيع وضع الحديد في الأرض هنا. لن يأتي الرجل الأبيض إلى هذه الأرض. هناك كثير من التلال هنا... الرجل الأبيض لا يحب بلدًا فيه تلال»[14]. واستطرد قائلًا: «إذا ذهب شعبي إلى الغرب حيث الأرض مسطّحة مثل أرضية الكوخ، سيأتي الرجل الأبيض إلى محافلنا ويقول: نريد أرضك.... لن تبقى أراضٍ لشرائها قريبًا ولن يكون لدى الأوساج موطن». اشترى الأوساج الأرض مقابل سبعين سنتًا للفدان.

وفي أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر بدأوا الهجرة الجماعية، وقال شاهد عيان: «كان الهواء صاخبًا بصرخات كبار السنّ وخاصةً النساء اللواتي ندبنَ فوق قبور أبنائهنَّ لأنهنَّ على وشك الرحيل إلى الأبد»[15]. بدأ أفراد القبيلة بعد وصولهم إلى المحميّة الجديدة ببناء مخيمات، وأهمها في پوهوسكا حيث أقام مكتب الشؤون الهندية[16] بناءً ضخمًا من الحجر الرملي لمكتبه الميداني على قمة تلة بارزة. وفي الجزء الغربي من الإقليم، أُنشِئت بلدة غراي هورس، وهي أكبر مجموعة من الأكواخ المبنية حديثًا. وهنا استقرّ وني كاه إيسي وليزي، وتزوّجا في العام 1874.

كان لسلسلة الهجرات القسرية أثر هائل على القبيلة، ومنها أمراض «الرجل الأبيض» مثل مرض الجدري. ويشير أحد التقديرات إلى أنّ هذه السلسلة سببت تضاؤلًا في عدد سكانهم إلى حوالى ثلاثة آلاف، أيّ ثلث ما كانوا عليه قبل سبعين عامًا. وأفاد وكيل

الشؤون الهندية: «هذه البقية الصغيرة هي كلّ ما تبقى من هذا العرق البطل الذي كانت له ذات يوم الملكية الشاملة بلا منازع على كلّ هذه المنطقة»[17].



مخيم للأوساج في المحمية الجديدة

واصل الأوساج صيد الجواميس، إلا أنهم كانوا يطاردونهم ليس بسبب الطعام فحسب، ولكن حنينًا إلى الماضي. يتذكر تاجر أبيض رافقهم في الرحلة: «كانت مثل الأيّام الخوالي. تعوّد كبار السنّ من المجموعة التجمّع حول نيران المخيّم في مزاج استذكاريّ. هناك يسردون حكايات شجاعتهم على درب الحرب والمطاردة»[18].

بحلول العام 1877، لم يعد هناك تقريبًا أيّ جاموس أميركي لمطاردته، وهو تطوّر عجّلته السلطات التي شجّعت المستوطنين على القضاء على الوحوش. مع العلم أنه على حد تعبير ضابط في الجيش «كل جاموس يموت يقابله موت هندي»[19]. وتحوّلت سياسة الولايات المتحدة تجاه القبائل من الاحتواء إلى الاستيعاب القسري. وحاول المسؤولون، بشكل متزايد، تحويل الأوساج إلى روّاد للكنيسة، وإلى ناطقين باللغة الإنكليزية، وإلى فلّاحين بملابس كاملة.

كان على الحكومة الأميركية دفع مبالغ سنوية لقبيلة الأوساج مقابل بيع أراضيها في كانساس، لكنها رفضت دفعها حتى يبدأ الرجال الأصحّاء مثل ني كاه إيسي بالزراعة. وحتى ذلك الحين، أصرّت الحكومة على تسديد المدفوعات على شكل كسوة وحصص غذائية. واشتكى رئيس الأوساج من ذلك، وقال: «نحن لسنا كلابًا ليطعمونا مثلهم»[20].



رئيس الأوساج واه - تي - آن - كاه

وبسبب عدم تعوّدهم الأساليب الزراعية لحياة البيض وحرمانهم من الجواميس، جاعوا، وأصبحت أجسادهم كالهياكل العظمية. مات كثير من أعضاء القبيلة، ومن ثمّ أُرسِل وفد من الأوساج على وجه السرعة، يترأسه زعيمهم الذي يدعى واه تي آن كاه، إلى واشنطن العاصمة لتقديم التماس إلى مفوض الشؤون الهندية بإلغاء نظام التموين. ووفق رواية جون جوزيف ماثيوز، فإنّ أعضاء الوفد ارتدوا أفضل البطّانيات والسراويل الضيّقة، بينما لفّ واه تي آن كاه نفسه ببطّانية حمراء تمامًا، بحيث لا يمكن رؤية سوى عينيه التي تشبه الآبار الداكنة، والتي أظهرت تاريخ شعبه بالكامل.

وتوجّه الوفد إلى مكتب المفوّض وانتظره. وعندما وصل المفوّض، قال للمترجم: «أخبر هؤلاء السادة أنني آسف، لا أستطيع رؤيتهم، لديّ موعد آخر وقد تذكّرت ذلك الآن»[21].

عندما حاول المفوّض المغادرة، سد واه تي آن كاه طريقه وخلع بطّانيته. ولصدمة الجميع بمن فيهم أصدقاؤه، كان عاري الصدر ومرتديًا بنطاله وجزمة الموكاسّان ووجهه مرسوم كما لو أنه ذاهبٌ إلى الحرب. وقد كتب ماثيوز عن واه تي آن كاه: «وقف هناك شامخًا مثل بعض الآلهة البدائية في الغابات المظلمة».

قال واه تي آن كاه للمترجم: «قل لهذا الرجل أن يجلس». وامتثل المفوّض لأوامره وبدأ واه تي آن كاه بالقول: «لقد قطعنا شوطًا طويلًا للتحدّث عن هذا الأمر».

قال المفوّض: «بالتأكيد هذا الرجل الذي لا يعرف كيف يتصرّف - والذي أتى إلى مكتبي شبه عارٍ بوجه مرسوم - ويريد الحرب، ليس متحضّرًا بما يكفي لمعرفة كيفية استخدام المال».

قال واه تي آن كاه إنه لا يخجل من جسده. وبعد أن ضغط هو والوفد وتمسّك بموضوع قضيتهم، وافق المفوّض على إنهاء سياسة التموين. ومن ثم التقط واه تي آن كاه بطّانيته وقال: «أخبر هذا الرجل أنّ كلّ شيء على ما يرام الآن. يمكن له الذهاب».

كان إعطاء الاسم هو أحد أهم طقوس الأوساج، وعندها يُعتبر الشخص من القبيلة. ومثل كُثُرٍ آخرين في القبيلة، حاول والدا مولي الحفاظ على العادات، فأعطيا مولي التي وُلِدت في أول العام 1886 اسم واه كون تاه إي أم باه، وكانت أخواتها أيضًا معروفات بأسمائهنَّ في الأوساج: آنّا كانت واه هراه لوم باه، وميني واه شا هي، وريتا مي سي موي.

تسارعت عملية التثاقف، وبدأ المستوطنون في الانتقال إلى المحميّة، لكنهم لم يبدوا مثل الأوساج أو حتى مثل شايان أو باوني. بدوا متّسخين وبائسين، وكان من بينهم ويليام هيل الذي ظهر على حصانه بملابسه الرثّة، هذا الرجل الذي جاء من لا مكان. أقام المستوطنون مثل هيل علاقات وثيقة مع الأوساج وجادلوا في أنّ أساليب الرجل الأبيض حتمية وأن الطريقة الوحيدة لبقاء الأوساج على قيد الحياة هي اتباعها. كان هيل عاقدًا العزم على تغيير ليس نفسه فحسب ولكن أيضًا البرية التي أتى منها لتصبح حظائر مسيّجة، وإنشاء شبكة من المراكز التجارية والبلدات.

أشار جون فلورير، حارس الحدود في كانساس، في ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى إقليم الأوساج كـ «وطن اللّه». وأسّس التجارة الأولى في غراي هورس، حيث كان والد مولي وني كاه إيسي يحبّ فَرْش بسطته في ظلّها، وبيع جلود الحيوانات. وتعرّفت مولي إلى ابن التاجر هناك والذي كان من البيض الذين رأتهم للمرّة الأولى، وقد شبَّهت بشرته الشاحبة ببياض بطن السمكة.



متجر جون فلورير في غراي هورس

احتفظ نجل التاجر بمذكّرة وفيها كتب التغيير الوجودي العميق الذي مرّت به مولي وعائلتها، ولكنه لم يلحظْها إلا بشكل عابر. كأنها ليست أكثر من عنصر موجود في دفتر الحسابات. وبدأ التاجر يشير في أحد الأيّام إلى وني كاه إيسي باسم جيمي، وسرعان ما بدأ التجّار الآخرون بمناداته بهذا الاسم. الذي حلَّ محل اسمه الأصلي.

وكتب نجل التاجر: «ومثله تمامًا فإنّ بناته اللواتي كنّ يزرنَ المتجر باستمرار، قد تلقّين أسماءهنّ من هناك»[22]. وهكذا أصبحت واه كون تاه إي أم باه معروفة باسم مولي.

كانت مولي، مثل والدتها، ترتدي سراويل ضيقة وتنّورة وبلوزة وبطّانية وتنتعل جزمة موكاسّان، وكانت تنام على الأرض في أحد أركان منزل العائلة، واضطرّت إلى القيام بكثير من الأعمال الشاقة. كان هناك هدوءٌ نسبي وسعادة في ذلك الوقت، وكانت مولي تستمتع



والد مولي (إلى اليمين) أمام متجر فلورير

بالرقصات الاحتفالية والأعياد والألعاب المائية في الجدول، ومشاهدة الرجال يسابقون المهور في الحقول الخضر. وكتب نجل التاجر: «هناك ذكريات باقية مثل نصف حلم منسي، لعالمٍ ساحرٍ بزغ فجره في ذاكرة طفل في عجبه وغموضه»[23].

في العام 1894 عندما كانت مولي في السابعة من عمرها، أُبلغ والدها أنه يجب عليهما تسجيلها في مدرسة سانت لويس، وهي مدرسة كاثوليكية داخلية للبنات تمّ افتتاحها في پوهوسكا، وكانت تبعد مدّة يومين بالعربة إلى الشمال الشرقي للبلاد. قال مفوّض الشؤون: «كان يجب على الهندي الامتثال لأسلوب حياة الرجل الأبيض، بسلام إن شاء، أو بالقوّة إذا كان لا بدّ من ذلك»[24].

تلقّى والدا مولي تحذيرًا من أنه إذا لم يمتثلا، فإنّ الحكومة ستمتنع عن دفع المبالغ السنوية، تاركة العائلة بلا مدخول أو طعام. وهكذا ذات صباح في شهر آذار/ مارس، أُخذت مولي من عائلتها جامعةً أغراضها في عربة يجرّها حصان. وانطلق السائق بها نحو پوهوسكا. وفي وسط المحمية، استطاعت مولي أن ترى الحدّ الظاهر لعالمها غراي هورس يختفي حتى أصبح الدخان الشيء المرئي الوحيد الذي يرتفع من قمم النزل ويتلاشى في السماء. وامتدت أمامها البراري في الأفق مثل قاع البحر القديم. لم تكن هناك مستوطنات ولا أرواح. كان الأمر كما لو أنها انزلقت إلى حافة العالم وسقطت، على حد تعبير ويلا كاثر التي قالت مرة: «كأنك خارج نطاق سلطة الإنسان».

ترجّحت مولي ذهابًا وإيابًا في العربة ساعة بعد ساعة وميلًا بعد ميل، ولم يكن أمامها إلا المناظر الطبيعية البرّية الفارغة، التي تنتظر أن تتحوّل معالم مدينة. وعندما بدأت الشمس بالغروب اضطرّ السائق ومولي إلى التوقّف والتخييم. تحوّلت السماء إلى اللون الأحمر ثم بعد غروب الشمس تمامًا إلى اللون الأسود. وقد خفّف ضوء القمر والنجوم من كثافة الظلام. وهناك معتقد عند الأوساج وقبائل أخرى بأنّ أسلافهم انحدروا من القمر والنجوم. وأصبحت مولي مسافرةً في الضباب، محاطةً من قوى الليل التي تُسمع ولا تُرى، من عواء ذئاب البراري إلى نعيق البوم، الذي قيل إنه يحمل روحًا شريرة.

في اليوم التالي، أفسحت البراري أحادية اللون الطريق للتلال المغطاة بالأشجار، وسارت مولي وسائقها على المنحدرات والتلال صعودًا وهبوطًا، وما وراء أشجار السنديان المظلّلة والكهوف التي لا تدخلها الشمس. وقد وصفها وكيل الشؤون الهندية ذات مرّة «بأنها المكان الأمثل للكمائن»، وأضاف: «دعني أخبرك أنّ هذا المكان من شأنه أن يجلب المجرمين الجاهلين، لارتكاب أيّ شي»[25]. وأكملا الطريق حتى وصلا إلى منزل بشري متمثّل بهيكل خشبي من طابق واحد مُتَضَعضِع الشكل ومطلي باللون الأحمر. كان متجرًا للأوساج، وكانت بالقرب منه غرفة نوم قذرة ومشغل حدّاد يحتوي على كومة هائلة من حدوات الخيول.

تحوّل المسار الموحل إلى مسار أوسع وأكثر توحّلًا، وعلى امتداده تناثرت المتاجر على الجانبين. وكانت هذه مجهّزة بمعابر خشبية أمامية لمساعدة العملاء على تجنّب الطين

الغادر، وأعمدة ربط الخيول، والواجهات المتضرّرة من الطقس التي بدت كأنها ستنهار عند أوّل نسمة. وقد بُنيت بعض المتاجر بواجهات خشبية عالية كأنها مؤلفة من طابقين لخلق صورة من العظمة.

وصلت مولي أخيرًا إلى پوهوسكا. وعلى الرغم من أنّ عاصمة المحميّة بدت في ذلك الوقت مكانًا صغيرًا وقذرًا، وقد وصفها أحد الزائرين «بأنها مثل مركز تجاري موحل»، فإنها كانت، من وجهة نظر مولي، أكبر مستوطنة شهدتها على الإطلاق. بعد حوالى ميل واحد نُقلت إلى مبنى حجري ضخم مؤلّف من أربعة طوابق، وهي مدرسة سانت لويس الكاثوليكية التبشيرية، حيث تُركت في رعاية النساء اللواتي يرتدين ثيابًا بيضًا وسودًا. دخلت مولي من الباب الرئيسي مارّةً بين متاهة من الممرّات الطويلة وفوانيس الفحم التي تتوهّج في الظلام. وصف ذات مرّة ماثيوز باب مدرسة داخلية أخرى للأوساج بأنه «فم أسود كبير، أكبر وأعمق من فم القطّ الوحشي»[26].



أُجبرت مولي على الدراسة في مدرسة سانت لويس

اضطرّت مولي إلى التخلّي عن البطّانية الهندية عن كتفيها ولبس ثوب عادي. ولم يُسمح لها بالتحدّث بلغتها الأم، وكان عليها البدء بتعلّم لغة الرجل الأبيض. وأُعطي لها الكتاب

المقدّس الذي يبدأ بمفهوم متميّز للكون: «وقال الله: ليكنْ نور، فكان نور. ورأى الله أن النور حسن. وفصل الله بين النور والظلمة».

كانت كلّ ساعة من النهار منظّمة في المدرسة، وكان الطلّاب يصطفون ويسيرون من نقطة إلى أخرى. تعلّموا البيانو، وفنّ الخط والجغرافيا والحساب، وتحوّل عالمهم إلى رموز جديدة غريبة. كانت التعليمات تهدف إلى أن تكون مولي فردًا فعّالًا في المجتمع وتحويلها إلى ما تصوّره السلطات على أنه المرأة المثالية. لذلك بينما تعلّم أولاد الأوساج في مؤسسات أخرى الزراعة والنجارة، دُرّبت مولي على «الفنون المنزلية»: كالخياطة، والطبخ، والغسيل، والتدبير المنزلي. وقال مسؤول حكومي أميركي: «من المستحيل المبالغة في تقدير أهمية التدريب الدقيق بالنسبة إلى الفتيات الهنديات»، مضيفًا: «ما الفائدة من أن يكون الرجل مجتهدًا ويؤمّن بعمله المأكل والملبس لأهل بيته، إذا كانت الزوجة، غير ماهرة في الطبخ، ولا تجيد الخياطة، وليست مرتبة ونظيفة، ما يحوّل المنزل من منزل مبتهج وسعيد إلى منزل بائس وقذر. إنّ النساء هنّ اللواتي يتمسّكن بإصرارٍ شديدٍ بالطقوس الوثنية والخرافات، وإدامتها بتعليماتهنّ للأولاد»[27].

حاول كثير من طلّاب الأوساج في مدرسة مولي الفرار، لكنّ رجال القانون طاردوهم على ظهور الخيل وربطوهم بالحبال وأعادوهم إلى المدرسة. كانت مولي تذهب إلى المدرسة ثمانية أشهر في كلّ عام. وعند عودتها إلى غراي هورس لاحظت أنّ عددًا كبيرًا من الفتيات توقّفن عن ارتداء البطّانيات وأحذية الموكاسّان، وأنّ الشباب غيّروا ملابسهم من قطعة قماش ملفوفة حول خصرهم إلى السراويل، وغطّوا ضفائرهم على فروات رؤوسهم بقبعات عريضة. بدأ طلّاب كُثُر يشعرون بالحرج من آبائهم الذين لم يفهموا اللغة الإنكليزية، وما زالوا يعيشون على عاداتهم القديمة. وقالت أمّ من الأوساج عن ابنها: «أصبحت أذناه مغلقتين أمام حديثنا»[28].

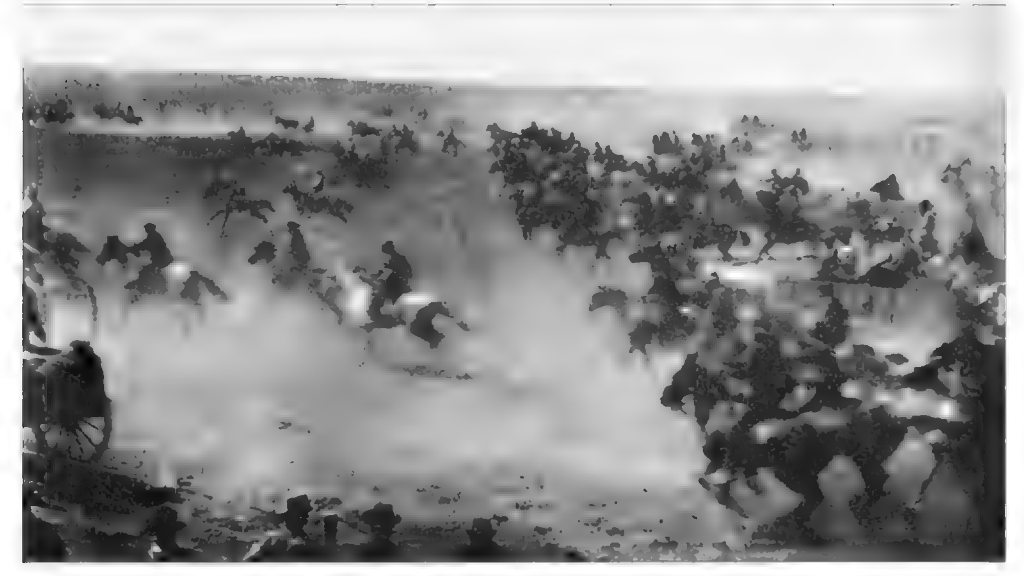
كانت عائلة مولي مترجّحة ليس فقط على مدى قرنين من الزمان، بل على مدى حضارتين. فازدادت محنة عائلتها في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر حين كثّفت حكومة الولايات المتحدة من مساعيها للوصول إلى ذروتها في حملة الاستيعاب: التخصيص. وبموجب هذه السياسة، ستُقسّم محمية الأوساج إلى وحدات، مساحة كل

وحدة 160 فدّانًا وإلى عقارات، وحصول كلّ فرد من أفراد القبيلة على وحدة بينما تُفتَح المنطقة أمام المستوطنين. فُرِض نظام التخصيص بالفعل على قبائل كثيرة وصُمِّم لإنهاء طريقة الحياة المجتمعية القديمة وتحويل الهنود الأميركيين أصحاب ممتلكات خاصّة، وهي حالة من شأنها، تسهيل شراء أراضيهم.

رأى الأوساج ما حدث لقطاع الشيروكي، وهو مرج شاسع كان جزءًا من أراضي الشيروكي وكان بالقرب من الحدود الغربية لمحمية الأوساج. بعدما اشترت الحكومة الأميركية الأرض من قبيلة الشيروكي أعلنت أنه من ظهر يوم 16 أيلول/سبتمبر من العام 1893 سيكون المستوطن/المستوطنة قادرًا على المطالبة بواحدة من اثنين وأربعين ألف قطعة من الأرض إذا وصل/أو وصلت إلى المكان أوّلًا.

لأيّام قبل تاريخ البدء، جاء عشرات آلاف الرجال والنساء والأطفال من مناطق بعيدة مثل كاليفورنيا ونيويورك، وتجمّعوا على طول الحدود، وامتدّت الكتلة البشرية الخشنة والقذرة واليائسة عبر الأفق مثل الجيش الذي حُرّض على نفسه.

حاول بعض «الأوكلاهوميين» التسلّل عبر الحدود قبل بدء السباق، فأُطلق النار عليهم. وأعلنَت طلقات البنادق بداية «سباقٍ للحصول على قطعة أرضٍ كما لم تشهده البشرية من قبل»[29]، كما صاغته إحدى الصحف. وكتب أحد المراسلين: «كان الرجال



السباق على قطع الأرض في العام 1893

يرمون بعضهم بعضًا في أثناء اندفاعهم، وبدأت النساء بالصراخ والسقوط، وأُغمي على بعضٍ منهنَّ ليُداس عليهنَّ وربما يُقتلن»[30]. وتابع المراسل: «كان الرجال والنساء، والخيول متناثرين في جميع أنحاء البراري هنا وهناك، كان الرجال يتقاتلون حتى الموت على مطالبة كلّ منهم أنه كان أوّل من وصل، وتمّ سحب السكاكين والبنادق. كان مشهدًا فظيعًا ومثيرًا، يعجز اللسان عن وصفه». كانت اللعبة أنّ كلّ رجل لنفسه ويسبق الشيطان (الناس لا يفعلون سوى ما هو أفضل لأنفسهم من دون التفكير في الآخرين). وبحلول الليل، نُحِت قطاع الشيروكي قطعًا.

لأنّ الأوساج اشتروا أراضيهم، كان الأمر أكثر صعوبة على الحكومة أن تفرض سياسة التخصيص. وكان أعظم رؤساء القبيلة، جيمس بيغهارت، الذي يتحدّث سبع لغات، من بينها سيوكس والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، والذي كان يرتدي البذلة، قادرًا على تعطيل هذه السياسة. ولكن الضغط بدأ يتصاعد، وحذّر ثيودور روزفلت ممّا يمكن أن يصيب الهندي الذي يرفض التخصيص. «دعه يهلك من على وجه الأرض، شأنه شأن هؤلاء البيض الذين لن يقوموا بأي عمل»[31].

بحلول أوائل القرن العشرين، علم بيغهارت والأوساج أنهم لم يعودوا قادرين على تجنّب ما أسماه مسؤول حكومي «بالعاصفة الكبرى»[32] لتجمّع المستوطنين. وخطّطت الحكومة الأميركية لتفكيك الأراضي الهندية وجعلها جزءًا ممّا سيكون ولاية جديدة تسمّى أوكلاهوما (في لغة الشوكتاو، «أوكلاهوما» تعني «الأشخاص الحمر»). نجح بيغهارت في تأخير العملية لسنوات عدّة، وكان الأوساج آخر قبيلة في الأراضي الهندية يتمّ تخصيصها، وهذا ما أعطاهم مزيدًا من النفوذ حيث كان المسؤولون الحكوميون حريصين على تجنّب أيّ شيء من معوقات إقامة الولاية. في العام 1904 أرسل بيغهارت محاميًا شابًّا متحمسًا اسمه جون بالمر، إلى العاصمة «ليجسّ نبض واشنطن»[33]. وكان بالمر ابنًا يتيمًا لتاجر أبيض وامرأة من سيوكس. وقد تمّ تبنّي بالمر كطفل من قِبَل الأوساج وتزوّج امرأة من قبيلتهم. وصف سناتور أميركي من أوكلاهوما بالمر «بأنه من أكثر الهنود بلاغة على قيد الحياة»[34].

تفاوض بيغهارت وبالمر وأعضاء آخرون في القبيلة مع المسؤولين الحكوميين حول شروط التخصيص. ونجح الأوساج بتقسيم الأرض بين أفراد القبيلة، وبالتالي زيادة حصّة الفرد بالتخصيص من 160 فدانًا إلى 657 فدانًا. وباتباعهم لهذه

الاستراتيجية، اجتنبوا الاندفاع الجنوني إلى أراضيهم. ولكن بشرط تمكُّن البيض من شراء حصص من أفراد القبيلة. وتمكّن الأوساج أيضًا من تمرير اتفاقية تنصّ على أنه: «إن وجد النفط أو الغاز أو الفحم أو معادن أخرى تحت الأراضي فإنها محفوظة لقبيلة الأوساج»[35].

عرفت القبيلة بوجود بعض رواسب النفط تحت المحمية. قبل أكثر من عقد من الزمان أشار هندي من الأوساج لجون فلورير صاحب المركز التجاري في غراي هورس إلى لمعان ملوّنٍ كقوس قزحٍ يطفو على سطح ماء الجدول في الجزء الشرقي من المحمية. وقام الهندي بتغطيس بطانيته في البقعة وعصر السائل في وعاء. عرف فلورير أنّ السائل تفوح منه رائحة شحم العربات المباع في متجره. فهرع ليَعرض العيّنة على الآخرين الذين أكّدوا شكوكه: إنه نفط. حصل فلورير وشريكه المصرفي على موافقة القبيلة وعلى عقد إيجار لبدء الحفر في المحمية. تخيّلت قلّة من الناس أنّ القبيلة كانت تجلس على ثروة، وبحلول موعد مفاوضات التخصيص كانوا قد حفروا آبارًا صغيرةً معدودة. وتمكّن الأوساج من التمسك بملكية أراضيهم - مملكة لم يستطيعوا رؤيتها بعد - وبعد الاتفاق على شروط قانون التخصيص، في 1906 تفاخر بالمر أمام الكونغرس، «لقد كتبت اتفاقية الأوساج هذه كاملة بخط اليد»[36].

حصلت مولي وعائلتها، مثل الآخرين في قائمة الأوساج القبلية[37]، على حقّ قانوني لامتلاك قطعة أرض، وحصّة ماليّة من حساب عائدات النفط والمعادن المجمّد الخاص بالقبيلة. وعندما دخلت أوكلاهوما في العام التالي الاتحاد بصفتها الولاية السادسة والأربعين، كان أفراد القبيلة قادرين على بيع أراضيهم في ما يُعرف الآن بمقاطعة الأوساج. ولكن من أجل الحفاظ على حساب عائدات النفط والمعادن المجمّد تحت السيطرة القبلية، لم يستطع أحد شراء أو بيع قطعة الأرض. إنها تورّث فقط. بذلك امتلكت مولي وعائلتها قطعة أرضٍ تحتها نفط.

سرعان ما بدأت القبيلة في تأجير المناطق إلى مزيدٍ من المنقّبين البيض للاستكشاف، ورأت مولي العمّال - الميكانيكيّين وعمّال الصيانة، ومشغّلي الرافعات السلكيّة وسائقي العربات الثقيلة، والمشرفين على العمّال - يكدحون بشراسة. وبعد إنزال طوربيد مليء بالنيتروغليسرين في باطن الأرض، يقوم العمّال بتفجيره، وفي بعض

الأحيان يُحضرون جزءًا معدنيًّا من رمح هندي أميركي قديم أو رأس سهم لإحداث شرارةٍ تفجّر النيتروغليسرين. وكانوا يحدّقون إليها بدهشةٍ. بنى هؤلاء الرجال هياكل خشبية بعلو السحاب مثل المعابد وهتفوا بلغتهم الخاصّة: «تحرّكوا أيها الجبناء، تحرّكوا! حمّلوا على الخطّافات! اسحبوا إلى أعلى... اظهر أيها اللوح الهادر!»[38].

حفر منقّبون كُثُر آبارًا جافّة ذهبت أدراج الرياح، وعادوا خائبين. ولاحظ أحد الأوساج أنّ هؤلاء الرجال البيض «يتصرّفون وكأن العالم سينتهي غدًا»[39].

في أوائل القرن العشرين، بدأ جورج جيتي، وهو محامٍ من مينيابوليس وعائلته، البحث عن النفط في الجزء الشرقي من إقليم الأوساج، على قطعة أرض في «الوحدة 50» استأجرها بمبلغ 500 دولار. عندما كان ابنه، جان بول جيتي، صبيًّا، زار المنطقة معه. «كانت أيام رائدي المنقّبين عن النفط»[40]، هذا ما قاله جان بول الذي أسّس شركة جيتي للنفط. وقد ذكر أيضًا: «لم يكن هناك سيّارات، وكان هناك عدد قليل جدًّا من الهواتف ومن المصابيح الكهربائية. على الرغم من أنها كانت بداية القرن العشرين، ما زلت تشعر بشدّة بتأثير القرن التاسع عشر فيهم». وتابع: «بدت مغامرة رائعة، لم يرَ والداي سحر هذه المشاهد مثلي أنا. وتعوّدنا الذهاب في كثير من الأحيان إلى الوحدة 50 التي تبعد حوالى تسعة أميال من مقاطعة الأوساج في عربة تجرّها الخيول. حيث استغرقت الرحلة بضع ساعات عبرنا في خلالها النهر للوصول إلى هناك».

قبل لقاء الهنود، سأل جان بول والده: «هل هم خطرون؟ هل سيتعيّن علينا محاربتهم؟»[41].

ضحك والده: «لا. إنهم هادئون نوعًا ما ومسالمون».

في أحد أيّام الربيع الرطبة من العام 1917 كان فرانك فيليبس، منقّبًا عمل سابقًا بائعًا لدواء للوقاية من داء الصلع. خرج مع عماله في «الوحدة 185» على بعد أقلّ من نصف ميل من «الوحدة 50». وكانوا يقفون على منصّة حفر عندما بدأ برج الحفر يرتجف، وكأنّ هناك قاطرة مارّة بقربهم. جاء من الحفرة صوت قرقرة، وبدأ العمّال في الجري والصراخ، وأمسك حفّارٌ بفيليبس وسحبه عن المنصّة تمامًا عندما انفجرت الأرض وأخرجت نافورةً من النفط الأسود في الهواء.



• عمال يستخرجون النفط في منطقة الأوساج

بدأت سلسلة اكتشافات الآبار النفطية تظهر واحدة تلو الأخرى، وفي العام 1920، اكتشف إي دبليو مارلاند، الذي كان في يوم من الأيّام فقيرًا لدرجة أنه لا يستطيع تحمّل تكلفة أجرة القطار، بئرًا في بوربانك، وهي منطقة فيها أحد أعلى معدلات النفط إنتاجًا في الولايات المتحدة، وتنتج هذه البئر 680 برميلًا في حدود أوّل أربع وعشرين ساعة.

كان كثير من الأوساج يندفعون لرؤية البئر تتدفّق عند انفجارها. وكانوا يتدافعون للحصول على أفضل منظر مع الحرص على عدم الاقتراب كثيرًا من موقع البئر، لئلّا تدخل شرارة النفط في أعينهم، عندما ينفجر في الهواء على ارتفاع خمسين، وستين، وأحيانًا مئة قدم. وكان المنظر أشبه برؤية ملاك الموت بأجنحته المقوّسة السوداء الكبيرة التي تبخّ الشر، ترفرف فوقهم. وكان الانفجار يطلي الحقول والزهور ووجوه العمال المتفرّجين باللون الأسود، فيبدأ العمّال باحتضان بعضهم بعضًا، وبقذف قبّعاتهم في الهواء. بدت هذه المادّة المعدنية الداكنة: اللزجة، كريهة الرائحة، كأنها أجمل الأشياء في العالم. وقد لُقّب بيغهارت، الذي مات بعد فترة وجيزة من فرض التخصيص، بأنه «موسى الأوساج».

5 تلامذة الشيطان

كان المال هو الوسيلة الوحيدة المتاحة تحت تصرّف مولي لحثّ السلطات البيض اللامبالية على ملاحقة قتلة الهنود. فبعد وفاة ليزي في تموز/يوليو من العام 1921، عرض بيل سميث، صهر مولي، شكوكه للسلطات بأنّ ليزي قد تسمّمت ببطء. لكن بحلول آب/أغسطس، لم يكونوا قد نظروا في القضية بعد. ولم يُحرَز أيّ تقدم في التحقيق، الذي دام ثلاثة أشهر، في مقتل آنّا. ولحثّ المحقّقين على متابعة القضية، أصدرت عائلة مولي بيانًا جاء فيه أنه بسبب «فظاعة الجريمة»[1] و«الأخطار التي قد يتعرّض لها الآخرون»، سيتمّ تقديم مكافأة نقدية بقيمة 2000 دولار أميركي مقابل أيّ معلومات تؤدّي إلى القبض على المجرمين. وعرضت عائلة وايتهورن مكافأة قدرها 2500 دولار للقبض على قتلة تشارلز. وقام ويليام هيل بحملة من أجل القضاء على العنصر الإجرامي في مقاطعة الأوساج، ووعد بمكافأة أيّ شخص يقبض على القتلة، أمواتًا أو أحياء. وقال هيل: «علينا وقف هذا العمل الدامي الإجرامي»[2].

استمرّ الوضع بالتدهور مع أجهزة تطبيق القانون، وسرعان ما ادّعى المدّعي العام في أوكلاهوما على العمدة فرياس «بالفشل في تطبيق القانون»[3] عمدًا من خلال السماح بالتهريب والمقامرة. ونفى فرياس هذه المزاعم. وفي أثناء انتظاره المحاكمة، حرّض هذان الرجلان القويان (هيل وفرياس) أحدهما على الآخر. وبالنظر إلى هذا الاضطراب، أعلن هيل أنّ الوقت قد حان لتعيين محقّق خاص.

ملأت مكاتب التحقيق الخاصة في خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، الفراغ الذي خلّفته أقسام الشرطة والعُمْدات اللامركزية، وضعيفة التمويل، وغير الكفؤة، والفاسدة. ويُعتبر المحقّق الخاص في المخيّلة الشعبية للناس بأنه واثق الخُطى، والمتسلّل سريع الحركة، والمتمكّن، والمتخفّي الذي أزاح العمدة وحلَّ مكانه باعتباره الممثّل الحقيقي للعدالة. وينتقل المحقّق متجوّلًا عبر الحدود الخطيرة للأزقّة العميقة والأحياء الفقيرة المتوتّرة، واستعاض عن حمل المسدّس بالاعتماد على طريقة شيرلوك

هولمز، في استعمال القوى المذهلة للعقل والاستنتاج. والقدرة على مراقبة وملاحظة ما لم يستطع علماء النفس «آل واطسون» ملاحظته. كان يجد النظام في كومة من الفوضى. وكما قال أحد المؤلّفين: «كان المحقّق يحوّل الجرائم الوحشية - بقايا الوحش في الإنسان - إلى ألغاز فكرية»[4].

لكن منذ البداية كان الانبهار بالمحقّقين الخاصين ممزوجًا بشعورٍ من الكره والنفور، لأنهم كانوا غير مدرّبين وغير منظّمين وغالبًا ما كانت لديهم سجلّات جنائية. ولأنهم مدينون بالفضل لعملائهم، كان يُنظر إليهم على نطاق واسع على أنهم شخصيات خفية قامت بالسطو على أسرار الناس (فمصطلح «to detect» «أن تكشف» مشتقّ من الفعل اللاتيني «to unroof» «إزالة السقف»، ولأنّ الشيطان، حسب الأسطورة، سمح لأتباعه أن يتلصّصوا على المنازل عن طريق إزالة أسقفها، كان المحقّقون يُعرفون باسم «تلامذة الشيطان»)[5]. أسّس آلان بينكرتون في العام 1850 أوّل وكالة تحرّيات أميركية خاصّة. ظهر في الإعلانات، شعار الشركة «نحن لا ننام مطلقًا» مكتوب تحت عين كبيرة، شبيهة بالماسونية، أدّت إلى ظهور مصطلح «العين الخاصّة». في دليل عام للمبادئ والقواعد التي كانت بمنزلة مخطّط العمل، اعترف بينكرتون بأنّ المحقّق يجب أن «يبتعد أحيانًا عن الخطّ الصارم للحقيقة» و«يلجأ إلى الخداع»[6]. وكثير من الناس الذين احتقروا المهنة، اعتبروها شرًّا لا بدّ منه. وعلى حد تعبير أحد المحقّقين، قد يكون المحقّق مثل «الأفعى الماكرة»[7] لكنه أيضًا «المنتقم الصامت والسرّي والفعّال لجلالة القانون الغاضب، عندما يفشل كلّ شيء آخر».

جنّد هيل محقّقًا خاصًّا من مدينة كانساس، يدعى بايك، وللحفاظ على سرّيته، التقى بايك، الذي يدخّن الغليون وله شاربان، هيل في بقعة مخفية بالقرب من مدينة وزبانك (اعتبر القادة المدنيون مثل هيل أنّ اسم وزبانك غير لائق، وبدلًا من ذلك أطلقوا على المدينة اسم دنويا تيمّنًا بعائلة أوساج معروفة). وكما تبدّد الدخان من حقول النفط في السماء، تشاور هيل وبايك في الموضوع، وبعدها ذهب بايك لمتابعة تحقيقه.

بتوجيه من مولي وعائلتها، عيّن مدير أملاك آنّا محقّقين خاصّين أيضًا، وكانت الأملاك تُدار من سكوت ماتيس، صاحب شركة بيغ هيل التجارية، والذي أدار الشؤون المالية لآنّا وليزي بصفته وصيًّا لفترة طويلة. اعتبرت حكومة الولايات المتحدة أنّ كثيرًا

من الأوساج كانوا غير قادرين على إدارة أموالهم بالشكل الصحيح، لذا طلبت من مكتب الشؤون الهندية العمل على تحديد أفراد القبيلة الذين تعتبرهم قادرين على إدارة الصناديق الائتمانية الخاصّة بهم. وبناءً على ذلك الطلب، ثارت اعتراضات شديدة من القبيلة، بما في ذلك ليزي وآنّا لاعتبارهما «غير كفؤتين»، وإجبارهما على تعيين وصيٍّ محلّي أبيض يُشرف ويسمح لهما بإنفاق المال، حتى ولو قامتا بشراء شيء صغير أو بسيط من المتجر مثل معجون الأسنان. اشتكى أحد أفراد الأوساج الذي خدم في الحرب العالمية الأولى، قائلًا: «قاتلت في فرنسا من أجل هذا البلد، ومع ذلك، لا يُسمح لي حتى بالتوقيع على الشيكات الخاصّة بي»[8]. عادةً يتمّ اختيار الأوصياء من بين صفوف المواطنين البيض في مقاطعة الأوساج.



أدار سكوت ماتيس شركة بيغ هيل التجارية وكان أيضا الوصي على أنا وليزي

كوّن ماتيس فريقًا من المحقّقين الخاصّين، وكذلك فعل مدير أملاك وايتهورن. وبدأ المحقّقون الخاصّون الذين عملوا في كثير من الأحيان لصالح وكالة التحريات

الدولية لويليام جيه بيرنز يحقّقون في وفاة الأوساج. كان بيرنز عميل خدمة سريًّا سابقًا، وخلفًا لبينكرتون كأكثر محقّقٍ خاصٍ شهرةً في العالم. كان بيرنز رجلًا قصير القامة، وشجاعًا، ولديه شاربان كثّان، وشعر أحمر. وكان يطمح في يوم من الأيّام إلى أن يكون ممثّلًا، وقد صقل موهبته جزئيًّا عن طريق كتابة قصص بوليسية عن القضايا التي حقّق فيها. في أحد هذه الكتب أعلن، «اسمي ويليام جيه بيرنز[9]، وعناويني نيويورك، لندن، باريس، مونتريال، شيكاغو، سان فرانسيسكو، لوس أنجلوس، سياتل، نيو أورلينز، بوسطن، فيلادلفيا، وكليفلاند، وأيّ مكان آخر قد يجد فيه المواطن الملتزم بالقانون، حاجة إلى رجال يعرفون كيف يتخلّصون بهدوء من كمين لقاتل مختبئ، أو يقبضون على المجرمين المختبئين الذين يفترسون أولئك الذين يسلكون طريقًا مستقيمًا».



المحقق الخاص وليام جيه بيرنز

على الرغم من أنه يُلقّب بـ«محقّق الصفحة الأولى» بسبب ترويجه المستمرّ لذاته، لكنّه كان يتمتّع بسجلّ حافلٍ، بما في ذلك القبض على أولئك المسؤولين عن قصف مقرّ لوس أنجلوس تايمز في العام 1910 والذي أودى بحياة عشرين شخصًا. وصفت النيويورك تايمز بيرنز «لعلّه المحقّق العظيم والعبقري الوحيد الذي أنتجته هذه البلاد»[10]. ومنحه السير آرثر كونان دويل اللقب الذي كان يتوق إليه: «شيرلوك هولمز أميركا».

ولكن على عكس شيرلوك هولمز، كان بيرنز يتلاعب بهيئة المحلّفين، وزَعموا أنه خطف أحد المشتبه بهم، واستخدم بشكل روتيني التقنيّات الدنيئة للجواسيس الإمبرياليين. وقد قُبض عليهم وهم يقتحمون مكتب محاماة في نيويورك في محاولة لسرقة الأدلّة. وعلى حدّ قوله، فإنّ مثل هذه الأساليب كانت ضرورية في بعض الأحيان

لإثبات المؤامرة، وأنّ مثل هذه الخطوط قد تمّ تجاوزها «ألف مرة»[11] من المحقّقين الخاصّين. فعلًا، لقد جسّد بيرنز المهنة الجديدة بحذافيرها.

في ذلك الصيف، بدأ فريق العملاء الذين استأجرهم ماتيس يتغلغلون في مقاطعة الأوساج. عرّف كلّ وكيل بنفسه في يومياته وفي التقارير برقمٍ مشفّر[12]. في البداية، طلب العميل رقم 10 من ماتيس الذي كان عضوًا في هيئة المحلّفين في هذا التحقيق، أن يُطلعه على مسرح الجريمة. كتب العميل رقم 10: «ماتيس وأنا خرجنا إلى المكان الذي تمّ العثور فيه على الجثّة»[13].

تحدّث أحد المحقّقين إلى خادمة آنّا الأساسيّة التي كشفت أنه بعد العثور على الجثّة، ذهبت إلى بيت آنّا مع أختها ريتا سميث بعد أن حصلت على المفاتيح، وبشكل لا يصدّق، لم يقم أحد من مكتب العمدة بتفتيش المكان بعد. فتحتا الباب ودخلتا إلى المنزل الصامت، وكان بإمكانهما رؤية مجوهرات آنّا والبطّانيات والصور، وكنوز حياتها المتراكمة التي تُشبه الآن أنقاض المدينة المفقودة. الخادمة التي ساعدت آنّا باللباس في اليوم الذي اختفت فيه، تذكّرت أنّ «كلّ شيء كان كما تركناه باستثناء شيء واحد. محفظة آنّا من جلد التمساح التي أخذتها إلى مأدبة غداء مولي، كانت على الأرض وكل شيء في داخلها ممزّق»[14].

لا يبدو أنّ أيّ شيء آخر في المنزل قد سُرق، ويشير وجود المحفظة إلى أنّ آنّا عادت على الأرجح إلى منزلها في وقت ما بعد مأدبة الغداء. يبدو أنّ برايان شقيق زوج مولي يقول الحقيقة بشأن إحضارها إلى المنزل. ولكن هل أعادها؟ أم أنها ذهبت بعيدًا مع شخص آخر؟

تحوّل «رقم 10» إلى مسار آخر غني بالأدلّة: سجلّات ومكالمات آنّا الهاتفية الواردة والصادرة في تلك الأيّام. كان يتمّ الاتصال بالهواتف يدويًا من عامل الهاتف في لوحة المفاتيح، مع مكالمات بعيدة المدى غالبًا ما يتم ترحيلها بلوحات تبديل متعدّدة. وكثيرًا ما يحتفظ هؤلاء العاملون بملف سجلّ المكالمات. وفق سجلّ غرفة الهواتف في فيرفاكس. حوالى الساعة 8:30، في الليلة التي اختفت فيها آنّا، اتّصل شخصٌ بمنزلها من هاتفٍ يخصّ شركة في رالستون، وهي بلدة تبعد ستّة أميال جنوب غرب غراي هورس. وأظهرت

هذه السجلّات فرضية أنّ آنّا، قد أجابت على اتصاله. هذا يعني أنّ آنّا كانت في منزلها في الساعة 8:30- وهو دليل آخر على أنّ برايان كان صادقًا بشأن أخذها إلى المنزل.

سارع المحقّق الخاص، مستشعرًا أنه أوشك على تحقيق إنجازٍ، إلى شركة رالستون حيث أجريت المكالمة. ولكنّ المالك أصرَّ على أنه لم يتّصل بمنزل آنّا، وأنه لا يُسمح لأيّ شخص آخر بإجراء مكالمة بعيدة المدى من هاتفه، ولتعزيز ادعاءاته، لم يكن في غرفة الهواتف في رالستون سجلّ للمكالمة التي أُجريت إلى غرفة الهواتف في فيرفاكس. كتب العميل رقم 10: «هذا الاتصال يبدو لغزًا»[15]. شكّ في أنّ الرقم في رالستون كان حقًّا «أعمى»، أيّ أنه دُفع لعامل غرفة الهاتف مقابل إتلاف بطاقة السجلّ الأصلية، والتي تكشف المصدر الحقيقي للمكالمة. يبدو أنّ شخصًا ما كان يغطّي مساراته.

أراد العميل رقم 10 أن يُلقي نظرة فاحصة على أودا براون، وكتب: «يشير الاشتباه إلى طليقها»[16]. ولكن الوقت كان متأخّرًا وقد أنهى تقريره بعبارة: «توقّف البحث عند الساعة 11 مساءً».

بعد أسبوع، أُرسل عميل آخر من الفريق «رقم 46» لتحديد موقع براون في مدينة بونكا، على بُعد خمسة وعشرين ميلًا شمال غرب غراي هورس. وهبّت عاصفة عنيفة عبر البراري وتحوّلت الشوارع الى أنهارٍ من الوحل فلم يصل المحقّق الخاص إلى مدينة بونكا حتى حلول الظلام، ليكتشف أنّ براون لم يكن هناك. قيل إنه يزور بيري في أوكلاهوما، حيث يعيش والده. في اليوم التالي، استقلّ العميل «رقم 46» قطارًا إلى بيري، لكنّ براون لم يكن هناك أيضًا، ويُقال الآن إنه في مقاطعة باوني. كتب العميل رقم 46 في تقريره: «نتيجة لذلك غادرت بيري في أوّل قطار»[17]. هذا ما لم تذكره قصص شيرلوك هولمز: ملل عمل التحرّي الحقيقي وخيوط كاذبة وطرق مسدودة.

تنقّل العميل «رقم 46» ذهابًا وإيابًا في مقاطعة باوني، ليتجسّس على رجلٍ نحيل، يدخّن السجائر، ومظهره ماكر، وشعره بلون الصدأ، وعيناه رماديتا اللون. إنه أودا براون. كان مع امرأة من باوني، قيل إنه تزوّجها بعد وفاة آنّا. بقي العميل رقم 46 قريبًا منهما ويمشي خلفهما، وذات يوم اقترب العميل «رقم 46» من براون، محاولًا مصادقته. نصح دليل بينكرتون، «المحقّق الحذر بأن يُسيطر على المجرم في أضعف لحظاته، ويُشعره

بالثّقة والتعاطف معه ليحثّه على التحدّث عن الأسرار التي تعذّبه»[18]. وطّد العميل «رقم 46» صداقته مع براون. وعندها ذكر براون أنّ زوجته السابقة قُتلت. حاول العميل «رقم 46» أن يعرف منه المكان الذي كان فيه وقت وفاتها. لكنّ براون بدأ يشكّ في أنّ صديقه الجديد كان متطفّلًا محترفًا. ومع ذلك، قال له إنه «كان بعيدًا مع امرأة أخرى». ولكنه لم يفصح عن اسم المكان. درس العميل «رقم 46» براون باهتمام، ووفق الدليل يُصبح سرّ المجرم «عدوًا» بداخله و«يضعف حُصن قوته»[19]. لكنّ براون لم يُظهر أيّ توتّر على الإطلاق.

بينما كان العميل «رقم 46» يتقصّى براون، كان عميل آخر، «رقم 28»، قد عرف سرًّا حيويًا على ما يبدو من امرأة هندية كانت تعيش بالقرب من الحدود الغربية لمقاطعة الأوساج. وزعمت المرأة أنّ روز من الأوساج وتعيش في فيرفاكس، اعترفت لها بأنها قتلت آنّا بعدما حاولت إغواء حبيبها جو ألين. قالت روز إنّ الثلاثة كانوا يستقلّون سيّارة عندما، «أطلقت عليها الرصاص في الجزء العلوي من رأسها»[20]. ثم بمساعدة جو، ألقت بالجثّة في جدول ثري مايل. تلطّخت ملابس روز بدماء آنّا، وعندما انتشر خبر مقتلها، جمعتها وألقت بها في الجدول.

كانت الحكاية قاتمة، ولكنّ العميل أرادَ اكتشاف الحقيقة، وذكر في تقريره اليومي أنه قضى ساعات مع ماتيس والعمدة فرياس اللذين كانت محاكمتهما ما تزال معلّقة، وهذه إشارة إلى أنّ هناك دليلًا للقضية[21]. وعلى الرغم من ذلك، قام المحقّقون الخاصّون بمجهود كبير لتأكيد قصّة المخبر. لكن لم يرَ أحد آنّا مع روز أو جو. ولا حتى تمّ العثور على أيّ ملابس في الجدول بجانب الجثّة. فهل كانت المرأة الهندية تكذب ببساطة للحصول على المكافأة؟

حثّ العمدة فرياس الذي كان لحمه يتدلى من عنقه الضخم وصدره، المحقّقين الخاصّين على استبعاد روز وصديقها كمشتبه بهما. ومن ثمّ قدم شائعة مضادّة: زعموا أنه تمّ رؤية شخصيتين من معسكرات النفط مع آنّا قبل وقت قصير من وفاتها، وبعد ذلك ذهبت إلى البلدة. وافق المحقّقون الخاصّون على النظر في قصّة العمدة، لكن في ما يتّصل بالادعاءات ضد روز، تعهّد العميل «رقم 28» قائلًا: «سوف نتتبّع هذه الفرضية»[22].

شارك المحققون الخاصّون المعلومات التي عرفوها مع بيل سميث، صهر مولي، الذي كان يجري تحقيقه الخاص. كان سميث البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا سارق خيول، قبل أن يلتصق بثروة الأوساج من خلال الزواج أوّلًا بأخت مولي، ميني. وبعد ذلك - بعد أشهر فقط من موت ميني من «مرض الهزال» الغامض في العام 1918 تزوج شقيقة مولي، ريتا. في أكثر من مناسبة عندما كان بيل يشرب، كان يضرب ريتا. ذكر أحد الخدم في ما بعد، أنه في إحدى المرّات خرجت ريتا من الخلاف متورّمة من الضرب»[23]. وأخبر بيل الخادم أنّ «هذه هي الطريقة الوحيدة للتوافق مع الهنود». غالبًا ما كانت ريتا تُهدّده بتركه، لكنها لم تفعل ذلك مطلقًا.

ريتا شقيقة مولي

كانت ريتا تتمتّع بعقل راجح، لكنّ المقرّبين منها اعتقدوا بأنّ حكمها ضعيف بما وصفه أحد الأشخاص بأنه «حبّ أعمى»[24]. كانت لدى مولي شكوكٌ بشأن بيل. هل كان مسؤولًا بطريقة ما عن موت ميني؟ كان هيل واضحًا في أنه لا يثق في بيل أيضًا. وهناك محامٍ محلّي أيضًا تكهّن بأن بيل كان «يُمارس الدعارة برباط الزواج المقدّس لتحقيق مكاسب دنيئة»[25].

ولكن منذ مقتل آنّا، سعى بيل بكلّ ما أُوتي من قوّة لاكتشاف من هو الجاني. عندما علم بيل أنّ خيّاطًا في المدينة قد يكون لديه معلومات، ذهب مع المحقق

الخاص لطرح الأسئلة عليه، ليجد أنه كان ينشر الشائعة المألوفة «أنّ روز قتلت آنّا بسبب الغيرة».

في محاولة يائسة لأخذ قسطٍ من الراحة، قرّر المحقّقون الخاصّون تثبيت جهاز استماع للتنصّت على روز وصديقها. في الوقت ذاته، كانت القوانين التي تحكم المراقبة الالكترونية غامضة، كان بيرنز مستخدمًا شغوفًا بدِكتوغراف، وهو جهاز استماع بدائي يمكن إخفاؤه في أيّ شيء من الساعة إلى الثريّا. في العام 1912 ذكرت جريدة لترري دايجست Literary Digest: «كان بيرنز أوّل أميركي[26] يرى الإمكانات الهائلة للأجهزة في العمل البوليسي. إنه مفتون بها لدرجة أنه يحمل دائمًا واحدًا في جيبه». تمامًا كما عُرف آلان بينكرتون في القرن التاسع عشر باسم «العين»، بات بيرنز يُعرف في القرن العشرين باسم «الأذن».

بدأ المحقّقون، المختبئون في غرفة أخرى، بالاستماع إلى أصوات جامدة لروز وصديقها عبر سماعات الأذن. لكن، كما هي الحال في كثير من الأحيان مع المراقبة، أفسحت الحماسة الطريق للضجر من الحياة الخاصّة للآخرين. وتوقّف المحقّقون الخاصّون في النهاية عن تدوين التفاصيل غير المؤذية التي سمعوها.

باستخدام وسائل تقليدية، توصّل المحقّقون الخاصّون إلى اكتشافٍ مذهل. سائق التاكسي الذي أخذ آنّا إلى منزل مولي في اليوم الذي اختفت فيه أخبرهم أنّ آنّا طلبت منه التوقّف أوّلًا عند المقبرة في غراي هورس. صعدت وتعثّرت عبر الحجارة حتى توقّفت عند قبر والدها للحظة. ووقفت بالقرب من المكان الذي كانت هي أيضًا ستُدفن فيه قريبًا، كأنها تُقدّم صلاة حدادٍ على نفسها. ثم عادت إلى السيّارة وطلبت من السائق أن يُرسل شخصًا ليحضر أزهارًا تضعها على قبر أبيها. أرادت قبره أن يكون دومًا جميلًا.

بينما استمروا في الذهاب إلى منزل مولي، اقتربت آنّا منه وكان يشم رائحة أنفاسها الكحولية عندما كشفت أنها ستنجب «طفلًا صغيرًا»[27].

- يا إلهي، لا.

- نعم أنا حامل.

- هل هذا صحيح؟

- نعم.

وأكد المحقّقون في وقت لاحق القصّة مع شخصين مقرّبين من آنّا. كانت قد أسرّت لهما أيضًا بأخبار حملها. ومع ذلك لم يعرف أحد من هو الأب.

في أحد الأيّام من ذلك الصيف، ظهر شخصٌ غريبٌ بشارب يشبه شارب تشارلي شابلن في غراي هورس لتقديم مساعدته للمحقّقين الخاصين. كان الرجل مسلّحًا بمسدّسٍ من عيار 0.44، وكان أفطس الأنف، كالبولدوغ الإنكليزي، واسمه أ. دبليو. كومستوك. كان من السكّان المحلّيين ومحاميًا لأفراد كُثُر من الأوساج الهنود ووصيًّا عليهم. يعتقد بعض السكّان المحلّيين أن كومستوك[28] بأنفه وبشرته السمراء، قد يكون من الأميركيين الهنود، وهو انطباع لم ينفِه في أثناء تدرّجه في مهنته القانونية. وقد علّق محام آخر بتشكّك: «أليس تعريفه بنفسه على أنه هندي سهّل اتفاقه مع الهنود؟». تحرّى ويليام بيرنز عن كومستوك ذات مرّة بزعم مساعدة شركة نفط في مخطّط لرشوة مجلس الأوساج القبلي للحصول على عقد إيجار. لكنّ التهمة لم تُثبت عليه.

نظرًا لعلاقات كومستوك مع الأوساج، وافق المحقّقون على عرضه للمساعدة. وبينما كان المحقّقون يحاولون إقامة علاقة وصل بين عمليتي القتل لكل من تشارلز وايتهورن وآنّا براون، نقل كومستوك الحكايات التي جمعها من شبكته من المخبرين. كانت هناك ثرثرة بأنّ أرملة وايتهورن، هاتي، تطمع بمال زوجها، وكانت تغار من علاقته مع امرأة أُخرى. هل يمكن أن تكون هذه المرأة هي آنّا براون؟ أدّت هذه الفرضية إلى السؤال المنطقي التالي: هل كان وايتهورن والد طفلها؟

بدأ المحقّقون بمتابعة هاتي وايتهورن على مدار الساعة، مستمتعين بالقدرة على الرؤية من دون أن يراهم أحد. «لاحق العميل السيدة وايتهورن إلى أوكلا، مدينة في پوهوسكا إلى حين مغادرتها، متوجهةً إلى غوثري ومن ثمّ إلى تولسا وأخيرًا إلى پوهوسكا»[29]، من دون أن يتوصّل إلى شيء. بحلول شباط/فبراير 1922، بعد تسعة أشهر من مقتل وايتهورن وآنّا براون، بدت التحقيقات في القضيّتين كأنها وصلت إلى طريق مسدود. غادر بايك، المحقّق الذي جنّده هيل. كما أنّ الشريف فرياس أوقف عن قيادة التحقيق؛ وفي شباط/فبراير من ذلك العام، طُرِد من منصبه بعد أن وجدته هيئة المحلّفين مذنبًا بفشله في تطبيق القانون.

في ليلة شديدة البرودة في ذلك الشهر، تلقّى ويليام ستيبسون، بطل مسابقات رعاة البقر في الأوساج البالغ من العمر عشرين عامًا، مكالمة دفعته إلى مغادرة منزله في فيرفاكس، ومن ثمّ عاد إلى منزله وإلى زوجته وطفليه. وظهرت بعد ساعات علامات المرض عليه واضحة. كان ستيبسون في حال رائعة ويتمتّع بصحة جيدة، ولكن في غضون ساعات توفي. اعتقدت السلطات، عند فحص الجثّة، أنّ شخصًا قابله في أثناء رحلته ووضع له سمًّا[30]، ربّما الإستركنين، وهو سائل مرّ أبيض شبه قَلَوي. وفق أطروحة طبّية من القرن التاسع عشر، «هذا السمّ يملك طاقة تدميرية كبيرة» أكثر من أيّ سمّ آخر. وصفت الأطروحة كيف حُقِن حيوان مختبر بالإستركنين وما هي المراحل التي يمرّ بها، «فقد يهتاج ويرتجف، ثم تمتدّ أطرافه وتتصلّب، وتزداد هذه الأعراض حتى الوصول إلى نوبة تشنّج عنيفة يرجع فيها الرأس إلى الخلف، ويتصلّب العمود الفقري، والأطراف، وينقطع التنفّس عندما ينهار القفص الصدري»[31]. من المؤكّد أنّ ساعات ستيبسون الأخيرة كانت عذابًا بشعًا، فقد تشنّجت عضلاته كأنه يتعرّض لصدمة كهربائية، فشُدّت رقبته وفكّه، وضاقت رئتاه عندما حاول التنفّس حتى اختنق أخيرًا.



ويليام ستيبسون

بوفاة ستيبسون، كان العلماء قد ابتكروا أدوات عدة لاكتشاف السموم في الجثّة، يمكن أن تكون عيّنة من الأنسجة يتمّ استخراجها من الجسم واختبارها لوجود المواد السامّة - من الإستركنين إلى الزرنيخ - ومع ذلك، فإنه في كثير من البلاد تُطبّق طرائق الطبّ الشرعي هذه بشكل أقلّ اتساقًا من تقنيات رفع بصمات الأصابع، ودراسة مقذوفات الأسلحة. في العام 1928، خلص مسح أجراه المجلس القومي للبحوث إلى أنّ الطبيب الشرعي في

معظم مقاطعات الولايات المتحدة، «غير مدرّب وغير متخصّص ولديه فريق عمل صغير ذو قدرة متواضعة، مع معدّات غير كافية»[32]. في أماكن مثل مقاطعة الأوساج، لم يكن هناك طبيب مدرّب على الطبّ الشرعي ولا يوجد مختبر للجريمة. كان التسميم يُعتبر الطريقة المثالية لارتكاب جريمة قتل. وكانت السموم متوافرة بكثرة في المنتجات الموجودة على رفوف الصيدليات ومحلّات البقالة. وعلى عكس الطلقات النارية، فأنها تنفّذ من دون صوت، وتحاكي أعراض عدد من المواد السامّة الأمراض الطبيعية، مثل الغثيان والإسهال، والكوليرا، أو أعراض الذبحة القلبية. في أثناء الحظر الوطني للمشروبات الكحولية، كان هناك كثير من الوفيات العَرَضية الناجمة عن كحول الخشب (الميثانول)، والمشروبات السامّة الأخرى من الويسكي غير الشرعي، التي يمكن أن يضعها القاتل أيضًا في كأس من مشروب (مون شاين) لشخصٍ ما من دون إثارة الشكوك.

في 26 آذار/مارس من العام 1922، بعد أقلّ من شهر من وفاة ستيبسون، ماتت امرأة أُخرى من الأوساج واشتُبِه في تسمّمها. ومرّة أخرى، لم يُجرَ فحص السموم الشامل. ومن ثم، في 28 تموز/يوليو، حصل جو بيتس، وهو رجلٌ من الأوساج في الثلاثينات من عمره، من شخص غريب على بعض الويسكي، وبعد أن أخذ رشفة، ظهرت رغوة على فمه قبل أن يقع أرضًا. هو أيضًا مات بسبب ما وصفته السلطات بسمّ غريبٍ، تاركًا وراءه زوجة وستّة أطفال.

في آب/أغسطس من ذلك العام، استمر عدد الوفيات المشبوهة بالتزايد، وحثّ عدد من الأوساج، بارني ماكبرايد، وهو رجل نفط أبيض ثري يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، على الذهاب إلى واشنطن العاصمة، ومطالبة السلطات الفدرالية بالتحقيق. كان ماكبرايد أرملًا لامراة هنديّة من كريك، وكان يربّي ابنة زوجته. ولديه اهتمام كبير بالشؤون الهندية في أوكلاهوما. وكان الأوساج يثقون به، ووصفه أحد المراسلين بأنه، «طيّب القلب، ورجل أبيض الشعر»[33]. وبالنظر إلى أنه يعرف أيضًا كثيرًا من المسؤولين في واشنطن، كان يُعتبر رسولًا مثاليًّا.

عندما سجّل ماكبرايد وصوله إلى غرفة في العاصمة، وجد برقية من زميل في انتظاره تقول: «كُنْ حذرًا»[34]. كان ماكبرايد يحمل معه الكتاب المقدّس ومسدّسًا من عيار 0.45. في المساء، توقّف في نادي ألكس للعب البلياردو. عندما خرج، أمسكه شخصٌ

ما، ورُبط كيس خيش بإحكام في رأسه. في صباح اليوم التالي، عُثر على جثة ماكبرايد في مجرى مائي في ولاية ميريلاند. وكان قد طُعن أكثر من عشرين مرّة، وتعرّضت جمجمته للضرب، وجُرّد من ثيابه، باستثناء جوربه وحذائه، الذي تُركت بطاقة باسمه في إحدى فردتيه. وأشارت أدلة الطبّ الشرعي إلى أنه كان هناك أكثر من مهاجم. وتشتبه السلطات في أنّ قاتليه كانوا يراقبونه من أوكلاهوما.

وصلت أخبار القتل بسرعة إلى مولي وعائلتها. ووصفت صحيفة واشنطن بوست جرائم القتل هذه «بأنها الأكثر وحشية في سجلّات الجريمة في المنطقة»[35]. يبدو أنه أكثر من مجرّد ملفّ قتل. إنه يحمل بصمات رسالة تحذير». وعنونت واشنطن بوست «ما بدا واضحًا بتزايد، أنها مؤامرة لقتل الهنود الأغنياء»[36].

6 ..... شجرة المليون دولار

حتى مع استمرار جرائم القتل[1]، استمرّ قدوم بارونات النفط الأعظم في العالم. كلّ ثلاثة أشهر، يصل أصحاب شركات النفط - بمن فيهم: أيه. دبليو مارلاند، وبيل سكيلي، وهاري سنكلير وفرانك فيليبس وإخوانه، الساعة العاشرة صباحًا إلى محطة القطار في پوهوسكا، في عربات القطار الفاخرة الخاصّة بهم. وتُبشّر الصحافة في النشرات عند مجيئهم: «أصحاب الملايين على وشك الوصول[2]. تقدّم مدينة پوهوسكا اليوم نفسها إلى رجال النفط، وهم بالمقابل ينتظرون هذه اللحظة بفارغ الصبر»[3].

يأتي البارونات طمعًا في إجراء عقود إيجارات لأراضي الأوساج، وهو حدثٌ يُعقد حوالى أربع مرات في السنة وتُشرف عليه وزارة الداخلية، وأطلق عليه أحد المؤرخين لقب:



فرانك فيليبس (في أسفل الدرج) وأصحاب شركات نفط آخرون يصلون إلى منطقة الأوساج في العام 1919

«مونتي كارلو الأوساج»[4]. منذ أن بدأت المزادات، في العام 1912، لم يكن هناك سوى جزءٍ من محمية الأوساج الواسعة تحت الأرض مفتوحة للحفر، في حين أنّ المناقصات الخاصّة بعقد إيجار واحد، والتي عادة ما تغطّي مساحة 160 فدانًا، قد ارتفع سعرها ارتفاعًا كبيرًا. في العام 1923، قالت صحيفة ديلي أوكلاهومان Daily Oklahoman: «ملايين بروستر، بطل القصّة، أودت به إلى انهيار عصبي في محاولته لصرف مليون دولار في عام واحد. هل زار بروستر أوكلاهوما؟... كان يمكن أن ينفق مليون دولار بإيماءة صغيرة واحدة من رأسه»[5].

أُقيمت المزادات في طقس جيد وفي الهواء الطلق على قمّة تلة في بوهوسكا، تحت ظلّ شجرة كبيرة تُعرف باسم دردارة المليون دولار. كان المتفرّجون يأتون من على بُعد أميال، ومن بينهم إرنست، ومولي وأعضاء آخرون من القبيلة. بحسب ما ذكرت وكالة أسوشيتيد برس (Associated Press)، ناشرةً الصور النمطية المعتادة، «هناك لمسة من اللون في الجماهير أيضًا، لهنود أوساج، غالبًا ما يكونون مشاهدين متحفّظين ولكنّهم مهتمّون»[6].

المستوطنون البارزون مثل هيل، مالك شركة بيغ هيل التجارية، وماتيس، اهتموا كثيرًا بالمزادات. وساعد تدفّق الأموال إلى المجتمع من الطفرة النفطية، في بناء أعمالهم، وتحقيق أحلامهم، التي بدت خيالية في ما مضى، بتحويل البراري إلى منارة للتجارة.

كان مدير المزاد العلني - وهو رجلٌ أبيض طويل القامة ذو شعرٍ رقيق وصوت عامر- يخطو خطواته إلى تحت الشجرة. وكان يرتدي، في العادة، قميصًا مُخطّطًا مبهرجًا وربطة عنق طويلة، وكانت ساعته المتّصلة بسلسلة معدنية تتدلّى من جيبه.

يترأّس مدير المزاد العلني كلّ مبيعات إقليم الأوساج، ولقبه، الكولونيل، جعله يبدو وكأنه من قدامى المحاربين في الحرب العالمية الأولى. وفي الواقع كان جزء من اسمه في المعمودية: الكولونيل إلسورث إي والترز. يحث الكولونيل كرجل استعراض محترف، المزايدين بأقوال شعبية مثل: «هيا يا شباب، هذا القطّ البرّي القديم لديه كثير من القطط الصغيرة»[7].

كانت عقود الإيجار لأراضي النفط الأقلّ قيمة تُعرض أولًا، ولذلك يبقى البارونات في الخلف، فاسحين المجال للمبتدئين. ويتذكّر جان بول جيتي الذي حضر مزاداتٍ



الكولونيل والترز يجري مزادا تحت شجرة الدردار شجرة المليون دولار

كثيرةً في الإقليم، كيف يمكن لعقد إيجار واحد لأراضي النفط أن يغيّر مصير رجل: «لم يكن غريبًا أن يتحوّل من منقّب بئر لا يملك شيئًا من النقود أو الائتمان ليتمكّن من خلالها من شراء مزيد من الآبار، لكي يعثر على بئرٍ تجعله رجلًا ثريًا»[8]. وفي الوقت نفسه، قد تؤدّي المناقصة الخاطئة إلى الخراب: «كانت الثروات تُصنع - وتُبدّد - يوميًّا».

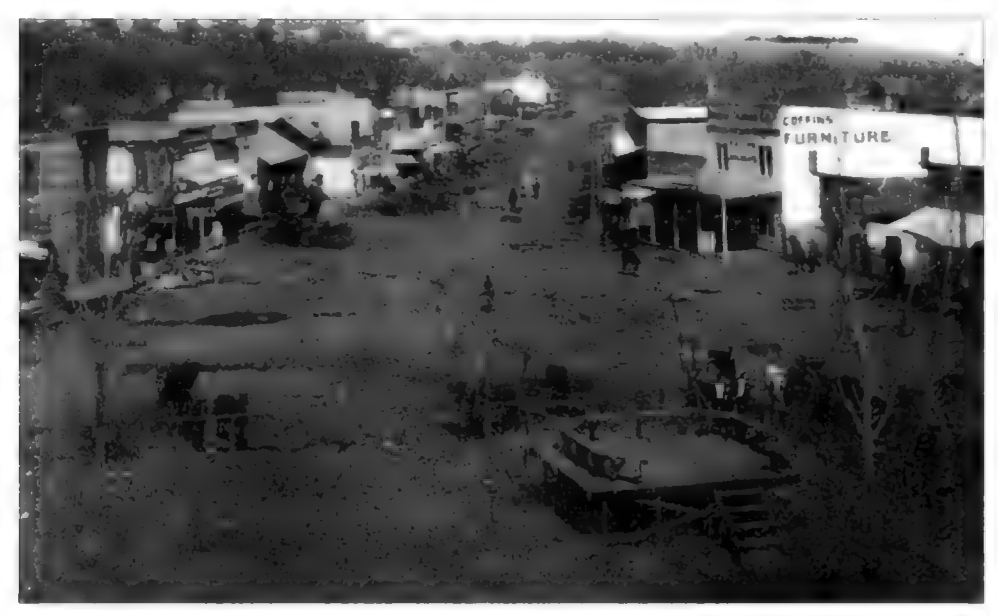
يدقّق رجال النفط[9] في الخرائط الجيولوجية بقلق ويحاولون جمع معلومات استخبارية عن عقود الإيجار من الرجال الذين وظّفوهم، وهم من جامعي الصخور والمعادن، والجواسيس. بعد استراحة لتناول طعام الغداء، استمر المزاد على عقود الإيجار الأكثر قيمة، وتحوّلت نظرة الحشد حتمًا تجاه أباطرة النفط الذين تجاوزت سلطتهم، سلطة بارونات السكك الحديدية في القرن التاسع عشر. بدأ بعضهم في استخدام نفوذهم لثني مسار التاريخ. في العام 1920، ساعد سنكلير ومارلاند ورجال نفط آخرون على تمويل المحاولة الرئاسية الناجحة لوارن هاردينغ. أخبر أحد رجال النفط من أوكلاهوما صديقًا له، أنّ ترشيح هاردينغ كلّفه مليون دولار، وأشار أحد

المؤرخين إلى أنّ وجود هاردينغ في البيت الأبيض «يُشعر رجال النفط بالسعادة». أرسل سنكلير، تحت غطاء شركة وهمية، 200 ألف دولار لوزير الداخلية الجديد ألبرت ب. فال، وأوصل رجل نفط آخر مع ابنه مبلغ مئة ألف دولار إلى الوزير نفسه في حقيبة سوداء.

في المقابل، سمح الوزير للبارونات بالاستفادة من الاحتياطيات النفطية الاستراتيجية للبحرية التي لا تُقدّر بثمن. وتلقّى سنكلير عقد إيجار حصري لحفر بئرٍ في وايومنغ، والتي، بسبب شكل صخرة من الحجر الرملي بالقرب منها، كانت تُعرف باسم قبّة إبريق الشاي Teapot Dome. وحذّر رئيس شركة ستاندرد أويل مساعدًا سابقًا في حملة هاردينغ، قائلًا «أنا أفهم أنّ وزارة الداخلية على وشك توقيع عقد إيجار حصري في «تي بوت دوم»، ورائحة الرشوة تفوح منه في كامل قطاع النفط... وأظن أنه من الأفضل إطلاع الرئيس على ذلك»[10].

كانت المكافآت غير المشروعة في ذلك الوقت مجهولةً للجمهور. أفسحَتْ الحشود الشوارع أمام أمراء الرأسمالية – البارونات، عندما كانوا يتوجّهون نحو شجرة المليون دولار. في أثناء المزايدات، كانت المشاحنات بين الأباطرة في بعض الأحيان عنيفة ودموية. ذات مرّة، بدأ فرانك فيليبس وبيل سكيلي بالقتال، متدحرجين على الأرض مثل حيوانات الراكون المسعورة، بينما أومأ سنكلير برأسه إلى الكولونيل وخرج منتصرًا مع عقد إيجار بين يديه. قال أحد المراسلين: «لم يسبق للمخضرمين في بورصة نيويورك أن شاهدوا تدافعًا مثيرًا بين الناس، مثل ما شاهدوه من تدافع رجال النفط المرموقين الذين ألقوا بأنفسهم في معارك المزايدات للوصول إلى عقود الإيجار»[11].

في 18 كانون الثاني/يناير من العام 1923، وبعد خمسة أشهر من مقتل ماكبرايد، تجمّع عدد من كبار رجال النفط في مزادٍ آخر[12]. ولكنهم التقوا في مسرح قسطنطين في بوهوسكا، لأنه كان فصل الشتاء. ويُوصف مسرح قسطنطين بأنه «أرقى مبنى من نوعه في أوكلاهوما»[13]. كانت للقاعة أعمدة يونانية وجداريات وقلادة من الأضواء تحيط خشبة. وكالعادة، بدأ الكولونيل بالإيجارات الأقلّ قيمة. وقال: «على ماذا سنُزَايَد اليوم؟» مضيفًا: «تذكّروا، لا توجد مساحات تُباع بسعر أقلّ من خمسمئة دولار»[14].



وسط مدينة بوهوسكا في العام 1906، قبل طفرة النفط

التحوّل الذي طرأ على بوهوسكا في أثناء طفرة النفط

خرج صوت من الحشود: «خمسمئة».

قال الكولونيل مزهوًّا: «سنزَايَد بخمسمئة. من سيجعلها ستمئة ؟ خمسة يذهب إلى ستّة. خمسة وستة وخمسة وستّة - شكرًا - ستّة، الآن سبعة، ستّة الآن سبعة...» توقّف الكولونيل، ثم صرخ: «بيعت، لهذا الرجل مقابل ستمئة دولار».

على مدار اليوم، زادت قيمة المزايدات الخاصّة بالمساحات الجديدة بشكلٍ مطّرد، عشرة آلاف... خمسون ألفًا... مئة ألف.

قال الكولونيل ساخرًا: «وول ستريت تستيقظ».

تمّ بيع «العقد رقم 13» بأكثر من ستمئة ألف دولار إلى سنكلير.

أخذ الكولونيل نفسًا عميقًا، وقال: «العقد رقم 14» الذي كان في وسط حقل بوربانك الغني. صمت الحشد لبرهة من الوقت، ثم ارتفع صوتٌ متواضعٌ من وسط الغرفة: «نصف مليون». كان ممثّل عن شركة جبسي أويل التابعة لشركة غلف أويل من وضع هذا الرقم، وكان جالسًا على ركبتيه أمام خريطة، ولم ينظر إلى أعلى.

وسأل الكولونيل: «من سيجعلها ستمئة ألف؟».

كان الكولونيل معروفًا بقدرته على كشف أصغر الإشارات والإيماءت من مقدّمي المناقصات في المزادات. كان فرانك فيليبس وواحد من إخوته يستخدمون إشارات غير محسوسة تقريبًا - مثل رفع الحاجب، أو نفض الغبار عن السيجار. قال فرانك مازحًا إنّ شقيقه كلفهما ذات مرة مئة ألف دولار عن طريق ضرب ذبابة.

عرف الكولونيل جمهوره وأشار إلى رجلٍ شعره رمادي اللون يحمل سيجارًا غير مشتعل بين أسنانه، كان يمثّل مجموعة من المصالح التي تضمّ فرانك فيليبس وسكيلي - اللذين تخاصما قديمًا، ولكنهما أصبحا حليفين الآن. الرجل ذو الشعر الرمادي قدّم إيماءة غير مرئية تقريبًا، صاح الكولونيل: «سبعمئة» مشيرًا بسرعة إلى المزايد الأوّل، ومن ثمّ رأى إيماءةً أخرى.

قال الكولونيل: «ثمانمئة».

عاد إلى المزايد الأوّل، الرجل صاحب الخريطة، الذي قال: «تسعمئة».

إيماءة أخرى من الرجل ذي الشعر الرمادي الذي يحمل سيجارًا غير مشتعل، ردّد الكولونيل عبارة: «مليون دولار».

ومع ذلك، استمرّت المزايدات في الارتفاع، «مليون ومئة ألف الآن».

قال الكولونيل: «أحد عشر - الآن إثنا عشر - الآن إثنا عشر». أخيرًا، لم يتكلّم أحد، فحدّق الكولونيل إلى الرجل ذي الشعر الرمادي، الذي كان ما يزال يمضغ سيجاره غير المشتعل. قال مراسل في الغرفة: «يتمنّى المرء مزيدًا من الهواء». ومن ثمّ قال الكولونيل: «هذه بوربانك، يا رجال، لا تكونوا بخلاء». ولكن، لم يتحرك أحد أو ينطق بكلمة.

صاح الكولونيل: «بيعَتْ! بمليون ومئة ألف دولار».

يبدو أنّ كلّ مزاد جديد يتجاوز المزاد السابق، بتسجيله كأعلى مزاد واحد من حيث مجموع الملايين التي جمعت. بيع عقد إيجار واحد مقابل حوالى مليوني دولار، في حين قفز أعلى إجمالي تمّ جمعه في مزاد إلى حوالى 14 مليون دولار. كتب مراسل من مجلة هاربرز الشهرية Harper's Monthly Magazine: «أين ستنتهي؟ في كلّ مرّة تُحفر بئر جديدة، يُصبح الهنود أكثر ثراءً»[15]. وأضاف: «هنود الأوساج أصبحوا أثرياءً إلى درجةٍ أنّه يجب القيام بشيءٍ ما حيال ذلك»[16].

أعرب عدد متزايد من الأميركيين البيض عن قلقهم بشأن ثروة الأوساج، وسببه هو الغضب الذي أذكته الصحافة. فقد روى الصحافيون قصصًا، غالبًا ما تكون موضوعة، عن الأوساج الذين تخلّصوا من آلات البيانو الكبيرة برميها في مروجهم أو استبدلوا



ادّعت الصحافة أنه في حين أن واحدًا من كل 11 أميركيا يمتلك سيارة، فإن شخصًا من الأوساج كان لديه تقريبًا إحدى عشرة سيارة

السيّارات الجديدة بأخرى قديمة بسبب إطار مثقوب. وكتبت مجلة ترافل Travel أنّ «الهندي من الأوساج هو اليوم أمير التبذير. إذا حكمنا من خلال إنفاقه المال، كان ببساطة، الابن الضال الذي يهوى الرخيص من الأشياء ولديه ولعٌ متوارثٌ بالقشور». استفزّ خطاب موجّه إلى محرّرٍ في صحيفة الإندبندنت Independent الأسبوعية، مشاعر الناس بأنّ رجل الأوساج النموذجي الكسول والذي لا تستطيع الاستفادة منه، يحصل على الثروة لمجرّد أنّ الحكومة حدّدت له الأرض التي وُجد فيها النفط ونحن اقتطعناها له[17]. يتذكّر جون جوزيف ماثيوز بمرارة المراسلين «استمتع الهنود بصدمة الثروة الغريبة على رجال من العصر الحجري، وبعجرفة مصطنعة، وحكمة الأميين»[18].

نادرًا ما ذكرت الروايات أنّ الأوساج استثمروا أموالهم بمهارة، أو أنّ بعض إنفاق الأوساج[19]، ربّما عكس عادات الأجداد في إكرام ضيوفهم بما يتماشى مع المكانة القبلية لهم. وكان ذلك بالتأكيد في خلال فترة العشرينيات الصاخبة، وهو الوقت المميّز الذي أسماه ف.سكوت فيتزجيرالد «أعظم فورة مُبهرجة في التاريخ»[20]. لم يسرف الأوساج وحدهم. فمارلاند، بارون النفط الذي وجد حقل بوربانك، بنى قصرًا من اثنتين وعشرين غرفة في مدينة بونكا، ثم تخلّى عنه لواحدٍ أغنى منه. بالإضافة إلى تصميم داخلي على غرار قصر «دافانزاتي» في فلورنسا في القرن الرابع عشر، كان المنزل يحتوي على خمس وخمسين قاعة (بما في ذلك قاعة رقص تحتوي على سقف من أوراق الذهب وثريّات كريستال ووترفورد) واثني عشر حمامًا، وسبع مدافئ، وثلاثة مطابخ، ومصعد مبطّن من جلد الجاموس. وتحتوي الأراضي على حمّام سباحة وملعب بولو ومضمار للغولف وخمس بحيرات مع جزر. عندما سُئل مارلاند عن هذا الإفراط، لم يعتذر، وقال: «بالنسبة إليّ، فإنّ الغرض من المال هو الشراء والبناء. وهذا ما لديَّ لأفعله، وإذا كان هذا ما يقصدونه، فأنا مذنب»[21]. بعد مرور بضع سنوات، أَفلس وخسر كلّ شيء، إلى درجة أنه لم يستطع تحمّل فاتورة الكهرباء واضطرّ إلى إخلاء قصره. بعد فترة قضاها في السياسة، حاول اكتشاف بئر أخرى لكنه فشل. وقال المهندس الخاص به: «في المرّة الأخيرة[22] التي رأيته فيها، أعتقد أنه كان يجلس على برميل خشبي من نوع ما هناك في شمال شرق المدينة. كانت السماء تمطر وكان يرتدي معطفًا وقبعة واقيين من المطر لكنه كان يجلس حزينًا ومكتئبًا. كان اثنان أو ثلاثة رجال يعملون في جهاز الحفر المحمول الخاص به ويأملون العثور على النفط. لذلك خرجت والغصّة في قلبي

والدموع في عينيّ». إنه رجل نفط مشهور آخر في أوكلاهوما أحرق خمسين مليون دولار وانتهى به الأمر في عداد الفقراء».

لا يستطيع كثرٌ من الأوساج، على عكس الأميركيين الأثرياء الآخرين، إنفاق أموالهم كما يحلو لهم بسبب نظام الأوصياء الماليين المفروض عليهم اتحاديًّا. (ادّعى أحد الأوصياء أنّ رجلًا بالغًا من الأوساج يشبه «طفلًا عمره ست سنوات أو ثماني، عندما يرى لعبة جديدة يريد شراءها»)[23] وقد ألزم القانون الهنود بالأوصياء الأميركيين لكل فردٍ تعتبره وزارة الداخلية «غير كفء». في الممارسة العملية، فإنّ قرار تعيين وصيّ - لجعل الهندي الأميركي، في الواقع، نصف مواطن- كان يعتمد دائمًا على أصول الهنود، إذا كان نصفهم أبيض والآخر هنديًا، أو كان هنديًا أصيلًا من أب وأم هنديين. أو بحسب ما أشار إليه قاضي المحكمة العليا للدولة باسم «الضعف العرقيّ»[24].

يُعين، على الدوام، وصيّ لكلّ أميركي هندي أصيل، بينما مختلط الدم، أيّ الذي نصفه أميركي ونصفه الآخر هندي، فإنه نادرًا ما يُعيّن عليه وصيّ. جون بالمر، اليتيم الذي كان جزءًا من سيوكس، وتبنّته عائلة من الأوساج، أدّى دورًا فعّالًا في الحفاظ على حقوق القبيلة من الثروات المعدنية والنفطية، فقد ناشد أعضاء الكونغرس: «لا تدعوا نسبة كمية الدم الأبيض أو كمية الدم الهندي تُحدّد المبلغ الذي تسيطرون عليه من أموال أعضاء هذه القبيلة. لا يهمّ نسبة كمية الدمّ الهندي، أنتم أيها السادة المحترمون لا تتعاملون مع أشياء من هذا النوع»[25].

لقد تمّ تجاهل مثل هذه المناشدات، وكان أعضاء الكونغرس يجتمعون في غرف اللجان المغطّاة بألواح خشبية ويمضون ساعات طويلة لفحص نفقات الأوساج بتفاصيل دقيقة، كأنّ أمن البلد على المحكّ. في جلسة استماع للجنة الفرعية في مجلس النواب في العام 1920، أرسل المشرّعون مفتّشًا حكوميًّا للتحقيق في قضية عادات الإنفاق في القبيلة، بما في ذلك تلك الخاصّة بعائلة مولي. فقد استعرض المحقّق باستياء، الدليل «كاف» (Exhibit Q): فاتورة بمبلغ 319.05 دولارًا كانت لوالدة مولي، ليزي مجمّعة في الملحمة قبل موتها.

أصرَّ المحقّق على أنّ الشيطان كان مسيطرًا على الحكومة عندما تفاوضت على اتفاقية حقوق النفط للقبيلة. وصرّح بكل غضبٍ وحقدٍ: «لقد زرت وعملت في معظم مدن

بلادنا، وأنا أكثر أو أقل دراية بمجارير أعمالهم القذرة. ومع ذلك، لم أقدّر أبدًا قصّة سدوم وعمورة، التي أثبتت خطاياهم ورذائلهم ضرورة موتهم وفنائهم، حتى زرت هذه الأمّة الهندية»[26].

ناشد الكونغرس أن يتّخذ إجراءات أكبر. «كل رجل أبيض في مقاطعة الأوساج سيخبرك أنّ الهنود أمسوا الآن متوحّشين»، مضيفًا: «لقد حان الوقت الذي يجب علينا فيه أن نبدأ تقييدنا لهذه الأموال، أو أن ننبذ من قلوبنا وضمائرنا أيّ أملٍ لدينا لتحويل هندي الأوساج إلى مواطن حقيقي»[27].

حاول عدد قليل من أعضاء الكونغرس والشهود التخفيف من جعل الأوساج كبش فداء. في جلسة لاحقة، اعترف قاضٍ كان بمنزلة وصيٍّ، بأنّ طريقة إنفاق الأثرياء الهنود الثروة لا تختلف عن طريقة البيض. «هناك قدرٌ كبير من الإنسانية حول هؤلاء الأوساج»[28]. وجادل هيل أيضًا في أنّ الحكومة لا ينبغي أن تُملي على الأوساج القرارات المالية.

في العام 1921، وبينما كانت الحكومة قد تبنّت نظامًا غذائيًّا للدفع للأوساج مقابل الأراضي المصادرة، - بدت دائمًا كأنها تحوّل إنجيل التنوير إلى مطرقة إكراه- طبّق الكونغرس تشريعات أكثر قسوةً تتحكّم في كيفية إنفاق الأوساج أموالهم. لن يستمر الأوصياء بالإشراف على أموالهم فحسب، ففي القانون الجديد قُيِّدت سحوبات أموال هؤلاء الهنود الذين لديهم الأوصياء، ما يعني أنّ كلّ واحدٍ منهم لا يستطيع سحب أكثر من بضعة آلاف من الدولارات سنويًا من صندوقه الائتماني. ولا يهمّ ما إذا كان هؤلاء الأوساج يحتاجون إلى أموالهم لدفع تكاليف التعليم أو فواتير علاج طفلٍ مريض. قال رئيس القبيلة بالوراثة، والذي كان في الثمانينات من عمره، في بيانٍ صادر للصحافة: «لدينا كثير من الأطفال الصغار، نريد تربيتهم وتعليمهم، نريدهم أن يكونوا مرتاحين، ولا نريد أن يحتجز مالنا شخص لا يهتم بنا في أيّ شيء». وتابع: «نريد أموالنا الآن. إنها لنا، ولا نُريد أن يقوم رجلٌ مستبدٌّ بحجزها حتى لا نستطيع استخدامها... إنه ظلمٌ لنا جميعًا. لا نُريد أن نُعامل مثل الأطفال الصغار. نحن رجال وقادرون على الاعتناء بأنفسنا»[29]. وبصفتها هندية أصيلة (بالدم)، كانت مولي من بين أولئك الذين قُيِّدت أموالهم، لكن زوجها إرنست، كان هو وصيّها.

لم تكن الحكومة الفدرالية وحدها هي التي تتدخّل بالشؤون المالية للقبيلة. فقد وجد الأوساج أنفسهم محاطين بالحيوانات المفترسة - «قطيع من الصقور»[30] - كما وصفهم أحد أفراد القبيلة في المجلس. سعى المسؤولون المحلّيون الفاسدون إلى التهام ثروات الأوساج. وتمت عمليات سطو مسلّح لسرقة حساباتهم المصرفية. وطالب التجّار من الأوساج بدفع أسعار «خاصة» مبالغٍ فيها. وحاول المحامون والمحاسبون عديمو الضمير استغلال قانون الأوساج السيّئ. كانت هناك امرأة بيضاء، تبلغ من العمر ثلاثين عامًا في ولاية أوريغون، بعثت برسالة إلى القبيلة تطلب فيها ثريًّا من الأوساج للزواج: «هل يمكن أن تُخبر أغنى هندي لديكم بأن يتزوّجني؟ سوف يجدني امرأةً جيدةً وحقيقية»[31].

في جلسة استماع في الكونغرس، تمّ تعيين رئيس آخر للأوساج يُدعى بيكون ريند. وقد ذكر ريند أنّ البيض، «رحّلونا إلى آخر الغابات الخلفية، وهو الجزء الأكثر وعورة في الولايات المتحدة، معتقدين، أننا سنقود هؤلاء الهنود إلى حيث توجد كومة كبيرة من الصخور وسنوضع هناك في تلك الزاوية». ولكن تبيّن الآن، أنّ كومة الصخور هذه تساوي ملايين الدولارات. «والكلّ يريدون الدخول إلى هنا والحصول على بعضٍ من هذه الأموال»[32].

7 الظلام

تحوّل الطقس إلى برودة شديدة في الأيّام الأولى من شباط/فبراير من العام 1923، ففلَقت الرياح الجليدية السهول، وتَناوَحت الوديان وأغصان الأشجار، وأصبحت البراري صلبة كالحجر، واختفت العصافير من السماء، وبدت الشمس شاحبة وبعيدة.

ذات يوم، كان رجلان في رحلة صيد على بُعد أربعة أميال شمال غرب فيرفاكس عندما رصدا سيّارة في قاع مستنقع صخري. وبدلًا من الاقتراب منها، عاد الصيادان إلى فيرفاكس وأبلغا السلطات[1]. ذهب نائب العمدة والمارشال للتحقيق. وقُبَيْلَ المغيب سارا في منحدر شديد نحو السيّارة. كانت السيّارة محاطة بستائر تحجب النوافذ، مثل كثير من السيارات في ذلك الوقت. كانت السيّارة من نوع بويك، تشبه التابوت الأسود. وكانت هناك فتحة صغيرة في الستارة إلى جانب السائق، أطلّ نائب العمدة من خلالها ورأى رجلًا نائمًا خلف المقود فقال: «من الممكن أن يكون مخمورًا»[2]. لكنه عندما فتح باب السائق، رأى الدم على المقعد وعلى الأرضية. فقد أُطلقَتْ رصاصة قاتلة على رأس الرجل، ولم يكن إلى جانبه أي بندقية، فتم استبعاد فكرة الانتحار. وقال النائب في وقتٍ لاحقٍ: «إنها جريمة قتل»[3].

منذ القتل الوحشي لرجل النفط ماكبرايد، مرّ حوالى ستة أشهر من دون اكتشاف جريمة قتل مشبوهة. ومع ذلك، عندما حدّق الرجلان إلى الضحيّة داخل السيّارة، أدركا أنّ القتل لم يتوقّف. كانت الجثّة متجمّدة من البرد، وهذه المرّة لم يكن لدى رجال القانون مشكلة التعرّف إلى الضحية، إنه هنري روان، هندي يبلغ من العمر أربعين عامًا، متزوّج وله ولدان. كان شعره ذات مرة على شكل ضفيرتين طويلتين قبل إجباره على قصّهما في المدرسة الداخلية. كما أُجبر على تغيير اسمه إلى روان هورس. حتى


هنري روان

من دون الضفائر - وهو مدفون في السيّارة - كانت معالم وجهه الطويل والوسيم وجسمه النحيل تستحضر مظهر محارب الأوساج.

عاد رجلا القانون إلى فيرفاكس، وأبلغا القاضي. كما تأكّدا من إبلاغ هيل بالأمر. فتذكّر عمدة فيرفاكس مرّة، «أنّ روان كان يعتبر دبليو ك. هيل أعزّ أصدقائه»[4].

كان روان من السكّان الأصليين (أي من جهة الأب والأم)، وكان ممنوعًا من صرف أمواله. فكان في كثير من الأحيان يطلب من هيل السيولة النقدية. ويتذكّر هيل لاحقًا: «كنّا صديقين جيّدين، وكان يطلب مساعدتي عندما يكون في ورطة»[5]، مضيفًا أنه منح صديقه قروضًا كثيرة لدرجة أنّ روان سجّله على أنه المستفيد من بوليصة التأمين على الحياة البالغة 25 ألف دولار.

قبل أسبوعين من وفاته، اتصل روان بهيل، وهو مضطرب. علم روان أنّ زوجته كانت على علاقة غرامية مع رجل يُدعى روي بانش. ذهب هيل لزيارة روان وحاول مواساته.

بعد أيّام عدّة، التقى هيل روان في البنك وسط مدينة فيرفاكس، سأله روان عمّا إذا كان يمكنه اقتراض بضعة دولارات؛ كان ما يزال كئيبًا بشأن خيانة زوجته، وكان يريد الحصول على مشروب (مون شاين). ونصحه هيل بعدم شراء أيّ نوع من الويسكي: «هنري، من الأفضل لك ترك ذلك. إنه يؤذيك»[6]. وحذّره من أنّ رجال الحظر الوطني للمشروب الكحولي سوف يلقون القبض عليه. قال روان: «لن أحضر أيّ زجاجة إلى المدينة، سأخفيها».

ثم اختفى روان حتى ظهرت جثّته. مرّةً أخرى، بدأت الطقوس المروّعة؛ عاد نائب العمدة والمارشال إلى الوادي، وذهب هيل معهما. في ذلك الوقت، غطّى الظلام مسرح الجريمة واصطفّ الرجال بسياراتهم على التلّة وسُلّطت مصابيحهم الأمامية إلى أسفل، إلى ما أسماه أحد مسؤولي إنفاذ القانون «حقًا، إنه وادي الموت»[7].

بقي هيل على قمّة التلّة وشاهد بدء تحقيق الطبيب الشرعي، والرجال يتحرّكون إلى داخل سيّارة روان المظلّلة وخارجها. وخلص أحد الأخوين شون إلى أنّ وقت الوفاة كان قبل حوالى عشرة أيّام. ولاحظ رجال القانون موضع جسد روان «الذي كانت يداه مطويتين على صدره ورأسه على المقعد»[8]. وكيف خرجت الرصاصة من العين اليمنى ومن ثمّ حطّمت الزجاج الأمامي. لاحظوا الزجاج المكسور المتناثر على غطاء المحرّك وعلى الأرض خلفه. ولاحظوا أيضًا الأشياء التي كان يحملها: «20 دولارًا، ودولاران من الفضة،... وساعة ذهبية»[9]. ولاحظوا علامات خطوات قريبة في الوحل المتجمّد لسيّارة أخرى، يُفترض أنها تعود للقاتل.

أشعلت كلمة القتل من جديد حسّ الرعب العام الشائك عند الناس. وأعلنت صحيفة أوساج شيف Osage Cheif على صفحتها الأولى «مجهول أطلق النار على هنري روان»[10]، وأشادت في الإصدار نفسه بأبراهام لنكولن كمصدر إلهام للأميركيين.

هزّت أخبار مقتل روان أعصاب مولي. ففي العام 1902، قبل أكثر من عقد على لقائها إرنست، كانت مولي متزوّجة من روان لفترة وجيزة. هناك عدد قليل من الروايات الباقية التي توضح تفاصيل العلاقة التي كانت تجمعهما، ولكن من المرجّح أن الزواج كان مرتّبًا. كانا ما يزالان يافعين - فمولي كانت تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا فقط في ذلك الوقت، وتمّ ذلك بحسب أعراف الأوساج وتقاليدهم. ولم تكن هناك حاجة إلى الطلاق القانوني، فبكلّ بساطة ذهب كلّ واحد منهما في طريقه. ومع ذلك. ظلّا مقيّدين بذكرى حميمة عابرة، انتهت على ما يبدو من دون مرارة، وكلّلتها المودّة.

حضر كثير من الناس في المقاطعة جنازة روان، وغنّى شيوخ الأوساج الأناشيد التقليدية للموتى، والتي شعر من خلالها الأحياء الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بفظاعة عالمهم المليء بالقتل. تقدّم هيل مرّة أخرى، حاملًا نعش صديقه عاليًا. وقد رُدّدت إحدى قصائد هيل المفضّلة لعظة يسوع في الجبل:

دينونة الإنسان خاطئة، لكنَّ هناك «من يعمل كلّ شيء على أكمل وجه».

على الدوام، طوال رحلة الحياة، يجب مراعاة هذا المبدأ: «فكلّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم»[11].

لطالما ساعدت مولي السلطات، لكن عندما بدأ التحقيق في وفاة روان أصبحت مضطربة، فكانت بطريقتها الخاصّة، نتاج روح البناء الذاتي الأميركي. فهي رتّبت تفاصيل ماضيها بالطريقة التي رتّبت بها منزلها. ولم تُخبر زوجها الثاني إرنست الذي يغار كثيرًا عليها بزواجها الأوّل من روان. قدم إرنست كامل الدعم لمولي في خلال هذه الأوقات العصيبة. وقد أنجبا مؤخرًا طفلًا ثالثًا، وهي فتاة أطلقا عليها اسم آنّا. إذا كان على مولي أن تُخبر السلطات بعلاقتها مع روان، كان عليها أن تعترف لإرنست بأنها خدعته كلّ هذه السنين. ولذا قرّرت[12] ألّا تقول كلمةً واحدة، لا لزوجها ولا للسلطات. فمولي لديها أسرارها أيضًا.

بعد وفاة روان، بدأت المصابيح الكهربائية تظهر خارج منازل الأوساج، تتدلّى من سطوح المنازل وعتبات النوافذ وعبر الأبواب الخلفية، وكان توهّجها الجماعي يمحو الظلام. لاحظ مراسل من أوكلاهوما: «إذا سافرت[13] في أيّ اتجاه من پوهوسكا، في الليل، ستلاحظ بيوت الأوساج المبيّنة بأضواء كهربائية، الأمر الذي يراه رجل الريف غريبًا، لكنه قد يستنتج أنه عرض تفاخر للثروة النفطية. ولكنّ الأضواء كما يعرف كلّ الأوساج، هي حماية ضد نهج خفي من شبح قاتم - يد غير مرئية - ألقى بآفة على أرض الأوساج وحوّل الفدادين الممتدّة، التي تعتبرها القبائل الهندية الأخرى شبه جنّة، مقبرةً وحقل جماجم للموتى... ويبقى السؤال في أرض الأوساج هو: من سيكون التالي؟»

أوجدت جرائم القتل مناخًا من الرعب الذي نهش المجتمع. واشتبه الناس في الأقربين من الجيران والأصدقاء. قالت أرملة تشارلز وايتهورن إنها «متأكّدة من أنّ الأطراف نفسها التي قتلت زوجها، ستتخلّص قريبًا منها»[14]. وذكر زائر مقيم في فيرفاكس في وقت لاحق إنّ «الناس كانوا مشلولين من الخوف»[15]. ولاحظ أحد المراسلين أنّ «عباءة سوداء من الغموض والرهبة غطّت فوق الأودية المرشوشة بالنفط في الأوساج»[16].

على الرغم من المخاطر المتزايدة، ضغطت مولي وعائلتها على المحقّقين في بحثهم عن القتلة، وأسرَّ بيل سميث لأشخاص كُثُر بأنه يشعر بالضغط بسبب هذا التحقيق. وفي إحدى الليالي، كان مع ريتا في منزلهما في منطقة معزولة خارج فيرفاكس عندما

اعتقدا أنهما سمعا شيئًا ما يتحرّك خارج محيط المنزل، ثم توقّف الضجيج. أيًّا يكن، فقد اختفى. بعد ليال عدة، سمع بيل وريتا تدافعًا مرةً أخرى. إنهم الدخلاء؛ نعم، بالتأكيد. إنهم في الخارج يفتّشون ويبعثرون الأشياء، ثم يرحلون. قال بيل لصديق: «كانت ريتا خائفة»[17]. وبدا أنّ بيل فقد ثقته بنفسه أيضًا.

بعد أقلّ من شهر على وفاة روان، هرب بيل وريتا من المنزل، تاركين وراءهما معظم ممتلكاتهما. انتقلا إلى منزل أنيق من طابقين، مع شرفة ومرأب، بالقرب من وسط فيرفاكس. (اشتريا المنزل من الطبيب جيمس شون الذي كان صديقًا مقرّبًا لبيل). وكان لدى كثير من الجيران كلاب حراسة تنبح عند أدنى اضطراب؛ ستشير هذه الحيوانات بالتأكيد إذا عاد المتسلّلون. قال بيل لأحد أصدقائه: «ربّما سيتركوننا وشأننا»[18]. لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك، حتى ظهر رجل عند باب بيل وأخبره بأنه سمع أنه يبيع بعض الأراضي الزراعية، فردّ عليه بيل بأنه كان مخطئًا. لاحظ بيل أنّ الرجل كان يتمتّع بنظرة جامحة، نظرة الخارج عن القانون، وظلّ يلقي نظرات خاطفة على المنزل كما لو أنه يرسم تصميمه في عقله.

في أوائل شهر آذار/مارس، بدأت الكلاب في الحي تموت واحدًا تلو الآخر، وتمّ العثور على جثثها ملقاة على العتبات وفي الشوارع. كان بيل متأكّدًا من أنها تعرّضت للتسمّم. وجد هو وريتا نفسيهما في قبضة صمتٍ يثير التوتّر. وقد أخبر صديقه أنه لم يكن يتوقّع «أن يعيش طويلًا»[19].

في 9 آذار/مارس، وفي يوم كانت الرياح عاتية، سافر بيل مع صديق له إلى مزرعة المهرّب هنري غرامر، الذي كان يعيش على الحدود الغربية للمحمية. أخبر بيل صديقه أنه بحاجة إلى مشروب، لكن بيل كان يعرف أنّ غرامر، الذي قالت عنه جريدة أوساج شيف بأنه «الشخصية الأكثر شهرة في المقاطعة»[20]، يمتلك أسرارًا ويسيطر على عالم غير مرئي.

أسفر التحقيق في مَقْتل روان عن كَشْفٍ واحدٍ، قبل أن يختفي، قال روان: «إنه سيحصل على الويسكي من مزرعة غرامر- وهو المكان نفسه، سواء كان ذلك من قبيل الصدفة أم لا- الذي غالبًا ما كانت تحصل آنّا أخت مولي على الويسكي منه».

كان غرامر نجم مسابقات رعاة البقر الذي قدّم عرضًا في ماديسون سكوير غاردن وتُوّج بطلًا للعالم في توجيه الحبال وربطها. كان أيضًا لصًّا مزعومًا على القطار، ورجل



حكم هنري غرامر بالسجن ثلاث سنوات
بعد أن قتل رجلا في مونتانا

أعمال مهووسًا له صلات بعصابات كانساس سيتي، ومسلّحًا لامعًا. بدا النظام القانوني المليء بالثغرات غير قادر على احتوائه. في العام 1904 أطلق النار على جزّار غنم، في مونتانا، ومع ذلك حُبس ثلاث سنوات فقط. في حادثة لاحقة، في مقاطعة الأوساج دخل رجل إلى المستشفى وهو يئنّ وينزف بغزارة من طلق ناري ويصيح: «سأموت، سأموت»[21]. ولقد اتهم غرامر بأنه مطلق النار، وأغمي عليه. ولكن عندما استيقظ الضحية في اليوم التالي وعلم أنه لن يذهب إلى الربّ السماوي - على الأقلّ ليس في الوقت القريب - أصرّ على أنه لم يكن لديه أيّ فكرة عمّن أطلق عليه النار. ومع نمو إمبراطورية غرامر غير الشرعيّة، بدأ يسيطر على جيشٍ من قطّاع الطرق. ومن بينهم آسا كيربي، اللصّ المسلّح الذي كانت لديه أسنان أمامية ذهبية لامعة، ورامسي، سارق البقر الذي بدا أنه الأقلّ سوءًا بين رجال غرامر السيّئين.

وصل بيل وصديقه إلى مزرعة غرامر في الليل، ولاح أمامهما في الأفق منزل خشبي كبير وحظيرة. وقطّارات كحول نحاسيّة لأكثر من ألفي ليتر من الويسكي، مخبأة في الغابة المحيطة. وأنشأ غرامر محطّة للطاقة الكهربائية خاصّة به، ليتمكّن هو وعصابته من العمل طوال النهار وطوال الليل.

بعد أن اكتشف أنّ غرامر كان خارج المنزل، طلب بيل من أحد العمّال زجاجات عدة من الويسكي. وارتشف جرعةً كبيرة. وفي مرعى قريب غالبًا ما تتجوّل فيه خيول غرامر الثمينة، كم سيكون من السهل أن يقوم بيل، سارق الخيول العجوز، بالركوب على واحد منها والاختفاء. شرب بيل مزيدًا من الويسكي، ومن ثمّ عاد هو وصديقه إلى فيرفاكس

مارّين بين أشعّة المصابيح- الأضواء الخافتة، كما كانت تسمى- والتي كانت تهتزّ بسبب الريح.

أوصل بيل صديقه، وعندما عاد إلى المنزل، وأدخل سيّارته من نوع ستاديبيكر إلى المرأب، كانت ريتا في المنزل مع نيتي بروكشاير، وهي خادمة بيضاء تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، وغالبًا ما كانت تبيت عندهما. وبعد فترة ذهبا إلى الفراش، وقبل الثالثة صباحًا بقليل، سمع رجل يسكن في الجوار انفجارًا مدوّيًا. شعّت قوّة الانفجار في الحي، وانحنت الأشجار واللافتات وتكسّرت النوافذ. في فندق فيرفاكس، وقع حارس ليلي كان جالسًا بجوار النافذة على الأرض. في غرفة أخرى من الفندق، دُفع أحد النزلاء إلى الخلف وتضرّر من شظايا الزجاج المتطاير. حُطّمت أبواب المنازل بالقرب من الانفجار، وتكسّرت العوارض الخشبية. وكتب شاهد عيان كان صبيًا في ذلك الوقت، «يبدو أنّ الليلة لن تتوقّف عن الارتجاج»[22]. شعر إرنست ومولي بالانفجار أيضًا، ويتذكّر إرنست لاحقًا: «لقد هزَّ كلّ شيء. في البداية اعتقدت أنها كانت ترعد»[23]. ونهضت مولي، خائفة، وذهبت إلى النافذة ورأت شيئًا يحترق في السماء البعيدة، كما لو أنّ الشمس قد انفجرت بعنف في الليل. ذهب إرنست إلى النافذة ووقف هناك معها، وهما ينظران إلى الوهج المخيف.



ريتا سميث وخادمتها نيتي بروكشاير في منتجع صيفي

ارتدى إرنست بنطاله وركض إلى الخارج، كان الناس يخرجون من منازلهم مترنّحين ومذعورين، يحملون الفوانيس ويطلقون النار في الهواء، إشارة تحذير ودعوة إلى الآخرين للانضمام إلى ما كان موكبًا متناميًا من الناس الذين تحرّكوا على الأقدام

وفي السيّارات باتجاه موقع الانفجار. وحين اقتربوا صرخوا: «إنه منزل بيل سميث! إنه منزل بيل سميث!»[24]. لم يعد هناك منزل! لا شيء سوى أكوام من أعواد متفحّمة وملتوية وأثاث معدني ممزّق اشتراه بيل وريتا قبل أيّام فقط من شركة بيغ هيل التجارية. كانت بقايا الفراش تتدلّى من أسلاك الهاتف والحطام المسحوق يتطاير عبر الهواء السام الأسود. حتى سيّارة ستادبيكر تحطّمت.

عانى شاهد عيان لإيجاد كلمات تصف المنظر، «بدا الأمر وكأنني لا أعرف ماذا يحصل!»[25]. من الواضح أنّ أحدهم زرع قنبلة تحت المنزل وفجّرها.

التهمت ألسنة اللهب وسط الأنقاض ما تبقى من المنزل وارتفعت في السماء، كأنها هالة من النار. كان رجال الإطفاء المتطوّعون يحملون المياه من الآبار ويحاولون إخماد الحريق. وكان الناس يبحثون عن بيل وريتا ونيتي. صرخ أحد المنقذين: «هيا يا رجال، هناك امرأة»[26].

انضمّ قاضي الصلح إلى البحث، وكذلك انضم إليه ماتيس والأخوان شون. حتى قبل العثور على الرفات، وصل متعهّد دفن الموتى من شركة بيغ هيل مع عربة الموتى. وقد ظهر متعهّد منافس أيضًا، وهما يحومان مثل الطيور المفترسة.

نقّب الباحثون بين الأنقاض. ولمّا كان جيمس شون المالك السابق للمنزل، يعرف مكان وجود غرفة النوم الرئيسية، بحث في المنطقة المجاورة، إلى حين سمع صوت نداء. كان يمكن للآخرين سماعه أيضًا خافتًا ولكنه مميّز: «المساعدة! المساعدة!» وأشار باحثٌ إلى كومة مشتعلة فوق الصوت. قام رجال الإطفاء بغمر المنطقة بالمياه، ووسط الدخان المتصاعد، بدأ الجميع برفع الأنقاض. بدا يعلو صوت يئنّ فوق صوت الحطام المتطاير. وأخيرًا، بدأ وجه يتشكّل: كان مسودًّا ومتألّمًا. إنه بيل سميث، الذي كان يتلوّى بجانب سريره، احترقت ساقاه وظهره ويداه بشكلٍ لا يمكّن من التعرّف إليه. يتذكّر ديفيد شون لاحقًا أنه طوال سنوات عمله طبيبًا لم يرَ رجلًا يُكابد مثل هذا الألم، «كان يصرخ في بؤس رهيب»[27]. حاول شون مواساة بيل قائلًا له: «لن أتركك تعاني».

عندما أزالت مجموعة من الرجال الأنقاض، تمكّنوا من رؤية ريتا. كانت مستلقية بجانبه في ثوب نومها. كان وجهها غير مشوّه وبدت وكأنها ما تزال نائمة بسلام، وتحلم. لكن عندما حملوها، رأوا أنّ مؤخرة رأسها قد تحطّمت. عندما أدرك بيل أنها ماتت، أطلق صرخة معذّبة، وكرّر، «ريتا ماتت». وقال لصديق كان هناك، «إذا كان لديك مسدّس....»[28].

إرنست الذي كان يرتدي رداء حمّام قدّمه إليه أحدهم لتغطية نفسه، كان يبحث وغير قادر على الابتعاد عن منظر الرعب وظلّ يتمتم: «يا له من انفجار»[29]. طلب متعهّد دفن الموتى من شركة بيغ هيل الإذن لإزالة رفات ريتا، ووافق إرنست. كان على شخص ما تحنيطها قبل أن تراها مولي. فماذا ستقول عندما تعلم أنّ أختها قد قُتلت؟ مولي، التي توقّعت أن تموت أوّلًا بسبب مرض السكّري، كانت الشخص الوحيد المتبقّي من العائلة.

لم يتمكّن الباحثون من العثور على نيتي. فقرّر قاضي الصلح أنّ الشابة التي كانت متزوّجة ولديها طفل، «تمزّقت إلى أشلاء»[30]. لم يكن هناك ما يكفي للتحقيق، على الرغم من أنّ متعهّد دفن الموتى المنافس وجد ما يكفي للمطالبة برسوم الدفن. قال متعهّد بيغ هيل لدفن الموتى: «فكرت في العودة والحصول على أشلاء الفتاة الخادمة ووضعها في عربة الموتى لكنه سبقني»[31].





منزل ريتا وبيل سميث قبل الانفجار - وبعده

رفع الأطبّاء بمساعدة الرجال الآخرين بيل سميث ونقلوه في سيّارة إسعاف إلى مستشفى في فيرفاكس، حيث حقنه ديفيد شون مرّات عدّة بالمورفين. لقد كان الناجي الوحيد، لكن قبل استجوابه، فقد وعيه.

استغرق وصول رجال القانون المحلّيين إلى المستشفى بعض الوقت، فقد كان المارشال والضبّاط الآخرون في محكمة مدينة أوكلاهوما يحضرون قضيّة. لاحظ المحقّق في وقت لاحق: «كان انفجار العبوة مخطّطًا»[32]، ونُفّذ عندما كان الضبّاط خارج المنطقة. بعد سماع الأخبار والعودة إلى فيرفاكس، نصب رجال القانون كشّافات في المخارج الأمامية والخلفية للمستشفى، في حال خطّط القتلة للقضاء على بيل هناك، وأبقوا حرّاسًا مسلّحين أيضًا.

كان بيل في حالة هذيان ومترنّحًا بين الحياة والموت يتمتم في بعض الأحيان: «لقد حصلوا على ريتا والآن يبدو أنهم قد حصلوا عليّ»[33]. جاء الصديق الذي رافقه إلى مزرعة غرامر لرؤيته. يتذكّر هذا الصديق: «هو مجرد نوع من الثرثرة، لم أستطع فهم أيّ شيء قاله»[34]. بعد يومين تقريبًا، استعاد بيل وعيه، وسأل عن ريتا. أراد أن يعرف مكان دفنها. قال ديفيد شون إنه يعتقد أنّ بيل، خوفًا من أن يموت، كان على وشك الاعتراف، للكشف عمّا يعرفه عن الانفجار والقتلة. قال الطبيب في وقت لاحق للسلطات: «حاولت دفعه للبوح بما يعرفه»[35]، وسألْتُه: «بيل، هل لديك أيّ فكرة عن من فعل ذلك؟ كنت متشوّقًا لمعرفة ذلك». لكنّ بيل لم يكشف عن أيّ شيء ذي صلة. في 14 آذار/ مارس، بعد أربعة أيام من الانفجار، مات بيل سميث، وهو ضحية أخرى لما أصبح يُعرف باسم عهد الإرهاب في الأوساج.

نشرت صحيفة فيرفاكس افتتاحية تقول: «إنّ الانفجار كان لا يُصدّق وبعيدًا عن الفهم، وإنه خارج عن قوّة استيعابنا أن الإنسان قد ينحدر إلى مستوى منخفض للغاية»[36]. واعتبرت الصحيفة «أنه يجب على القانون أن لا يدّخر وسعًا لاكتشاف الجناة وتقديمهم للعدالة». وأخبر أحد رجال الإطفاء في مكان الحادث إرنست: «أنّ المسؤولين عن ذلك يجب أن يُلقوا في النار ويحترقوا»[37].

في نيسان/أبريل من العام 1923، أرسل الحاكم جاك والتون من أوكلاهوما كبير محقّقيه، هيرمان فوكس ديفيس إلى مقاطعة الأوساج. كان ديفيس محاميًا ومحقّقا خاصًّا سابقًا مع وكالة بيرنز، ولديه أسلوب أنيق، ويدخّن السيجار، وعيناه مشرقتان من خلال حجاب من الدخان الأزرق. وصفه أحد مسؤولي إنفاذ القانون بأنه نموذجٌ للمحقّق في قصص الجَيْب الخيالية.

توصّل كثر من الأوساج إلى الاعتقاد بأنّ السلطات المحلّية كانت متواطئة مع القتلة، وأنّ قوّة خارجية مثل ديفيس فقط يمكن أن تخترق الفساد وتحلّ العدد المتزايد من حالات القتل.

ومع ذلك، في غضون أيّام، شوهد ديفيس يتعاون مع بعض المجرمين الذائعي الصيت في المقاطعة. ومن ثمّ قبض محقّق آخر على ديفيس وهو يتلقّى رشوة من رئيس نقابة الميسر المحليّة مقابل السماح له بإدارة أعماله غير المشروعة. وسرعان ما أصبح واضحًا أنّ المحقّق الخاص للولاية والمسؤول عن حلّ قضايا قتل الأوساج، كان هو نفسه محتالًا.

في حزيران/يونيو من العام 1923، أقرّ ديفيس بأنه مذنب بتهمة الرشوة وحُكِم عليه بالسجن لمدّة عامين، ولكن بعد بضعة أشهر عفا الحاكم عنه. ومن ثمّ شرع ديفيس وعدد من المتآمرين في السرقة والقتل، وكان من ضحاياه محامٍ بارز. ولكن هذه المرّة، تلقّى ديفيس حكمًا مؤبّدًا. في تشرين الثاني/نوفمبر، عُزِل الحاكم والتون من منصبه، من جهةٍ، بسبب إساءة استخدام نظام العفو والإفراج المشروط (ولأنه انقلب على المواطنين الشرفاء في الدولة وحشد فيها القتلة والمجرمين[38])، ومن جهة أخرى لتلقّي مساهمات غير مشروعة من رجل النفط إيه.دبليو. مارلاند كانت تُستخدم لبناء منزل فخم.

وسط هذا الفساد المتمادي، حاول دبليو دبليو فوغان، المحامي البالغ من العمر أربعة وخمسين عامًا والذي كان يعيش في بوهوسكا، التصرّف بحكمة[39]. تعهّد المدّعي العام السابق «بإزالة العناصر الإجرامية التي كانت طفيليّةً على أولئك الذين يكسبون رزقهم بوسائل شريفة»[40]، وقد عمل عن كثب مع المحقّقين الخاصّين الذين كافحوا من أجل حلّ قضايا قتل الأوساج. ذات يوم في حزيران/يونيو من العام 1923، تلقّى فوغان مكالمة عاجلة، كانت من صديق جورج بيغهارت، ابن شقيق الزعيم الأسطوري جيمس بيغهارت. كان

جورج بيغهارت يعاني من تسمّم مشتبه به. بيغهارت- الذي كان يبلغ من العمر ستّة وأربعين عامًا والذي كتب مرّة في طلب المدرسة أنه كان يأمل «مساعدة المحتاجين، وإطعام الجياع وكسوة العُراة»[41] - تمّ نقله إلى مستشفى في مدينة أوكلاهوما. قال صديقه إنه كانت لديه معلومات عن جرائم قتل الأوساج لكنه سيتحدّث فقط إلى فوغان، الذي يثق فيه. عندما سأل فوغان عن حالة بيغهارت، قيل له أن يأتي على الفور.

قبل مغادرته، أبلغ فوغان زوجته، التي أنجبت طفلها العاشر مؤخّرًا، عن الأماكن التي خبّأ فيها أدلّة كان يجمعها بشأن جرائم القتل. وقال لها إنه في حال حدوث أيّ شيء له، يجب أن تأخذ الأدلّة على الفور وتسلّمها إلى السلطات. وسوف تجد المال هناك أيضًا لها ولأطفالها.

عندما وصل فوغان إلى المستشفى، كان بيغهارت ما يزال واعيًا، وكان هناك آخرون في الغرفة طلب منهم بيغهارت المغادرة. ويبدو أنه شارك ما لديه من معلومات، بما في ذلك وثائق تجرّم الفاعلين. ظلّ فوغان بجانبه ساعات عدّة، حتى أُعلنت وفاته. ومن ثم اتصل هاتفيًّا بعمدة مقاطعة الأوساج الجديد ليقول له إنّ لديه كلّ المعلومات التي يحتاجها وسوف يستقلّ أوّل قطار إليه. ضغط العمدة عليه ليقول له ما إذا كان يعرف من قتل بيغهارت، فقال فوغان: «أوه، أعرف أكثر من ذلك بكثير».



دبليو دبليو فوغان مع زوجته وأطفالهما

أغلق الخطّ وذهب إلى المحطّة حيث شوهد وهو يصعد على متن قطار ليلي. عندما وصل القطار في اليوم التالي،

لم يكن هناك أيّ أثر له. وذكرت صحيفة تولسا ديلي وورلد (Tulsa Daily World) «اختفاء راكبٍ في مقصورة ركّاب القطار تاركًا ملابسه في داخلها. عملية اختفاء غامضة لدبليو دبليو فوغان من پوهوسكا»[42].

انضمّ شبّان الكشافة الذين تمّ تنظيم قوّاتهم الأولى في الولايات المتحدة في پوهوسكا، في العام 1909، للبحث عن فوغان. أُطلقت الكلاب البوليسية لشمّ رائحته. بعد ستّ وثلاثين ساعة وعلى بُعد ثلاثين ميلًا شمال مدينة أوكلاهوما شوهدت جثّة فوغان ملقاة بجانب خطوط السكك الحديدية. لقد أُلقي من القطار، وكانت رقبته مكسورة، وتمّ تجريده من ملابسه، تمامًا مثل رجل النفط ماكبرايد. ولقد اختفت الوثائق التي قدّمها له بيغهارت. وعندما ذهبت أرملة فوغان إلى المكان المحدّد للأدلّة المخبّأة، لم تجدها.

سأل المدّعي العام قاضي الصلح إذا كان يعتقد أنّ فوغان كان يعرف كثيرًا. فأجاب القاضي: «نعم سيدي، وكانت لديه أوراق قيّمة»[43].

ارتفع عدد القتلى الرسمي في عهد «الإرهاب في الأوساج» إلى ما لا يقلّ عن أربعة وعشرين من أفراد القبيلة. من بين الضحايا كان هناك رجلان حاولا المساعدة في التحقيق: الأوّل، صاحب مزرعة أبقار بارز من الأوساج، سقط على السلالم بعد تخديره؛ والثاني، أُطلقت النار عليه في مدينة أوكلاهوما، عندما كان في طريقه لإطلاع مسؤولي الدولة على القضيّة، وبدأت أخبار جرائم القتل بالانتشار. في مقال بعنوان «اللعنة السوداء للأوساج» ذكرت مجلة ذي لترري دايجست، وهي مطبوعة وطنية «أنّ أفراد القبيلة قد أُصيبوا بالرصاص في المراعي المنعزلة، وتجمّدوا من الجليد وهم جالسون في سيّاراتهم، وسُمّموا ليموتوا ببطء، وفُجّروا بالديناميت في أثناء نومهم في منازلهم»[44]. وتابع المقال: «في هذه الأثناء تستمرّ اللعنة. متى ستنتهي؟ لا أحد يعرف. أصبح أغنى الناس في العالم بالنسبة إلى الفرد هم الأكثر تعرّضًا للقتل في العالم». ووصفت الصحافة في ما بعد عمليات القتل بأنها «مظلمة ودنيئة مثل أيّ قصّة قتل في خلال القرن[45]، والفصل الأكثر دموية في تاريخ الجريمة الأميركية»[46].

تعثّرت كلّ الجهود لحلّ اللغز. وبسبب التهديدات المجهولة، اضطرّ قاضي الصلح إلى التوقّف عن إجراء التحقيقات في جرائم القتل الأخيرة. لقد كان مرعوبًا لدرجةٍ أنه لا يريد حتّى مناقشة القضايا، كان يدخل إلى غرفة خلفية ويقفل الباب على نفسه.

وأسقط عمدة المقاطعة الجديد حتى ذريعة التحقيق في الجرائم «لا أريد التورّط في ذلك»[47]، كما اعترف لاحقًا، مضيفًا بشكلٍ غامضٍ: «هناك تيّار مائيّ خفي، مثل نبع على رأس الجرف. ولكن النبع قد جفّ الآن». ولحلّ القضايا، قال إنها: «أعمال كبيرة ولا يستطيع العمدة وعدد قليل من الرجال القيام بها. يستغرق الأمر تدخّلًا من الحكومة للقيام بذلك».

في العام 1923، بعد تفجير سميث، بدأت قبيلة الأوساج في حثّ الحكومة الفدرالية على إرسال محقّقين، ليس لهم علاقة بالمقاطعة أو بمسؤولي الدولة، على عكس العمدة أو ديفيس. واتخذ مجلس القبيلة قرارًا رسميًا جاء فيه:

> طالَمَا أنّه[48] لم يُقبض على المجرمين بأيّ حال من الأحوال وتسليمهم للعدالة.
>
> وطالَمَا أنّ مجلس الأوساج القبلي يعتبر الحفاظ على أرواح أعضاء القبيلة وممتلكاتهم ضروريًّا، يجب اتخاذ إجراءات سريعة وصارمة للقبض على المجرمين. ونطلب من وزير الداخلية الموقّر الحصول على خدمات وزارة العدل في القبض على قتلة أفراد قبيلة الأوساج ومحاكمتهم.

أرسل جون بالمر، وهو محام نصفه هندي في وقت لاحق، رسالة إلى تشارلز كيرتس، وهو سناتور أميركي من كانساس؛ كان نصف جذوره من قبيلة كاو، والنصف الآخر من قبيلة الأوساج[49]. كان كيرتس آنذاك أعلى مسؤول ذي أصول هندية معترف بها يُنتخب لمنصبٍ مهمّ. أخبر بالمر كيرتس أنّ الوضع كان أشدّ خطورة ممّا يمكن لأيّ شخص أن يتخيّله، وأنه إذا لم يتحرّك، هو ورجال نافذون آخرون على حثّ وزارة العدل على التصرّف، سوف يفلت «الشياطين، الذين يقفون وراء أفظع سلسلة من الجرائم التي ارتُكبت في هذا البلد على الإطلاق، من العدالة»[50].

بينما كانت القبيلة تنتظر ردَّ الحكومة الفدرالية، عاشت مولي في حالة من الرعب، وأدركت أنها الهدف التالي المحتمل في المؤامرة الظاهرة للقضاء على عائلتها. لا يمكن أن تنسى الليلة التي سبقت الانفجار بأشهر عدّة عندما كانت في السرير مع إرنست وسمعت ضوضاء خارج منزلها، كان هناك شخص ما يقتحم سيّارتهما، فهمس إرنست لمولي «لا تتحرّكي»[51] بينما انطلق السارق في السيّارة المسروقة.

كان هيل في تكساس، عندما وقع الانفجار، وعندما رأى مخلّفات المنزل المتفحّمة التي تشبه حطام الحرب. وكما قال أحد المحقّقين: «كأنها نُصُب فظيع[52]». وعد هيل



⬅⬅⬅⬅ مولي مع أخواتها ريتا (على اليسار) وأنا (الثانية من اليسار) وميني (أقصى اليمين)

مولي بأن ينتقم لدم العائلة بطريقة ما. وعندما سمع هيل أنّ عصابة من الخارجين على القانون - ربّما الفرقة نفسها المسؤولة عن عهد الإرهاب - كانت تخطّط لسرقة صاحب متجر يحتفظ بالماس في خزنته، قرّر التعامل مع الأمر بنفسه. فقد نبّه صاحب المتجر، وطلب إليه «أن ينتظر في الداخل». وفي تلك الليلة، رأى صاحب المتجر المتسلّلين يقتحمون المتجر، فأطلق النار من بندقية صيد من عيار 12 وقتل أحدهم. وبعد هروب الخارجين على القانون الآخرين، فتّشت السلطات الميت وتعرّفت إليه من أسنانه الأمامية الذهبية؛ كان الضحية آسا كيربي، وهو مساعد هنري غرامر.

ذات يوم، أُضرمت النيران في مراعي هيل، وانتشر الحريق لأميال، وتناثرت جثث الماشية على الأرض السوداء. بالنسبة لمولي، حتى مَلِك تلال الأوساج بدا ضعيفًا. وبعد السعي لتحقيق العدالة لفترة طويلة، اختبأت مولي في منزلها وأقفلت أبوابها ونوافذها. وتوقّفت عن استقبال الضيوف أو الحضور إلى الكنيسة. كان الأمر كما لو أنّ جرائم القتل قد حطّمت حتى إيمانها بالله.

كانت هناك همسات بين سكان المقاطعة بأنها ستعزل نفسها بعيدًا خشية أن تُصاب بالجنون أو أن تفقد عقلها. وبدأت حالتها الصحية تزداد سوءًا بسبب مرض السكّري. واستلم مكتب الشؤون الهندية ملاحظة من شخص يعرف مولي يذكر فيها «أنّ مولي

في حالة صحية متدهورة ولا يُتوقّع أن تعيش طويلًا جدًّا»[53]. فكانت صحتها سيّئة وكانت أيضًا مكبّلة بالخوف. ولقد أعطت طفلتها الثالثة إلى أحد الأقارب لتربيتها.

مرّ الوقت، وكان هناك عدد قليل من السجلّات - على الأقلّ - الموثوقة، عن وجود مولي في خلال هذه الفترة. لا يوجد سجلّ لشعورها عندما وصل إلى المقاطعة عملاء من مكتب تحقيق وزارة العدل - والذي تغيّر اسمه إلى مكتب التحقيقات الفدرالي في العام 1935، ولا يوجد سجلّ لما قالته عن الأطبّاء مثل الأخوين شون اللذين كانا يأتيان ويذهبان باستمرار ويحقنانها بما قيل إنه عقار معجزة جديد اسمه «الأنسولين». بدا الأمر كما لو أنها أُجبرت على لعب دور مأسوي، وأخرجت نفسها من التاريخ.

ومن ثمّ، في أواخر العام 1925، تلقّى القسّ المحلّي رسالة سرّية من مولي، قالت فيها «إنّ حياتها كانت في خطر». وسرعان ما التقط وكيل مكتب الشؤون الهندية تقريرًا آخر يذكر فيه: «أنّ مولي لم تكن تموت من مرض السكّري على الإطلاق، بل كانت تتسمّم ببطء».

سجلّ الوقائع الثاني:

رجل الأدلّة

المؤامرة هي كلّ شيء ليست عليه الحياة العادية. فهي اللعبة الداخلية، الباردة، المؤكّدة، غير المشتّتة، والمغلقة أمامنا إلى الأبد. نحن المعيبون، الأبرياء، الذين نُحاول أن نجعل حياتنا اليومية ذات معنى. كلّ المؤامرات هي القصّة نفسها المتعارف عليها، لرجال يجدون التماسك والترابط في بعض الأعمال الإجرامية.

دي ليلو، من كتاب «ليبرا»

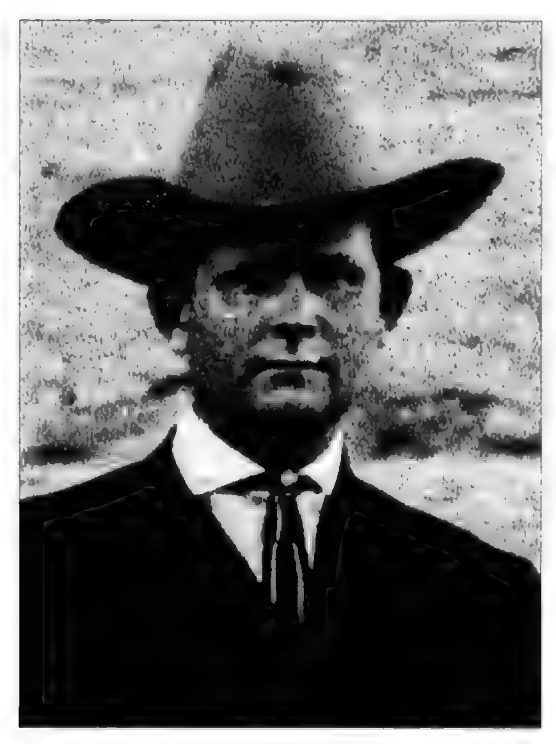
8 ..... قسم الانحلال الأخلاقي

ذات يومٍ في صيف العام 1925، تلقّى توم وايت العميل الخاص والمسؤول عن المكتب الميداني لمكتب التحقيقات في هيوستن، طلبًا عاجلًا[1] من مقرّ القيادة في واشنطن العاصمة. طلب الرئيس الجديد لمكتب التحقيقات ج. إدغار هوفر، التحدّث إليه بشكل مباشر وعاجل، فحزم وايت أمتعته سريعًا وسافر. طلب هوفر إلى محقّقيه ارتداء بدلات داكنة وربطات عنق رصينة وأحذية سوداء مصقولة حتى اللمعان. كان يريد لعملائه أن يكونوا أميركيين من نوعٍ خاصٍ بمظهر: رجل أبيض، وقانوني، ومحترف. بدأ هوفر بإصدار لائحة توجيهاتٍ جديدةٍ كلّ يوم - وهي لائحة توجيهات يتّبع الموظفون قواعدها تمامًا عندما لا تكون القواعد مهمّة جدًّا - وذهب وايت معتمرًا قبّعة رعاة البقر الكبيرة بكل فخرٍ وتحدٍّ.

ودّع زوجته وصبيّيه واستقلّ القطار بالطريقة التي كان يعمل بها قبل سنوات، عندما كان محقّقًا متنقّلًا بين الولايات، ويستقلّ القطار من محطة إلى أخرى لملاحقة المجرمين. الآن لم يكن يُطارد أيّ شيء سوى مصيره، عندما وصل إلى عاصمة الأمّة وشقَّ طريقه من خلال الضوضاء والضجّة إلى المقرّ، قيل له إنّ هوفر لديه «رسالة مهمّة» له، لكن لم يكن لديه أيّ فكرة عن ماهيتها.

كان وايت رجل قانون من الطراز القديم، خدم خيّالًا في ولاية تكساس مع اقتراب نهاية القرن، وقضى معظم حياته يتجوّل على ظهر الخيل عبر الحدود الجنوبية الغربية حاملًا بيده بندقيّة من نوع وينشستر أو مسدّسًا سُدَاسِيَّ الطَّلَقَات ذا مقبضٍ لؤلؤي، ليلاحق الهاربين والقتلة واللصوص المسلّحين. كان طوله مئة وثلاثة وتسعين سنتيمترًا وكانت أطرافه قويّة ولديه وقفة وسرعة حامل السلاح.

حتى عندما يرتدي بدلة مثل بائعٍ متجوّلٍ، كان يبدو أنه جاء من عصر أسطوري. وكتب بعد سنوات عميل في المكتب عمل مع وايت أنه كان «يخشى اللّه مثل المدافعين الأقوياء عن ألامو»، مضيفًا: «كانت طلّته مثيرة للإعجاب بقبّعته من نوع ستيتسون



توم وايت

من الجلد المدبوغ، وكان معيارًا للنزاهة والاستقامة. كانت خطواته مهيبة، وناعمة وصامتة مثل القطّ، وكلامه واضحًا وصريحًا، ولا يتردّد بإطلاق النار على هدفه. كان يفرض أقصى درجات الاحترام ويبثّ الذعر في قلوب شباب الولايات الشرقية الذين ينظرون إليه بشعور مختلط من التبجيل والخوف. ولكن إن نظر المرء باهتمام كافٍ إلى عينيه الرماديتين فسوف يرى بريقًا لطيفًا فيهما»[2].

انضمّ وايت إلى مكتب التحقيق في العام 1917. كان يريد الانضمام إلى الجيش للقتال في الحرب العالمية الأولى. لكنه مُنع بسبب عملية جراحية أجراها مؤخّرًا. وقال ذات مرة إنّ طريقته في خدمة بلده هي أن يصبح عميلًا خاصًّا. لكنّ هذا كان جزءًا من الحقيقة، فهو عرف أنّ مجموعة رجال القانون الحدوديين القديمة التي كان ينتمي إليها بدأت تتلاشى. على الرغم من أنه لم يبلغ الأربعين من عمره، إلا أنه كان معرّضًا لخطر أن يُصبح تحفةً في استعراضٍ متنقلٍ في الغرب الأميركي. وبمعنى أدقّ، أنه سوف يصبح رجلًا ميتًا في جسد حيّ.

أنشأ الرئيس ثيودور روزفلت المكتب في العام 1908، أملًا في ملء الفراغ في قلّة عدد رجال الشرطة الاتحاديين (بسبب المعارضة المستمرّة لقوّة الشرطة الوطنية. تصرّف النائب العام لروزفلت من دون موافقة تشريعية، ما دفع أحد أعضاء الكونغرس إلى تسمية المنظّمة الجديدة بأنها «لقيط بيروقراطي»[3]). عندما دخل وايت إلى المكتب، كان ما يزال للمكتب بضع مئات فقط من العملاء وعددٌ قليلٌ من المكاتب الميدانية، كانت صلاحياتها القضائية على الجرائم محدودة. وتعامل العملاء مع مجموعة من القضايا، فقد حقّقوا في الانتهاكات الاحتكارية والمصرفية، وشحن السيّارات المسروقة ووسائل

منع الحمل، وأفلام المراهنات على مباريات الملاكمة والكتب الإباحية، وهروب السجناء الفدراليين، بالإضافة إلى الجرائم المرتكبة على المحميّات الهندية.

مثل غيره من العملاء، كان من المفترض أن يكون وايت جامع حقائق بشكلٍ صارمٍ. يتذكّر لاحقًا أنه «في تلك الأيّام لم تكن لدينا سلطة الاعتقال»[4]. كما لم يُصرّح للعملاء بحمل السلاح. رأى وايت كثيرًا من رجال القانون يُقتلون على الحدود. على الرغم من أنه لم يتحدّث كثيرًا عن هذه الوفيات، فقد تسبّبت تقريبًا في تخلّيه عن دعوته. لم يكن يريد أن يترك هذا العالم من أجل بعض المجد بعد وفاته، فمن يموت يموت! ولهذا عندما يتسلم المكتب مَهمّة خطرة، كان يضع مُسَدَّسه سُدَاسِيَّ الطَّلَقَات على خصره ويذهب. وإلى الجحيم بلائحة توجيهات هوفر وقواعده!

كان شقيقه الأصغر جيه سي (دوك) وايت أيضًا عضوًا في فرقة خيّالة تكساس سابقًا. وقد انضمّ إلى المكتب. كان شخصًا فَظًّا، ويعاقر الخمرة كثيرًا، ويحمل في كثير من الأحيان مُسَدَّسه سُدَاسِيَّ الطَّلَقَات، ذا المقبض العاجي. وللاحتياط كان يضع سكّينًا صغيرة في حذائه الجلدي، وكان أكثر «خشونة وجهوزية»[5] من توم، كما وصفه أحد أقاربه. كان الأخوان وايت جزءًا من فرقة صغيرة من رجال القانون الحدوديّين معروفين داخل المكتب باسم «رعاة البقر».

لم يتلقّ توم وايت تدريبًا رسميًّا كضابط في تطبيق القانون، وشقّ طريقه جاهدًا لإتقان أساليب علمية جديدة، مثل فكّ الرموز وحلقات البصمات المحيّرة، ومع ذلك كان متمسّكًا بالقانون منذ أن كان شابًا، وقد شحذ مهاراته كمحقّق من خلال القدرة على تمييز الأنماط الأساسية وتحويل مجموعة من الحقائق المشتّتة إلى قصّة متماسكة. على الرغم من حساسيته تجاه الخطر، فقد واجه معارك مسلّحة، ولكن على عكس شقيقه دوك الذي، كما قال أحد العملاء: «كانت لديه سيرة مهنيّة مفروشة بالرصاص»[6]، وكانت لدى توم عادة شاذّة هي تمنّعه عن إطلاق النار، وكان فخورًا بحقيقة أنه لم يقتل أحدًا. كان الأمر كما لو أنه يخاف من غرائزه السوداوية. فقد شعر أنّ هناك خيطًا رفيعًا بين الرجل الصالح والسيّئ.

شاهدَ توم وايت عددًا من زملائه يجتازون هذا الخطّ. في أثناء إدارة هاردينغ[7]، في أوائل العشرينيات من القرن الماضي، كانت وزارة العدل مليئة بالأصدقاء السياسيين والمسؤولين

عديمي الضمير، من بينهم رئيس المكتب وليام بيرنز المحقّق الخاص سيّئ السمعة. عُيِّن بيرنز مديرًا، في العام 1921، فقوّض القوانين، ووظّف عملاء مشكوكًا بنزاهتهم، بما في ذلك رجلٌ نصاب باع الحماية والإعفاءات لأعضاء في عالم الجريمة السفلى. أصبحت وزارة العدل تُعرف باسم «قسم الانحلال الأخلاقي».

في العام 1924، كشفت لجنة في الكونغرس أن «بارون» النفط هاري سنكلير قدّم رشوة لوزير الداخلية ألبرت فال، للتنقيب في احتياطي البترول الفدرالي في منطقة قبّة إبريق الشاي Teapot Dome. الاسم الذي سيرتبط إلى الأبد بالفضيحة، وبمدى تعفّن نظام العدالة في الولايات المتحدة. عندما بدأ الكونغرس التقصّي داخل وزارة العدل، استخدم بيرنز والمدّعي العام كلّ شيء، بدءًا من سلطتهما وصولًا إلى كلّ أدوات إنفاذ القانون، من أجل إحباط التحقيق وعرقلة العدالة. فراقبوا أعضاء الكونغرس، واقتحموا مكاتبهم وتنصّتوا على هواتفهم. شجب سناتور واحد كثيرًا من «المؤامرات غير القانونية، والتجسّس والخِدَع، والتنصّت، التي تمّ استخدامها ليس للكشف عن الجرائم ومقاضاة مرتكبيها، ولكن لحماية المنتفعين والراشين، والمحظيين»[8].

بحلول صيف العام 1924، تخلّص خلف هاردينغ، كالفن كوليدج، من بيرنز وعيّن مدّعيًا عامًّا جديدًا، يُدعى هارلان فيسك ستون. نظرًا لنمو البلاد ووفرة القوانين الفدرالية، خَلَصَ ستون إلى ضرورة وجود قوّة شرطية وطنية لا غنى عنها، ولكن من أجل تلبية هذه الحاجة، كان يجب أن يتمّ قلب القسم رأسًا على عقب.

ما أثار دهشة كثير من نقّاد القسم، هو اختيار ستون، جاي. إدغار هوفر، نائب مدير المكتب، البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا، للعمل مديرًا بالإنابة في أثناء بحثه عن مديرٍ دائم. على الرغم من أنّ هوفر تجنّب وصمة عار «تي بوت دوم»، إلّا أنه أشرف على قسم المخابرات في المكتب، والذي تجسّس فيه على معتقدات الأفراد السياسية. لم يكن هوفر محقّقًا، فهو لم يُطلق النار على مجرم أو يلقي القبض على مُتّهم. كان جدّه ووالده المتوفّيان يعملان في الحكومة الفدرالية، وكان هوفر، الذي ما يزال يعيش مع والدته، ابن البيئة البيروقراطية الذي يعرف لغتها، وصفقاتها غير المعلنة، وحروبها الإقليمية الشرّيرة غير الدموية.

طمعًا بالإدارة كوسيلة لبناء إمبراطوريته البيروقراطية، أخفى هوفر عن ستون مدى اتساع دوره في عمليات المراقبة المحلّية ووعده بحلّ قسم المخابرات. ونفّذ بحماس الإصلاحات التي طلبها ستون والتي عزّزت رغبته في إعادة تشكيل المكتب بقوّة حديثة. في مذكرة، أبلغ هوفر، ستون أنه بدأ في التحقيق بملفات الموظّفين وتحديد العملاء غير الأكفّاء أو الملتوين الذين يجب طردهم. وأخبره أيضًا أنه وفق رغبته قام برفع متطلّبات توظيف العملاء الجدد، فتوجّب عليهم الخضوع مسبقًا لبعض التدريبات القانونية أو المعرفة المحاسبية. كتب هوفر لستون: «سيُبذل كلّ جهد ممكن من موظّفي المكتب لتقوية الروح المعنوية. وتنفيذ سياساتك حرفيًا»[9].

في كانون الأول/ديسمبر من العام 1924، أعطى ستون هوفر الوظيفة التي كان يتوق إليها، فمن خلالها سيعيد هوفر تشكيل المكتب بسرعة إلى وحدة متجانسة القوّة، في خلال فترة إدارته، التي دامت خمسة عقود تقريبًا، والتي كان هدفها ليس مكافحة الجريمة فحسب، بل أيضًا ارتكاب تجاوزات فاضحة للسلطة.

كان هوفر قد كلّف وايت بالتحقيق في إحدى أولى قضايا الفساد في مجال إنفاذ القانون التي ستُتابع بعد فضيحة «تي بوت دوم». تولّى وايت منصب آمر السجن الفدرالي في أتلانتا، حيث قاد عملية سرّية للقبض على مسؤولي السجن الذين تلقّوا رشى في مقابل منح السجناء ظروفًا معيشيّة أفضل والإفراج المبكر عنهم.

يومًا ما في خلال التحقيق، صادف وايت حرّاسًا يضربون زوجًا من السجناء. هدّد وايت بطرد الحراس إذا أساءوا معاملة السجناء مرّة أخرى. بعد ذلك، طلب أحد السجناء مقابلة وايت سرًّا، كما لو كان السجين يُعبّر عن امتنانه، فأظهر لوايت الكتاب المقدّس، وبدأ في فرك خليط من اليود والماء برفق على صفحةٍ فارغةٍ فبدأت الكلمات التي كُتِبت بحبرٍ سرّي تظهر بطريقة سحرية. وكُشِف عنوان مَخْبأ سارق مصرفٍ هرَبَ من السجن قبل أن يصبح وايت آمرًا للسجن.

ساعدت الرسالة السرّية في القبض على سارق المصرف. في غضون ذلك، بدأ سجناء آخرون في تبادل المعلومات، ما أتاح لوايت الكشف عن ما تمّ وصفه بأنه نظام «المحسوبية المذهّبة وحصانة المليونير»[10]. جمع وايت أدلّة كافية لإدانة آمر السجن السابق الذي أصبح السجين رقم 24207، في السجن نفسه. وكتب مسؤول المكتب الذي

زار السجن في أحد التقارير: «لقد اندهشت بشدّة من الشعور السائد بين السجناء في ما يتّصل بعمل توم وايت وسلوكه. يبدو أنه شعورٌ عامٌّ بالرضا والثقة، شعورٌ بأنهم سيحصلون الآن على صفقة مربحة»[11]. بعد التحقيق، أرسل هوفر خطاب شكر إلى وايت قائلًا: «لقد جلبت الفضل والتميّز، ليس لنفسك فحسب، ولكن للخدمة التي ننتمي إليها جميعًا»[12].

وصل وايت إلى المقرّ الذي كان يحتل آنذاك طابقين مستأجرين في بناية على ناصية شارع كاي وشارع فيرمونت. كان هوفر يطهّر المكتب من محقّقين حدوديين كُثر، وعندما توجه وايت إلى مكتب هوفر، كان بإمكانه رؤية الجيل الجديد من العملاء، فتيان الكلية الذين يكتبون أسرع ممّا يطلقون النار. سخر القدامى منهم، واصفين إياهم «بفتيان الكشافة، أعوادهم ليّنة مدرّبون في الكلية وليس في الثكنات»، وهذا لم يكن غير صحيح، فقد اعترف عميل في وقت لاحق: «كنّا حفنة من المبتدئين ولم تكن لدينا فكرة عمّا كنّا نفعله»[13].

اصطُحِب وايت إلى مكتب هوفر النظيف والمرتّب، حيث كان هناك مكتب خشبي



هوفر في مكتب التحقيقات في ديسمبر/كانون الأول 1924

مهيب وخريطة على الحائط تُظهر مواقع المكاتب الميدانية للمكتب. وهناك، أمام وايت، كان الرئيس نفسه. كان هوفر نحيفًا وصبيانيًّا بشكلٍ ملحوظ، وفي صورة التُقطت له قبل أشهر عدة، كان يرتدي بدلة داكنة أنيقة، وكان شعره كثيفًا ومموّجًا، وفكّه مشدودًا، وشفتاه مضغوطتين بشدّة، وعيناه البنيّتان كانتا يقظتين، كما لو كان هو الشخص الذي ينظر من خلال الكاميرا.

كان وايت وقبّعة رعاة البقر الخاصّة به يلوحان في وجه هوفر الضئيل، الذي كان شديد الحساسية تجاه حجمه الصغير لدرجة أنه نادرًا ما كان يرقّي العملاء الأطول منه في المقرّ، ومن ثمّ قام في ما بعد بتركيب مجموعة من المصاطب الخشبيّة كمنصّة خلف مكتبه للوقوف عليها. إذا شعر هوفر بالرهبة من الشكل الوحشي لهذا الرجل من تكساس، فهو لم يظهره، قال لوايت إنه «بحاجة لمناقشة مسألة ذات أهمية قصوى معه، تتعلّق بجرائم قتل الأوساج». عرف وايت أنّ القضيّة المثيرة هي واحدة من أُولى جرائم القتل الكبرى التي استلمها مكتب التحقيقات، لكنه لم يكن على دراية بتفاصيلها، واستمع بينما كان هوفر يتحدّث بأسلوب متقطّع، وهي استراتيجية استخدمها هوفر وابتكرها في شبابه لكي يتغلّب على التلعثم السيّئ.

في ربيع العام 1923، بعد أن أصدر مجلس قبيلة الأوساج قرارًا طلب فيه مساعدة وزارة العدل، أرسل المدير بيرنز آنذاك عميلًا من المكتب للتحقيق في جرائم القتل التي بلغ مجموع ضحاياها في ذلك الوقت ما لا يقل عن أربعة وعشرين قتيلًا من الأوساج. أمضى العميل بضعة أسابيع في مقاطعة الأوساج قبل أن يخلص إلى أنّ «أيّ تحقيق مستمر لا طائل من ورائه»[14]. وتمّ إرسال عملاء آخرين بعد ذلك للتحقيق، ولكن من دون جدوى. أُجبر الأوساج على تمويل جزءٍ من التحقيق الفدرالي بأموالهم الخاصّة، وبمبلغ يصل إلى 20 ألف دولار، أيّ ما يعادل اليوم حوالى 300 ألف دولار. بالرغم من هذا الإنفاق، قرّر هوفر، بعد أن تولّى القيادة، إلقاء القضيّة مرّة أخرى بين أيادي سلطات الدولة، من أجل اجتناب مسؤولية الفشل.

أكّد عميل مكتب التحقيقات الفدرالي الذي كان مسؤولًا عن مكتب أوكلاهوما الميداني، لهوفر، أن التعامل مع عملية النقل يُمكن أن يحدث من دون أيّ «تعليق غير

مُؤَاتٍ»[15] من الصحافة. كان ذلك ممكنًا قبل استلام هوفر مكتب التحقيقات. أمّا الآن، فأيادي المكتب تلطّخت بالدم.

قبل بضعة أشهر، أقنع العملاء حاكم ولاية أوكلاهوما الجديد بالإفراج عن الخارج على القانون، بلاكي طومسون، الذي قُبض عليه وأُدين بسطو على بنك، بحيث يُمكنه العمل متخفّيًا للمكتب لجمع الأدلّة لجرائم قتل الأوساج. في التقارير الميدانية، لاحظ العملاء بحماس أنّ رجلهم السرّي، بدأ العمل بين المحتالين في حقول النفط، وحصل على الأدلّة التي وعدهم بها[16]. وصرّح أحد العملاء: «نتوقّع نتائج رائعة»[17].

بينما كان من المفترض أن يحتفظ العملاء ببلاكي تحت المراقبة الدقيقة، فإنهم فقدوه في تلال الأوساج، وهو الذي شرع في سرقة أحد البنوك مرّة أخرى، وقتل ضابط شرطة، واستغرق الأمر أشهرًا قبل أن تُلقي السلطات القبض عليه. قال هوفر: «كان على عددٍ من الضبّاط أن يُخاطروا بأنفسهم لتصحيح هذا الخطأ»[18]. حتى الآن، تمكّن هوفر من الاحتفاظ بدور المكتب في القضيّة بعيدًا من الصحافة. لكن وراء الكواليس كانت هناك ضجّة سياسية متنامية. فقد أرسل المدّعي العام للدولة إلى هوفر برقيةً تُشير إلى أنه يُحمّل المكتب مسؤولية الفشل في التحقيق[19]. أرسل المحامي جون بالمر، المدافع المعروف عن القبيلة، رسالةً غاضبة إلى سناتور كانساس، تشارلز كيرتس، يلمح فيها إلى أنّ تحقيق المكتب قد شابه الفساد: «أنا أشارك في الاعتقاد العام بأنّ القتلة يتمتّعون بالذكاء الكافي والقدرة السياسية والمالية لإبعاد الضبّاط والمقتدرين، أو إرسالهم إلى أماكن أخرى، لإسكات المسؤولين غير الشرفاء الذين كان واجبهم وما يزال، مطاردة مرتكبي هذه الجرائم الفظيعة»[20]. أطلع كومستوك، محامي أوكلاهوما، الذي خدم وصيًّا على كثير من الأوساج، السناتور كيرتس شخصيًا على الأخطاء الكارثية للمكتب.

عندما التقى هوفر المحقّق وايت، كانت قبضته على السلطة ما تزال ضعيفةً، وكان فجأة يُواجه الشىء الوحيد الذي لطالما أراد اجتنابه منذ أن أصبح مديرًا، وهو «الفضيحة». يعتقد هوفر أنّ الوضع في أوكلاهوما «حادٌّ وحساس»[21]، حتّى نفحة من سوء السلوك تأتي بعد وقت قصير من فضيحة «تي بوت دوم» يمكن أن تنهي مسيرته. قبل أسابيع، أرسل رسالة «سرّية» إلى وايت وعملاء خاصّين آخرين، تنصّ على «أنّ هذا المكتب لا يستطيع تحمّل فضيحة علنية تتعلّق به»[22]. عندما استمع وايت لهوفر، أصبح

واضحًا لماذا تمّ استدعاؤه. كان هوفر بحاجة إلى وايت، فهو واحد من قليل يتمتّعون بالخبرة بين العملاء، وواحد من رعاة البقر، لحلّ قضيّة جرائم القتل في مقاطعة الأوساج، وبالتالي حماية وظيفة هوفر. قال هوفر: «أريدك لتوجيه التحقيق»[23].

أمر هوفر، وايت بالانطلاق إلى أوكلاهوما سيتي وتولّي قيادة المكتب الميداني هناك. في وقت لاحق، لفت هوفر انتباه وايت إلى أنه بسبب الفوضى في المنطقة، فإنّ «المكتب الميداني فيه عملٌ أكثر من أيّ مكتب آخر في الدولة، وبالتالي، يجب أن يكون مسؤولًا عنه بالكامل محقّقٌ مختصّ وذو خبرة تُمكّنه من التعامل مع الرجال»[24]. عرف وايت أنّ الانتقال إلى أوكلاهوما سيكون عبئًا كبيرًا على عائلته، لكنه فهم مخاطر المَهمّة، وأخبر هوفر: «أنا إنسان وطموح بما فيه الكفاية لقبول المهمّة»[25].

لم يكن لدى وايت أدنى شك في ما سيحدث إذا لم ينجح، فقد نُفِي العملاء السابقون في القضيّة إلى مواقع استيطانية بعيدة أو طُردوا من المكتب. قال هوفر له: «ليس هناك عذر للفشل»[26]، وأدرك وايت أيضًا أنّ كثيرًا من أولئك الذين حاولوا القبض على القتلة، كانوا هم أنفسهم مُستهدَفين. ومنذ اللحظة التي غادر فيها مكتب هوفر، علم أنه أصبح رجلًا مُستهدَفًا.

9 ..... رعاة البقر عملاء سرّيون

بعد أن تولّى مكتب أوكلاهوما سيتي الميداني، في تموز/يوليو من العام 1925 مَهمّة التحقيق، استعرض وايت الملفّات الضخمة لجرائمِ قتل الأوساج، والتي جُمعت على مدار السنتين الماضيتين. قضايا القتل التي لا تحلّ بسرعة تبقى بلا حلٍّ في كثير من الأحيان. فالأدلّة تُجفّ والذكريات تتلاشى. وقد انقضى أكثر من أربع سنوات منذ مقتل آنّا براون وتشارلز وايتهورن، وكثيرًا ما تكون الطريقة الوحيدة لحلّ مثل هذه الحالات هي العثور على دليل مغمور تمّ التغاضي عنه مخبّأً في السجلّات الأصلية.

احتوت الملفّات المتعلّقة بجرائم قتل الأوساج على وثائق بشكلها البدائي: أجزاء من البيانات تمّ تفريغها من دون أيّ تسلسل زمني أو سرد، مثل رواية كانت صفحاتها غير مُرتَّبة. جلس وايت في هذه العشوائية باحثًا عن أيّ تفصيلٍ مخفي. وعلى الرغم من أنه تعوّد حياة خيّالٍ على الحدود للتعامل مع الموت العنيف، لكن الوحشية المفصّلة كانت في هذه التقارير مبهرة. كتب عميل عن انفجار منزل سميث: «لقيت المرأتان حتفهما على الفور، تمّ تفجير جسديهما، تمّ العثور لاحقًا على قطعٍ منهما ملتصقة بمنزل على بعد 300 قدم[1]. ركّز العملاء السابقون على الحالات الستّ التي بدا من المرجّح أكثر من غيرها أن تُحلّ؛ مقتل ريتا سميث وزوجها بيل سميث وخادمتهما نيتي بروكشاير في الانفجار، وإطلاق النار على آنّا براون وهنري روان وتشارلز وايتهورن.

شقّ وايت طريقه بجهد للعثور على العلاقة بين جميع جرائم القتل الأربع والعشرين. ولكن كانت هناك بعض الأشياء الواضحة. كان هنود الأوساج الأغنياء مستهدفين، وثلاث من الضحايا - آنّا براون وريتا سميث ووالدتهم ليزي - من عائلة واحدة. والمثير للدهشة أنّ العملاء لم يتحدّثوا إلى ابنة ليزي الباقية على قيد الحياة، مولي بوركهارت. تعلّم المحقّقون رؤية العالم من خلال أعين الآخرين. ولكن كيف يستطيع وايت أن يفهم ما رأته هذه المرأة؟ فمنذ ولادتها في كوخٍ في البراري، ومن ثمّ انتقالها إلى عالم الثروة، ومن ثمّ ترويعها وهي ترى عائلتها والأوساج الآخرين يُقتلون واحدًا تلو الآخر؟ عرضت

الملفّات بعض المعلومات حول حياة مولي، مع الإشارة فقط إلى أنها مريضة بمرض السكّري وعزلت نفسها في منزلها.

بدت بعض التفاصيل في الملفّات معبّرة؛ يميل القتلة المتسلسلون إلى الالتزام الصارم بالروتين، ومع ذلك نُفّذت جرائم القتل عبر أساليب محيّرة. لم تكن هناك بصمة معيّنة في الجرائم. هذا إلى جانب حقيقة ظهور الجثث في أجزاء مختلفة من الولاية. وفي حين أنّ هذا يشير إلى أنه لم يكن عمل قاتلٍ واحدٍ فقط بل من كان وراء هذه الجرائم كانت لديه زمرة من الأتباع ينفّذون خططه، كما أعطت طبيعة جرائم القتل نظرة ثاقبة في العقل المدبّر. لم يكن الشخص قاتلًا مندفعًا، بل كان خبيرًا في تدبير المؤامرات وذكيًا بما يكفي لفهم المواد السامّة لتنفيذ رؤيته الشيطانية على مدار سنوات.

بينما كان وايت يدقّق في البيانات والتقارير، كانت هناك قصّة واحدة معقولة يبدو فيها أنّ سطرًا تلو الآخر يظهر متماسكًا. ولكن عند الفحص الدقيق، تعود المعلومات التي تتّبع بشكلٍ ثابتٍ، إلى الشيء نفسه المشكوك فيه وهي المصادر، والعيون الخاصّة والمحامين المحليين الذين استندت آراؤهم إلى الشائعات. بالنظر إلى أنّ الفساد يبدو أنه يتغلغل في كلّ مؤسّسة في مقاطعة الأوساج، فقد تعمّدت هذه المصادر نشر معلومات مضلّلة من أجل إخفاء مؤامرة حقيقية. أدرك وايت أنّ أكبر مشكلة في التحقيقات لم تكن بسبب فشل العملاء في الكشف عن أيّ خيوط، بل بالعكس كان هناك كثير منها. كان العملاء يمسكون بطرف الخيط ومن ثمّ يتركونه بسبب الفشل في إثباته أو دحضه بشكلٍ قاطعٍ. حتى عندما بدا أنّ العملاء يسيرون على المسار الصحيح، فإنهم لم ينجحوا في تقديم أيّ دليل يُمكن قبوله في المحكمة.

بينما كان وايت يسعى ليكون محقّقًا يأخذ بالدليل، كان عليه أن يتعلّم كثيرًا من التقنيات الجديدة، ولكنّ أكثرها فائدة - لا دخل لها بالقديم والحديث - هي فصل الشائعات بشكل موضوعي ومنهجي عن الحقائق التي يستطيع إثباتها. فهو لم يكن يريد شنق رجل لمجرّد أنه صاغ قصّة مغرية. وبعد سنوات من التخبّط، من المحتمل أن تكون التحقيقات ملتوية في جرائم قتل الأوساج. احتاج وايت إلى التخلّص من نصف الحقائق والقيام ببناء سرد لا يقبل الشكّ، مبنيّ على ما أسماه «سلسلة غير منقطعة من الأدلّة»[2].

فضّل وايت التحقيق في القضايا بمفرده، لكنه أدرك بالنظر إلى عدد جرائم القتل والأدلّة والخيوط الكثيرة، أنه بحاجة إلى تجميع فريق. وحتّى الفريق لن يتغلّب على واحد من أهمّ المعوّقات التي أعاقت المحقّقين السابقين وهي، رفض الشهود التعاون بسبب التحيّز والفساد، أو على حد تعبير العميل، «خوف جماعي من التعرّض إلى جريمة قتل بدمٍ باردٍ»[3]. لذلك قرّر وايت أنه سيكون الوجه الظاهر للتحقيق في حين أنّ معظم العملاء سوف يعملون بشكل متخفّ.

وعده هوفر: «سأخصّص أكبر عددٍ[4] تريده من الرجال». وإدراكًا منه لقلّة عدد العملاء الجدد لديه، استمرّ في تعيين بعض من «رعاة البقر» الآخرين، بمن فيهم شقيق وايت، دوك. هؤلاء العملاء كانوا يتعلّمون التجسّس بطريقةٍ علميّة[5]، ويضبطون طريقة طَبْعِ تقاريرهم على الآلة الكاتبة، لكنّ وايت قرّر أنّ هؤلاء الرجال، هم المرشّحون الوحيدون، القادرون على القيام بهذه المَهمّة؛ التسلّل إلى المناطق البرية، والتعامل مع الخارجين على القانون، وتتبّع المشتبه بهم، والسير لأيّام بلا نوم، والحفاظ على سرّية عملهم تحت العنف والضرب، واستعمال الأسلحة الفتّاكة إذا لزم الأمر. بدأ وايت بتشكيل فرقة من رعاة البقر «كاوبوي» لكنها لم تتضمّن شقيقه دوك. فمنذ خدمتهما في فرقة الخيّالة، اجتنب العمل مع شقيقه في القضايا نفسها من أجل حماية أسرهم من أن يفقدوا فردين في وقتٍ واحد.

أوّل من جنّده وايت في الفرقة كان عمدة سابقًا في نيو مكسيكو، وكان في السادسة والخمسين من العمر، بحيث أصبح أكبر أعضاء الفريق سنًّا[6]. وعلى الرغم من تحفّظه إلى حدّ الخجل، كان العمدة ماهرًا في تقمّص أدوار الهويّات السرّية، حيث تظاهر بأنه يعمل أيّ شيء، من سارق بقر إلى مزوّر محترف. ومن ثمّ جنّد وايت خيّالًا سابقًا[7] شعره أشقر، وجسمه ممتلئ، وثرثار، وكان، وفق رئيسه، هو الأنسب للمواقف «التي يوجد فيها أيّ خطر»[8]. بالإضافة إلى ذلك، جلب وايت عميلًا استخباريًا من ذوي الخبرة، والذي يُشبه إلى حدٍّ كبير رجل التأمين، ربّما لأنها كانت مهنته السابقة[9].

وقرّر بيرنز الاحتفاظ بعميل واحد من فريق التحقيق السابق، يُدعى جون بيرغر. كانت لديه معرفة شاملة بالقضيّة، من المشتبه بهم إلى مسارات الأدلّة، وقد طوّر شبكة واسعة من المخبرين شملت كثيرًا من الخارجين على القانون. ولأنّ بيرغر كان معروفًا

بالفعل في مقاطعة الأوساج، كان سيعمل بشكل علني مع وايت. وكذلك الحال مع عميل آخر، فرانك سميث، من تكساس الذي ذُكرت اهتماماته على هذا النحو: «التمرين على المسدّس والبندقية، صيد الطرائد الكبيرة، صيد السمك، تسلّق الجبال، مغامرات، وتتبّع آثار الرجال»[10]. صنِّف سميث في مكتب هوفر واحدًا من «النوع الأقدم من العملاء غير المدرّبين»[11].

أخيرًا، أحضر وايت، جون رين الشهير، الذي كان جاسوسًا للقادة الثوريين في المكسيك، والهندي الأميركي الوحيد في المكتب. كان رين عضوًا في قبيلة «يوتي» (Ute) التي ازدهرت في المناطق التي تُعرف اليوم بولايتي كولورادو ويوتا، وكان لديه شاربان ملتويان وعينان سوداوان. كان محقّقًا موهوبًا، لكنه طُرد من المكتب لأنّه لا يقدّم التقارير ولا يلتزم بالقوانين. قال عنه عميل خاص مسؤول بسخط: «هو ماهرٌ للغاية في التعامل مع القضايا، وتستطيع وصف بعض تحقيقاته بأنها مذهلة. ولكن ما المفيد في أن تعمل ليلًا ونهارًا ولا تطبّق واجبك في تقارير مكتوبة؟ لديه كلّ المعلومات في رأسه، ولكنه لا يحفظها على الورق»[12]. في آذار/مارس من العام 1925، أعاد هوفر رين إلى منصبه بعد أن حذّره من «أنك إذا لم تمتثل للمعايير السارية في هذا المكتب، سأكون مضطرًّا لطلب استقالتك»[13].



تضمن فريق وايت عنصرا سابقا من خيالة تكساس الذي قيل أنه الأنسب «لأي موقف خطر»

عرف وايت أنّ رين سيقدّم وجهة نظر ضرورية للفريق، فبعض العملاء السابقين في القضيّة، بما في ذلك بيرغر، أظهروا نوعًا من التحيّز العرقي تجاه الأوساج الذي كان شائعًا في ذلك الوقت. في تقرير مشترك، ذكر بيرغر وعميل آخر، «أنّ الهنود،

بشكل عام، كسالى، ومثيرون للشفقة، وجبناء، ومشتّتون»[14]، وأصر زميل بيرغر على أنّ: «الطريقة الوحيدة لجعل هؤلاء الهنود الأوساج الفاسدين العنيدين يتحدّثون ويقولون ما يعرفونه هو قطع المصروف عنهم، وإذا لزم الأمر، الزجّ بهم في السجن»[15]. وقد أدّى هذا الازدراء إلى تعميق عدم ثقة الأوساج بالعملاء الفدراليين، ما عرقل مسارات التحقيق. ولكنّ رين الذي أشار إلى نفسه، إلى أنه واحد من «شجعان هوفر»، تعامل ببراعة مع كثير من الحالات الحسّاسة في المحميات.

طلب وايت من هوفر الرجال الذين يريدهم، وقد تمّ تعيينهم في المكتب في أوكلاهوما لتلقّي الأوامر العاجلة، في رسالة مرمّزة من المقرّ الرئيسي، «باشروا العمل بسرية وقدّموا[16] التقارير إلى العميل المسؤول توم وايت على الفور». وبمجرد أن تمّ تجميع الفريق، أمسك وايت بندقيته وانطلق إلى مقاطعة الأوساج. مسافر آخر - نحو المجهول - في الضباب.

10 القضاء على المستحيل

تسلّل الغرباء، واحدًا تلو الآخر، إلى مقاطعة الأوساج[1]. وظهر العمدة السابق، متنكرًا كمربٍّ للماشية من تكساس، مسنّ وهادئ. ومن ثمّ ظهر الخيّال السابق، الثرثار وقدّم نفسه أيضًا على أنه صاحب مزرعة. لم يمضِ وقتٌ طويل بعد ذلك حتى افتتح رجل التأمين نشاطًا تجاريًا في وسط المدينة في فيرفاكس، من أجل الترويج لبوالص تأمين حقيقية ومنصفة. وأخيرًا، وصل العميل رين كرجل طبّ هندي، ادّعى أنه يبحث عن أقاربه[2].

نصح وايت رجاله بالحفاظ على بساطة غطائهم السرّي، لكي لا يفضحوا أنفسهم. وسرعان ما انخرط العميلان اللذان يعملان كمربّيين للماشية مع ويليام هيل الذي قدّمهما على أنهما مربيين للماشية وصديقين من تكساس، إلى كثر من سكّان المدينة البارزين. زار رجل التأمين منازل مختلفة للمشتبه بهم بحجّة عرض بَوالِص تأمين عليهم. وقام العميل رين بغزواته الخاصّة، حيث حضر التجمعات القبلية وجمع المعلومات من الأوساج الذين قد لا يتحدّثون إلى رجل القانون الأبيض. أخبر وايت هوفر: «رين عاش بين الهنود الأوساج... وقد اندمج اندماجًا رائعًا»، مضيفًا أنّ عملاءه السرّيين بدوا قادرين على «تحمّل صعوبة الحياة»[3].

كان صعبًا على وايت أن يعرف من أين يبدأ التحقيق، فتقارير الطبّ الشرعي بوفاة آنّا براون قد اختفت في ظروف غامضة. قال قاضي التحقيق في فيرفاكس: «مكتبي اقتُحم، والتقارير اختفت»[4].

لم يتمّ حفظ أيّ دليل من مختلف مسارح الجريمة فعليًا، ولكن في حالة آنّا، كان الحانوتي قد احتفظ بشيء واحد سرًّا، وهو جمجمتها. كانت بحجم البطّيخة، فجوتها الفارغة كانت خفيفة بشكل مزعج في يد المرء، والهواء يندفع من خلالها كما لو كانت

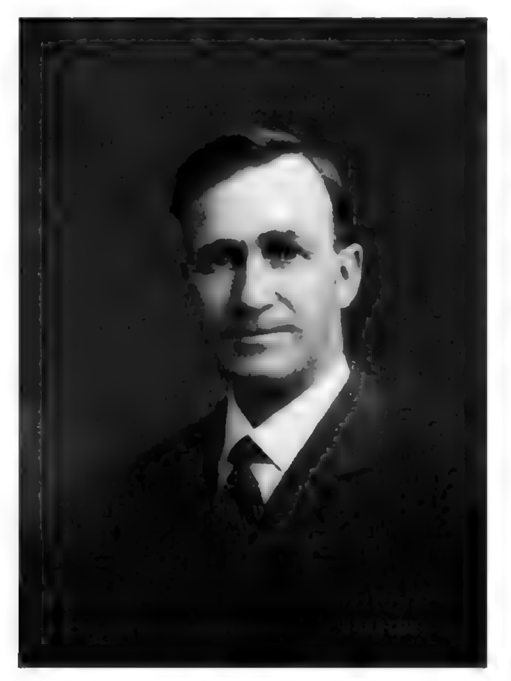
صَدَفة مُبَيَّضة بالشمس. فحص وايت الجمجمة وكان بإمكانه رؤية الفتحة الموجودة في الخلف حيث دخلت الرصاصة، وخَلُص، كما فعل المحقّقون السابقون، إلى أنّ الرصاصة من الممكن أن تكون من مسدّس من عيارٍ 0.32 صغير، أو كبير من عيار 0.38. هو، أيضًا، لاحظ الغرابة في عدم وجود جُرْح مَخْرَج الرصاصة من مقدّمة جمجمة آنّا، ما يعني أنّ الرصاصة استقرّت داخل رأسها. كان من المستحيل تفويت الرصاصة في أثناء تشريح الجثّة. من المؤكّد أن شخصًا ما في مسرح الجريمة، متآمر أو حتى القاتل، سرق الرصاصة.

اعترف قاضي الصلح بأنه كانت لديه مثل هذه الشكوك كذلك. لقد تمّ الضغط عليه لترك هذه المسألة. هل كان ممكنًا، أنّ الطبيبين ديفيد وجيمس شون، قد أخذاها؟ قال: «أنا لا أعرف»[5].

عندما استُجوِب ديفيد شون، اعترف بأنه لم يكن هناك جُرْح لمخرج الرصاصة. لكنه أصر على أنه وشقيقه قد «أجريا بحثًا دؤوبًا» عن الرصاصة[6]. احتجّ جيمس شون أيضًا بصورة مماثلة. كان وايت مقتنعًا بأنّ شخصًا ما قام بتغيير ملف مسرح الجريمة. ولكن بالنظر إلى عدد الأشخاص الحاضرين في خلال تشريح الجثّة، بما في ذلك المحقّقون المحلّيّون، ومتعهّد دفن الموتى، وماتيس، مالك شركة بيغ هيل التجارية، بدا من المستحيل قول من كان الجاني.

استقرّ وايت على أسلوب بسيط، لكنه أنيق. سيحاول بشكلٍ منهجي تأكيد أو دحض حجّة كلّ مشتبه فيه، لفصل الحقائق عن الشائعات الواردة في ملفات القضيّة في المكتب. وكما قال شيرلوك هولمز الشهير: «عندما تقضي على المستحيل، كلّ ما تبقّى، مهما كان بعيد الاحتمال، يجب أن يكون الحقيقة»[7].

اعتمد وايت على العميل بيرغر لإرشاده في خلال ضبابية التحقيق الفدرالي السابق. عمل العميل بيرغر على القضيّة لمدّة سنة ونصف السنة، وفي خلال تلك الفترة كان قد سعى وراء كثير من الخيوط نفسها، مثل: الأعين الخاصّة التي وظّفتها عائلة هيل وماتيس ومولي. بالاعتماد على النتائج التي توصّل إليها العميل بيرغر، تمكّن وايت بسرعة من


العميل جون بيرغر

استبعاد كثير من المشتبه بهم، بما في ذلك زوج آنّا السابق، أودا براون. فذريعة أنه كان مع امرأة أخرى تبيّن أنها صحيحة. من الواضح أنّ المزوّر الذي حاول توريط براون بقصّة ملفّقة كان يساوم مع المدّعين لتحسين ظروف السجن[8]. وأدّى التحقيق الإضافي إلى استبعاد المشتبه بهم الآخرين، مثل: عمال النفط الهَمَجِيّين الذين اتهمهم هارف فرياس، العمدة المخلوع.

ومن ثم دقّق وايت في شائعة روز الهندية التي قيل أنها قتلت آنّا لأنها حاولت إغواء حبيبها جو ألين. (روز وجو تزوّجا منذ ذلك الحين). علم وايت بما حصل عليه المحقّق الخاص رقم 28 أن امرأة هندية تدعى كاو، اعترفت بأنّ روز هي القاتلة. في تقريرٍ ميداني، لاحظ عميل من المكتب، «من المعروف... أنّ انفعالات روز كانت لشخصٍ عنيفٍ وغيور». تشارك مارشال مدينة فيرفاكس مع العملاء تفاصيل مقلقة: في وقتٍ قريبٍ بعد مقتل آنّا، وُجدت بقعة داكنة على المقعد الخلفي لسيّارة روز، بدت البقعة وكأنها دم».

أبلغ العميل بيرغر، وايت، ذات مرّة أنه أحضر روز وجو إلى مكتب العمدة للاستجواب. تمّ وضع المشتبه بهما في غرفتين منفصلتين وتُركا فيهما ليضغط عليهما. عندما استجوب العميل بيرغر، روز، أصرّت على أنه ليس لديها علاقة بقتل آنّا، وذكرت «أنها لم تتشاجر مع آنّا»[9]. ومن ثمّ واجه العميل بيرغر، جو الذي كانت كلماته «مُتحفّظة للغاية، وشريرة وعنيدة»[10]. سأل محقّق آخر جو بشكل منفصل: «هل كنت غليظًا مع آنّا؟»[11]

قال: «لا، لم أكن».

قدّم جو الحجّة نفسها التي قدّمتها روز في ليلة 21 أيار/مايو من العام 1921، بأنهما كانا معًا في باوني، على بعد سبعة عشر ميلًا جنوب غرب غراي هورس، وتوقّفا

في بيت ذي غرف مفروشة للإيجار. مالك هذا البيت، الذي غالبًا ما تفوح منه رائحة الجنس وويسكي «مون شاين»، دعم مَزَاعِم جو وروز. لكنّ المحقّقين لاحظوا التطابق الحرفي في القصص التي سردها جو وروز، كما لو أنهما تدرّبا عليها.

أُفرج عنهما، وبعد ذلك طلب العميل بيرغر المساعدة من المخبر، بائع المخدّرات، كيليسي موريسون الذي بدا مصدرًا مثاليًا للاستخبارات. لقد كان متزوّجًا ذات مرّة من امرأة من الأوساج، وكان قريبًا من روز والمشتبه بهم الآخرين.

لكن، وقبل أنّ يتمكّن العميل بيرغر من تجنيد موريسون - على الرغم من أنه كان بحاجة للعثور عليه - هرب موريسون من مقاطعة الأوساج بعد اعتدائه على ضابط حظر محلّي. استفسر بيرغر وعملاء آخرون عنه، وعلموا أنّ موريسون كان في دالاس، تكساس، مستخدمًا اسمًا مستعارًا «لويد ميلر». قام العملاء بنصب فخٍّ فقد أودعوا رسالةً مسجّلةً باسمه «ميلر» في صندوقه البريدي. ومن ثمّ ألقوا القبض عليه عندما ذهب لاستلامها. قال العميل بيرغر: «أجرينا مقابلة مع لويد ميلر الذي نفى لمدّة ساعة تقريبًا أنه كيليسي موريسون، لكنه اعترف أخيرًا»[12].

موريسون الذي وصفه العميل بيرغر بأنه «داهية[13] ومتهوّر ويَعي أنه مجرم» ويلبس كأنّه راقص قاعات. طويل القامة، وندوب الرصاص تغطّي وجهه، صغير العينين، دائم التوتّر، وهن المظهر، ومن هنا جاء لقبه، «النحيل». وصفه العميل بيرغر في تقاريره، أنه «كثير الكلام ومدخّن شره. ويُحرّك أنفه وفمه مثل الأرانب تقريبًا بشكلٍ مستمرّ، خاصةً عندما يكون متحمّسًا»[14].

عقد الفدراليون صفقة مع موريسون: في مقابل إلغاء مذكّرة توقيفه بتهمة الاعتداء، سيعمل مخبرًا في قضايا قتل الأوساج. شدّد العميل بيرغر في تقريره لقيادة المكتب: «هذا الاتّفاق في غاية السرّية. ولا ينبغي إفشاؤه لأيّ شخص من خارج المكتب، تحت أيّ ظرف من الظروف»[15].

كان هناك خطرٌ من أنّ موريسون قد يهرب. وقبل إطلاق سراحه، تأكّد العميل بيرغر من أنه قد مرَّ بعملية صارمة تعرف باسم برتيلوناج Bertillonage [16]. وهي طريقة ابتكرها عالم الجريمة الفرنسي ألفونس بيرتيلون في العام 1879، حيث كانت أوّل طريقة علمية لتحديد المجرمين الهاربين الذين يكرّرون جرائمهم، وذلك من خلال استخدام المِسْماك

(آلة تقيس سِمْكَ الأشياء) وغيرها من الأدوات الخاصّة. قام العميل بيرغر، بمساعدة شرطة دالاس بأخذ أحد عشر سِمْكًا من أجزاء جسم موريسون، من بينها طول قدمه اليسرى، عرض رأسه وطوله، وقطر أذنه اليمنى.

بعد أن أبلغ العميل بيرغر موريسون الغرض من هذه القياسات، أمر بأخذ صورة هويَّة له، وهي أيضًا من ابتكارات بيرتيلون. في العام 1894، كتبَتْ الصحافية الاستقصائية إيدا تاربيل أنّ أيّ سجين يمرّ عبر نظام بيرتيلون، سيكون «مرصودًا» إلى الأبد: «لو مسح وشمه، وضغط صدره، وصبغ شعره، وخلع أسنانه، وشوّه جسده، وأخفى طوله، كل ذلك لن يجديه نفعًا».

في ما بعد، استُبدلت بطريقة «برتيلوناج» طريقة أكثر كفاءة لتحديد الهويّة التي أحدثت ثورة في عالم الكشف العلمي، وهي «البصمات». في بعض الحالات يمكن التعرّف على مشتبه به في مسرح الجريمة حتى من دون حضور شاهد. عندما أصبح هوفر مدير المكتب بالوكالة، أنشأ قسم تحديد الهويّة[17]، وهو مستودع مركزي لبصمات المجرمين الموقوفين من جميع أنحاء البلاد. وأعلن هوفر أنّ الأساليب العلمية هذه ستساعد «حرّاس الحضارة في مواجهة الخطر المشترك»[18].

قام العميل بيرغر بلمس أطراف أصابع موريسون بالحبر. وقد أبلغ المقرّ: «أصبح لدينا صورته ووصفه وقياساته وبصمات أصابعه، وعند حصول أيّ حدث سيتمّ إلقاء القبض عليه فورًا»[19].

ومن ثمّ أعطى موريسون بعض المال لنفقاته اليوميّة، فوعده[20] بزيارة روز وجو ألين، بالإضافة إلى الأعضاء من الحركة السرّية، لمعرفة بعض التفاصيل عن جرائم القتل. وحذّر بيرغر، موريسون من أنه إذا اكتشف أيّ شخص أنه يعمل لصالح المكتب الفدرالي، فهذا يعني موته.

وأبلغ موريسون المكتب بأنه سأل روز بخصوص مقتل آنّا: «لماذا فعلت ذلك؟»[21] فأجابت: «أنت لا تعرف شيئًا أيها النحيل. أنا لم أقتل آنّا». في مذكّرة، أشار العميل بيرغر إلى أنّ مخبره الثمين إذا «لم يُقتل بدمٍ باردٍ في وقت قريب جدًا، يُمكنه أن ينجز لنا عملًا كثيرًا»[22].

استعرض وايت الآن جميع المعلومات التي جمعها موريسون والعملاء بخصوص روز وجو ألين. وفي ضوء تصريح روز لموريسون وحقيقة أنّ صاحب غرف الإيجار قد أكّد صحّة قصّتهما. بدا تصريح المرأة الهندية كاو، بأنّ روز اعترفت لها، لغزًا محيّرًا. كان أحد التفاصيل على وجه الخصوص، مثيرًا للفضول. وهو أنّ آنّا كانت في السيّارة عندما أطلقت روز عليها النار، ومن ثمّ ألقت جسدها في جدول ثري مايل، حيث تخلّصت روز أيضًا من ملابسها الملطّخة بالدماء. كانت نتائج تشريح الجثّة معبّرة. إذ استنتج علماء الجريمة أنّ الدم يتخثّر عند أدنى نقطة في الجسم بعد الموت، وتظهر بقعٌ داكنة على الجلد. إذا وجِدَتْ هذه اللطخات في المناطق العليا فهي علامة على أنّ شخصًا ما قد حرّك الجسد. في حالة آنّا، الأطبّاء لم يُبلغوا عن أيّ مؤشّرات على ذلك، وفي جميع أوصاف مسرح الجريمة، لم يكن هناك أثرٌ للدم من السيّارة إلى الجدول.

بدا أنّ الشاهد كان يكذب وأنّ روز وجو بريئان. وهذا ما يفسّر لماذا لم يلتقط الدِكتوغراف الذي أنشأه المحقّقون الخاصّون الذين يعملون لصالح عائلة مولي بوركهارت أيّ تصريحات تدينهما. ولماذا لم يتمّ العثور على ملابس روز في الجدول؟

عندما استجوب العملاء الهندية كاو، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن تنطق بالحقيقة. واعترفت بأنّ روز لم تخبرها بأيّ قصّة من هذا القبيل حول القتل. في الواقع، جاء رجلٌ أبيض غريب إلى منزلها، وكتب بيانًا، وأجبرها على التوقيع، على الرغم من أنه لم يكن صحيحًا. أدرك وايت أنّ المتآمرين لم يكونوا فقط يمحون الأدلّة فحسب، بل كانوا يصنعونها.

11 الرجل الثالث

بدأ هوفر على الفور بمضايقة وايت، للحصول على المعلومات المستجدّة. ذات مرّة، عندما كان وايت في الميدان ولم يردّ على الفور، وبّخه هوفر قائلًا: «لا أفهم لماذا لا تتّصل بي في نهاية النهار، وتخبرني عن آخر التطورات والوضع العام»[1]. تضاءل اهتمام هوفر بالقضيّة على مرّ السنين، لكنه أصبح غاضِبًا للغاية من الانتقادات المتزايدة التي كان يتلقاها في أوكلاهوما لدرجة أنه قبل وصول وايت كان قد بدأ بالتحقيق بنفسه. على الرغم من أنه لم يكن شخصًا يُغامر بخوض غمار وحل الميدان (كان لديه رهاب الجراثيم وقد ركّب في منزله نظامًا خاصًّا لتنقية الهواء)، كان يجلس في مكتبه، يتفحّص التقارير الواردة من العملاء، وعيناه وأذناه على تهديدات العالم.



إيه دبليو كومستوك مع هندي من الأوساج

عندما درس هوفر التقارير المتعلّقة بجرائم قتل الأوساج، وجد «ملاحظة مثيرة للاهتمام»[2]، وهي أنّ آنّا براون وروان قُتل كلاهما برصاصة في مؤخّرة الرأس. و«بعد تفحّص كلّ الزوايا بعناية» توصّل إلى الاعتقاد بأنّ المرأة، نيسيا كيني التي كانت متزوّجة من رجل هندي، قد تحمل مفتاح القضيّة. أخبرت كيني العملاء أنّ المحامي إيه دبليو كومستوك الذي كان وصيًّا على كثير من الأوساج، كان على الأرجح جزءًا من المؤامرة. لم

ينسَ هوفر أنّ كومستوك انتقد المكتب وهدّد باللجوء إلى السناتور كرتيس ضدّه، ما جعل كومستوك، في نظر هوفر، فأرًا خبيثًا. وأخبر هوفر أحد عملائه: «أنا مقتنع بأنّ السيدة كيني على المسار الصحيح».

كان لدى كيني تاريخٌ من عدم الاستقرار العقلي، حيث ادّعت بأنها ممسوسة، وحاولت ذات مرّة قتل محامٍ محلّي آخر. ومع ذلك، فقد أجرى هوفر مقابلتين معها في واشنطن، وطلب من خبير حكومي في «الأمراض العقلية» تقييمها. خَلُص الخبير إلى أنها مصابة بجنون العظمة، لكنه أشار، على حدّ تعبير هوفر، «إلى أنها تُدرك العناصر التي قد تفلت من ملاحظة الفرد العاديّ». وقال هوفر إنه: «نتيجة لذلك، فإنّ كيني، تُعْتبرُ القيمة الأعظم لنا في تأسيس الأدلّة ما يجعلها شاهدة».

لم يكن وايت قادرًا على إثبات مزاعم كيني، ولكنه لم يكن متأكّدًا أيضًا من كومستوك. كان كومستوك، مسلّحًا بمسدسه من نوع بولدوغ الإنكليزي، أحد المواطنين البيض البارزين القلائل في مقاطعة الأوساج الذين بدا أنهم على استعدادٍ لمساعدة المحقّقين. وأخبر العملاء أنه متأكّد من أنه يستطيع تأمين أدلّة حاسمة، إذا كان بإمكانه الوصول إلى ملفّات المكتب. رفض وايت مشاركة أيّ سجلّات سرّية، ومع ذلك، كان كومستوك يأتي بشكلٍ روتيني لرؤية وايت ومشاركته الحكايات المفيدة والمعلومات، والتأكّد من تقدّم التحقيق، ومن ثمّ يختفي في الشوارع بمسدّسه البولدوغ الإنكليزي اللامع.

بحلول نهاية تموز/يوليو من العام 1925، حوّل وايت انتباهه الكامل إلى آخر المشتبه بهم المدرجة أسماؤهم في قضيّة مقتل آنّا براون، وهو برايان بوركهارت، صهر مولي. علم وايت أن برايان في خلال التحقيق معه في العام 1921، صرّح أنه في الليلة التي اختفت فيها آنّا أخذها مباشرة إلى منزلها من منزل إرنست ومولي. وأنزلها ما بين الساعة 4:30 و5:00 مساءً؛ ومن ثمّ توجّه برايان إلى فيرفاكس، حيث شُوهد مع هيل وإرنست ورفاقه، وعمّه وعمّته اللذين ذهبا معه لمشاهدة المسرحية الموسيقية Bringing Up Father. لم يكن هناك وقتٌ للذهاب إلى الجدول وإطلاق النار على آنّا، والعودة إلى المدينة قبل بدء العرض. بدا عذره مُحكمًا.

لتأكيد ذلك، قام العميل بيرغر وزميله في وقت سابق بالسفر إلى كامبل، وهي بلدة في شمال تكساس، حيث يعيش عمّ إرنست وعمّته. أسرع العملاء عبر الدروب القديمة التي كان رعاة البقر يتّبعونها ذات مرّة، الدروب التي استُبدلت بها الآن الطرقات السريعة لتتناسب مع أرتال السيارات التي تسيّرها المحركات الصاخبة. اكتشف العملاء أنّ هيل نشأ في بستان مُشجّر على بُعد أميال قليلة فقط من كامبل، وماتت والدته عندما كان عمره ثلاث سنوات. يبدو أنّ ملك تلال الأوساج أيضًا مُحمّل بأعباء ذكريات الماضي.

في كامبل، توقّف العملاء عند منزل عمّ برايان وعمّته الرصين. كان العمّ خارج المنزل، لكن العمّة دعت المحقّقين إلى الداخل، وبدأت بتشدُّقها السّام عن زواج إرنست من إحدى هؤلاء المليونيرات الهنديات الحمر. سألها بيرغر عن الليلة التي اختفت فيها آنّا. قالت: «أوه، لقد سمعت همسات عن مسؤولية برايان عن قتل تلك الهندية المخمورة. لكنّ أيًا منها لم يكن صحيحًا، بعد توصيل آنّا، انضم برايان إلى بقيّة أعضاء المجموعة في فيرفاكس.

ظهر العمّ فجأة عند الباب الأمامي، وبدا غير سعيد بوجود زوج من العملاء الفدراليين داخل منزله. كان متردّدًا بالكلام، لكنه أكّد أنّ برايان التقى بهم في فيرفاكس بعد إنزال آنّا. وأضاف أنّه وزوجته بعد العرض صرفا المساء في المنزل نفسه مع برايان، وأنّ برايان كان هناك طوال الوقت؛ ببساطة لم يكن هو القاتل. ومن ثمّ أوضح العمّ أنه يريد العميلين خارج منزله فورًا.

في آب/أغسطس 1925، أرسل وايت عملاءه السرّيين للتسلّل إلى بلدة رالستون؛ أراد وايت أن يقوم فريقه بالتحقيق في دليلٍ لم يُتابَع بشكل صحيح. في الليلة التي اختفت فيها آنّا براون، أظهرت السجلّات أنها ربّما رُصدت في سيّارة من قِبَل مجموعة من الرجال البيض الذين كانوا يجلسون أمام فندق في شارع رالستون الرئيسي. تحدّث المحقّقون السابقون، بما في ذلك رجال القانون المحلّيون والمحقّقون الخاصّون، إلى هؤلاء الشهود القيّمين، ومن ثم قاموا على ما يبدو بدفن ما عرفوه. واختفى أحد الشهود على الأقلّ، منذ ذلك الحين، وكان وايت مقتنعًا، كما أشار أحد العملاء في تقرير، بأنّ هؤلاء الأشخاص كانوا يتلقّون «المال من المشتبه بهم ليذهبوا ويستقرّوا بعيدًا»[3].

حاول وايت ورجاله تعقّب بعض الشهود خارج الفندق، بما في ذلك مزارع مسنّ استجوبه عميل في وقت سابق. في خلال تلك المقابلة الأوّلية، بدا المزارع كأنه يُعاني من الخرف. لقد حدّق في العميل بذهول ولكنه بعد فترة، تنشّط. وأوضح أنّ ذاكرته كانت على ما يرام، ويريد التأكّد من أن المحقّقين كانوا فعلًا كما يقولون، فالتحدّث إلى الشخص الخطأ في جرائم القتل هذه يودي بحياة الفرد.

تحدّث المزارع عندها إلى وايت ورجاله وفق شهادة أدلى بها بعد ذلك تحت القسم. فقد تذكّر ذلك المساء جيّدًا، لأنه غالبًا ما كان يُناقش الأمر مع أصدقائه في الفندق. وقال: «نحن، الزملاء القدامى نُمضي وقتًا طويلًا في البلدة، وهذا هو المكان الذي نجلس فيه»[4]. وأشار إلى أنّ السيّارة توقّفت عند الرصيف، ومن خلال نافذة مفتوحة تمكّن من رؤية آنّا أمامه، وقالت له مرحبًا فردّ أحد أفراد المجموعة: «مرحبًا، آني».

زوجة المزارع التي كانت معه في رالستون في تلك الليلة، تأكّدت أيضًا من أنّ المرأة التي كانت في السيّارة هي آنّا، لكنها لم تتحدّث معها. وقالت: «كان هناك كثير من الهنود، أحيانًا أتحدّث إلى أحدهم، وأحيانًا لا أتحدّث إليهم. أحيانًا عندما أتحدّث إلى أحدهم لا يتكلّم»[5]. وردًّا على سؤال عمّا إذا كانت آنّا مخمورة. قالت: «كانت جالسة مثلهم جميعًا. هكذا تمامًا». وقلّدت المرأة طريقة جلوس آنّا: مستقيمة وثابتة، كأنها تمثال لشخص هندي قوي البنية.

في وقت من الأوقات، سُئلت عمّا إذا كان أيّ شخص برفقة آنّا في السيّارة.

قالت زوجة المزارع: «نعم، سيدي».

- من؟

- برايان بوركهارت.

قالت إنّ برايان كان يقود السيّارة ويرتدي قبّعة رعاة البقر، وقال شاهد آخر إنه رأى أيضًا برايان مع آنّا في السيّارة فتذكر الشاهد أنهما: «ذهبا مباشرة نحو الغرب، ومن ثمّ عبَرا البلدة، ولا أعرف إلى أين ذهبا بعد ذلك»[6].

كانت هذه أوّل ثغرة مثبتة في حجّة برايان، قد يكون أخذ آنّا إلى المنزل، لكنه عاد وخرج. كتب أحد العملاء في تقريرٍ أنّ برايان «حنث بقسمه أمام استجواب قاضي

التحقيق الجنائي في فيرفاكس، وقال إنه ترك آنّا بأمان في منزلها في فيرفاكس بين الساعة الرابعة والنصف والخامسة مساءً»[7].

احتاج وايت إلى تحديد المكان الذي ذهب إليه الاثنان بعد مغادرة رالستون. ومن خلال تجميع التفاصيل من المخبرين السابقين للعميل بيرغر، وكذلك من الشهود الذين عثر عليهم الفريق السرّي، تمكّن وايت من رسم خطّ زمني متسلسل. توقّفت آنّا وبرايان عند مكانٍ قريب لبيع المشروبات الكحولية المحظورة وبقيا هناك حتى حوالى الساعة العاشرة مساء. ومن ثمّ توجّها إلى مكان للعب القمار، على بعد أميال عدّة من شمال فيرفاكس. شوهد عمّ برايان معهما، لذلك من المرجّح أن العمّ كذب على العميل بيرغر، ليس لتغطية برايان فحسب ولكن لتغطية نفسه أيضًا. وقال صاحب المكان للعملاء إنّ برايان وآنّا، كانا يشربان هناك حتى حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

أصبحت الروايات عن المكان الذي ذهب إليه برايان وآنّا بعد ذلك أكثر ضبابية. قال أحد الشهود إنهما توقّفا بمفردهما عند مكان آخر لبيع المشروبات الكحولية المحظورة قرب فيرفاكس. وأفاد آخرون أنهم شاهدوا برايان وآنّا يتركان المكان بصحبة «رجل ثالث»[8] لم يكن عمّه. لاحظ العميل بيرغر أنّ «الرجل الثالث قيل إنه كان حاضرًا مع آنّا براون وبرايان بوركهارت». آخر مشاهدة لآنّا وبرايان سويًا سمع عنها المحقّقون، كانت حوالى الساعة الثالثة



برايان بوركهارت

صباحًا. قالت شاهدة كانت تعرفهما: «إنها سمعت سيّارة تقف بالقرب من منزلها في فيرفاكس. الرجل الذي كانت تعتقد أنه برايان صرخ، أوقفي حماقتك، آني، وادخلي السيّارة»[9].

بعد ذلك، لم يكن هناك أثرٌ لآنّا؛ لقد اختفت. على الرغم من ذلك، جار برايان رآه وهو يعود إلى المنزل عند شروق الشمس. أخبر برايان جاره لاحقًا ألّا يقول أيّ كلمة لأي شخص وأعطاه المال ليبقى صامتًا.

تحرّك وايت نحو المشتبه الرئيسي. ولكن، كما هي الحال مع كثير من الألغاز، فتحت كلّ إجابة عن سؤالٍ، سؤالًا آخر. إذا كان برايان قد قتل آنّا، فما هو دافعه؟ وهل كان متورّطًا في جرائم القتل الأخرى؟ ومن هو الرجل الثالث؟



12 ..... بريّة من المرايا

بحلول نهاية ذلك الصيف، بدأ وايت يشكّ بأنّ هناك جاسوسًا داخل فريق التحقيق. عندما كان أحد عملائه يستجوب محاميًا محلّيًّا رديء السمعة، كان، وفق أحد المخبرين، يحاول «خنق»[1] تحقيق الحكومة. كان المحامي على معرفة بالأعمال الداخلية للقضيّة. أخيرًا، اعترف بأنه «اطّلع على جزءٍ من التقارير التي أعدّها المكتب وأُتيحت له الفرصة لرؤية مزيدٍ منها»[2].

لطالما ابتلي مسار المكتب بالتسريبات وعرقلة التحقيقات. واشتكى أحد العملاء من «انتقال المعلومات الواردة في التقارير، لتُصبح على الفور في حيازة أشخاصٍ غير مصرّح لهم الاطّلاع عليها وعديمي الضمير»[3]. اكتشف المدّعي العام أنّ التقارير التي حضّرها له المكتب، قد اختفت من مكتبه. وهدّدت الانتهاكات حياة العملاء وخلقت شكوكًا مدمّرة، فبدأ المسؤولون في الشكّ بولاء بعضهم لبعض. وطالب المدّعي العام الفدرالي «بعدم تسليم أيّ نسخة من تقريره إلى أيّ ممثّل عن ولاية أوكلاهوما»[4].

ربّما كان الأكثر تضرّرًا، هما مكتبان للتحقيقات الخاصة، أحدهما من وكالة بيرنز، التي افتُضحَ المخبر الرئيسي لها، كيلسي موريسون، وتسريب هذه العيون الخاصة بأنّ موريسون كان يعمل مع الوكالة إلى مجموعة من المسؤولين المحلّيين. ومن ثمّ ليتمّ احتجازه بتهمة السرقة الملفّقة. وقال بيرغر إنّ سلوك أحد هؤلاء المحقّقين الخاصّين كان «مستهجنًا»، وكان «بالتأكيد يضرّ بتحقيقاتنا»[5]. وأشار إلى أنّ العراقيل هي الطريقة الوحيدة لهؤلاء المحقّقين، مضيفًا إن «شخصًا ما كان يدفع لهم مقابل القيام بذلك»[6]. وأفاد أحد العملاء بأنّ موريسون، بعد إطلاق سراحه من السجن، بدا «خائفًا حتى الموت»[7]. في خلال أحد اجتماعاتهم، توسّل موريسون إلى العملاء للحصول على «ابن العاهرة»[8] الذي ارتكب جرائم القتل قبل أن يحصل هؤلاء عليه. وحذّر العميل بيرغر، موريسون قائلًا: «احذر الخَوَنة والأفخاخ»[9].



عمدة نيو مكسيكو السابق الذي أدّى دور مربي الماشية في فريق وايت

في الليل، كان وايت يلتقي أحيانًا فريقه في الريف، حيث يتجمّع الرجال في الظلام مثل الهاربين. كان العملاء في الماضي يستشعرون وجود شخص يتتبّعهم، فأعطى وايت نصيحة لرجاله في حال تمّ كشفهم قائلًا: «حافظوا على توازنكم، وتجنّبوا المواجهة إن أمكن»[10]. موضحًا أنّ عليهم حمل السلاح دومًا. وأضاف: «ولكن إذا كان عليكم القتال من أجل البقاء، فافعلوا عملًا جيّدًا».

═══

وجد وايت نفسه يتجوّل في بريّة من المرايا، وكان عمله أقرب إلى التجسّس منه إلى التحقيق الجنائي. كان هناك جواسيس وعملاء مزدوجون وربّما عملاء مجنّدون يعملون لصالح ثلاث جهات في الوقت نفسه، وربّما أكثر.

لم يثر أحد الشكّ أكثر من المحقّق الخاص الذي يُدعى بايك. كان رجلًا نبيلًا من مقاطعة الأوساج، تقرّب ذات مرّة من العميل بيرغر، وعرّف عن نفسه كوسيط لبايك[11]. أدرك العملاء أنّ بايك عيّنه وليام هيل مرّة أخرى في العام 1921 لحلّ جرائم القتل في الأوساج، ولكنه تخلّى عن القضيّة بعد أن فشل في إحراز أيّ تقدّم.

ومع ذلك، قال الوسيط إنّ بايك قد حجب بالفعل جزءًا مهمًّا من المعلومات التي اكتشفها في أثناء تحقيقه. كان يعرف هوية الرجل الثالث الذي رُصد مع برايان وآنّا في الوقت الذي قُتلت فيه[12]. كتب العميل بيرغر أنّ بايك على ما يبدو «عرف وتحدّث مع هذا الرجل الثالث»، لكنّ الوسيط أوضح «أنّ بايك سوف يُشارك[13] هذه المعلومات بشرط واحد، هو أن يُدفع له «فدية الملَك» (وهو مبلغ مرتفع جدًّا من المال)». كتب العميل بيرغر في تقرير: «من الواضح أنّ هناك بعض الأعمال الملتوية».

وطالب العملاء، من خلال الوسيط، بأن يأتي بايك إلى المكتب للتحقيق معه، لكنه مرّةً أُخرى لم يمتثل، ومن الواضح أنه مصمّم على ابتزاز المال وعرقلة العدالة. أطلق العملاء عملية مطاردة لبايك الذي كان آخر عنوان معروف له في مدينة كانساس. كتب العميل بيرغر: «يجب تحديد مكان بايك واعتقاله. قام بتغيير عنوانه في مدينة كانساس بعد فترة وجيزة من معرفة أننا كنّا نطارده. نحن على يقين من دَفْعِ المال له للهرب».

بعد فترة وجيزة، تمّ القبض على بايك بتهمة السرقة على الطريق السريع في تولسا. ومن أساليب احتياله، بأنه أعطى اسم مقامر محلّي تمكّن العملاء من التأكّد أنه كان في المكان نفسه لبيع المشروبات المحظورة مع برايان وآنّا في ليلة 21 أيار/مايو. لكنّ مزيدًا من التحقيقات أثبتت أنّ المقامر عاد إلى المنزل باكرًا جدًا، لذا من المستحيل أن يكون هو الرجل الثالث.

بدا الأمر كما لو أنّ العملاء قد خُدعوا مرةً أخرى، ولكن بالرغم من ذلك، استمروا بالعمل على بايك والضغط عليه، وبمرور الوقت بدأ يتكشّف شيئًا فشيئًا بُعدٌ خفيٌّ للقضيّة. لقد كشف أنه لم يتمّ التعاقد معه بالفعل لحلّ قضية قتل آنّا براون. في الواقع، لقد طُلب إليه إخفاء مكان برايان ليلة الجريمة.

أخبر بايك العملاء أنه كان من المفترض أن يصنع الأدلّة، وأن يقدّم شهود الزور «لتشكيل حجّة غياب متماسكة»[14] كما قال. علاوةً على ذلك، ادّعى أنّ أوامره جاءت مباشرةً من ويليام هيل.

أوضح بايك أنّ هيل حرص على عدم القول صراحةً، إنّ برايان متورّط في مقتل آنّا، لكنّ هذا كان واضحًا، بسبب طلب هيل إليه أن يفعل ذلك. إذا كان بايك يقول الحقيقة، فهذا يعني أنّ هيل الذي يمثّل نموذجًا ظاهريًا للقانون والنظام، والذي يعتبر

نفسه الحامي الأكثر قوّة لمولي بوركهارت، كان يكذب كلّ هذه السنوات بشأن مقتل آنّا. لم يستطع بايك الإجابة عمّا يريد وايت معرفته: هل كلّ ما فعله هيل كان لحماية برايان فقط، أم أنه كان جزءًا من منظّمة شائنة وأكثر تعقيدًا؟

أخبر بايك العملاء بشيء آخر كان مذهلًا. قال: إنه «عندما التقى هيل وبرايان، كان هناك في بعض الأحيان شخص آخر حاضر، وهو إرنست بوركهارت». وأضاف بايك: «إرنست كان حريصًا على أن لا يُناقش هذه القضيّة بحضور مولي بوركهارت أو يتحدّث إليه بشأنها»[15].

13 ابن الجلّاد

في المرّة الأولى التي رأى فيها توم وايت مجرمًا يُشنق، كان مجرّد صبي صغير، وكان والده هو الجلّاد. في العام 1888، تمّ انتخاب والده روبرت إيميت وايت، عمدة لمقاطعة ترافيس، تكساس التي ضمّت أوستن والتي كانت آنذاك مدينة يقلّ عدد سكانها عن خمسة عشر ألف شخص. كان إيميت، كما يُحبّ أن يُدعى، رجلًا طويلًا، ذا شاربين كثّين، فقيرًا، صارمًا، مجتهدًا، وتقيًّا. في العام 1870، في الثامنة عشرة من عمره، هاجر من تينيسي إلى الحدود البرّية في وسط تكساس. تزوّج من والدة توم، ماغي، بعد أربع سنوات. وعاشا في كوخ خشبي في تلّ مهجور خارج أوستن، حيث عملا في تربية الماشية، وزرعا الأرض لإنتاج أيّ نوع ممكن إنتاجه من المحاصيل. كان توم من مواليد العام 1881 والثالث من بين خمسة أطفال؛ بينهم كان دوك، وهو أصغرهم، ودادلي الأخ الأكبر لتوم على بعد ثلاثة



توم (يقف على اليسار) وإخوته، بما في ذلك دوك (على الحمار) ودادلي (أقصى اليمين)

أميال، كان قريبًا منه بشكلٍ خاص. أقرب مدرسة كان فيها غرفة واحدة ومعلّم واحد لثمانية صفوف، وللوصول إلى هناك، كان على توم وإخوته الذهاب مشيًا.

عندما كان توم في السادسة من عمره، ماتت والدته بسبب مضاعفات ما بعد الولادة. تمّ وضع جسدها في قطعة أرض حيث تمكّن توم من رؤية العشب ينمو فوقها. تُرك إيميت لتربية توم وإخوته الذين كانوا جميعًا تحت العشر سنوات. ذُكر في كتاب سِيَرٍ عن الأشخاص المتميّزين في تكساس في القرن التاسع عشر عن إيميت أنّ «السيد وايت ينتمي[1] إلى تلك الطبقة الصلبة والجوهرية من المزارعين الذين يمكن أن تفتخر بهم مقاطعة ترافيس. إنه مشهور في المقاطعة، والناس لديهم ثقة به، وبشخصيته الحيوية والنزيهة». في العام 1888، طلب وفد من سكان المدينة من إيميت الترشّح لمنصب عمدة المقاطعة، وهو ما فعله وفاز بسهولة. وهكذا أصبح والد توم رجل قانون. بصفته العمدة، كان إيميت مسؤولًا عن سجن المقاطعة في أوستن، وانتقل مع أولاده إلى بيت مجاور للبناء. كان السجن أشبه بحصنٍ له نوافذ ذات قضبان، وممرّات حجرية باردة، والزنازين مَرصُوفة بعضها إلى جانب بعض. في السنة الأولى لإيميت، كان السجن يضمّ ما يقرب من ثلاثمئة سجين، بينهم أربعة قَتَلَة، وتسعة وثمانون لصًا، اثنان بتهمة إضرام الحرائق، واثنان مزوّرين، وخمسة مغتصبين، وأربعة وعشرون سجينًا مصنّفين على أنهم مجانين. تذكّر توم لاحقًا: «لقد نشأت عمليًا في السجن. يمكن أن أنظر من نافذة غرفة نومي إلى الأسفل، وأشاهد ممرّ السجن وأبواب بعض الزنازين»[2].

كان الأمر كما لو أنّ الكتاب المقدّس ينكشف أمام عينيه، الخير والشرّ، الخلاص واللعنة. ذات مرّة اندلعت مشاجرة في السجن. حاول العمدة وايت إخماد أعمال الشغب فركض أطفاله إلى محكمة قريبة، طالبين المساعدة. نشرت جريدة أوستن ويكلي ستيتسمان Austin Weekly Statesman قصّة عن الحادث تحت العنوان الرئيسي «الدم والدم والدم. تحوّل سجن المقاطعة إلى مسلخ حقيقي»[3]. ووصف المراسل المشهد الذي شاهده الطفل توم قائلًا: «لقد رأى كاتب هذا المقال كثيرًا من الدماء ومشاهد مقزّزة في تجربته في العمل الصحافي، لكن لم يقترب أيّ منهم من المشهد المثير للاشمئزاز الذي قابل نظره عندما دخل سجن المقاطعة بعد ظهر أمس حوالى الساعة الخامسة والنصف. أينما انعطف في أيّ اتجاه، لم يكن يرى شيئًا سوى الدم».

بعد الحادث الذي أصيب فيه خمسة رجال بجروح بالغة، أصبح إيميت وايت عمدةً متشدّدًا وقاسيًا. ولكنه استمرّ بإظهار اهتمام ملحوظ تجاه الأشخاص المحتجزين لديه وأصرّ على إجراء اعتقالات من دون التلويح بمسدّسه سُداسي الطلقات. لم يتفلسف حول القانون أو مسؤولياته، لكن توم لاحظ أنه يحافظ دائمًا على الأسلوب نفسه، بغضّ النظر عمّا إذا كان السجناء من السود أو البيض أو المكسيكيين. في ذلك الوقت، كانت عمليات الإعدام خارج نطاق القانون، ولاسيّما ضدّ السود في الجنوب، واحدة من أفظع حالات فشل النظام القانوني الأميركي. كلّما سمع إيميت أنّ السكان المحلّيين كانوا يخطّطون لإقامة «حفلة شنق جماعية»[4]، كان يندفع في محاولة لإيقافها. لاحظ أحد المراسلين في إحدى الحالات أنه «إذا حاولت عصابة إجراميّة انتزاع زنجي من العمدة، فستكون هناك مشكلة».

رفض إيميت وضع السجناء الشباب غير العنيفين في السجن جنبًا إلى جنب مع المدانين الأكبر سنًا والأكثر خطورة، ولأنه لم يكن هناك مكان آخر لهم ليقيموا فيه، أخذهم إلى بيته للإقامة مع أولاده. بقيت فتاة واحدة معهم لأسابيع متتالية. لم يعرف توم لماذا كانت في السجن، ولم يُناقش والده ذلك مطلقًا.



أشرف والد توم على سجن المقاطعة في أوستن

غالبًا ما كان توم في حيرة من أمره بشأن سبب قيام المجرمين بارتكاب الجرائم. بدا بعض السجناء سيئين بالكامِل، وكأنّ الشيطان ولد فيهم. وبدا بعضهم الآخر مريضًا عقليًا، ومنهم من تهيّأ لهم رؤية أشياء لا يستطيع الآخرون رؤيتها. ومع ذلك، فإنّ كثيرًا من السجناء تمّ دفعهم إلى ارتكاب الجرائم بسبب أوضاعهم اليائسة، وفي كثير من الأحيان، تكون جرائمهم عنيفة وحقيرة، وبعد ذلك يطلبون التوبة والخلاص. في بعض النواحي، كان هؤلاء المدانون هم الأكثر إثارة للخوف، لأنهم أظهروا أنّ الشّر يمكن أن يترسّخ في أيّ شخص. كان توم يحضر إلى الكنيسة المعمدانية المحلية مع عائلته، وكان الواعظ يقول: إنّ الجميع كانوا مذنبين، حتى إيميت، صائِن العدل. كانت هذه ألغازًا، ربّما لن يستطيع توم حلّها، على الرغم من أنه بدا وكأنه قضى معظم حياته في المحاولة.

شاهد توم والده يعمل، في جميع ساعات النهار، وكذلك يوم السبت، حيث يتمّ استدعاء إيميت لمطاردة الرجال. كان ما يزال علم الجريمة بدائيًا، فكان إيميت يمسك بندقيته، ويستجوب أيّ شهود على الجريمة، ومن ثم يمتطي حصانه ويذهب في مطاردة المجرمين. كما احتفظ بمجموعة من كلاب الصيد، التي كان ينشرها أحيانًا في المطاردة.

في أحد أيام صيف العام 1892، عندما كان توم في الحادية عشرة من عمره، أسرع والده مع الكلاب البوليسية، فقد تمّ إطلاق النار على ربّ أسرة في أثناء ركوب حصانه. لاحظ والد توم على بُعد ثلاثين خطوة من مكان الضحية، وجود بقعة من الأرض مداس عليها، وحشوة ذخيرة محترقة؛ كان المكان الذي وقف فيه القاتل. أطلق وايت العنان لكلابه، لتتبّع آثار القاتل والتي قادته، بشكل غريب، إلى منزل القتيل نفسه. فقام العمدة وايت باستجواب الشهود، واكتشف أنّ قاتل الضحية كان ابنه.

بعد بضعة أسابيع، تمّ استدعاء والد توم مرّة أخرى، وهذه المرّة في مطاردة مغتصب. كان العنوان الرئيسي لجريدة ستيتسمان Statesman: «أغتُصبت في وضح النهار... تمّ سحب السيدة دي سي إيفانز من عربتها والاعتداء عليها بوحشية، ما أثار غضب الضبّاط، فبدأوا بمطاردة المجرم الوحشي»[5]. وعلى الرغم من المطاردة الشاقّة، تمكّن المغتصب من الهروب. وعزل والد توم نفسه كما لو أنه يُعاني من مرضٍ مروّعٍ

بسبب فشله في إلقاء القبض على المغتصب. لاحظ أحد المراسلين ذات مرّة أنه قبل أن يلقي القبض على أحد الهاربين، «كان تفكير العمدة منصبًّا ليلًا ونهارًا على القبض على الهارب. وسرعان ما أصبحت هذه القضية جزءًا من وجود العمدة وايت»[6].

في كلّ مرة يتّجه فيها العمدة إلى مطاردة المجرمين في الظلام، والكلاب البوليسية تعوي، كان على توم أن يتعايش مع حالة رهيبة من عدم اليقين، بأنّ والده قد لا يعود أبدًا، وقد يختفي مثل والدة توم من هذا العالم إلى الأبد. على الرغم من أنّ المخاطرة بحياتك من أجل حماية المجتمع تتطلّب شجاعة وفضيلة هائلة، ولكنها تحتوي أيضًا، على الأقل من وجهة نظر الأحبّاء، حيّزًا من القسوة.

ذات مرّة، صوّب أحد المجرمين اليائسين مسدّسًا إلى رأس إيميت؛ وبطريقةٍ ما، تمكّن إيميت من مصارعته وأخذ السلاح منه. وفي إحدى المرّات، قام سجين بسحب سكّين، وطعن والده من الخلف. تمكّن توم من رؤية السكّين بارزةً من ظهر والده، والدم يتدفّق على الأرض. وكان من المدهش كمّية الدم الموجودة داخل والده. وحاول السجين لَيّ السكّين، وبدا الأب مستعدًا للموت، عندما وضع فجأة إصبعه في عين السجين، ما تسبّب في انبثاق العين، وتمكن توم من رؤيتها تتدلّى من محجرها. استطاع والده كبح جماح السجين، لكن توم سيستعيد هذا المشهد طوال حياته، كيف يُمكن للمرء أن يغفر لخاطئ حاول قتل أبيه؟

نُفِّذت أوّل عملية شنق شهدها توم في كانون الثاني/يناير 1894، وذلك عندما أُدين رجلٌ أسود يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا ويدعى إد نيكولز، باغتصاب فتاة وحُكم عليه «بالإعدام شنقًا حتى الموت»[7]. ووقع واجب تنفيذ الإعدام الذي لم يحدث في المقاطعة منذ عقد من الزمن، على عاتق العمدة.

استعان والد توم بنجّارٍ لصناعة دعامة حبل المشنقة بالقرب من الجدار الجنوبي للسجن، المكان الوحيد الذي فيه سقفٌ عالٍ بما فيه الكفاية. كان الموقع على بُعد عشر أقدام من زنزانة نيكولز، الرجل المحكوم عليه - الذي أصرّ على براءته وما يزال يأمل في إرجاء التنفيذ من الحاكم - كان بإمكانه سماع الألواح التي يتمّ نشرها ومسمرتها، وتسارعت وتيرة العمل عليها لإنجازها بسرعة. كان والد توم مصمّمًا على

جعل القتل سريعًا ورحيمًا، وبمجرد اكتمال العدّة، اختبر الحبل مرارًا وتكرارًا بأكياس من الرمل.

رفض الحاكم استئناف نيكولز النهائي، قائلًا: «دع القانون يأخذ مجراه»[8]. نقل والد توم الخبر إلى نيكولز الذي كان في زنزانته، مستغرقًا في صلاته. حاول نيكولز التزام الهدوء، لكنّ يديه بدأتا ترتجفان. وقال إنه يودّ أن يكون حليق الذقن، ويرتدي حلّة سوداء رفيعة لموعده مع الموت. وعد والد توم بتنفيذ رغباته.

يوم الإعدام، كان توم، البالغ من العمر اثني عشر عامًا، واقفًا على مقعد في داخل السجن، لم يطرده أحد، ولا حتى والده، وكان بإمكانه رؤية نيكولز الذي ارتدى ملابسه الجديدة، يقوده والد توم إلى السقالة، والوقت يُقاس بكل خطوةٍ ونفسٍ. بينما كان توم يستمع، قرأ الواعظ كتاب كلمة نيكولز الأخيرة: «العمدة وايت كان لطيفًا للغاية معي. وأشعر بالاستعداد لمواجهة الموت، وروحي في سلام مع جميع البشر»[9]. ثم قدّم الواعظ كلماته المقدّسة: «إد نيكولز يترجّح إلى الأبدية، عمدة الموت على حصان أسود، على بُعد مسافةٍ قصيرة، يأتي لإلقاء القبض على روحه. لمواجهة المحكمة العُليا حيث اللّه نفسه هو القاضي الأعلى، ويسوع ابنه، محامي الدفاع، والروح القدس المدّعي العام»[10].

عندما انتهى الواعظ، سمع توم صوتًا مألوفًا. كان والده يقرأ حُكم الإعدام ومن ثمّ، تمّ تثبيت حبل المشنقة حول رقبة نيكولز وغطاء أسود فوق رأسه. لم يعد توم يرى وجه نيكولز، لكنه رأى والده ممسكًا رافعة الباب الأرضي الذي ينفتح تحت قدمي المحكوم. دقيقتان قبل الرابعة تمامًا بعد الظهر، حرّك والده الرافعة، فسقط الجسد وارتدّ بعنف إلى أعلى. وامتد صوت الدهشة والرعب بين الحشد. على الرغم من متانة البناء الدقيق، كان نيكولز ما يزال يتحرّك، ويرتجف كأنه ما زال على قيد الحياة. يتذكر توم في وقت لاحق: «لقد ركل ودفع في الأرجاء لفترة طويلة، بدا الأمر كما لو أنه لا يريد الاستسلام للموت»[11]. أخيرًا، توقّف جسده عن الحركة وقُطع الحبل لإنزاله.

ربّما لأنه شهد هذا الإعدام - وعمليات إعدام أخرى - أو ربّما لأنه رأى تأثير المحنة في والده، أو ربّما لأنه كان يخشى أن يحكم النظام على رجل بريء، نشأ توم ليعارض ما كان يُطلق عليه أحيانًا «القتل القضائي». وقد جاء لينظر إلى القانون على أنه صراع من أجل قهر النزعة العنيفة، ليس فقط في الآخرين ولكن أيضًا في الشخص نفسه.

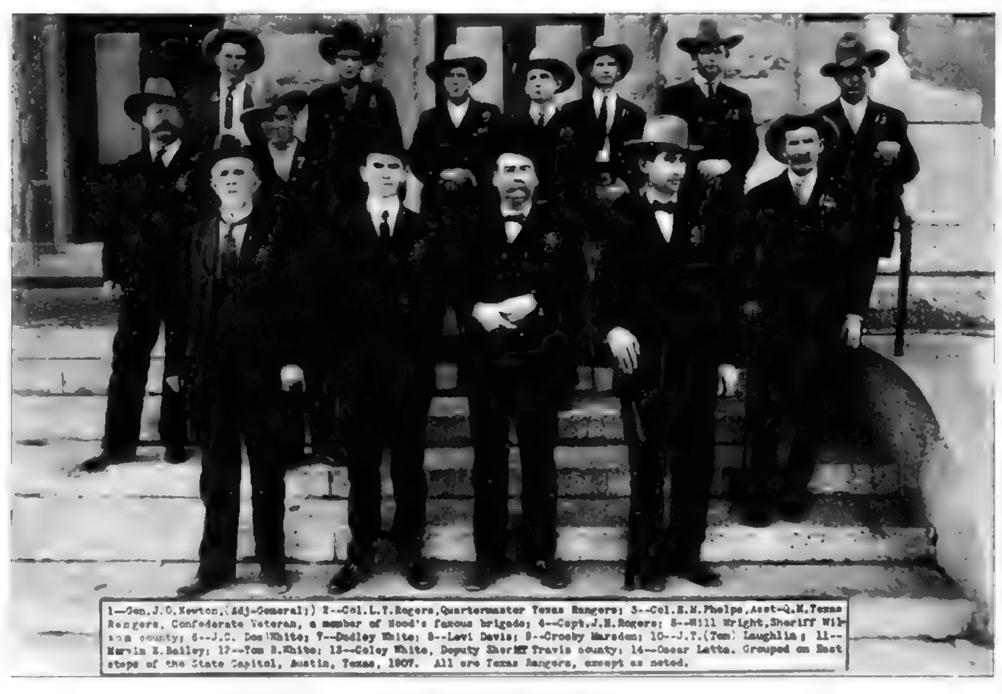
التحق توم عندما كان في الرابعة والعشرين من عمره، في العام 1905، بفرقة خيّالة تكساس التي أُنشئت في القرن التاسع عشر، وهي ميليشيا مؤلّفة من مواطنين متطوّعين لقتال الهنود الأميركيين على الحدود، ولاحقًا لقتال المكسيكيين. تطوّرت فرقة الخيّالة إلى نوعٍ من قوات الشرطة التابعة للدولة، ولطالما احتقر الهنود والمكسيكيون والأميركيون فرقة الخيالة بسبب أساليبها الوحشية التي تعتمد على إطلاق النار أوّلًا. لكن بين سكان تكساس البيض، كانوا كالأساطير، كما عبّر ليندون جونسون حين قال: «يتفاخر كلّ تلميذ في تكساس بقصص حول خيّالة تكساس، ولم أكن استثناءً»[12].

انضمّ شقيق توم، دادلي، إلى فرقة خيّالة تكساس حيث كان مفتونًا بهم، في العام نفسه الذي انضمّ فيه توم إليها، وسرعان ما انضمّ دوك بعدهم إلى الفرقة أيضًا. في وقتٍ لاحقٍ، اتبع شقيق توم، كولي خطى والدهم، ليصبح عمدة مقاطعة ترافيس. وتذكّر دوك النصيحة البسيطة التي قدّمها له والده عندما أصبح رجل القانون: «احصل على جميع الأدلّة الممكنة، يا بني. ثم ضع نفسك مكان المجرم. فكّر في الأمر، وسدّ تلك الثقوب يا بني»[13].



في الصف الخلفي، من اليسار إلى اليمين أشقاء توم، دوك، دادلي مكولي. وفي الأمام والد توم ومن ثمّ جده ومن ثمّ توم

مثل دوك ودادلي اللذين وُضعا في فرقتين منفصلتين، كان توم يتقاضى راتبًا هزيلًا قدره 40 دولارًا شهريًا، «مثل راتب راعي البقر»[14] على حد تعبيره. انضمّ توم إلى فرقته في المخيّم الذي يبعد 65 ميلًا إلى الغرب من أبيلين. ولاحظ حارس آخر ذات مرّة عند وصوله إلى المخيّم: «كان هذا مشهدًا يستحقّ التوثيق؛ رجال ذوو لحى وشوارب طويلة في مجموعات يرتدون جميع أنواع الثياب، مع استثناء وحيد، القبّعة المترهلة، العنصر المميّز الذي لا لَبْس فيه لفرقة خيّالة تكساس، ويضعون أحزمة المسدّسات حول خصورهم. كانوا مشغولين في تجفيف البطّانيات وتنظيف أسلحتهم وتثبيتها، وبعضهم يطهو الطعام على نيران أوقدوها، بينما يقوم آخرون بتنظيف خيولهم. مجموعة ذات مظهرٍ أكثر قسوة لم نرَ مثيلًا لها مطلقًا»[15].



مجموعة من رجال تطبيق القانون في تكساس تضمّ توم وايت (رقم 12)
وإخوته الثلاثة، دوك (رقم 6) ودادلي (رقم 7)، وكولي (رقم 13)

تعلّم توم أن يكون رجل قانون باتّباع مثال معظم الضبّاط المهرة[16]: فإذا تنبّهت للتفاصيل بعناية، وإذا لم تكن مشغولًا جدًّا في معاقرة الخمرة أو ممارسة الزنا (وهو ما دأب عليه عدد من عناصر الخيالة)، بإمكانك تعلّم[17] كيفية تتبّع الحصان في الأجمة،

حتى لو كان اللصوص، كما اكتشف توم ذات مرّة، قد قلبوا حدوات الخيول بشكلٍ مخادعٍ إلى الوراء. وتستطيع التقاط قليل من الحيل. مثل: قلب حذائك كلّ صباح في حالة تسلّل عقرب أو مخلوق آخر إلى الداخل؛ نفض بطانيتك بحثًا عن الأفاعي الجلجليّة قبل الاستلقاء بالمساء. تستطيع اكتشاف كيفية تجنّب الرمال المتحركة وكيفية تحديد موقع الجداول المائية في الأراضي الجافة. وتفهم أنه من الأفضل ركوب الحصان الأسود وارتداء اللباس الأسود كتجسيد للشرّ، حتى لا يرصدك مجرم مسلح في الليل.

سرعان ما تلقى توم الأوامر لإحدى مهامه الأولى، كان يرافق قبطانه ورقيبه في مطاردة سارق بقر في مقاطعة كينت، شمال أبيلين. في مرحلة ما، توقف توم والرقيب عند متجرٍ للحصول على المؤن. قيّدوا خيولهم وتوجّهوا إلى الداخل، عندما سأل الرقيب توم، أين بندقيتك الوينشستر؟، أخبره توم أنها كانت في غمدٍ على حصانه. صاح الرقيب، وهو رجل ذو مزاج متفجّر: «لا تفعل ذلك أبدًا... اذهب واجلبها إلى هنا واحتفظ بها معك في جميع الأوقات»[18].

عوقِب توم وذهب لاستعادة بندقيته، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن يفهم سبب إلحاح الرقيب، فقد تمّ تعقبهم من قِبَل سارقي البقر. كان عليهم تفادي إطلاق النار عليهم مرات عدّة قبل أن يعتقلوا العصابة أخيرًا.

أصبح توم ماهرًا بشكلٍ متزايدٍ في التعامل مع ما يسمّيه «النذالة»[19]، وهم: سارقو الأبقار، لصوص الخيول، القوّادون، مهرّبو الخمور، لصوص العربات، الأشرار، ومجمل أنواع المجرمين. عندما أُرسل مع حارسٍ آخر، أوسكار راوندتري، لتنظيف بلدة «بوي» الخارجة عن القانون. كتب قسّ إلى الضابط المسؤول عن وايت، قائلًا إنه شهد: «إبعاد جميع العناصر الخارجة على القانون تمامًا من بلدتنا من قبل اثنين من الخيالة الذين أرسلتهم إلى هنا».

في خلال الفترة التي قضاها خيّالًا، حقّق توم في عدد من جرائم القتل. يتذكّر دوك، شقيق توم: «لم يكن لدينا شيء - ولا حتى بصمات الأصابع. كان علينا استخدام الشهود في الغالب، وكان من الصعب أحيانًا الوصول إليهم»[20]. والأكثر إزعاجًا، أنّ بعض الخيّالة لم يكن لديهم الصبر لتحمّل التفاصيل الدقيقة للقانون. أحد أعضاء فرقة توم كان يبحث عن أعتى

وأشرّ رجلٍ في المدينة ويفتعل الشجار معه حتى يقتله. توم الذي يؤمن أن «رجل القانون يجتنب القتل عادةً ما لم تكن حياته مهدّدة بخطر الموت»[21]. ولاحقًا قال لكاتب: إنه «أجرى مناقشات ساخنة في هذا الأمر مع شخص من فرقة الخيّالة، ولم يكن من المناسب لأي رجل أن يؤدي دور القاضي وهيئة المحلّفين والجلّاد في الوقت نفسه».

في العام 1908، بينما كان توم متمركزًا في ويذرفورد، وهي بلدة تقع إلى الشرق من أبيلين، التقى شابّة تُدعى بيسي باترسون. كانت بيسي صغيرة الحجم، على الأقلّ بجانبه، ولديها شعر بني قصير، وعينان صادقتان. انبهر توم بها وهو الذي قضى معظم حياته في صحبة الذكور. فقد كان رجلًا هادئًا، بينما هي بالمقابل كانت صريحة ودائمة الحركة. أمرته بطريقة قلّة تجرّأوا أن يفعلوها؛ لكنه لم يبدِ أيّ مانع. لمرّة واحدة، لم يكن من واجبه أن يكون مسؤولًا عن العالم من حوله، أو العواطف التي بداخله. لم تكن وظيفته مع ذلك مناسبة للزواج. فقد قال الضابط المسؤول عن دوك مرّة: «الضابط الذي يُطارد المجرمين يجب أن لا تكون له زوجة أو أسرة»[22].

لم يمضِ وقت طويل حتى أبعد توم عنها، وأُرسل مع ن. ب. توماس، الخيّال الذي كان من أقرب أصدقائه، للتعامل مع وباء النذالة في أماريلو، في تكساس بانهاندل. أفاد أحد الخيالة أنّ المدينة كان فيها بعض أخطر المحتالين، وأنّ مكتب العمدة لم يساعد في القبض عليهم؛ وما هو أكثر من ذلك، لاحظ الخيّال «أنّ لدى العمدة ولدين يعيشان في بيت الدعارة».

خاض توماس بالفعل عددًا من المناوشات مع نائب العمدة، وفي صباح أحد أيّام كانون الثاني/يناير من العام 1909، كان ن. ب. توماس جالسًا في مكتب المدّعي العام للمقاطعة عندما قام النائب وأطلق النار عليه في وجهه. سقط توماس إلى أمام، والدم يتدفّق من فمه. عندما وصل المسعفون، كان ما يزال يتنفّس، لكنهم لم يتمكّنوا من وقف النزيف ومات متألّمًا[23].

كثر من الرجال الذين خدم معهم توم في فرقة الخيّالة ماتوا قبل أوانهم. رأى توم المبتدئين والمخضرمين من الضبّاط يموتون، ورأى رجال القانون المتفلّتين وأصحاب الضمير يموتون أيضًا. راوندتري الذي أصبح نائب العمدة أُصيب برصاصة أطلقها على رأسه مالك الأرض الثري. الخيّال الذي كان يتجادل توم معه حول تطبيق القانون على

مزاجه، انضمّ إلى حشد من الخيّالة، وأطلق النار عليه عن طريق الخطأ أحد رجاله. وأطلق مهاجم على توم ست رصاصات بينما أُصيب أحد المارّة برصاصتين. طلب الرقيب، بينما كان على الأرض، وهو ينزف، الحصول على قصاصة من الورق وكتب عليها رسالة موجّهة إلى مقر قيادة الرينجرز: «لقد أُطلقت النار عليّ، كلّ شيء هادئ»[24]. بطريقة ما نجا من جراحه، لكنّ المار البريء مات. ومن ثمّ في يوم من الأيّام قُتل مجنّد جديد في فرقة توم بالرصاص في أثناء محاولته وقف هجوم. جمع توم جسد الحارس ونقله إلى منزل والديه اللذين لم يستطيعا فهم لماذا كان ولدهما في صندوق تخرج منه الديدان.

بعد وفاة ن. ب. توماس، شعر توم بانعدام القانون في داخله. قال صديق توم، الذي كتب موجزًا لحياته: «كان صراعه العاطفي قصيرًا، ولكنه عنيف، هل يجب عليه... محاولة الانتقام لموت توماس؟»[25]. قرّر توم ترك الخيالة تمامًا وتزوّج بيسي. كتب الجنرال المساعد إلى رئيس توم قائلًا: «أثبت توم، أنه ضابط ممتاز». أنا آسف لرؤيته يترك الخدمة»[26]، لكنّ قراره كان نهائيًّا.مكتبة سُر مَن قرأ

استقرّ هو وبيسي في سان أنطونيو، حيث ولد أوّل ولدٍ لهما. وأصبح توم محقّقًا بين الولايات، ومكّنه أجره الثابت من تربية أسرته. على الرغم من أنه ما يزال يُطارد قطّاع الطرق على ظهر الخيل، كان العمل أقلّ خطورة بشكلٍ عام؛ في كثير من الحالات، ينطوي العمل على الكشف عن الأفراد الذين قدّموا مطالبات كاذبة للتعويضات. وجد توم هؤلاء الناس جبناء، وبالتالي، أكثر حقارةً من المجرمين اليائسين الذين خاطروا بحياتهم لسرقة قطار.

كان توم رجلًا مخلصًا للعائلة، لكنه مثل والده، كان منجذبًا إلى مطاردة المجرمين الفارين من وجه العدالة. وفي العام 1917، أقسم اليمين ليصبح عميلًا خاصًا لمكتب التحقيقات. أقسم: «سأدعم وأدافع عن دستور الولايات المتحدة ضدّ كلّ الأعداء...... وليكن اللّه في عوني».

في تموز/يوليو من العام 1918، لم يكن قد مضى وقتٌ طويلٌ على انضمام أخيه إلى المكتب. ذهب دادلي مع خيّال آخر للقبض على اثنين من الفارّين في منطقة غابات نائية في شرق تكساس تُعرف باسم بيغ ثيكت (Big Thicket) وكانت تعاني فترة جفاف. قام دادلي وشريكه وسط الغبار والحرارة بتفتيش منزل خشبي ظنًّا أنّ الرجلين

المطلوبين يختبئان فيه، ولم يكن المشتبه بهما هناك. لذلك قرّر دادلي وشريكه الانتظار على الشرفة. في الثالثة صباحًا، أطلقَتُ النيران بكثافة عليهما، نصب لهما الفارّان كمينًا. تمّ إطلاق النار على شريك دادلي مرّتين، وبينما كان ينزف على الشرفة، رأى دادلي يقف ويطلق النار من مسدّسه، ثم سقط كما لو أنّ شخصًا ما قطع ساقيه، ووقع جسده الضخم على الشرفة. ذكر شريكه لاحقًا أنه «سقط ولم ينهض مرّة أخرى»[27]، فقد أصابت الرصاصة دادلي بالقرب من قلبه.


شقيق توم دادلي

تقلّبت الأخبار على توم - شقيقه الذي كان متزوّجًا ولديه ثلاثة أطفال دون سن الثامنة - بدا لتوم أنه غير معرّض للخطر. تمّ القبض على الهاربين ومحاكمتهما بتهمة القتل، وحَضَر والد توم كلّ أيّام المحاكمة حتى أدين كلا الرجلين.

بعد معركة إطلاق النار، نُقلت جثة دادلي إلى المنزل. ذكر التقرير الأوّلي للخيّال أنّ «ملاءة عربة واحدة، ملاءة سرير واحدة، وسادة واحدة، استُخْدِمت في شحن جثّة وايت»[28]. استردّت الأسرة ممتلكات دادلي، بما في ذلك رصاصة برأس مدبّب أملس ومغلّفة بغطاء فولاذي، وهي التي قتلته. دُفن في مقبرة بالقرب من المزرعة التي وُلِد فيها. كما قال الكتاب المقدّس: «من التراب وإلى التراب تعود»، وحُفِر على شاهد قبره:

الرقيب جون دادلي وايت،

قيادة خيّالة تكساس، قُتل في أثناء أداء واجبه...

12 تموز/يوليو 1918

بعد أسبوعين من الجنازة، بدأت الأمطار الباردة تتساقط أخيرًا، واجتاحت البراري، بحلول ذلك الوقت، كان توم قد عاد إلى مكتب التحقيقات.

14 كلمات احتضارية

في أيلول/سبتمبر من العام 1925، حاول وايت تحديد الأسرار التي كان ويليام هيل وابنا أخته إرنست وبرايان يخبّئونها. تساءل ما إذا كان أحد اكتشفها من قبل، وتبيّن أنه بيل سميث، صهر مولي بوركهارت. اشتبه سميث في أنّ ليزي تعرّضت للتسمّم، وهو الذي حقّق في ما إذا كانت هناك مؤامرة أكبر مرتبطة بالثروة النفطية للأسرة. إذا قُتل سميث بسبب ما كان يعرفه، فقد تكون هذه المعلومات هي المفتاح لفتح العالم الداخلي للجرائم.

بعد أن دمّر الانفجار منزل سميث، سأل العملاء الممرّضة التي كانت في الخدمة عندما كان بيل يُعالج في المستشفى، ما إذا كان قد ذكر أيّ شيءٍ عن جرائم القتل. قالت «إنّ بيل كان كثيرًا ما يتمتم بأسماءٍ في أثناء نومه المحموم، لكنها لم تكن قادرة على فهم ما يقول. في بعض الأحيان، عندما يكون مستيقظًا، يبدو قلقًا من أنه ربّما قال شيئًا يجب أن لا أعرفه». قبل فترة وجيزة تذكّرت الممرّضة أنه قبل موت بيل، التقى بأطبّائه جيمس ودافيد شون ومحاميه. طلب الأطبّاء من الممرّضة مغادرة الغرفة. كان واضحًا أنهم لا يريدون وجودها في الغرفة في أثناء محادثتهم مع بيل، لكي لا تسمع شيئًا ممّا يقولونه، واشتبهت في أن يكون قد أدلى بنوعٍ من الإفادة تُشير إلى المسؤول عن تفجير منزله.

بدأ وايت الذي كان يشكّ بالفعل في عائلة شون بسبب الرصاصة المفقودة في قضية آنّا براون، باستجواب كلّ شخصٍ كان في الغرفة مع بيل، وفي وقت لاحق، استجوب المدّعون الفدراليون أيضًا هؤلاء الرجال. وبحسب نصّ هذه الاستجوابات، أقرّ ديفيد شون بأنه وشقيقه قد استدعيا المحامي معتقدين أنّ بيل قد يُسمّي قاتليه، ولكنه لم يذكر شيئًا. ويتذكّر الطبيب: «إذا كانت لدى بيل سميث فكرة عمّن فجّره، فهو لم يقلْ شيئًا»[1].

ضغط عليه أحد وكلاء النيابة لمعرفة سبب مغادرة الممرّضة الغرفة، فأوضح شون أنه: «غالبًا ما تُغادر الممرّضات عندما يأتي الأطبّاء»[2].

«إذا قالت إنك طلبت منها الخروج، فهي تكذب؟»[3]

«لا سيدي. إذا قالت ذلك، فقد صدقت»، قال شون مضيفًا: «أنه سيقسم عشرات المرّات أنّ بيل لم يذكر أسماء قاتليه»، وأضاف مشيرًا إلى القبّعة: «لقد أعطاني بيل سميث تلك القبّعة، وهو صديقي». جيمس شون، شقيق ديفيد، كان مصرًّا بالقدر نفسه، قال للمدّعي العام:

- لم يقل مطلقًا من فجّره.

- لابدّ من أنه تحدّث عن ذلك.

- لم يقل[4] مطلقًا من فجّره.

- هل تحدّث عمّن فجّره؟

- لم يتحدّث عمّن فجّره.

عندما استُجوب محامي بيل سميث، أصرّ على أنه لم يكن لديه أيّ فكرة عمّن كان مسؤولًا عن تفجير منزل سميث، قال: «أيها السادة، إنه لغزٌ بالنسبة إليّ»[5]. وفي أثناء استجوابه، كشف أنّ بيل سميث قال في المستشفى: «كما تعلم، لم يكن لديَّ سوى عدوّين في العالم، وهما ويليام ك. هيل، ملك تلال الأوساج وابن أخته إرنست بوركهارت»[6].

سأل المحقّقون جيمس شون عن هذا الأمر. وفي النهاية كشف الحقيقة: «أكره أن أوكّد أنه قال... إنّ بيل هيل فجّره، لكنه قال إنّ هيل كان عدوّه الوحيد»[7].

سأل المدّعي العام «ماذا قال عن إرنست بوركهارت؟»[8].

«قال إنهما كانا العدوّين الوحيدين اللذين يعرفهما».

كان الأخوان شون قريبين من هيل وبوركهارت لأنهما طبيبا العائلة، ولم يمضِ وقتٌ طويل على المحادثة في المستشفى عندما أبلغ أحد الأخوين شون الممرّضة بأنّ برايان بوركهارت كان مريضًا. طُلب منها زيارة برايان في منزله، ووافقت على القيام بذلك. بينما كانت هناك، ظهر هيل الذي تشاور على انفراد مع برايان، ومن ثمّ اقترب من الممرّضة، وسألها بعد الحديث القصير عما إذا كان بيل سميث قد ذكر أسماء قتلَتِه قبل وفاته. قالت له الممرّضة: «لو فعل ذلك لما قلت». يبدو أنّ هيل حاول التأكد ممّا إذا كانت تعرف أيّ شيء، وربّما أيضًا، لتحذيرها من إفشاء كلمة إذا كانت تعرف.

عندما تعمّق وايت وعملاؤه في بيان المستشفى، بدأوا الشكّ في أن الأطبّاء قد نسّقوا لقاءً خاصًّا مع بيل سميث، ليس من أجل شهادته، بل من أجل دافعٍ خفيٍّ آخر. في خلال الاجتماع، عيّن جيمس شون المسؤول عن أملاك زوجة بيل سميث ريتا وأموالها، وهذا التعيين أتاح له تنفيذ وصيتها. مثل هذا الموقف كان مرغوبًا من قِبَل البيض، لأنّ رسومه عالية بشكلٍ غير معقول ويقدّم فرصًا كبيرة للكسب غير المشروع.

بعد أن كشف فريق وايت عن هذا المخطّط، استجوب أحد المدّعين ديڤيد شون بشأنه وقال له: «أنت تفهم أنه، في خلال دراستك للطبّ، تعلّمْت شروط تسجيل شهادة شخصٍ على فراش الموت؟ وأنك لم تبذل جهدًا لتأمين هذه الشروط»[9].

أجاب شون بخنوع: «لا».

أصبح من الواضح الآن لماذا لم يستدعِ الطبيبان العمدة أو المدّعي العام، بل المحامي الشخصي لبيل سميث. وطلبا منه إحضار الأوراق ليوقّعها بيل قبل وفاته. سأل مدّعٍ آخر ديڤيد شون عمّا إذا كان بيل واضحًا بما يكفي لاتخاذ مثل هذا القرار:

«هل كان يعلم[10] ما هو التوقيع؟

- أفترض أنه كان يعلم؛ كان من المفترض أن يكون عقلانيًّا.

- أنت الطبيب، هل كان عقلانيًّا؟

- لقد كان عقلانيًّا.

- وقد اتّخذ الترتيبات لتعيين أخيك على ممتلكات زوجته؟

- نعم سيدي.

بعد مزيدٍ من الاستجواب، اعترف «بأنها ممتلكات غالية جدًّا».

كلّما قام وايت بالتحقيق في تدفّق أموال النفط من أصحاب الممتلكات في الأوساج، وجد طبقة تلو الأخرى من الفساد. على الرغم من أنّ بعض الأوصياء البيض والإداريين حاولوا العمل لمصلحة القبيلة، ولكن عددًا لا يُحصى من الأشخاص استخدم نظامًا لخداع الأشخاص أنفسهم (الهنود) الذين كانوا يحمونهم ظاهريًّا. كان أوصياء كُثُر يشترون سلعًا من عنابرهم ومخازنهم الخاصّة بأسعارٍ متضخّمة (اشترى أحد الأوصياء سيّارة مقابل 250 دولارًا، ومن ثمّ أعاد بيعها إلى الموصى عليه مقابل 1250 دولارًا)، أو

يوجّهون كلّ أعمال الموصى عليهم إلى متاجر وبنوك معيّنة مقابل عمولات؛ أو يدعون لشراء منازل الموصى عليهم وأراضيهم ومن ثم يشترونها لأنفسهم، أو يسرقون بكل وضوح. قدّرت إحدى الدراسات أنّ الأوصياء سرقوا من حسابات الأوساج المجمّدة ما لا يقلّ عن 8 ملايين دولار مباشرةً في العام 1925. قال زعيم الأوساج: «سيكون الفصل الأكثر سوادًا في تاريخ هذه الدولة هو الوصاية على هذه الأموال والأملاك». مضيفًا: «لقد بدّد الأوصياء أنفسهم ملايين دولارات الأوساج، وليس آلافها»[11].



احتجّ رئيس الأوساج بيكون ريند قائلًا: «الجميع يريدون الدخول إلى هنا والحصول على بعض من هذه الأموال

اكتشف وايت أنّ هذه الأعمال التجارية الهندية المزعومة، كانت عملية إجرامية موسّعة ومتقنة شاركت وتواطأت فيها قطاعات مختلفة من المجتمع. كان معظم الأوصياء والمسؤولين عن عقارات الأوساج من بين أبرز المواطنين البيض، من رجال الأعمال وأصحاب الماشية والمحامين والسياسيين. وكان رجال القانون والمدّعون العامّون والقضاة قد سهّلوا عمليات النصب وأخفوها (وفي بعض الأحيان، تصرّفوا كأوصياء وإداريين بأنفسهم).

في العام 1924، أقامت جمعية «الحقوق الهندية» التي دافعت عن مصالح مجتمعات السكّان الأصليين، تحقيقًا في ما وصفته بـ«طقوس العربدة الجماعية للكسب غير المشروع والاستغلال»[12]. ووثّقت المجموعة مدى ثراء الهنود في أوكلاهوما الذين «تعرّضوا للسرقة بوقاحة وعلانية بطريقة علمية وقاسية»[13]. وكيف كانت الوصاية «تُوزّع كالخوخ على الأصدقاء المخلصين من القضاة باعتبارها مكافأة لدعمهم في صناديق الاقتراع». كان من المعروف أنّ القضاة يقولون: «أيها المواطنون أنتم تصوّتون لي، وسأحرص على أن تحصلوا على وصاية جيّدة». وصفت امرأة بيضاء متزوّجة من رجل أوساج لمراسل كيف يتآمر البيض على الهنود: «ظهرت مجموعة من التجّار والمحامين الذين اختاروا بعض الهنود فريسةً لهم، وهذه المجموعة كانت مدينة لجميع المسؤولين.... هؤلاء الرجال كان لديهم تفاهم بينهم. قالوا بدم بارد: «أنت تأخذ فلانًا وفلانًا وفلانًا وسآخذ أنا هؤلاء»، اختاروا الهنود الذين لديهم حقوق أملاك كاملة ومزارع كبيرة»[14].

تخطّت بعض المؤامرات مراحل الفساد لتصل إلى الشرّ. قامت نقابة «الحقوق الهندية» بتفصيل حالة الأرملة التي كان وصيّها قد هرب مع معظم ممتلكاتها. ومن ثمّ أبلغ الوصيّ المرأة التي انتقلت من مقاطعة الأوساج زورًا، أنه لم يكن لديها مزيد من المال لتعتمد عليه، وتركها لتربّي طفليها في الفقر. قال المحقّق: «لم يكن لها ولطفليها الصغيرين سرير ولا كرسي ولا طعام في المنزل»[15]. عندما مرض طفل الأرملة، كان الوصيّ يرفض تسليم أيّ من أموالها، على الرغم من أنها توسّلت إليه. قال المحقّق: «من دون طعام ورعاية طبية مناسبين، مات الطفل».

كان الأوساج على علمٍ بمثل هذه المخطّطات، ولكن لم يكن لديهم وسيلة لإيقافها. بعد أن فقدت الأرملة طفلها، تمّ عرض دليل الاحتيال على قاضي المقاطعة، ليتم تجاهله.

وخلص المحقّق إلى أنه «لا يوجد أمل في تحقيق العدالة ما دامت هذه الظروف مسموحًا بها. وصرخة الإنسانية في هذه المرأة هي دعوة لأميركا»[16]. يتحدّث رجل من الأوساج إلى مراسل حول الأوصياء قائلًا: «أموالك[17] يسحبها الأوصياء وأنت عاجزٌ تمامًا عن فعل أيّ شي. لديهم القوانين كلّها وجميع أنواع الأسلحة إلى جانبهم. أخبر الجميع، عندما تكتب قصّتك، أنهم يستغلّون أرواحنا هنا».

15 ..... الوجه الخفي

ذات يوم من شهر أيلول/سبتمبر، كان العميل السرّي الذي يتظاهر بأنه رجل تأمين، قد توقّف عند محطّة تعبئة وقود في فيرفاكس، وتحدّث إلى امرأة تعمل هناك. عندما أخبرها العميل أنه يتطلّع لشراء أحد المنازل المجاورة، ذكرت أنّ ويليام هيل «يتحكّم في كلّ شيء في هذه النواحي»[1]. وقالت إنها اشترت منزلها من هيل الذي كان على حافة مرعاه. تتذكّر ذات ليلة، أنّ آلاف الفدادين من أراضي هيل قد أُضرمت فيها النار، ولم يبقَ سوى الرماد. معظم الناس لم يعرفوا من تسبّب في الحريق، لكنها هي علمت بمفتعل الحريق: «عمال هيل، بناء لأوامره، أحرقوا الأرض من أجل أموال تعويضات التأمين البالغة 30 ألف دولار».

حاول وايت معرفة مزيد عن أمرٍ مشتبه به آخر: كيف استفاد هيل من بوليصة التأمين على الحياة لهنري روان البالغة 25 ألف دولار؟ بعد أن عُثر على روان مصابًا برصاصة في مؤخّرة رأسه، في العام 1923، كان لدى هيل الدافع الأكثر وضوحًا لقتله. لم يحقّق العمدة مع هيل، ولا فعل رجال القانون المحلّيون الآخرون، وهو تجاهل لا يبدو عَرَضيًّا.

تعقّب وايت بائع بوالص التأمين الذي باع روان في البداية البوليصة في العام 1921. لطالما أصرّ هيل على روان، وهو أحد أقرب أصدقائه، لجعله المستفيد لأنه أقرض روان مالًا كثيرًا على مرّ السنين. لكن البائع روى قصّة مختلفة.

كما يتذكّر البائع، طالب هيل بشكلٍ مستقلٍّ للحصول على البوليصة، وقال البائع بغضبٍ: «سأرفض طبعًا، هذا سهلٌ كاصطياد سمكة بالرمح في برميل خشبي صغير»[2]. لقد وعد هيل بدفع مبالغ إضافية للحصول على هذه البوليصة. وأجاب البائع: «حسنًا، قد نأخذ توقيعه على بوليصة تبلغ قيمة تعويضاتها 10 آلاف دولار».

قال هيل: «لا، أريدها مقابل 25 ألف دولار».

فردّ البائع: «لأنك لست قريبًا لروان، لا يمكن أن تصبح المستفيد منه إلا إذا كنت دائنه». قال هيل: «حسنًا، إنه مدينٌ لي بمال كثير، إنه مدينٌ لي بـ 10 آلاف دولار أو 12 ألف دولار».

وجد وايت صعوبة في تصديق أنّ هذا الدين حقيقي، لأنه إذا كان يدين لهيل حقًّا بهذا المبلغ من المال، فكل ما عليه فعله هو تقديم دليل على الدين إلى الوصيّ على روان، والذي كان سيسدّد المبلغ. هيل لم يكن بحاجة للحصول على بوليصة تأمين على حياة صديقه، وهي بوليصة لن تحقّق عائدًا كبيرًا إلا إذا مات روان فجأةً، وهو كان وقتها في أواخر الثلاثينات من عمره.

اعترف البائع الذي كان مقرّبًا من هيل، بأنه لم يملك دليلًا على الدين وأنه ببساطة كان يريد عمولته. لقد كان مجرّد شخص آخر منخرط في «الأعمال الهندية». يبدو أنّ روان لم يكن على دراية بهذه المكائد، فهو وثق في أنّ هيل، الذي من المفترض أن يكون أقرب أصدقائه، سوف يساعده. ولكن ما يزال هناك عائقٌ واحدٌ أمام مخطّط هيل، وهو إيجاد طبيب يفحص روان - شارب خمر دمّر ذات مرّة السيّارة وهو في حالة سُكر - ويوافق على اعتباره «مخاطرة آمنة» على شركة التأمين. على الرغم من أنّ أحد الأطبّاء قال إنه لن يوافق أحد على ذلك «الهندي المخمور»[3]، فقد «تسوّق» هيل بحثًا عن الأطبّاء حتى وجد رجلًا في پوهوسكا على استعدادٍ لأن يوصي بروان كما فعل جيمس، أحد الأخوين شون الموجودين في كل مكان على ما يبدو.

اكتشف وايت أنّ شركة التأمين رفضت الطلب الأوّل. ولاحظ ممثّل الشركة لاحقًا جهود هيل لتأمين البوليصة بقيمة 25 ألف دولار، قائلًا: «لا أعتقد أنّ ذلك سيبدو عاديًا»[4]. دون رادع، تقدّم هيل من شركة التأمين الثانية، وسُئل في الطلب عمّا إذا كان روان قد سبق أن رفضه أحد المنافسين. مُلئت خانة الجواب بـ «لا». وقال وكيل التأمين الذي راجع الطلب في وقتٍ لاحقٍ للسلطات: «كنت أعرف أنّ الأسئلة الواردة فيه قد أُجيب عليها بشكلٍ خاطئ»[5].

هذه المرّة، قدّم هيل مذكّرة الدائن لإثبات أنّ روان كان مدينًا له. الدين الذي كان هيل في الأصل ادّعى أنه - 10 آلاف دولار أو 12 ألف دولار - زاد بشكل غير مفهوم إلى 25 ألف دولار، وهو المبلغ المحدّد لبوليصة التأمين. مذكّرة الدائن كانت تزعم أنها موقعة

من روان ومؤرخة في (كانون الثاني/يناير 1921). لقد كان هذا مهمًّا، لأنه أشار إلى أنّ المذكّرة سبقت الجهود المبذولة للحصول على التأمين، وأضفى شرعية على مطالبة هيل.

كانت الكتابة اليدوية وتحليل المستندات، أدوات ناشئة في مجال التحقيق الجنائي. على الرغم من أنّ كثيرًا من الناس استقبلوا علوم الطب الشرعي الجديدة بوقار ونسبوها إلى قوّةٍ إلهية، كانت في الغالب عرضة للخطأ البشري. في العام 1894، ساعد عالم الجريمة الفرنسي بيرتيلون في إدانة ألفريد دريفوس ظلمًا بالخيانة، بعد أنّ قدم تحليلًا لخط اليد غير صحيح. ولكن عند تطبيقه بعناية وتكتّمٍ، قد يكون تحليل المستندات وخط اليد مفيدًا. في قضيّة قتل ناثان ليوبولد وريتشارد لوب الشنيعة، في العام 1924، اكتشف المحقّقون أوجه التشابه بين الأحرف المطبوعة في ملاحظات ليوبولد المدرسيّة ومذكّرة الفدية المكتوبة.

أبرز العملاء العاملون في قضيّة مقتل روان لاحقًا مذكّرة الدائن لمحلّل خطوط في وزارة الخزانة، عُرف باسم «فاحص المستندات المشكوك فيها». اكتشف أنّ التاريخ المكتوب أساسًا على الوثيقة ذكر حزيران/يونيو June وأن شخصًا ما قد محا بعناية الحرفين «u» و«e». وقد كتب الفاحص «أنّ الصور الفوتوغرافية الملتقطة[6] بإضاءة مائلة تُظهر بوضوح تخشّن ألياف الورق وانتفاخها حول التاريخ بسبب المحو الميكانيكي»، وقرّر أنّ شخصًا ما قد استبدل الحرف «a» بـ «u» والحرف «u» بـ «e» (وأضاف أحرفًا) بحيث يكون التاريخ هو كانون الثاني/يناير January.

اشتبه وايت في أنّ هيل قد استحصل على الوثيقة في أثناء محاولته الحصول على بوليصة التأمين، وعدّلها بعد أن أدرك أنه أخطأ في التاريخ، في وقتٍ لاحقٍ. استجوب مسؤول فدرالي الرجل الذي ادّعى هيل أنه كتب المذكّرة، وهو نفى أن يكون قد اطّلع على الوثيقة. ردًّا على سؤال عمّا إذا كان هيل يكذب، قال: «بالتأكيد»[7].

وافقت شركة التأمين الثانية على الوثيقة بعد أن أخذ هيل روان إلى طبيب في پوهوسكا مرّةً أخرى من أجل الفحص الطبّي المطلوب. يتذكّر الطبيب أنه سأل هيل: «بيل، ماذا ستفعل؟ ستقتل هذا الهندي؟»[8].

قال هيل وهو يضحك «نعم»[9].

بعد أن مَثَّلَ هيل دور حامل النعش في جنازة روان، علم وايت أنّ رجال القانون المحلّيين فعلوا أكثر من تجاهل هيل كمشتبه به. لقد حاولوا إقامة قضيّة ضد روي بانش، الرجل الذي كان على علاقة مع زوجة روان. تحدّث وايت وعملاؤه إلى بانش الذي أصرّ على براءته، وروى قصّةً غريبةً حول هيل. بعد مقتل روان، اقترب هيل من بانش وقال: «لو كنت مكانك، لكنت سأخرج من المدينة»[10].

«لماذا عليَّ الهرب؟ أنا لم أقتله».

قال هيل: «يعتقد الناس أنك فعلت».

عرض هيل على بانش المال لمساعدته على الفرار. بعد ذلك، تحدّث بانش إلى صديق أقنعه بألّا يهرب قائلًا: «إذا هربت، سيتّهمونك بالجريمة».

حقّق وايت ورجاله بدقّة في بانش واستبعدوه كمشتبهٍ به؛ كما لاحظ أحد العملاء «أنّ العلاقة المَفضُوحة بين زوجة روان وبانش تمّ التفكير بنتائجها لحرف الانتباه عن القتلة الحقيقيين»[11]. والشخص الذي بدا أكثر عزمًا على تلفيق التهمة لبانش، كان ملك تلال الأوساج. بعد قتل روان، زار هيل أرملته مرات عدّة في محاولة لإجبارها على التوقيع على أوراقٍ مختلفة بخصوص الدعاوى المرفوعة ضدّ أملاك روان. ذات مرّة، ترك هيل لها زجاجة ويسكي كهدية، ولكنها رفضت تذوّق مشروب «مون شاين» خوفًا من أن تتسمّم.

═══

على الرغم من أنّ وايت قد جمع أدلّة ظرفية تُشير إلى تورّط هيل في مقتل روان، إلا أنه ما زالت هناك ثغراتٌ كبيرةٌ في القضيّة. لم يكن هناك دليل - لا بصمات أصابع ولا شهود عيان موثوق بهم - على أنّ هيل أطلق النار على روان أو أنه أمر أحدًا من أبناء أخته أو أحدًا من أتباعه للقيام بذلك. وحتى مع وجود ملفّ بوليصة التأمين على الحياة المشبوهة التي تربط هيل بقتل روان، لكنها لم تكن دافعًا يُقدّم لعمليات قتل الأوساج الأخرى.

ومع ذلك، بينما درس وايت قضية روان أكثر، كان هناك تفصيل واحد مميّز، وهو أنّ هيل كان قبل أن يحصل على بوليصة التأمين على الحياة من روان، قد حاول شراء صكّ ملكيته وحصّته في الحساب الائتماني لمداخيل النفط للقبيلة، والذي كان أغلى من

أيّ كنز من الماس أو الذهب. عرف هيل أنّ القانون يمنع أيّ شخص من أن يشتري أو يبيع ملكية للأوساج، لكنه كان واثقًا من أنّ الضغط من الرجال البيض المؤثّرين سيقضي على ذلك المنع قريبًا. في الواقع، قال هيل ذات مرّة: «أنا، مثل كثير[12] من الرجال الطيّبين الآخرين، أعتقد أنه لن يمرّ وقت طويل حتى يمرّر الكونغرس قانونًا يسمح لكلّ هندي متعلّم وحاصل على شهادة الكفاءة ببيع أو نقل حقوقه في الحساب الائتماني لمداخيل النفط لمن يرغب». ومع ذلك، لم يتمّ تغيير القانون، واشتبه وايت في أنّ هذه الانتكاسة قد دفعت هيل إلى اللجوء إلى مؤامرة القتل التأمينية.

ومع ذلك، كانت هناك طريقة قانونية واحدة يُمكن لأيّ شخص من خلالها الحصول على الملكية، وهي: الميراث. فحص وايت سجلّات الوصايا لكثير من ضحايا القتل. كان من الواضح أنه مع كلّ وفاة، تمّ توجيه مزيد من الملكيات إلى يد شخص واحد؛ مولي بوركهارت. وقد «صودف» أنها كانت متزوّجة من إرنست، ابن أخت هيل، وهو رجل، كتب العميل في تقرير عنه أنه «يتحكّم فيه هيل تمامًا»[13]. قال كيلسي موريسون المهرّب ومخبر المكتب للعملاء: إنّ «كلًّا من إرنست وبرايان بوركهارت يفعلان بالضبط ما يقوله لهما خالهما، وينفّذان كلّ ما يطلبه منهما». وأضاف موريسون إن هيل: «قادرٌ على فعل أيّ شيء»[14].

درس وايت نمط الوفيات في عائلة مولي. لم يعد التسلسل الزمني يبدو عشوائيًّا، ولكنه كان جزءًا من خطّةٍ قاسيةٍ. آنّا براون، مطلّقة وليس لديها أطفال، ورثت كلّ ثروتها تقريبًا من أمها ليزي. بقتل آنّا أوّلًا، تأكّد العقل المدبّر من أنّ أملاكها لا تُقسّم بين ورثة متعدّدين. لأنّ ليزي ورّثت بناتها الباقيات وهي على قيد الحياة، مولي وريتا، فأصبحت الهدف المنطقي التالي. ومن ثمّ جاءت ريتا وزوجها بيل سميث، حيث أدرك وايت أنّ الطريقة غير العادية للقتل - التفجير - كان لها منطقٌ شرّير. تنصّ وصيّتا ريتا وبيل على أنه إذا ماتا في وقت واحد، فإنّ كثيرًا من أملاك ريتا ستذهب مباشرةً إلى أختها الباقية على قيد الحياة، مولي. هنا، أخطأ العقل المدبّر في تقديره، لأنّ بيل عاش بضعة أيامٍ أكثر من ريتا بشكلٍ غير متوقع، فقد ورث مالًا كثيرًا، وعند وفاته ذهب المال إلى أحد أقاربه. ومع ذلك، تمّ تحويل الجزء الأكبر من حقوق الأملاك إلى مولي بوركهارت، التي كان إرنست يُسيطر على ثروتها، وكان وايت مقتنعًا أنّ هيل قد أقام سرًّا قناةً غير مباشرة لهذه الثروة من خلال ابن أخته الخاضع له. وأبلغ وايت هوفر لاحقًا: «يبدو أنّ

مولي كانت الوسيلة الأولى لمخطّط هيل وهو الحصول على أصول الأسرة بأكملها من خلال بوركهارت»[15].

لم يستطع وايت تحديد ما إذا كان زواج إرنست منذ البداية من مولي - قبل أربع سنوات من مقتل آنّا - جزءًا من المؤامرة، أو إذا كان هيل قد ضغط على ابن أخته ليغدر بها بعد زواجهما. في كلتا الحالتين، كانت الخطّة وقحة جدًّا، وشرّيرة جدًّا، وكان من الصعب فهمها. اقتضت الخطّة أن يُشارك إرنست السرير مع مولي، ويربّي الأطفال معها، كلّ ذلك في أثناء التآمر ضد أسرتها. مثلما كتب شكسبير في يُولِيُوس قَيْصَر:

فأين سيكون بوسعك إذاً إبّان النهار أن تجدي كهفًا مظلمًا، بما فيه الكفاية،

تخفين فيه وجهِك البشع؟

لا تبحثي عن كهف أيتها المؤامرة...

يكفيك أن تُخفي وجهك وراء ستار من الابتسامات وظاهر الودّ...



إرنست ومولي بوركهارت

16 من أجل تَحسين مكتب التحقيقات

شعر وايت ورجاله بإحساسٍ متزايدٍ بالتقدّم. أرسل مدّعٍ عام من وزارة العدل مذكّرةً إلى هوفر، قال فيها إنه في الأشهر القليلة الماضية منذ أن تولّى وايت قيادة التحقيق، «أُضيء على كثير من الزوايا الجديدة لهذه القضايا بنجاح، وبدا أنّ الروح الجديدة والحماسة هما السائدتان هنا»[1].

ومع ذلك، واجه وايت المشكلات نفسها في التحقيق بقتل أفراد عائلة مولي بوركهارت التي واجهها في تحقيقه في موت روان. لم يكن هناك دليلٌ مادي أو شهود لإثبات أنّ هيل نفّذ أو أمر بأيٍّ من عمليات القتل. ومن دون قضية محكمة الأدلة، عرف وايت أنه لن يكون قادرًا على إسقاط هذا الرجل الذي اختبأ خلف طبقات من الاحترام، وأطلق على نفسه اسم القسّ، واستخدم شبكة من المحسوبية للتأثير في مكتب العمدة والمدّعين العامين والقضاة وبعض كبار مسؤولي الدولة.

في تقرير بارزٍ، لاحظ العملاء أنّ سكوت ماتيس، صاحب شركة بيغ هيل التجارية، ووصيّ آنّا براون وليزي، كان «نصّابًا يسيطر عليه هيل»[2]، وأنّ شريكًا «كان يعمل جاسوسًا لبيل هيل وشركة بيغ هيل التجارية، ويقوم بشَرْعَنة كل صفقات النصب على الهنود وسرقتهم»، وأنّ قائد الشرطة في مدينة بونكا «يأخذ أموالًا من بيل هيل»، وأنّ رئيس الشرطة في فيرفاكس «لن يفعل شيئًا ضد هيل على الإطلاق»، وأنّ المصرفي والوصيّ المحلي «لن يتحدّثا عن تجاوزات هيل، لأنّ هيل لديه مماسك كثيرة عليهما»، وأنّ رئيس بلدية فيرفاكس «المحتال اللدود» كان صديق هيل المقرّب، وأنّ المدّعي العام للمقاطعة كان جزءًا من آلة هيل السياسية وكان «لا خير منه» و«محتالًا». وأنه حتّى مسؤول فدرالي مُعيّن لدى مكتب الشؤون الهندية «كان تحت سلطة بيل هيل وسيفعل ما يأمره به».

أدرك وايت أنّ نضاله من أجل العدالة كان في بدايته. وكما يقول تقرير المكتب، فإنّ هيل «يهيمن على السياسة المحليّة ويبدو أنه لا يمكن معاقبته»[3]. وأشاد هوفر في

وقتٍ سابقٍ بوايت، قائلاً إنه بسبب تعامله مع القضيّة: «كانت الظروف هادئة ولم يتقدّم أحد بشكوى أو انتقاد على الإطلاق، وكان هذا مصدر ارتياح كبير لي»[4]. ولكنّ هوفر - «ذلك العود المعدني الرفيع الموصول بشبكة كهرباء عالية التوتر»[5]، كما وصفه أحد المراسلين - كان ينفد صبره بشكل متزايد.



توم وايت وهوفر

أراد هوفر أن يكون التحقيق الجديد نموذجًا لمكتب التحقيقات الذي واصل إعادة هيكلته، لمواجهة الصورة الدنيئة التي أنشأها بيرنز والمدرسة القديمة للمحقّقين المرتكبين[6]. تبنّى هوفر نهج المفكّرين التقدّميين الذين دعوا إلى أنظمة إدارة فعّالة بلا رحمة. وصمّمت الأنظمة على غرار نظريات فريدريك وينسلو تايلور، وهو مهندس صناعي جادل بأنّ الشركات يجب أن تعمل بطريقة علمية مع تحليل مَهمّة كلّ عامل بدقّة. لقد سعى تطبيق هذه الأساليب التقدّمية، الحكومة التقدّمية، إلى إنهاء تقليد رؤساء الأحزاب المحتالين الذين يوظفون المرتكبين والاستغلاليين في الوكالات الحكومية، بما في ذلك الأجهزة الأمنية. بدلًا من ذلك، ظهرت طبقة جديدة من موظفي الخدمة المدنية المتخصّصين في إدارة البيروقراطيات القديمة، على غرار ما فعل هربرت هوفر «المهندس العظيم» الذي أصبح بطلًا في إدارة جهود الإغاثة الإنسانية على وجه السرعة في خلال الحرب العالمية الأولى.

لاحظ المؤرخ ريتشارد جيد باورز، أنّ ج. إدغار هوفر وجد في التقدّمية نهجًا أظهر هوسه بالتنظيم والرقابة الاجتماعية. وما هو أكثر، كانت هذه طريقة هوفر، وهو موظّف مكتبي، ليصوّر نفسه على أنه شخصية مرموقة، ومقاتل في سبيل العصر العلمي الحديث. وأسهمت حقيقة أنه لم يُطلق النار من مسدّسٍ من قبل، بتلميع صورته فحسب. لاحظ المراسلون أنّ أيام التجسّس بالطرائق القديمة قد «ولّت»[7]، وأنّ هوفر قد أنهى تقاليد مكتب التحقيقات القديمة المؤلّفة من «الحذاء القديم والفانوس الداكن والشارب الزائف، واستبدل بها الأساليب الجديدة»[8]. فقد جاء في أحد المقالات إنه «يلعب الغولف! من منّا كان يتخيّل أن المُحقِّق القديم قد يفعل ذلك؟»[9].

ومع ذلك، غالبًا ما كان القبح كامنًا تحت الحماسة الإصلاحية للتقدّمية، وكان لكثير من التقدّميين - الذين كانوا يميلون إلى أن يكونوا من الطبقة الوسطى ومن البروتستانت البيض- تحيّزات عميقة ضدّ المهاجرين والسود، وكانوا مقتنعين بسلطتهم الفاضلة، حتى أنهم احتقروا الإجراءات الديمقراطية. هذا الجزء من التقدّمية، عكَس داوفع هوفر الظلامية.

ونظرًا لأنّ هوفر بسّط انسيابية العمل في المكتب بشكلٍ جذري، ما أدى إلى القضاء على الانقسامات المتداخلة والسلطة المركزية، فقد مُنح وايت، مثل غيره من العملاء

الخاصّين المسؤولين، سلطة أكبر على رجاله في الميدان، لكنه أصبح أيضًا أكثر مسؤولية أمام هوفر عن أيّ شيء قد يفعله العملاء، جيّدًا كان أم سيّئًا. كان على وايت أن يملأ باستمرار أوراق تصنيف الكفاءة، وعلامات تقييمية للعملاء، على مقياس من 0 إلى 100، في فئات مثل «المعرفة» و«الحكم» و«المظهر الشخصي» و«العمل المكتبي» و«الولاء». وأصبح معدّل متوسّط العلامات هو العلامة الكاملة للعميل. بعد أن أخبر وايت هوفر أنه أعطى أحيانًا بعض العملاء تصنيف 100، ردّ هوفر بحدّة كاتبًا، «يؤسفني أنني غير قادر على إقناع نفسي بذلك. كيف لأيّ عميل في دائرة اختصاص المكتب أن يأخذ العلامة الكاملة أو نسبة 100 %؟»[10].

يعتقد هوفر أنّ رجاله يجب أن يتغلّبوا على نواقصهم بالطريقة التي تغلّب بها على تلعثمه السيّىء في خلال طفولته، وطهّر المكتب من أيّ شخص فشل في تلبية معاييره الصارمة. أخبر هوفر وايت وعملاء خاصّين آخرين: «لقد تسبّبت بفصل عددٍ كبيرٍ من الموظّفين من الخدمة، بعضهم كانوا يفتقرون إلى القدرة التعليمية والآخرون يفتقرون إلى القدرة على التحمّل الأخلاقي»[11]. كثيرًا ما كرّر هوفر القول المأثور «أنت، إما تتطوّر وإما تتدهور»[12].

على الرغم من أن هوفر أقرّ أنه «متعصّب» في بعض الأحيان، فقد كان لديه رد فعل غاضب على أيّ انتهاكٍ للقواعد. في ربيع العام 1925، عندما كان وايت ما يزال متمركزًا في هيوستن، أعرب هوفر له عن غضبه عندما اكتشف أنّ كثيرًا من العملاء في سان فرانسيسكو في المكتب الميداني يشربون الخمر. فطرد على الفور هؤلاء العملاء، وأمر وايت - الذي، على عكس أخيه دوك وكثير من رعاة البقر الآخرين، لم يكن يشرب الكحول بكثرة - بإبلاغ جميع أفراده أنهم سيواجهون مصيرًا مشابهًا إذا ضُبطوا يشربون المُسكرات. وأخبر وايت أيضًا: «أعتقد أنه عندما يصبح الرجل جزءًا من قوات هذا المكتب، يجب عليه أن يتحمّل مسؤولية نفسه وإزالة أدنى احتمال للتسبّب في النقد أو الهجوم على المكتب»[13].

السياسات الجديدة التي تمّ جمعها في دليلٍ سميكٍ أصبح «الكتاب المقدّس لمكتب هوفر»، تجاوزت موادها قواعد حسن السلوك. كان يُملي على العملاء كيفية القيام بجمع المعلومات ومعالجتها. في الماضي، كان العملاء يقدّمون تقارير عن طريق الهاتف

أو البرقية، أو عن طريق إبلاغ الرئيس شخصيًا. نتيجة لذلك، غالبًا ما كانت تضيع المعلومات المهمّة، بما في ذلك ملفّات القضيّة بأكملها.

قبل انضمامه إلى وزارة العدل، كان هوفر كاتبًا في مكتبة الكونغرس، وقال أحد زملائه في العمل: «لو بقي معنا، فأنا متأكّد من أنه سيكون أمين المكتبة الرئيسي»[14]. أتقن هوفر كيفية تصنيف رزم البيانات باستخدام نظام يشبه إلى حدٍّ ما نظام «ديوي» أي النظام العشري، واعتمد نموذجًا مشابهًا بتصنيفاته وتقسيماته المرقّمة لتنظيم الملفات المركزية والمؤشّرات العامة للمكتب (ملفّ هوفر الخاص الذي يتضمّن معلومات يمكن استخدامها لابتزاز السياسيين، يُوضع بشكلٍ منفصلٍ في مكتب سكرتيرته)، ومن المتوقّع الآن أن يقوم العملاء بتوحيد الطريقة التي يُقدّمون بها ملفّات تقارير حالة على ورقة واحدة[15]. كان هذا من شأنه أن يقلّل من العمل الورقي - وهو مقياس إحصائي آخر للفعالية - وكذلك من الوقت الذي قد يستغرقه المدعي العام لتقييم ما إذا كان ينبغي عليه متابعة القضيّة أم لا.

كان وايت نفسه مديرًا ومسؤولًا متطلّبًا. يذكر عميل عَمل تحت قيادته في أوكلاهوما «أنّ كلًّا من رجاله كان 'من المفترض أن يعرف وظيفته ويفعلها'. وقال رجل آخر كان يعمل تحت قيادة وايت، لاحقًا: إنه «يمكن أن يكون صادقًا حتى الوقاحة الجارحة»[16]. كان وايت أكثر تسامحًا مع الضعف من هوفر، وكان غالبًا ما يُحاول حماية رجاله من غضب الرؤساء الأعلى. عندما غضب هوفر بعد فشل أحد عملاء وايت في استخدام تنسيق الورقة الواحدة في تقريرٍ عن قضايا قتل الأوساج، قال وايت لهوفر: «أشعر أنني أنا الملام تمامًا لأنني نظرت إلى هذا التقرير وأعطيته موافقتي»[17].

تحت إمرة هوفر، كان يُنظر إلى العملاء الآن على أنهم تروس قابلة للتبديل مثل موظفين في شركة كبيرة. كان هذا ابتعادًا كبيرًا عن العمل الشُرطي التقليدي، حيث كان رجال القانون عادةً هم أبناء مجتمعاتهم. ساعد التغيير على عزل العملاء من الفساد المحلي، وإنشاء قوّة وطنية حقيقية، ومع ذلك فقد تجاهلت هذه القوّة الوطنية أيضًا الاختلاف الإقليمي وكان لها تأثير غير إنساني يتمثّل في اقتلاع الموظّفين باستمرار. وتحدّث هوفر فقط عن «تحسين الخدمة في مكتب التحقيقات»[18]. فكتب وايت إلى هوفر أنه يعتقد «أنّ عميلًا على دراية بالمنطقة وسكّانها كان أكثر فعالية». وأشار إلى

أنّ أحد عملائه قد ذهب متخفّيًا كمربٍّ للماشية من تكساس في قضية الأوساج وكان مثاليًّا ومناسبًا للعمل على الحدود، «لكنّ وضعه في شيكاغو أو نيويورك أو بوسطن يكاد يكون عديم القيمة». لم يتأثّر هوفر بتقييم وايت، وكتب أحد رجاله المتملّقين في مذكّرة: «أنا لا أتّفق مع السيد وايت على الإطلاق في هذا الشأن. من الأفضل لعميل لا يعرف إلّا خصائص سكّان قسم واحد من البلاد أن ينخرط في مجال عملٍ آخر»[19].

في مدرسة تدريب مؤقّتة في نيويورك، كان هناك عملاءً قد تمّ تلقينهم القواعد والأساليب الجديدة. (حوّل هوفر لاحقًا البرنامج إلى أكاديمية كاملة في كوانتيكو، فيرجينيا). دُرِّب العملاء بشكلٍ متزايدٍ، في ما هلّل له هوفر بأنه «علميّة عمل الشرطة»، مثل تقنيات دراسة المقذوفات ورفع بصمات الأصابع، وعُلِّموا القواعد الرسمية لجمع الأدلّة لتجنّب إسقاط القضايا في المحاكم أو وقفها، كما حدث مع أوّل تحقيق في قضيّة الأوساج.

احتقر بعض العملاء، وخاصةً كبار السنّ منهم، هوفر ومراسيمه. نصح أحد العملاء المخضرمين المجنّدين الجدد بأنّ: «أوّل شيء عليك فعله هو التخلّص من كلّ ما علّموك إياه في مقعد الحكومة، والثاني هو التخلّص من تلك الكتيّبات اللعينة»[20]. في العام 1929، استقال أحد العملاء بشكوى من أنّ مبادرات هوفر كانت «موجّهة ضدّ العملاء وليس ضدّ مجرم»[21].

غَضِب وايت أحيانًا من قواعد هوفر وأهوائه. لكن من الواضح أنه كان يستمتع بكونه جزءًا من المكتب، حيث ضُمّ في أحداث أعظم منه. حاول أن يكتب بدقّة تقاريره ووصف فضائل علمية عمل الشرطة. في وقتٍ لاحقٍ، كان يستبدل بقبّعة رعاة البقر الخاصّة به قبّعة فيدورا، ومثل هوفر، تعلّم لعبة الغولف، ووضع الكرة عبر فتحات العشب الخضراء، حيث يتجمّع هناك الرجال الأميركيون الجدد من ذوي المال والسلطة. يكاد وايت لا يُمكن تمييزه عن المحقّقين الفتيان المتخرّجين من كلية «هوفر».

17 فنّان سحب المسدّسات واللص فاتح الخزنات وصانع المتفجّرات وخبيرها

في خلال خريف العام 1925، حاول وايت طمأنة هوفر بأنه جمع أدلّة كافية لسجن هيل والمتواطئين معه، كما أرسل إلى هوفر مذكّرة تُفيد بوجود عميل من المكتب متخفّ في مزرعة هيل في تلك اللحظة بالذات، وهو يتجسّس عليه. شعر وايت بالضغط، ليس فقط من هوفر، ففي الوقت القصير الذي كان يعمل فيه على القضيّة، رأى الأضواء تشتعل ليلًا حول منازل الأوساج، ورأى أنّ أفراد المجتمع لا يسمحون لأطفالهم بالذهاب إلى المدينة وحدهم، وشهد على مزيدٍ من بيع السكان لمنازلهم وانتقالهم إلى ولايات بعيدة أو حتى دول أخرى مثل المكسيك وكندا. (في وقت لاحقٍ، أطلق عليهم شخص من الأوساج اسم «المشتّتون»)[1]. كان يأس الأوساج واضحًا، وكذلك شكوكهم تجاه التحقيق. ماذا فعلت الحكومة الأميركية لهم؟ لماذا اضطرّوا، على عكس الأميركيين الآخرين، إلى استخدام أموالهم الخاصّة لتمويل تحقيق وزارة العدل؟ لماذا لم يُلقَ القبض على أيّ شخص بعد؟ قال رئيس الأوساج: «لقد عقدت السلام مع الرجل الأبيض، وألقيت السلاح جانبًا، وتعهّدت بعدم رفعه مجدّدًا. والآن، أنا ورفاقي من رجال القبائل نُعاني»[2].

فهم وايت أنّ المواطنين البيض المتحيّزين والفاسدين، لن يورّط بعضهم بعضًا في قتل الهنود الأميركيين، لذلك قرّر تغيير استراتيجيته وحاول العثور على مصدر، من بين أسوء المصادر سمعةً، وهي مجموعة خطيرة من أوكلاهومان: الخارجين على القانون في تلال الأوساج. افترضت تقارير من عملاء ومخبرين مثل موريسون أنّ كثيرًا من هؤلاء المجرمين على علمٍ بجرائم القتل. قد لا يكون هؤلاء الرجال أقلّ عنصرية من غيرهم، ولكن لأنّ بعضهم اعتُقلوا مؤخّرًا أو أُدينوا بجرائم، سيكون لوايت على الأقلّ بعض النفوذ عليهم. استمرّ اسم ديك غريغ والبالغ من العمر 23 عامًا الخارج على القانون بالظهور، بشكلٍ خاص، اللصّ المسلّح الذي كان مع عصابة آل سبنسر. وهو في سجن كنساس يقضي عقوبة بالسجن لمدّة عشر سنوات بسبب السرقة.

أخبر غْريغ العميل بيرغر ذات مرّة أنه يعرف شيئًا ما عن جرائم القتل، على الرغم من أنه ظلّ يتظاهر بالخجل والتواضع. وأصرّ على أنه لا يستطيع أن يخون الثقة. أشار العميل بيرغر في تقرير بإحباط «إلى أن غْريغ مجرمٌ مئة بالمئة ولن يخبرنا إلّا بقليل»[3]. يعرف كومستوك، المحامي والوصيّ، والد غْريغ جيّدًا ويقدّم المشورة القانونية للأسرة. كان هوفر ما يزال لا يثق في كومستوك، ولكنّ كومستوك هو من استخدم علاقته مع والد غْريغ للمساعدة في إقناع الشاب الخارج على القانون بالتعاون مع المكتب.

في النهاية، التقى وايت غْريغ نفسه، وكان وايت يُحبّ تدوين ملاحظات عقلية عن المجرمين الذين واجههم من أجل حفظهم في ذاكرته؛ وهي مهارة شحذها في خلال الوقت الذي قضاه على الحدود، عندما كان لا يستطيع الاعتماد على صورة المشبوه أو على بصمات الأصابع. بعد عقود، عندما طُلب من وايت وصف غْريغ، كتب بدقّة ملحوظة: «رجلٌ صغيرٌ جدًا، طوله تقريبًا حوالى 167 سنتيمترًا، وزنه 56 كيلو غرامًا، بنيته ضعيفة، عيناه زرقاوان وشعره بني فاتح. شابٌ حسن المظهر»[4]. كان مظهر غْريغ الجميل خادعًا، وفق المدّعي العام الذي قال إنه: «كان قاسيًا وباردًا، من أولئك المجرمين الذين يحسبون خطواتهم بدقّة، والذين لا يتردّدون عند ارتكابهم جرائمهم»[5]. ومع ذلك، فمن وجهة نظر وايت، ينتمي غْريغ إلى تلك الفئة من الخارجين على القانون، الذين لم يكونوا سيّئين بطبيعتهم، وقد كان بإمكانه أن يصبح «شخصًا ناجحًا»[6]. مع التدريب المناسب.



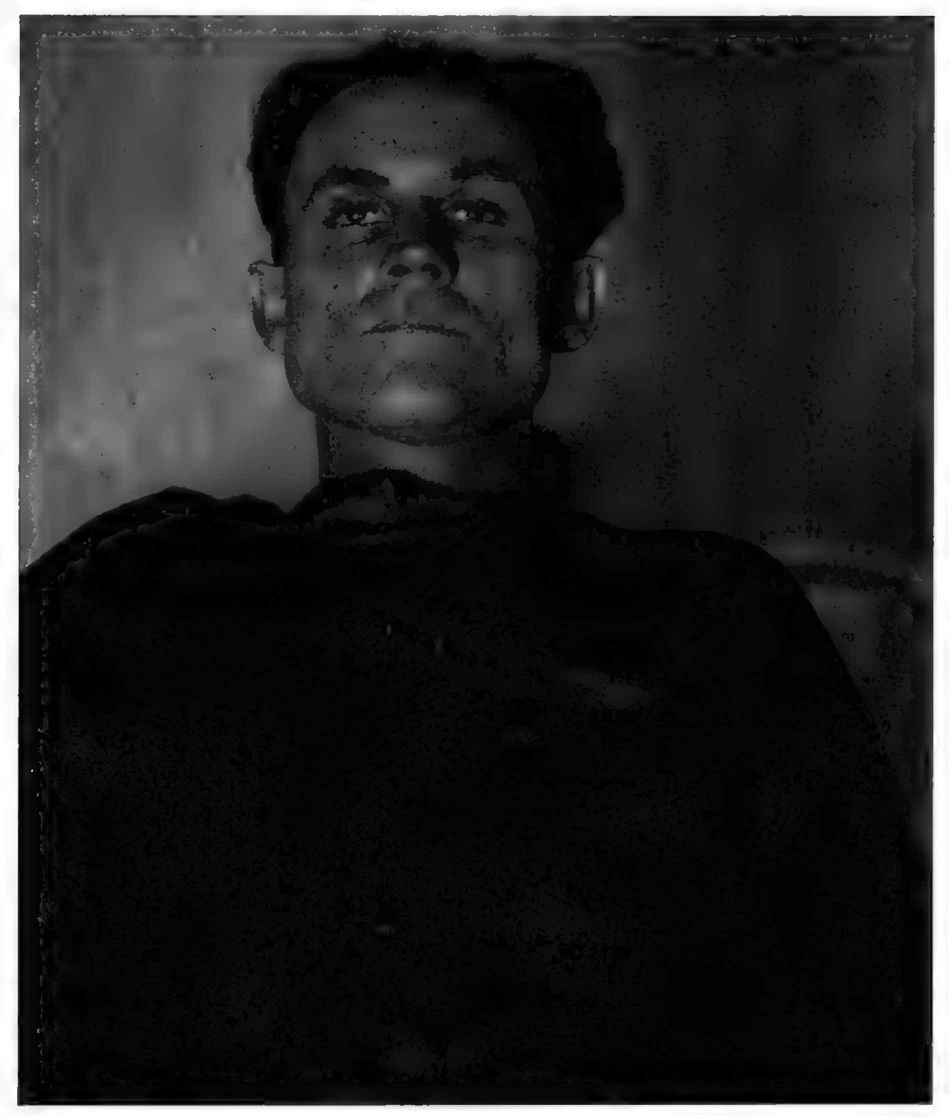
كان ديك غْريغ عضوا في عصابة آل سبنسر

على الرغم من أنّ غريغ عُرف ببرودة أعصابه عند إطلاق النار، إلّا أنه كان متردّدًا في تَخَطّي هيل. قال غريغ: «إذا انتشر الخبر سوف أُقتل بسرعة وبسهولة»[7]. ولكن، على أمل أن يختصر وقت حكمه، وافق على إفشاء الأمر لوايت وعملاء آخرين عمّا يعرفه. في وقتٍ ما في صيف العام 1922، يتذكّر أنّ خارجًا على القانون اسمه آل سبنسر، أخبره برغبة هيل في مقابلة العصابة، وهكذا توجّه سبنسر وغريغ وعدد من زملائه إلى مراعي هيل بالقرب من فيرفاكس. وظهر هيل وهو يمتطي حصانه بقوّة من بين أعشاب البراري الطويلة، واجتمع أفراد المجموعة على حافة الجدول وشربوا بعض الويسكي. ومن ثمّ طلب هيل من سبنسر التكلّم على انفراد، وبعد أن عادوا وانفضّ الاجتماع، أعاد آل سبنسر المحادثة.

أخبر هيل سبنسر أنه سيدفع له ولعصابته على الأقلّ 2000 دولار، للقضاء على شخصين - رجل عجوز وبطّانيته - أيّ امرأة هندية. سأل سبنسر هيل عن الشخصين اللذين أراد موتهما. قال: «بيل سميث وزوجته»[8]. أخبر سبنسر هيل أنه رجلٌ يقتل بدمٍ باردٍ، لكنه لن يقتل امرأة من أجل الفضّة (المال)، على حد تعبيره، «هذا ليس أسلوبي»[9]. قال هيل إنه: «يأمل أن يقوم غريغ على الأقلّ بهذه الخطة»، لكن غريغ وافق سبنسر على هذا الموضوع.

اعتقد وايت أنّ غريغ كان «على المستوى المطلوب»[10]، فرفضه للقتل مقابل أجر جعله «شخصًا لديه بعض الشرف على الرغم من أنه خارج على القانون»[11]. ولكن، على الرغم من أنّ شهادة غريغ قدّمت أوضح مؤشّر حتى الآن على أنّ هيل أمر بارتكاب جرائم القتل، إلّا أنها كانت محدودة من ناحية القيمة القانونية. في نهاية الأمر، جاء البيان من محتالٍ يسعى لتقصير عقوبته، وسبنسر، الشخص الوحيد الذي يُمكن أن يؤكّد شهادة غريغ، تعرّض لإطلاق النار من مجموعة من العملاء. (عنونت صحيفة پوهوسكا ديلي كابيتال Pawhuska Daily Capital: بسندات قيمتها 10 آلاف دولار في يدٍ، وبندقية وينشستر في اليد الأخرى، مات اللصّ الشهير في التلال التي كانت ملجأه في الحياة، وأمسَتْ قبره في الموت).

في خلال أحد استجواباته، قال غريغ للعملاء: «يجب أن تجدوا الخارج على القانون كرلي جونسون الذي هرب مع اللصّ المسلّح بلاكي طومسون»[12]. أكد غريغ أنّ: «جونسون يعرف كلّ شيء عن انفجار سميث وسيعترف بكل شيء إذا أُجبر على القيام بذلك».



صورة لآل سبنسر بعد أن قُتل بالرصاص في 15 سبتمبر/أيلول 1923

لكن اتضح أنّ جونسون كان يتعفّن أيضًا تحت الأرض منذ أقل من عام. مات فجأةً. وزعموا أنه تسمّم من الكحول.

سرعان ما قاد بحث وايت اليائس إلى شاهدٍ آخر، وهو هنري غرامر، نجم مسابقات رعاة البقر ومهرّب الكحول المسلّح الذي يُطلق النار، كلّ عام أو نحو ذلك، على شخصٍ

ما بسبب خلاف. (ذكر أحد العناوين الرئيسية[13]: هنري غرامر يُطلق النار مرّة أخرى). على الرغم من أنّ غرامر وهيل تحرّكا بشكلٍ عامٍ في دوائر مختلفة، أثبت وايت أن كلًّا منهما كان يعرف الآخر منذ سنوات، منذ الوقت الذي ظهر فيه هيل لأوّل مرّة في منطقة الأوساج، عند بداية القرن. في مسابقات لرعاة البقر في العام 1909، تنافس رعاة البقر الأوساج مع رعاة البقر الشيروكي. أعلنت جريدة ماسكوجي تايمز ديموقراط Muskogee Times Democrat، أن «حاملي الحبال من الشيروكي لا يستطيعون منافسة حاملي الحبال من الأوساج»[14]. بحلول العام 1925، تخلّى هيل عن ماضيه، ولكن بقيت هناك صورة باهتة من المسابقة؛ ظهر فيها هيل وغرامر يجلسان بفخرٍ على حصانيهما، حاملين الحبال الملفوفة.



هيل (الرابع من اليسار) وغرامر (الثالث من اليسار) يتنافسان في مسابقة شدّ الحبال في العام 1909

قبل أن ينفجر منزل سميث بقليل، أخبر هيل أصدقاءه أنه كان متوجّهًا إلى خارج المدينة لحضور مسابقات ركوب البقر في فورت وورث، تكساس. نظر وايت في حجّة غياب هيل، وقيل له إنه ذهب مع غرامر. سمع شاهدٌ ما هيل يتمتم بشيءٍ إلى غرامر قبل القتل، عن استعداده لـ «تلك الصفقة الهندية»[15].

ومع ذلك، مثل الشهود المُحتمَلين الآخرين ضد هيل، مات غرامر. في 14 حزيران/ يونيو من العام 1923، بعد ثلاثة أشهر من هدم منزل سميث، قُتل غرامر عندما خرجت سيارته الكاديلاك عن السيطرة وانقلبت. نزف الفنّان الاسطوري في سرعة سحب السلاح، حتى الموت على طريق ريفي فرعي[16].

أخيرًا، أعطى لصّ وفاتحٌ للخزنات الحديدية، وايت وفريقه اسم شاهدٍ آخر على مؤامرة التفجير، وهو آسا كيربي، الخارج على القانون ذو الأسنان الذهبية، والذي كان شريكًا لغرامر. قال اللصّ إن كيربي كان «رجل الحساء» أي «خبير المتفجّرات الذي صمّم القنبلة». لكن اتضح أنّ كيربي لا يستطيع أن يشهد أيضًا. بعد أسابيع قليلة من حادث سيّارة غرامر المميت، اقتحم متجرًا في منتصف الليل في محاولة لسرقة الماس، ليجد أنّ صاحب المتجر قد تمّ إبلاغه مسبقًا، وكان ينتظره مع بندقيته وخرطوش مقاس 12. في لحظة، أُطلقت النار على كيربي وانتقل إلى العالم الآخر. لم يفاجأ وايت بمعرفة أنّ الشخص الذي أبلغ صاحب المتجر عن السرقة كان ويليام ك. هيل.

عزّز هيل بإحباط السرقة، سمعته بالتمسّك بالقانون والنظام. لكن خارجًا آخر على القانون أخبر وايت أنّ هيل أعدّ بالفعل عملية السطو: أخبر كيربي عن الماس، واقترح الوقت المثالي للاقتحام. كان من الواضح، وجود مؤامرة داخل مؤامرة، وأصبح وايت يشكّ بالموضوع فجأةً، بسبب سلسلة الشهود الذين يموتون. استفسر عن حادث سيارة غرامر وأخبر من عرفوه أنهم كانوا يعتقدون أنّ عجلة القيادة والفرامل في سيّارة الكاديلاك عُبث بهما. في غضون ذلك، كانت أرملة كيرلي جونسون متأكّدة من أنّ زوجها سمّمه هيل وأتباعه عمدًا. وعندما علم وايت بإمكانية وجود شاهد في قضيّة قتل روان، اكتشف أن هذا الشاهد ضُرب حتى الموت. أيّ شخص يمكن أن يورّط هيل، يبدو أنه يُقضى عليه. قال اللصّ «إن هيل كان يعتني بكثير من الناس»، مضيفًا: «قد يعتني بي»[17].

بعد أن فشل في تحديد مكان أيّ شهودٍ أحياء، وجد وايت نفسه في وضعٍ حرجٍ للغاية، وبدا هيل مدركًا أنّ العملاء قد كشفوا أمره. أبلغ المخبر موريسون العملاء بأنّ «هيل يعرف كل شيء»[18]. وكانت هناك دلائل على أنّ موريسون ربّما يؤدّي دوره في لعبة مزدوجة. علم العملاء أنّ موريسون أخبر صديقًا أنّ لديه كلّ المعلومات عن جرائم القتل، وأنّه أنقذ «رقبة هيل الملعون حتى الآن»[19].

بدأ هيل في زيادة المحسوبين عليه لترسيخ قوّته. في تقرير، كتب العميل رين «أنّ هيل كان يصنع الدعاية لنفسه من خلال تقديم الهدايا والملابس، بالإضافة إلى توزيع المال النقدي - تقديم القروض- لأشخاص مختلفين»، حتى أنّ هيل كان «يُعطي المهور للأولاد الصغار»[20].

تقرّب أحد العملاء السرّيين الذي يؤدّي دور مربّي ماشية من تكساس، ببطء من هيل. شاركه قصصًا عن رعاة البقر في الأيام الخوالي، ورافق العميل المتخفّي هيل بينما كان يتفقّد قطعان ماشيته. أفاد الناطق بأنّ هيل بدا وكأنه يسخر من المحقّقين. فقد تفاخر بقوله: «أنا ماكرٌ جدًا، وحريص على أن لا يُقبض عليّ»[21].

كان وايت يرى هيل في شوارع فيرفاكس مع ربطة عنق مقوّسة وذقنه مرفوع عاليًا، وهو تعبير عن ثقته بنفسه لقدرته على خداع وايت وإخوته، ووالدهم من قبلهم، والذين أمضوا وقتًا طويلًا في مطاردته. لقد ظنّ نفسه، كما يعتقد وايت، «كمن كان يمتلك العالم»[22].



ويليام هيل

في بعض الأحيان، مع اشتداد الضغط على وايت، حيث أنّ كلّ طرف خيط واعد ينتهي إلى طريق مسدود، كان يأخذ بندقيته ويختفي في الريف، حيث يكتشف بطّة أو بعض الفرائس الطائرة الأخرى ويطلق النار عليها حتى يمتلئ الهواء بالدخان وتتخضّب التربة بالدم.

18 حالة اللعبة

تلقّى وايت خبرًا سرّيًّا على نحوٍ غير متوقّع في أواخر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1925، عندما كان مجتمعًا مع حاكم أوكلاهوما، لمناقشة القضية بتكتّمٍ شديد. بعد ذلك، قال أحد مساعدي الحاكم لوايت: «لقد حصلنا على معلومات من سجين في مكاليستر يدّعي أنه يعرف أشياء كثيرة عن جرائم القتل في الأوساج. اسم هذا السجين بيرت لوسون، وقد تكون فكرة جيّدة أن تتحدّث معه»[1].

كان وايت يائسًا من إيجاد دليل جديد، لهذا هرع والعميل فرانك سميث إلى سجن مكاليستر. لم يعرفا كثيرًا عن لوسون، بخلاف أنه من مقاطعة الأوساج، ولديه مواجهات عدّة مع القانون. في العام 1922، وُجّهت إليه تهمة قتل صيّاد سمك، ولكنه برّئ بعد أن ادّعى بأن الصيّاد أتى إليه أولًا حاملًا السكّين. في وقتٍ لاحقٍ، بعدها بثلاث سنوات، أُدين لوسون بسطو من الدرجة الثانية وحُكم عليه بالسجن سبع سنوات.

أحبّ وايت استجواب متّهم في مكان لم يكن مألوفًا له لزعزعة استقراره، لذلك نُقل لوسون إلى غرفة خارج مكتب السجّان. درس وايت الرجل الذي ظهر أمامه: قصير، سمين، متوسط العمر، شعرٌ أبيض طويل. ظلّ لوسون يشير إلى وايت وسميث باسم «الفدراليون الجذّابون»[2]. قال له وايت: «نحن فهمنا من مكتب الحاكم أنك تعرف شيئًا عن جرائم القتل في الأوساج»[3]. قال لوسون: «أنا أعرف»، مضيفًا: «أريد أن أكون صريحًا وأبرّىء ذمتي».

في سلسلة من المقابلات، أوضح لوسون أنه في العام 1918، بدأ العمل مساعدًا في مزرعة لبيل سميث. وعرف هيل وابنيّ أخته إرنست وبرايان بوركهارت في خلال فترة إقامته هناك. في بيانٍ مُوقّع، قال لوسون،: «في العام 1921 اكتشفت علاقة حميمة تجمع بين زوجتي وسميث، ما أدّى إلى تفتيت أسرتي وتركي العمل عند سميث». علم

إرنست بكراهية لوسون لسميث. وبعد أكثر من عام زاره. تذكّر لوسون أنّ إرنست: «التفت إليّ وقال: 'بيرت، لديّ اقتراح لك'. قلت: 'ما هو، يا إرنست؟'. قال إرنست: 'أريدك أن تُفجّر بيل سميث وزوجته تقتلهما'».

لم يوافق لوسون على القيام بذلك، فجاء هيل لرؤيته ووعده بدفع 5000 دولار نقدًا لإنجاز المَهمّة. أخبره هيل بأنه يستطيع استخدام النتروغليسرين، وأنّ كلّ ما كان عليه فعله هو وضع فتيل تحت منزل سميث. ويتذكّر لوسون: «من ثمّ أخرج هيل من جيبه، قطعة من فتيل أبيض طولها حوالى ثلاثة أقدام وقال: 'سوف أريك كيفية استخدامها'. ومن ثمّ أخذ سكّين جيب وقطع قطعة طولها حوالى ست بوصات ومن ثمّ أخذ كبريتة من جيبه وأشعلها».

رفض لوسون في البداية، ولكن بعد فترة وجيزة من اعتقاله لقتله الصيّاد، زاره هيل مرّةً أخرى بصفته نائب عمدة احتياطي، كان بإمكانه الدخول إلى السجن والخروج منه كما شاء، وقال: «بيرت، ستحتاج إلى بعض المحامين قريبًا جدًّا، وأنا أعلم أنه ليس لديك أيّ أموال تدفعها لهم، وأنا أريد أن يُنَفّذ هذا العمل». فردّ لوسون: «حسنًا يا بيل، سوف أنفّذه»[4].

يتذكّر لوسون أنّ نائب عمدة آخر فتح باب زنزانته، ذات ليلة بعد فترة ليست بطويلة، وقاده إلى هيل الذي كان موجودًا في سيّارة في الخارج. قاد هيل لوسون إلى مبنى في فيرفاكس، حيث كان إرنست بانتظارهم. طلب هيل من إرنست أن يجلب «الصندوق»، وأخرج إرنست حاوية خشبية. كان في داخلها إبريق مليء بالنيتروغليسرين مرفق بفتيل ملفوف طويل. بعد تحميل الصندوق بعناية إلى السيّارة، شقَّ الثلاثة طريقهم إلى منزل سميث. قال لوسون: «خرجت وأخذت الصندوق والفتيل، وذهب هيل وإرنست في طريقهما. ومن ثم ذهبت في الطريق الخلفي لقبو سميث، ووضعت الصندوق في الزاوية البعيدة من القبو، وضعت الفتيل كما أخبرني هيل... ومن ثمّ جلست في الظلام وانتظرت». وتابع لوسون: «كان البيت مُضاءً، وظننْتُ أنهما خلعا ملابسهما وذهبا إلى الفراش، لأنه سرعان ما انطفأت الأضواء. جلست هناك لفترة طويلة، ولم يكن لدي أيّ طريقة لأحدّد الوقت، لكنني كنت أعتقد أنها كانت حوالى الثالثة والربع صباحًا، وبعد أن

اعتقدت أنهما خلدا إلى النوم، أضأتُ قطعة قصيرة من الفتيل، وبمجرّد أن بدأ الطرف الطويل بالاشتعال، ركضت بأقصى سرعتي إلى خارج المنزل». أقلّه هيل وإرنست من مكان قريب وأعاداه إلى السجن، حيث أدخله نائب العمدة الآخر إلى زنزانته. قبل أن يغادر هيل، حذّر لوسون قائلًا: «إذا نطقت بكلمة واحدة لأحد، سنقتلك».

شعر وايت والعميل سميث باندفاع من الإثارة، فقد كان لديه أسئلة كثيرة، مثل أنّ لوسون لم يذكر تورّط كيربي، صانع المتفجرات. لكن كان بإمكان كيربي تحضير القنبلة لهيل من دون التعامل مباشرةً مع لوسون. سيحتاج وايت إلى ربط هذه الأطراف المبعثرة، لكن أخيرًا ظهر شاهدٌ يستطيع توريط هيل مباشرةً في المؤامرة.

في 24 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1925، بعد ثلاثة أشهر من تولّي وايت القضية، أرسل إلى هوفر برقية، وهو غير قادر على إخفاء شعوره بالانتصار: «حصلت على اعتراف من بيرت لوسون بأنّه هو من وضع المتفجّرات التي فجّرت منزل بيل سميث، وبأن إرنست بوركهارت ودبليو ك. هيل هما اللذان أقنعاه ودفعاه وساعداه للقيام بذلك»[5].

كان هوفر مبتهجًا من الأخبار الواردة عبر البرقية، وأرسل على عَجَلٍ رسالةً إلى وايت: «تهانينا»[6].

عمل وايت ورجاله لتأكيد التفاصيل في اعتراف لوسون، وشعروا بالحاجة الملحّة والمتزايدة للحصول على هيل وابنيّ أخته ووضعهم في السجن. المحامي والوصيّ كومستوك الذي لم يعد وايت يشكّ في أنه كان بالفعل يُساعد المحقّقين من خلال إقناع الشهود بالحديث، بدأ في تلقّي تهديدات بالقتل. كان ينام الآن في مكتبه، في وسط مدينة پوهوسكا، مع مسدّسه (بولدوغ إنكليزي) عيار 0.44 بجانبه. قال أحد الأقارب: «ذات مرّة عندما ذهب لفتح النافذة، وجد أصابع الديناميت خلف الستارة». كان قادرًا على التخلّص منها. وأضاف: «كان هيل وجماعته مصمّمين على قتله»[7].

كان وايت أيضًا قلقًا جدًّا بشأن مصير مولي بوركهارت على الرغم من أنّ وايت تلقّى تقارير تُفيد بأنها مريضة سكّري، إلا أنّ الأمر كان مشبوهًا. رتّب هيل بنجاح ضحاياه، الجثّة تلو الأخرى، لكي ترث مولي غالبية ثروة أفراد أسرتها. لكن المؤامرة

بدت غير مكتملة. يريد هيل الوصول إلى ثروة مولي من خلال إرنست، لكنّ ابن أخته لا يستطيع التحكّم في الثروة بشكلٍ مباشر، ولن يفعل ذلك إلّا إذا ماتت مولي وورثها. أخبرت إحدى الخادمات في منزل مولي أحد العملاء، في تلك الليلة أنّ إرنست تمتم لها وهو في حالة سكر بأنه يخشى أن يحدث شيء لمولي. حتى إرنست بدا مرعوبًا من الخاتمة الحتمية للخطّة.

تحدّث مؤخّرًا جون رين، عميل من يوتي، إلى كاهن مولي الذي قال: إنها «توقّفت عن القدوم إلى الكنيسة، وإنّ هذا ليس من طبيعتها، وإنه سمع بأنها أُبعدت بالقوّة من أفراد الأسرة». كان الكاهن قلقًا على مولي بما فيه الكفاية ليقبل مخالفة مبدأ السرّية لأبناء الرعيّة. بعد فترة وجيزة، أفاد الكاهن أنه تلقّى رسالةً سرّيةً من مولي، تفيد أنها كانت تخشى من أنّ أحدهم يُحاول تسميمها، خاصةً أنّ الويسكي المسموم كان أحد الأساليب المفضّلة لدى القتلة. أرسل الكاهن كلمة تحذير لمولي مفادها «ألّا تشرب أيّ نوع من الخمور وتحت أيّ ظرفٍ من الظروف»[8].

ولكن يبدو أنّ مرض السكّري، قدّم مزيدًا من الطرائق الملتوية لإيصال السمّ إلى جسدها، عن طريق بعض أطباء البلدة، بما في ذلك الأخوان شون، حيث أُعطيت ما كان من المفترض أن يكون أنسولين، ولكن بدلًا من أن تتحسّن، بدأت مولي تزداد سوءًا. كان المسؤولون الحكوميون العاملون في مكتب الشؤون الهندية قلقين أيضًا من تسمّم مولي ببطء. وأشار مسؤول في وزارة العدل إلى أنّ «مرضها مريب للغاية، على أقلّ تقدير»[9]. واستطرد المسؤول: «كان الأمر عاجلًا، لنقل هذه المريضة إلى مستشفى مرموق لتشخيصها وعلاجها من دون تدخّل من زوجها».

بحلول نهاية كانون الأول/ديسمبر من العام 1925، شعر وايت بأنه لم يعد بإمكانه الانتظار. لم ينتهِ من تأكيد كل التفاصيل في اعتراف لوسون، وبقيت بعض التناقضات. بعد أن ذكر لوسون، كيربي، أصرّ على أنّ هيل كان موجودًا في فيرفاكس وقت الانفجار وليس في فورت ورث مع غرامر، كما ادّعى بعض الشهود. ومع ذلك، هرع وايت للحصول على مذكّرات توقيف بحقّ هيل وإرنست بوركهارت عن جرائم قتل بيل وريتا سميث وخادمتهما نيتي في بروكشاير. صدرت المذكّرات في 4 كانون الثاني/يناير من العام

1926، ونظرًا لأنّ العملاء لم يتمكّنوا من إجراء اعتقالات، فقد انتشروا مع حرّاس وغيرهم من رجال الأمن، بما في ذلك العمدة فرياس الذي بعد طرده من منصبه، أُعيد انتخابه لهذا المنصب.

قام عدد من رجال القانون سريعًا بتحديد موقع إرنست بوركهارت في حانة سيئة السمعة مفضّلة لديه فيها قاعة بلياردو في فيرفاكس، ونقلوه إلى سجن غوثري، على بُعد ثمانين ميلًا جنوب غرب پوهوسكا. هيل على الرغم من ذلك لم يجده أحدٌ. علم العميل رين، أنه طلب بدلة جديدة من الملابس، وقال إنه: «يُخطّط لمغادرة المدينة في أيّ لحظة». خشيت السلطات من أن يكون هيل قد اختفى نهائيًّا، عندما مشى فجأة إلى مكتب العمدة فرياس، بدا وكأنه متّجهٌ إلى حفلة رسمية، كان يرتدي بدلة مكويّة بإتقان، وينتعل حذاءً مصقولًا إلى درجة اللمعان، وقبّعةً من اللبّاد، ومعطفًا بدبّوس لمحفله الماسوني مرصعًا بالماس مثبتًا على طيّة صدر السترة، وقال: «لقد علمت أنني مطلوب للعدالة»[10]، موضحًا أنه كان هناك لتسليم نفسه، ولا داعي لاستدعاء رجال الأمن. عندما تمّ نقله إلى السجن في غوثري واجهه مراسلٌ محلي. كانت عيون هيل العميقة مثل النار، ووصفه المراسل بأنه «مثل حيوان مقيّد»[11].

سأله المراسل: «هل لديك تصريح لتدلي به؟».

سأل هيل: «من أنت؟» وهو لم يتعوّد مسبقًا على الاستجواب.

- صحافي.

- لن أترافع عن نفسي في الصحف، ولكن في محاكم هذه المقاطعة.

على أمل أن يتحدّث هيل على الأقلّ عن نفسه، سأل المراسل: «كم عمرك؟».

- عمري إحدى وخمسون سنة.

- منذ متى وأنت في أوكلاهوما.

- منذ خمس وعشرين سنة، أكثر أو أقلّ.

- أنت معروف جيّدًا، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك.

- هل لديك عدد كبير من الأصدقاء؟

- أتمنّى ذلك.

- ألا يرغبون في الحصول على تصريحٍ منك، حتى لو قلت فقط: أنا بريء؟

- سأترافع عن نفسي في المحاكم، وليس في الصحف، إنها ليلة باردة، أليس كذلك؟

- نعم. كيف هي تجارة الماشية هذا الموسم؟

- كانت متوسّطة.

- إنها رحلة طويلة من پوهوسكا، أليس كذلك؟

- نعم، ولكن لديَّ سيّارة فيها ستائر.

- هل بإمكانك أن تدلي بتصريح؟

ورفض هيل مرة أخرى.



هيل أمام سجن غوثري

إذا كان هيل غير مرتاح للحظات، فقد بدا واثقًا بحلول الوقت الذي كان فيه وايت يتحدّث إليه، وكان مغرورًا، ومقتنعًا بأنه لا يُمكن المساس به، وقد أصرّ على أنّ وايت ارتكب خطأً، وكأنّ وايت الذي كان في ورطة، وليس هو. شكّ وايت في أنّ هيل لن يعترف أبدًا بخطاياه، وبالتأكيد ليس للمحقّقين وربّما، ولا حتى للإله الذي كثيرًا ما يتضرّع إليه. شكّل إرنست بوركهارت الفرصة الوحيدة لانتزاع الاعتراف. ولاحظ وايت أنه: «بإمكانك النظر إليه ووصفه مثل الأخت الضعيفة والمسكينة»[12]. وأوضح مدّعٍ عام يعمل مع وايت الأمر بصراحة أكبر: «اخترنا جميعًا إرنست بوركهارت لأنه سينهار ويعترف أولًا»[13].

أُحضر بوركهارت إلى غرفة في الطابق الثالث من مبنى فدرالي في غوثري، كانت تُستخدم مؤقتًا كغرفة استجواب، وتسمّى الصندوق. كان ما يزال يرتدي الملابس نفسها عندما قُبض عليه، وقال وايت أنه «شاب مفتون بنفسه، أنيق بملابس الغرب الأميركي: حذاء رعاة البقر الباهظ الثمن، وقميص بألوانٍ صارخة ومبهرجة، وربطة عنقٍ برّاقة، وبدلة باهظة الثمن مفصّلة على مقاسه»[14]. كان يتحرّك بتوتّر ويلعق شفتيه باستمرار.

استجوبه وايت والعميل فرانك سميث. قال وايت: «نريد أن نتحدّث إليك عن مقتل عائلة بيل سميث وآنّا براون»[15]. أصرّ بوركهارت قائلًا: «اللعنةَ! لا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع». أوضح وايت أنهم تحدّثوا إلى رجلٍ يُدعى بيرت لوسون في السجن الذي قال كلامًا مختلفًا، قال إنّ: «بوركهارت يعرف كثيرًا عن جرائم القتل». لم يبدُ أنّ ذكر اسم لوسون يزعج بوركهارت الذي أصرّ على أنه لم يكن لديه أيّ تعاملات معه. قال وايت: «يقول إنك كنت رجل الاتّصال في إعداد انفجار منزل سميث».

أكّد بوركهارت بشكلٍ قاطعٍ: «إنه يكذب». استولى الشكّ على وايت، وهو شكٌّ ربّما كان كامنًا في مكان ما في داخله، ولكنّه قُمع. ماذا لو كان لوسون يكذب ولديه معلومات من الخارجين على القانون الآخرين في السجن الذين سمعوا شائعات عن القضية؟ ربّما كان لوسون يكذب أملًا في أنّ المدّعين سوف يخفّضون من فترة سجنه في مقابل شهادته. أو ربّما كان هيل هو المسؤول عن الاعتراف بكامله، وهو وسيلة أخرى من مؤامرة داخل مؤامرة. ما يزال وايت لا يعرف تحديدًا ما يصدّق. ولكن إذا كان لوسون

يكذب من أجل أيّ شيء، فإن الحصول على اعتراف من بوركهارت أكثر أهمية؛ وإلّا فإنّ القضية ستنهار.

لساعات في الصندوق الحار والخانق، راجع وايت وسميث الأدلّة الظرفية التي جمعوها عن كلّ من جرائم القتل، في محاولة للإيقاع ببوركهارت. لاحظ وايت بعض عناصر الندم على وجهه، كأنه يريد تخليص نفسه من العبء، لحماية زوجته وأطفاله. ومع ذلك، كلّما ذكر وايت أو سميث اسم هيل، تصلّب في كرسيه. يبدو أنه يخاف من خاله أكثر ممّا كان يخاف من القانون. قال وايت: «نصيحتي لك هي أن تخبرنا بكل شيء».

قال بوركهارت: «ليس هناك ما يُقال».

بعد منتصف الليل، استسلم وايت وسميث وأعادا بوركهارت إلى زنزانته. بحلول اليوم التالي، واجهت قضيّة وايت مزيدًا من المتاعب. أعلن هيل أنه يمكن أن يثبت بشكل قاطع أنه كان في تكساس وقت الانفجار، لأنه قد تلقّى برقية هناك ووقّع عليها. إذا كان هذا صحيحًا - وكان وايت يميل إلى الاعتقاد بأنه صحيح - فهذا يعني أنّ لوسون بالفعل كان يكذب طوال الوقت.

يئس وايت من إثبات التهمة على هيل، فارتكب الخطيئة المطلقة وصدّق رجل الأدلّة، على الرغم من التناقضات الظاهرة، لكنه أراد أن يصدّق شهادته. عرف وايت أنه لم يكن لديه سوى ساعات قبل أن يؤكّد محامو هيل سجلّ هذه البرقية ويخرجوه، ومعه بوركهارت، ساعات فقط قبل انتشار الخبر عن أنّ المكتب قد أذلّ نفسه، والخبر سيصل بعد ذلك إلى هوفر. قال أحد مساعدي هوفر عنه: «إذا لم يكن يُحبّك، فأنت هالكٌ»[16]. قام محامو هيل على الفور بتسريب الخبر إلى مراسلٍ لنشر قصّة حول حجّة غياب هيل «المثالية»، «إنه ليس خائفًا»[17].

استدار وايت يائسًا نحو الرجل الذي أحرج هوفر، وأصبح منبوذًا في أعين المحقّقين، بلاكي طومسون، الخارج على القانون والذي نصفه من الشيروكي. في أثناء تحقيق المكتب، أُطلق سراحه من السجن كمخبر، فقط ليخرج ويرتكب جريمة، وهي قتل ضابط شرطة. منذ أن قُبِض عليه حُبِس في سجن الدولة، وهي آفة على المكتب يفضّل أن تظلّ غير مرئية.

ومع ذلك، من التقارير المبكرة للمكتب حول القضية، اشتبه وايت في أنّ بلاكي قد يكون لديه معلومات أساسية حول جرائم القتل. وبدون استشارة هوفر، نقله وايت إلى غوثري. إذا حصل أيّ خطأ مثلًا، إذا هرب بلاكي أو أصاب شخصًا بأذى، قد تنتهي مسيرة وايت بالكامل. وتأكّد وايت من أنّ لوثر بيشوب - رجل القانون الذي أطلق النار على آل سبنسر - كان مسؤولًا عن نقل بلاكي. عندما وصل بلاكي إلى المبنى الفدرالي، كان مقيّدًا بالسلاسل ويحيط به جيش صغير. كان وايت قد وضع على سطح قريب قناصًا أبقى بلاكي في منظاره، يرصده من خلال نافذة.



الخارج على القانون بلاكي طومسون

كان بلاكي ما يزال عدائيًا، متجهّمًا، لئيمًا، ولكن عندما سأله وايت عن دور هيل وبوركهارت في جرائم قتل الأوساج، بدا أنّ مزاجه قد تغيّر. رجل مليء بالسمّ والتعصّب. اشتكى ذات مرّة من هيل وإرنست بوركهارت، وقال: «يهوديان أكثر من اللازم؛ يريدان كلّ شيء مقابل لا شيء»[18].

أخبر بلاكي[19] العملاء أنهم لا يستطيعون إبرام صفقة معه لتخفيف عقوبته، وتحدّث على مضض في البداية عن جرائم القتل، لكنه أفشى تدريجًا مزيدًا من المعلومات. قال إنه ذات مرّة اقترب بوركهارت وهيل منه ومن رفيقه القديم كيرلي جونسون وطلبا منهما قتل بيل وريتا سميث». وكجزء من الدفع، اقترح الرجلان أن يسرق بلاكي سيّارة بوركهارت. وذات ليلة بينما كان بوركهارت في المنزل مع مولي، سرق بلاكي سيّارتهما من المرأب. تمّ القبض على بلاكي في وقت لاحق بتهمة سرقة السيّارات ولم ينفّذ أيًّا من عمليات القتل.

لم يكن واضحًا إن كان بلاكي سيوافق على الإدلاء بشهادته أمام المحكمة في هذه

الأمور أم لا، لكنّ وايت كان يأمل في أن تكون لديه معلومات كافية لينقذ القضية من الانهيار. تُرك بلاكي محاطًا بالحراس وذهب مع العميل سميث لاستجواب بوركهارت مرّةً أُخرى. بالعودة إلى «الصندوق»، قال وايت لبوركهارت: «لسنا راضين عن الإجابات التي قدّمتها لنا الليلة الماضية. نعتقد أنّ هناك أمورًا كثيرة لم تخبرنا عنها». قال بوركهارت: «كل ما أعرفه هو الحديث الشائع».

لعب وايت والعميل سميث بطاقتهما الأخيرة، قالا لبوركهارت إنّ لديهما شاهدًا آخر سيشهد بتورّطه في مخطّط قتل بيل وريتا سميث. علم بوركهارت علم أنه تعرّض للخداع مرّة واحدة، قال إنه لا يصدّقهما. فقال العميل سميث: «حسنًا، بإمكاني الذهاب لإحضاره إلى هنا إذا كنت لا تعتقد أننا قد أحضرناه بالفعل».

قال بوركهارت: «أحضره»، ذهب وايت وسميث وأحضرا بلاكي ورافقاه إلى الغرفة، بينما أبقى القنّاص على السطح بلاكي في مرماه عبر النافذة. جلس الخارج على القانون على الجانب الآخر من بوركهارت الذي بدا مذهولًا.

التفت العميل سميث إلى بلاكي، وقال:

- بلاكي، هلّا أخبرتني... الحقيقة في ما يتعلّق بالمقترحات التي قدّمها إرنست بوركهارت لك؟

- نعم سيدي.

- لقتل بيل سميث؟.

- نعم سيدي.

- هل أخبرتني بالحقيقة عندما قلت لي إنّ إرنست أعطاك سيّارة كجزء من مدفوعات تلك المهمّة؟

- نعم سيدي.

من الواضح أنّ بلاكي كان يستمتع بنفسه، فنظر إلى بوركهارت وقال: «إرنست، لقد أخبرتهم بكل شيء».

بدا بوركهارت مهزومًا. بعد أن أُخِذ بلاكي إلى زنزانته اعتقد وايت أنّ بوركهارت مستعدّ للاعتراف على هيل، ولكن في كلّ مرّة يوشك بوركهارت أن يعترف، يتراجع عن

ذلك. حوالى منتصف الليل، غادر وايت وترك بوركهارت في عهدة العملاء الآخرين وعاد إلى غرفته في الفندق. لم يكن هناك مزيد من الحيل؛ كان منهكًا ويائسًا فانهار على سريره ونام.

بعد فترة وجيزة، استيقظ وايت على صوت جرس الهاتف، خائفًا من احتمال حدوث خطأ آخر، إطلاق سراح بلاكي طومسون. التقط السمّاعة وسمع الصوت العاجل لأحد عملائه: «بوركهارت جاهز ليروي قصّته، لكنه لن يُعطيها لنا. يقول أنه يجب أن تكون أنت موجودًا».

عندما دخل وايت الصندوق، وجد بوركهارت متراجعًا في مقعده، متعبًا ومستسلمًا. أخبر بوركهارت وايت أنه لم يقتل كلّ هؤلاء الناس، لكنه كان يعرف من فعل ذلك. قال: «أريد أن أقول كلّ شي».

ذكّر وايت بوركهارت بحقوقه، ووقّع الورقة التي قالت: «بعد أن حذّروني من ذلك، ومن دون وعود قُدّمت لي بالحصانة من الملاحقة القضائية، وبكامل إرادتي الحرّة وموافقتي، أُدلي الآن بالشهادة التالية»[20]. بدأ بوركهارت يتحدّث عن ويليام هيل، وكيف كان يعشقه، وكيف قام بجميع أنواع الأعمال من أجله، وكيف كان دائمًا يتّبع أوامره؛ «لقد اعتمدت على حكم خالي بيل»[21]. قال بوركهارت «إنّ هيل كان متآمرًا، وعلى الرغم من أنه لم يكن مطّلعًا على جميع آليات مؤامرات هيل، فقد أطلعه على تفاصيل خطّة قاتلة، قتل ريتا وبيل سميث»[22]. قال بوركهارت «إنه احتجّ عندما أبلغه هيل بنيته تفجير المنزل بالكامل، وكل من فيه بما في ذلك قريبته». قال له هيل: «لماذا تهتمّ؟ سوف تحصل زوجتك على المال».

قال بوركهارت إنه سار مع خطّة هيل، كما كان يفعل دائمًا. اقترب هيل أوّلًا من الخارجين على القانون؛ بلاكي طومسون وكيرلي جونسون، للقيام بإراقة الدماء. في بيانٍ لاحق، يتذكّر بوركهارت: «أخبرني هيل أنه رأى كيرلي جونسون لمعرفة مدى قوّته، وإن كان يريد بعض المال، وقال لي إنه أخبر جونسون بأنّ المهمّة كانت أن يقتل الأبيض المُسْتَهْنِد (في إشارة إلى بيل سميث). لم يستطع جونسون وبلاكي تنفيذ المهمّة، فبحث هيل عن آل سبنسر. وبعد أن رفض سبنسر، تحدّث هيل إلى المهرب ونجم مسابقات

رعاة البقر هنري غرامر الذي وعده بتأمين رجل ينفّذ المهمّة. قبل أيّام قليلة من حدوث الانفجار، قال غرامر لهيل: «آيسي سيفعل ذلك». يتذكّر بوركهارت: «هذا ما قاله لي هيل»[23].

قال بوركهارت: «لوسون لا علاقة له بالانفجار»، موضحًا: «لقد حصلت على الشخص الخطأ»[24]. في وقتٍ لاحقٍ، اعترف لوسون لوايت: «كل تلك القصّة التي أخبرتها كانت كذبة، كلّ ما سمعته عن تفجير سميث كان فقط ما سمعته في السجن... لقد أخطأت وكذبت»[25].

في الواقع، أشار بوركهارت إلى أنّ هيل ذهب مع غرامر إلى فورت ورث، حتى يكون لديهما حجّة غياب. قبل المغادرة، طلب هيل من بوركهارت أن يُسلّم رسالة إلى جون رامسي، لصّ البقر والمهرّب الذي عمل مع هنري غرامر. كانت الرسالة أن يخبر رامسي كيربي بأنّ وقت تنفيذ المهمّة قد حان. سلّم بوركهارت الرسالة، وكان في المنزل مع مولي ليلة الانفجار. وتذكّر: «عندما حدث الانفجار، كنت في السرير مع زوجتي، رأيت ضوءًا على الجانب الشمالي، وذهبت زوجتي إلى النافذة ونظرت إلى الخارج. قالت إنها تعتقد أنّ منزل شخص ما، يحترق. وحين قالت ذلك، عرفت من كان»[26].

قدّم بوركهارت أيضًا تفاصيل مهمّة عن كيفية ترتيب هيل قتل روان من أجل أموال التأمين. قال بوركهارت: «وأنا أعلم من الذي قتل هنري روان»[27]. وقد أشار إلى رامسي - لصّ البقر - على أنه القاتل المحترِف. وإذ انفتحت القضيّة على مصراعيها، أجرى وايت مكالمة مع العميل رين الذي كان في الميدان. وأخبره وايت: «هناك مشتبه به اسمه جون رامسي، أودعه السجن حالًا»[28]. قُبض على رامسي وأُحضر إلى «الصندوق». كان يرتدي لباس الورشة، فوق جسمه الطويل الرفيع؛ كان شعره الأسود دهنيًا، ويمشي بعرج طفيف. قال أحد المراسلين إنه: «رجلٌ عصبيّ، وربما خطير»[29].

وبحسب روايات وايت وعملاء آخرين، فقد نظر إلى العملاء بحذر، مصرًّا على أنه لا يعرف شيئًا، ومن ثمّ وضع وايت شهادة بوركهارت الموقّعة أمام رامسي الذي حدّق إلى الورقة، وكأنه يحاول تقييم صحّتها. تمامًا كما فعل وايت وسميث عندما أحضرا بلاكي لبوركهارت، فقد أحضرا الآن بوركهارت للتأكيد على صحة شهادته لرامسي. وعند

رؤيته إرنست، رفع رامسي يديه وقال: «أعتقد أنه ألقى الجريمة بالكامل عليَّ. أحضروا أقلامكم وأوراقكم»[30].

ووفق شهادته التي أدلى بها تحت القسم إضافة إلى شهادات أخرى، في وقت ما في أوائل العام 1923، أخبر غرامر، رامسي: أنّ «هيل لديه عمل بسيط يريده أن يفعله»[31]، قال غرامر، عندما سأل رامسي عما كان يريده هيل إنه: «بحاجة إلى قتل هندي». أشار رامسي إلى المؤامرة باعتبارها «حالة اللعبة»، وقد وافق في النهاية، وقام باستدراج روان إلى الوادي. وروى رامسي: «جلسنا على غطاء محرّك سيّارته وشربنا، ومن ثمّ ركب الهندي سيّارته ليغادر، فأُطلقت النار من خلفٍ على رأسه. أفترض أنني كنت على مسافة قدم أو قدمين منه عندما أُطلقت النار عليه. ومن ثمّ عدت إلى سيّارتي وتوجّهت إلى فيرفاكس».

لاحظ وايت الطريقة التي ظلّ بها رامسي يقول «الهندي» بدلًا من اسم روان. وقال رامسي وكأنه يبرّر جريمته: «لا يفكّر البيض في أوكلاهوما كثيرًا عند قتل هندي اليوم، أكثر ممّا فعلوا في العام 1724»[32].

ما زال لدى وايت أسئلة حول مقتل شقيقة مولي آنّا براون. ظلّ إرنست بوركهارت حذرًا بشأن دور شقيقه برايان. من الواضح أنه لا يريد توريطه، لكنه كشف هويّة الرجل الثالث الغامض الذي شُوهد مع آنّا قبل وقت قصير من وفاتها. كان شخصًا يعرفه العملاء جيّدًا: وهو كيلسي موريسون، مخبرهم المتخفّي الذي من المفترض أنه كان يعمل مع العملاء للكشف عن هويّة الرجل الثالث. لم يكن موريسون مجرّد عميل مزدوج نقل المعلومات إلى هيل وأتباعه، وقال إرنست إن موريسون هو الذي أطلق الرصاصة القاتلة على رأس آنّا براون.

بينما ذهبت السلطات للقبض على موريسون، تأكّد العملاء أيضًا من أنّ الطبيب قد ذهب لفحص مولي بوركهارت. بدت قريبة من الموت، وبناءً على أعراضها، كانت السلطات على يقين من أنّ شخصًا ما كان يسمّمها سرًّا وببطء حتى لا يُثير الشكوك. في تقريرٍ لاحقٍ، لاحظ عميل: «إنها حقيقة ثابتة، أنه عندما تمّ تخليصها من سيطرة

بوركهارت وهيل، استعادت على الفور صحتها»[33]. لم يعترف بوركهارت بأنه كان يعلم بأنّ مولي كانت تتسمّم. ربّما كانت هذه هي الخطيئة الوحيدة التي لم يستطع تحمّل الاعتراف بها، أو ربّما لم يثق هيل به لقتل زوجته.

أُحضِر الأخوان شون واستُجوبا حول ما كانا بالضبط يحقنان مولي به. سأل أحد المدّعين الذي كان يعمل مع وايت، جيمس شون: «ألم تحقنها بالأنسولين؟»[34].

قال: «ربّما».

نفد صبر المدّعي العام: «ألم تؤخذ منك إلى المستشفى في پوهوسكا؟ ألم تعالجها بالأنسولين؟».

قال شون إنه ربّما أخطأ في الكلام، مضيفًا: «لا أريد أن أبدو مُرْتبكًا، ولا أريد الوقوع في السوء».

سأل المدّعي العام مرّة أخرى عمّا إذا كان قد حقنها بالأنسولين.

- نعم، أعطيتها بعضًا منه.

- لماذا؟

- لأنها كانت مصابة بمرض السكّري.

- ولماذا ساءت حالتها؟

- لا أعرف.

- لقد ساءت حالتها لدرجة أنها نُقلت بعيدًا عنك إلى مستشفى في پوهوسكا، وتحسّنت على الفور تحت رعاية طبيب آخر.

نفى جيمس شون وأخوه ارتكاب أيّ مخالفة، ولم يستطع وايت إثبات من المسؤول عن التسمّم. عندما بدأت مولي تشعر بالتحسّن، استجوبتها السلطات. لم تكن مولي شخصًا يُحبّ أن يُنظر إليه على أنه الضحيّة، ولكن للمرّة الأولى اعترفت بأنها كانت خائفة ومربكة. في بعض الأحيان، اعتمدت على مترجم لمساعدتها في لغتها الإنكليزية، وهي اللغة التي يبدو أنها تنقل أسرارًا لا يمكن فهمها. وأوضح لها محامٍ يُساعد الادعاء: «كُلنا أصدقاؤك ونعمل من أجلك»[35]. أخبرها أنّ زوجها إرنست، اعترف بأنه يعرف شيئًا عن قضايا القتل والتي يبدو أنّ هيل قد هندسها، بما في ذلك انفجار منزل شقيقتها ريتا.

- بيل هيل وزوجك قريبان، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي.

سألها المحامي عمّا إذا كان هيل في منزلها في وقتٍ قريبٍ من الانفجار.

- لا، لم يكن هناك. كان زوجي وأولادي فقط في المنزل.

- لم يأتِ أحد إلى منزلكِ في تلك الليلة؟

- لا.

- هل كان زوجك في المنزل طوال المساء؟

- نعم، كلّ المساء.

سألها عمّا إذا كان إرنست قد أخبرها بأيّ شيء عن مؤامرة هيل. قالت: «لم يخبرني بأيّ شيء عنها». كلّ ما أرادته، على حدّ قولها، أن يُعاقب الرجال الذين فعلوا ذلك بعائلتها.

سأل المحامي: «لا يعنيك من قد يكونون؟».

قالت بإصرار: «لا»، لكنها لم تستطع، ولم تصدّق، أنّ إرنست كان متورّطًا في مثل هذه المؤامرة.

في وقتٍ لاحقٍ، نقل كاتب قولها: «زوجي رجلٌ طيب، لن يفعل أيّ شيء من هذا القبيل، ولن يؤذي أيّ شخص آخر، ولن يؤذيني أبدًا»[36].

الآن سألها المحامي: «هل تُحبين زوجك؟».

بعد لحظة قالت: «نعم».

بمجرّد أن تسلّح بتصريحات إرنست بوركهارت ورامسي، توجّه وايت والعميل سميث إلى هيل. جلس وايت بمقابل هذا الشخص ذي المظهر النبيل الذي كان مقتنعًا بأنه قتل جميع أفراد عائلة مولي تقريبًا، والذي قتل الشهود والمتآمرين أيضًا. واكتشف وايت تطوّرًا آخر مقلقًا؛ وفق عدة أشخاص مقرّبين من آنّا براون، كان هيل على علاقة مع آنّا وعلى ما يبدو أنه كان والد طفلها. وإذا كان هذا صحيحًا، فهذا يعني أنّ هيل قد قتل طفله الذي لم يُولد بعد.

حاول وايت احتواء المشاعر العنيفة في داخله عندما استقبله هيل هو والعميل سميث بالأدب نفسه الذي تظاهر به في أثناء القبض عليه. وصف بوركهارت هيل ذات مرّة بأنه: «من أفضل الرجال الذين تصادفهم حتى تكتشفه وتعرفه على حقيقته»[37]، مضيفًا: «بإمكانك التعرّف إليه وستقع في حبّه، وهذا ما كانت تفعله النساء، لكن كلّما طالت مدّة بقائك معه، سيستحوذ عليك ويهزمك بطريقة ما».

ولكنّ وايت لم يضِع الوقت، كما يتذكّر لاحقًا، فقد قال لهيل: «لدينا بيانات موقّعة لا جدال فيها، تُشير إلى تورّطك بصفتك العقل المدبّر في جرائم قتل عائلة هنري روان وسميث. لدينا الدليل لإدانتك»[38].

حتى بعد أن قام وايت بتفصيل الأدلّة الدامغة ضدهّ، بدا هيل غير منزعج، كما لو كان ما يزال هو المتحكّم ولديه السَطْوَة. أبلغ كيلسي موريسون العملاء في وقتٍ سابقٍ أنّ هيل متأكّد من أنّ «المال سيؤمن له الحماية أو التبرئة من أيّ جريمة في مقاطعة الأوساج»[39]. لم يستطع وايت توقّع المعركة القانونية المريرة والمثيرة التي كانت على وشك أن تنشأ، والتي ستتمّ مناقشتها في المحكمة العليا في الولايات المتحدة، وكادت أن تدمّر حياته المهنية. أملًا في ربط القضية بدقّة وبأسرع ما يمكن، حاول، للمرة الأخيرة، إقناع هيل بالاعتراف. قال وايت: «لا نعتقد أنك تريد تعريض [عائلتك] لمحاكمة طويلة مع كلّ شهاداتها الدنيئة وما سينتج عنها من عارٍ وخزي»[40].

حدّق هيل إلى وايت بحماسة مرحة، وقال: «سأحاربها»[41].

19 خائن لدمه

تأثّرت الأمّة بشدّة من فظاعة الجرائم والاعتقالات، وجاء في الصحافة: «من الواضح أنّ عصابة جيدة التنظيم، شيطانية في قساوتها، كانت قادرة على تدمير ورثة أراضي الأوساج الغنية بالنفط، بالرصاص والسمّ والقصف»[1]. وكتبت عن الجرائم التي كانت «مروّعة أكثر من أيام المعارك الحُدُودِيّة القديمة»[2]. كما كتبت عن جهود الحكومة الفدرالية لتقديم «ملك القتلة»[3] المزعوم إلى العدالة.

انشغل وايت بالقضايا المتعلّقة بروان وأفراد عائلة مولي بوركهارت، ولم يتمكّن، هو ورجاله، حتى الآن من ربط هيل بقضايا القتل الأربع والعشرين للأوساج، أو قضية قتل المحامي فوغان ورجل النفط ماكبرايد. ومع ذلك، تمكّن وايت وفريقه من إظهار كيف استفاد هيل من عمليتيّ قتل على الأقلّ. الأولى كانت التسمّم المشتبه به لجورج بيغهارت، الهندي الذي نقل المعلومات إلى فوغان قبل أن يموت. علم وايت من الشهود أنّ هيل شُوهد مع بيغهارت قبل نقله إلى المستشفى بقليل، وبعد وفاته قدّم هيل مطالبة بمبلغ 6000 دولار من أملاكه، وقدّم مذكّرة دائن مزوّرة. كشف إرنست بوركهارت أنّ هيل، قبل ملء الملاحظة، قد تدرّب على محاكاة خطّ بيغهارت. كما تورّط هيل في تسمّم واضح لجو بيتس، الهندي، في العام 1921.

بعد وفاة بيتس فجأة، والذي كان متزوّجًا ولديه ستّة أطفال، أظهر هيل وثيقة مريبة تثبت أن بيتس باعه الأرض. كتبت أرملة بيتس في وقتٍ لاحقٍ رسالة إلى مكتب الشؤون الهندية، قائلةً: «هيل أبقى زوجي مخمورًا لأكثر من عام، كان يأتي إلى المنزل ويطلب منه بيع أسهمه الموروثة في الأرض. كان جو يرفض دائمًا مهما تكن حالة سكره. لم أصدّق أنه باعه، لأنه كان يقول لي دائمًا: لن أبيع أسهمي، وظلّ على موقفه هذا حتى قبل أيّام قليلة من وفاته... حسنًا، حصل هيل على الأرض»[4].

على الرغم من وحشية الجرائم، لم يُخفِ كثير من البيض حماستهم للقصّة المريعة. عنونت جريدة رينو المسائية Reno Evening Gazette «الإثارة في مؤامرة القتل الهندية»[5]، وفي متن المقال كتبت: الغرب المتوحّش القديم ما يزال يعيش في

أرض الأوساج ويرتكب جرائم القتل بحقّهم[6]. وقد نشرت وكالة الأنباء نشرة على مستوى البلاد تُفيد بأنّ القصّة «مهما كانت محبطة، إلا أنها تتنفّس من رائحة الغرب الحدودي الرومانسي الشيطاني الذي كنّا نظنّ أنه انتهى. وهي قصّة رائعة أيضًا. من المدهش أنك في البداية تتساءل عن إمكانية أن يحدث هذا في أميركا الحديثة في القرن العشرين». وتمّ عرض فيلم إخباري عن جرائم القتل بعنوان «مأساة تلال الأوساج»[7] في دُور السينما. جاء في البطاقات الإعلانية التي توزّع باليد للعرض «التاريخ الحقيقي لسلسلة جرائم القتل الأكثر إرباكًا في تاريخ الجرائم»: «قصّة حبّ وكراهية جشع الرجال للذهب. بناءً على حقائق واقعية، كما أفشاها اعتراف بوركهارت الحسّاس والخطير».

وسط المشاعر الغامرة، ركّز الأوساج على التأكد من أنّ هيل والمتآمرين معه لن يجدوا طريقة للتلوّي والهرب من العدالة، كما يخشى كُثُر. قالت أرملة بيتس[8]: «نحن الهنود لا نستطيع الحصول على حقوقنا في هذه المحاكم، وليس لدي أيّ فرصة على الإطلاق لحماية هذه الأرض لأولادي». في 15 كانون الثاني/يناير 1926، قامت جمعية من هنود أوكلاهوما بإصدار قرارٍ جاء فيه:

أعضاء قبيلة الأوساج[9] من الهنود قُتلوا بسبب صكوك ممتلكاتهم...

حيث أنّ مرتكبي هذه الجرائم المزعومة يستحقّون مقاضاتهم بشدّة، وإذا أدينوا، يجب أن يحصلوا على أقصى عقوبة ممكنة بالقانون...

لذلك، توافق هذه الجمعية على الإشادة بجهود المسؤولين الفدراليين ومسؤولي الولاية، لاكتشاف المجرمين المذنبين بارتكاب هذه الجرائم الفظيعة ومحاكمتهم.

ومع ذلك، عرف وايت أنّ المؤسسات القضائية الأميركية، مثلها مثل المؤسسات الأمنية يتغلغل فيها الفساد؛ حيث أن كثيرًا من المحامين والقضاة يقبلون الرشوة، وهيئة المحلّفين يتمّ التلاعب بها، ويتمّ إجبار الشهود على الإدلاء بشهادات زور. حتى كلارنس دارو، المدافع العظيم عن المضطهدين، اتُّهم بمحاولة رشوة المحلّفين المرتقبين. ذكر محرّر في لوس أنجلوس تايمز أنّ دارو أخبره ذات مرّة، أنك: «عندما تواجه مجموعة من المحتالين، سيكون عليك أن تلعب لعبتهم. ولمَ لا أفعل ذلك؟»[10]. كان لهيل تأثير هائل على المؤسسات القانونية الهشّة في أوكلاهوما. ولاحظ مراسل زار المنطقة أن «سكان المدينة، من الصغير إلى الكبير، يخافون ويحبسون أنفاسهم عندما يتحدّثون عنه. كان تأثيره ونفوذ شركائه ظاهريْن في كلّ مكان»[11].

بسبب سلطة هيل، حذّر المدّعي الفدرالي من أن محاكمة هيل بحسب النظام القانوني للولاية «ليست عديمة الجدوى فحسب، بل خطيرة بكلّ تأكيد»[12]. لكن، وكما هي الحال مع عدد من الجرائم ضد هنود أميركا، يبقى السؤال المحيّر: أيّ كيان حكومي يملك سلطة قضائية على جرائم قتل الأوساج؟ إذا وقعت جريمة قتل على الأراضي الهندية، فيمكن للسلطات الفدرالية أن تدّعي الصَلاحِيّة، ومع ذلك، فإن كثيرًا من أراضي الأوساج، ومن الأراضي التي وقعت جرائم القتل فيها، بما في ذلك جريمة قتل آنّا براون، لم تعد تحت سيطرة القبيلة. وخلص مسؤولو وزارة العدل إلى أنّ هذه القضايا يمكن الحكم فيها فقط في مَحاكم الولاية.

ومع ذلك، وبينما كان المسؤولون يرتّبون الأدلة في جرائم القتل، اعتقدوا أنهم وجدوا استثناءً واحدًا. قُتل هنري روان على أرض للأوساج لم تُبع للبيض. علاوة على ذلك، فإنّ مالك العقار من الأوساج تحت الوصاية، ويُعتبر موصى عليه من الحكومة الاتحادية. قرّر المدّعون العاملون مع وايت المضي قُدمًا في هذه القضيّة أوّلًا، واتّهم هيل ورامسي بقتل روان، في المحكمة الفدرالية، وواجها عقوبة الإعدام.



المدّعي العام روي سانت لويس يستعرض ملفات قضية قتل الأوساج الضخمة

كان فريق الادعاء هائلًا، حيث تضمّن اثنين من كبار المسؤولين في وزارة العدل، بالإضافة إلى محامٍ أميركي شاب عُيّن حديثًا يُدعى روي سانت لويس، ومحامٍ محليٍّ يُدعى جون ليهي متزوّجٍ من امرأة من الأوساج. وهؤلاء تمّ تعيينهم من مجلس القبائل للمساعدة في مختلف المحاكمات.

دافعت عن هيل مجموعته الخاصّة من المحامين، كان بعضهم من «أقدر المواهب القانونية في أوكلاهوما»[13]، على حد تعبير إحدى الصحف، ومن بينهم سارجنت برينتيس فريلينغ، المدّعي العام السابق في أوكلاهوما والمدافع القوي عن حقوق الولايات، والذي كان يتنقل في كثير من الأحيان في المنطقة لإلقاء محاضرة بعنوان «محاكمة يسوع المسيح من وجهة نظر المحامي»، محذرًا: «عندما يسْتَرْسَل الرجل ذو الطبيعة الشريرة، إلى أقصى قدرته في النذالة، ويذهب إلى أبعد ما تسمح به طبيعته الحقيرة، يوظّف محاميًا سيئ السمعة لمساعدته»[14]. للدفاع عن جون رامسي، مطلق النار المزعوم على روان، عيّن هيل محاميًا اسمه جيم سبرينغر الذي كان معروفًا باسم المصلح. وبموجب مشورة سبرينغر، سرعان ما تراجع رامسي عن اعترافه، وأصرّ على ما يلي: «لم أقتل أيّ شخصٍ على الإطلاق»[15]، أخبر إرنست بوركهارت، وايت أنّ هيل أكّد في وقتٍ سابقٍ لرامسي أنه: «لا داعي للقلق، لأنّ هيل موجود في كلّ مكان في داخل أجهزة الدولة. وأنه اهتمّ بكل التفاصيل، من أصغر عامل للصيانة وصولًا إلى الحاكم نفسه»[16].

بعد فترة وجيزة من بدء إجراءات هيئة المحلّفين الكبرى في أوائل كانون الثاني/ يناير، اتُّهم أحد أصدقاء هيل المقرّبين - قس - بالإدلاء بشهادة زور على المنصّة، وفي مجال آخر، تمّ القبض عليه لمحاولة تسميم أحد الشهود. مع اقتراب المحاكمة، بدأ المخبرون الخاصّون في تتبّع الشهود، وحتى حاولوا إخفاءهم. وضع المكتب وصفًا لمحقّق خاص يخشى العملاء أنه ربّما تمّ توظيفه كقاتل[17]: «وجه طويل.... بدلة رمادية وقبّعة فيدورا، أسنان من ذهب... له سمعة بأنه ماكر للغاية ومُخادِع»[18].

تمّ التعاقد مع مسلّح آخر لاغتيال الزوجة السابقة لكيلسي موريسون، كاثرين كول وهي امرأة من الأوساج ووافقت على أن تشهد لصالح الادّعاء. يتذكّر المسلّح في وقتٍ لاحقٍ: «قال كيلسي أنه يريد إجراء بعض الترتيبات للتخلّص من كاثرين، زوجته، لأنها كانت تعرف كثيرًا عن صفقة قتل آنّا براون. وقال إنه سيعطيني ملاحظة لأعطيها إلى بيل هيل، وإنّ هيل سيهتم بالترتيبات»[19]. دفع هيل للمسلّح وقال له: «اجعلها تثمل وتخلّص منها»[20]، ولكن في اللحظة الأخيرة لم يستطع المسلّح قتلها لأنه قُبض عليه بتهمة السطو، ولكنه أخبر السلطات عن المؤامرة. ومع ذلك، ما زالت المؤامرات مستمرّة.

أمر وايت رجاله بالعمل في أزواج من أجل الحفاظ على أمنهم الذاتي، بعد أن تلقّى معلومات تُفيد بأنّ عضوًا سابقًا في عصابة آل سبنسر ظهر في پوهوسكا لقتل العملاء الفدراليين. أخبر وايت العميل سميث: «من الأفضل أن نقطع عليه الطريق من البداية»[21]. متسلّحين بمسدساتهم من عيار 45، واجهوا الرجل في المنزل الذي كان يقيم فيه. وقال وايت: «سمعنا أنك هدّدت بطردنا من المدينة». قدّر الخارج على القانون المعركة مع العملاء، فتراجع وقال: «أنا مجرّد صديق لبيل هيل، وحدث أنني في زيارة إلى المدينة. هذا كلّ شيء».

أخبر وايت هوفر لاحقًا: «قبل أن يستطيع هذا الرجل تنفيذ أيّ من أعماله القذرة غادر. وفهم أنه من الأفضل له مُغادرة المدينة إلى مكانٍ آخر»[22]. ولكنّ وايت كان قلقًا للغاية بشأن إرنست بوركهارت. أخبر هيل أحد الحلفاء لاحقًا أنّ بوركهارت هو الشاهد الوحيد الذي كان يخاف عليه. قال له هيل: «مهما تفعل، حاول الوصول إلى إرنست، وإلّا سوف يُقضى عليّ»[23].

في 20 كانون الثاني/يناير من العام 1926، كان بوركهارت مُحتجَزًا لدى الحكومة، ولم يُوجّه الاتهام له بعد، في انتظار معرفة كم ستكون مدّة عقوبته، خاصّةً بعد تعاونه مع الحكومة. قال لوايت إنّه كان على يقين من أنه سوف يُقتل[24]، ولكن وايت وعده: «سأمنحك، بكلّ ما أُوتيتُ من قوّة، كلّ الحماية التي تستطيع الحكومة توفيرها»[25].

رتّب وايت للعميل رين وعضو آخر من أفراد فريقه لتهريب بوركهارت بطريقة سرّية خارج الولاية وحراسته حتى وقت المحاكمة. لم يُسجّل العملاء بوركهارت مطلقًا في الفنادق باسمه الحقيقي، بل أشاروا إليه باسمٍ مستعارٍ وهو «إيه. جيه إرنست». أخبر وايت هوفر لاحقًا: «نعتقد أنّ من المحتمل أنهم سيحاولون قتل بوركهارت. بالطبع، يتمّ اتخاذ كل الاحتياطات لمنع مثل هذه الخطوة، ولكنّ هناك طرائق عدّة يمكن من خلالها القيام بذلك، ربّما يدسّ أصدقاء رامسي وهيل السمّ له»[26].

لم تعتقد مولي في غضون ذلك، أنّ إرنست كان «مذنبًا عن عمد»[27]، وعندما لم يعد إلى المنزل لعدّة أيّام خرجت عن صوابها وأصبحت كالمجنونة. دُمّرت عائلتها بأكملها، والآن بدا الأمر كما لو أنها فقدت زوجها أيضًا. محامٍ يُساعد في المقاضاة، سألها ما إذا كانت ستشعر بتحسّن إذا أخذها العملاء لرؤية إرنست، فقالت: «هذا كلّ ما أريده»[28].

بعد ذلك، التقى وايت مولي، ووعدها بأنّ إرنست سيعود قريبًا. حتى ذلك الحين، قال وايت إنه سوف يُؤمّن لها وسيلة للتواصل مع زوجها. بعد أن تلقّت مولي رسالة من إرنست تُفيد بأنه بأمان وبصحّة جيّدة، أجابت عن الرسالة: «زوجي العزيز، تلقّيت رسالتك هذا الصباح، وكنت سعيدة جدًا أنني اطمأننت عليك. نحن كلّنا بخير، وإليزابيث ستعود إلى المدرسة»[29]. لاحظت مولي أنها لم تعد مريضة جدًا. قالت: «أشعر بتحسّن الآن». وكأنها كانت تتمسّك بوهم أنهما ما زالا زوجين سعيدين. واختتمت: «حسنًا إرنست يجب أن أختم رسالتي القصيرة، على أمل أن أسمع منك قريبًا، وداعًا. زوجتك مولي بوركهارت».

في الأوّل من آذار/مارس 1926، تلقّى وايت والادعاء انتكاسة مدمّرة. وافق القاضي على طلب الدفاع نقل المحاكمة. فعلى الرغم من أنّ مقتل روان قد وقع على أحد الأراضي المخصّصة للأوساج، لم يكن هذا مساويًا للأراضي القبلية. لذلك لا يمكن الفصل في القضيّة إلّا في محكمة الولاية. استأنف المدّعون القرار أمام المحكمة العليا الأميركية، لكنّ الحكم لم يكن متوقّعًا أن يصدر قبل عدّة أشهر. لذا يجب الإفراج عن هيل ورامسي. وقد لاحظ أحد الكتاب: «يبدو أنّ محاميي بيل هيل - تمامًا مثل ما توقّع أصدقاؤه - استطاعوا كبح جماح الحكومة»[30].

احتفل هيل ورامسي في قاعة المحكمة بينما اقترب منهما العمدة فرياس. صافح هيل وقال له: «بيل، لديَّ مذكّرة توقيف بحقّك»[31]. كان وايت والمحامون العامّون قد عملوا مع المدّعي العام في أوكلاهوما لإبقاء هيل ورامسي خلف القضبان من خلال توجيه اتهامات رسمية ضدّهما بسبب جريمة الانفجار.

لم يكن أمام وايت والمدّعين العامّين أيّ خيار سوى الشروع في القضية في بوهوسكا، وهي مقرّ مقاطعة الأوساج ومعقل هيل. أخبر وايت، هوفر: «قلّة قليلة، وإن وجدت، تعتقد أننا نستطيع الحصول على هيئة المحلّفين في مقاطعة الأوساج لمحاكمة هؤلاء الأشخاص، لذلك سيتمّ اللجوء إلى الحيل وجميع أساليب الخداع»[32].

في جلسة استماع أوّلية في 12 آذار/مارس، كان رجال ونساء من الأوساج وكثير من أقارب الضحايا، موجودين في قاعة المحكمة ليشاهدوا المحاكمة، بينما وقفت زوجة هيل وابنته البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا وعدد من أنصاره الصاخبين خلف طاولة

الدفاع، وتدافع الصحافيون لإيجاد مكان فارغ. كتب مراسل من تولسا تريبيون Tulsa Tribune[33]: «نادرًا ما يحدث تجمّع مثل هذا الحشد في قاعة المحكمة. هنا سوف تجد رجال أعمال أنيقين، يتنافسون في القاعة على فسحات الوقوف مع عمال النفط الخَام، وستجد سيّدات مجتمع يجلسن، جنبًا إلى جنب، مع النساء الهنديات اللواتي يرتدين بطانيّات مبهرجة، وستجد رعاة البقر بقبّعات عريضة الحواف ورؤساء الأوساج يرتدون زيًّا مطرّزًا بالخرز، وتلميذات يندفعن على مقاعدهنَّ للأمام للاستماع إلى الشهادة. تجمّعت كل طبقات سكان أغنى بقعة في العالم - مملكة الأوساج - لرؤية دراما الدم والذهب». غامر مؤرخٌ محلّي في وقتٍ لاحقٍ بالقول: إنّ «محاكمات قتل الأوساج قد حظيت بتغطية إعلامية أكثر من تغطية «محاكمة القرد» العام الماضي في ولاية تينيسي بخصوص شرعية تدريس نظرية داروين للتطوّر في مدرسة تُموّلها الدولة».

بدأ كثير من الناس في المعرض يتحدّثون عن امرأة هندية تجلس على أحد المقاعد، هادئة ووحيدة. كانت مولي بوركهارت التي طُردت من العالمين اللذين حوصِرت بينهما. نبذها البيض الموالون لهيل، كما نبذها كثير من الأوساج لأنها السبب في جلب القتلة إليهم، وبقيت موالية لإرنست. صوّرها الصحافيون على أنها «أميركية هندية حمراء جاهلة»، وطاردتها الصحافة من أجل بيان، لكنها رفضت الإدلاء بأيِّ بيانٍ. في وقت لاحق، التقط أحد المراسلين صورة لوجهها وكانت رابطة الجأش؛ «صورة جديدة وحصرية لمولي بوركهارت»[34] وتمّ نشرها حول العالم.

اقتيد هيل ورامسي إلى قاعة المحكمة، وبينما بدا رامسي غير مبالٍ، عبّر هيل عن شكره لزوجته وابنته وأنصاره. وكتب مراسل في جريدة تريبيون Tribune: «هيل رجل ذو شخصية جذّابة، يتجمّع الأصدقاء حوله في كلّ استراحة للمحكمة، والرجال والنساء يحيّونه ويصرخون مبتهجين عند رؤيته»[35]. في السجن، قام هيل بتدوين هذه الأسطر من قصيدة كما يتذكرها:

«لا تحكم على أحد! قد تحجب غيومُ الذنب شهرةَ أخيك،

لأنّ القدر قد يُلقي بظلال الشكّ على الاسم الألمع»[36].

جلس وايت إلى طاولة الادّعاء. في لحظة، قال أحد محاميي هيل: «حَضْرَة القاضي، أُطالب بأن يُبعد من قاعة المحكمة رئيس مكتب التحقيقات الفدرالي في مدينة أوكلاهوما

السيد ت.ب وايت، وأن يُفتّش لمعرفة إن كان يحمل معه أسلحة نارية»[37]. أطلق أنصار هيل الصيحات وخبطوا بأقدامهم على الأرض. فوقف وايت، وفتح معطفه ليظهر أنه أعزل، وقال: «سوف أغادر إذا أمرت المحكمة بذلك». قال القاضي «لن يكون ضروريًا»، وجلس وايت وصمت الحشد. استمرّت جلسة الاستماع بهدوء حتى فترة بعد ظهر ذلك اليوم، عندما دخل رجلٌ إلى قاعة المحكمة لم يشاهده أحدٌ في مقاطعة الأوساج لأسابيع. كان إرنست بوركهارت. شاهدت مولي زوجها وهو يمشي بعدم ثبات على الممرّ الطويل إلى المنصّة. حملق هيل بسخط في ابن أخته الذي ندّد به أحد محامي هيل باعتباره «خائنًا لدمه»[38]. قبل لحظات، كان بوركهارت قد أخبر المدّعي العام أنه إذا شهد «سوف يقتلونني». جلس بوركهارت في كرسي الشاهد. كان واضحًا أن قوّته التي تظاهر بها عند دخوله، بدأت تتلاشى.

نهض محامي هيل وطلب التشاور مع بوركهارت على انفراد. وقال المحامي: «هذا الرجل موكّلي!»[39]. سأل القاضي بوركهارت عمّا إذا كان هذا الشخص هو بالفعل محاميه، قال بوركهارت وعينه على هيل: إنه، «... لكنني على استعداد للتحدّث معه»، أنا لم أوكّله[40].

شاهد وايت والمدّعون، بوركهارت بشكل لا يصدّق وهو يتنحّى من المنصّة ويذهب مع محامي هيل إلى غرفة القاضي. مرّت خمس دقائق، ومن ثمّ عشر، ومن ثمّ عشرون. وأخيرًا، أمر القاضي المأمور بإعادتهما. خرج محامي هيل، فريلينغ، من القاعة وقال: «حَضْرَة القاضي، أودّ أن أطلب من المحكمة السماح للسيد بوركهارت بالبقاء حتى الغد ليتشاور مع الدفاع». وافق القاضي، وللحظة تهجّم هيل بألفاظ نابية على بوركهارت في قاعة المحكمة، بدأت المؤامرة تتكشف أمام وايت مباشرة. اعتبر ليهي، المدعي العام الذي عيّنه مجلس الأوساج القبلي، أنّ كلّ هذا كان «سلوكًا متسلّطًا وغير عادي لم أشاهد مثله على الإطلاق من جانب المحامين»[41]. عندما غادر بوركهارت قاعة المحكمة، سعى وايت لجذب انتباهه، لكنّ بوركهارت كان محاصرًا من أنصار هيل.

في صباح اليوم التالي في المحكمة، أعلن أحد المدّعين عن ما كان وايت والجميع في الرواق الصاخب يتوقّعونه. فقد رفض إرنست بوركهارت الإدلاء بشهادته لصالح الادّعاء. في مذكّرة إلى هوفر، أوضح وايت أنّ: «أعصاب بوركهارت انهارت مرّةً أخرى، وبعد أن سُمح له برؤية هيل، أصبح مرّةً أخرى تحت سيطرته. لم يكن هناك أمل في

شهادته»[42]. وبدلًا من ذلك، جلس بوركهارت أمام المنصّة كشاهد للدفاع. سأله أحد محامي هيل «عمّا إذا كان قد تحدّث إلى هيل بشأن قتل روان أو أيّ هندي آخر».

همس بوركهارت: «لم أفعل ذلك مطلقًا»[43].

عندما سأل المحامي عمّا إذا كان هيل قد طلب إليه الاستعانة بشخصٍ لقتل روان، قال بوركهارت: «لم يفعل ذلك مطلقًا».

أنكر بوركهارت خطوة بخطوة بصوت رتيب وهادئ كلّ ما قاله للعملاء الفدراليين. حاول المدّعون إنقاذ قضيّتهم من خلال توجيه تُهمٍ منفصلة ضد بوركهارت، بالتآمر والمشاركة في انفجار منزل سميث، على أمل تعزيز موقفهم ضد هيل ورامسي بالحصول على إدانة مبكّرة ضد بوركهارت، وحدّد المدّعون موعد محاكمته أوّلًا. لكنّ أهم دليلين من أعمدة الأدلّة ضد هيل - وهي اعترافات بوركهارت ورامسي- قد انهارت. ذكر وايت في قاعة المحكمة: «لقد واجهنا هيل ورامسي بابتسامات نصر»[44]، مضيفًا: «الملك في القمّة مرّةً أخرى».

عندما بدأت محاكمة بوركهارت، في أواخر أيار/مايو، وجد وايت نفسه في خضمّ أزمة أكبر. عندما وقف هيل على المنصّة وشهد تحت القسم، أنه في خلال استجوابه، حاول وايت وعملاؤه، بمن فيهم سميث، إجباره بوحشية على الاعتراف. قال هيل: «رجال المكتب أخبروه أنّ لديهم طرائق لجعل الناس يتحدّثون». وأضاف: «نظرت إلى الوراء، وما جعلني أنظر إلى الوراء هو سماع صوت مسدّس وراء ظهري. بمجرّد أن نظرت إلى الوراء، قفز سميث عبر الغرفة وأمسك بكتفي ووضع مسدّسًا كبيرًا في وجهي»[45].

قال هيل إنّ سميث هدّد بضربه ضربًا مبرّحًا، وإنّ وايت قال له: «سنضعك على الكُرْسِيّ الكَهْرَبَائِيّ». ثمّ استطرد أنّ العملاء قاموا بدفعه على كرسيّ خاص ووضعوا الأسلاك على جسده، وغطاءً أسود على رأسه، وجهازًا مثل القناع على وجهه. وقال أيضًا: «ظلّوا يتحدّثون عن أنّ لديهم السلطة لكي يصعقوني بالكهرباء، ولقد صعقوني».

شهد بوركهارت ورامسي أنهما تلقّيا الإساءة نفسها، وهو السبب الوحيد الذي جعلهم يدلون باعترافاتهم. عندما كان هيل على المنصّة، تحدّث بجنون، وبشكل درامي، عن كيف هزّت الكهرباء جسده، كما يُزعم. وادّعى أنّ عميلًا واحدًا استنشق الهواء وصرخ: «ألا تشمّ رائحة حرق اللحم البشري؟».

ذات صباح في أوائل شهر حزيران/يونيو، كان هوفر في واشنطن. كان يحبّ أكل بيضة مسلوقة مع الخبز المحمّص على الفطور. لاحظ قريب من هوفر أنه كان «طاغية تمامًا في ما يتعلّق بالطعام»[46]، فإذا تسرّب صفار البيض إلى الخارج، قد يرسل الصحن إلى المطبخ. في ذلك الصباح لم يكن الطعام ما أزعجه، لقد صُدم عندما قرأ العنوان الرئيسي لجريدة واشنطن بوست:

«السجين يتّهم عملاء التحقيق باستعمال الكهرباء...

محاولة لإجبارهِ على الاعتراف بجرائم القتل على منصّة الشهود...

قال إن العملاء شمّوا رائحة «احتراق اللحم البشري»[47]

لم يكن لدى هوفر أيّ ولاء خاص للقانون، لكنه لم يعتقد بأنّ وايت كان قادرًا على مثل هذه التكتيكات. ما أثار قلق هوفر هو الفضيحة، أو، إذا استخدمنا المصطلح المفضّل لديه، «الإحراج»، فأرسل برقيّة عاجلة إلى وايت يُطالبه فيها بشرحٍ مفصّلٍ. وعلى الرغم من أنّ وايت لا يريد إعطاء اعتبار للادّعاءات «السخيفة»[48]، لكنه ردّ على الفور، وأصرّ على أنّ هذه التهم «كانت تلفيقًا من البداية إلى النهاية، كما أنه لم يتمّ استخدام أيّ طريقة من طرق الدرجة الثالثة - التعذيب - على الإطلاق: لم أستخدم مثل هذه التكتيكات مطلقًا في حياتي»[49].

اتّخذ وايت وعملاؤه موقفًا لدحض هذه المزاعم، ولكنّ ويليام ب. باين - عضو مجلس الشيوخ الأميركي من أوكلاهوما، وهو رجل نفط ثريّ، ومدافع عن نظام الوصاية - بدأ بحشد دعم أعضاء المجلس ليضغط على المسؤولين الحكوميين ليُطرد وايت ورجاله خارج المكتب.

في أثناء محاكمة إرنست بوركهارت، لم يعد بالإمكان احتواء غضب الادّعاء، عندما زعم أحد محامي الدفاع أنّ الحكومة ارتكبت عملية تزوير. صرخ المدّعي العام: «سألتقي بالرجل الذي قال هذه الجملة في الفناء»[50]. كان لا بدّ من فصل الرجلين أحدهما عن الآخر.

مع تزعزعِ قضية الادعاء كان لا بدّ للمدّعين من استدعاء الشاهد الذي اعتقدوا أنه

يُمكن أن يُؤثر في توجّه هيئة المحلّفين لصالحهم، وهو المهرّب ومخبر المكتب السابق كيلسي موريسون. واجه وايت ورجاله موريسون في وقتٍ سابقٍ بعد أن علموا بخداعه، وتوصّلوا إلى أنّ موريسون لديه قوّة موجِّهة واحدة، وهي مصلحته الشخصية. عندما اعتقد أنّ هيل أقوى من حكومة الولايات المتحدة، كان عميلًا مزدوجًا لملك الأوساج، ولكن بمجرّد القبض عليه، أدرك أنّ الحكومة تتحكّم في مصيره، فانقلب إلى جانب الحكومة واعترف بدوره في المؤامرة.

والآن، مع هطول المطر ودويّ الرعد خارج قاعة المحكمة، شهد موريسون أنّ هيل تآمر للقضاء على جميع أفراد عائلة مولي. أخبره هيل أنه يريد التخلّص من «العائلة اللعينة بأكملها» حتى يتمكّن «إرنست من الحصول على كلّ شيء»[51].

أما بالنسبة إلى آنا براون، فقال موريسون إنّ هيل جنّده «لقتل هذه الأميركية الهندية الحمراء»[52]، وأعطاه سلاح كولت آلي من عيار 0.380، وكان برايان بوركهارت شريكه. بعد التأكّد من أنّ آنّا كانت مخمورة، ذهبا إلى ثري مايل كريك. كانت زوجة موريسون كول في ذلك الوقت معهما، وطُلب إليها «أن تبقى في السيّارة». ومن ثمّ أمسك هو وبرايان بآنّا، لأنها كانت مخمورة جدًّا. ويتذكّر موريسون أنها لم تستطع المشي. ولذلك حملاها إلى أسفل الوادي.



ﻫ ﻫ ﻫ ﻫ آنّا براون

في النهاية، ساعد برايان آنّا على الجلوس على صخرة بجانب الجدول.

قال موريسون: «لقد رفعها».

سأل محامي دفاع: «هل سحبها؟»

- نعم سيدي.

كانت قاعة المحكمة في حالة سكون، وكانت مولي بوركهارت تُراقب، مُستمعة.

تابع المحامي: «هلّا أخبرته في أيّ وضع كان يمسكها بينما أُطلق عليها الرصاص في رأسها؟».

- نعم سيدي.

- لقد وقفت هناك، ووجّهته كيف يُمسك هذه المرأة الهندية المخمورة التي لا حول لها ولا قوّة، ويأخذها إلى أسفل ذلك الوادي بينما كنت أنت تستعدّ لإطلاق رصاصة على رأسها؟.

- نعم سيدي.

- ومن ثم عندما جعلها في الوضع الذي أردته أن يُمسكها، أطلقت رصاصة من مسدّس 0.380؟

- نعم سيدي.

- هل حرّكتها بعد أن أطلقت عليها الرصاص؟.

- لا سيدي.

- ماذا حدث عندما أطلقت عليها الرصاص؟.

- أفلتّها وسقَطَتْ على الأرض.

- سقطت لوحدها فقط؟.

- نعم سيدي.

- هل صرخت؟.

- لا سيدي.

وتابع المحامي: «هل وقفتَ هناك وشاهدتها تموت؟».

- لا سيدي.

- كنت مقتنعًا بأنّ السلاح الذي أطلقت النار منه عليها في رأسها، قد قتلها، أليس كذلك؟

- نعم سيدي.

عندما سُئِل عمّا فعله بعد إطلاق النار، قال: «ذهبت إلى المنزل وتناولت العشاء»[53].

وأكّدت كول، زوجة موريسون السابقة رواية زوجها. قالت إنها لم تذهب إلى موقع الجريمة، لأنّ موريسون هدّدها بأنه سوف «يقتلها». وقالت: «أنا بقيت في السيّارة وحدي حوالى خمس وعشرين دقيقة أو ثلاثين، حتى عادا. لم تكن آنّا براون معهما، ولم أرَها قطّ على قيد الحياة مرّةً أخرى»[54].

في 3 حزيران/يونيو، في منتصف المحاكمة، استُدعيت مولي. ابنتها الصغرى من إرنست، آنّا، التي كانت تربيها إحدى قريباتها منذ أن أصبحت مولي مريضة بشكلٍ خطير، قد تُوفّيت. كانت تبلغ من العمر أربع سنوات. آنّا الصغيرة، كما كانت تُلقّب، لم تكن على ما يرام مؤخّرًا، وعزا الأطبّاء وفاتها إلى المرض. ويبدو أنه لا يوجد دليل على لعبة شرّيرة. ولكن بالنسبة إلى الأوساج، كلّ حالة موت، أكانت قضاءً وقدرًا أو أيّ شي آخر، هي موضع شكّ الآن.

حضرت مولي الجنازة. لقد تخلّت عن ابنتها لعائلة أُخرى لتكون في أمان؛ والآن شاهدت كيف اختفت آنّا الصغيرة، في صندوقها الصغير البسيط في القبر. كان هناك عدد أقلّ وأقلّ من الأوساج الذين يعرفون الصلوات القديمة من أجل الموتى. من سيهتف لها كلّ صباح عند الفجر؟

بعد الدفن ذهبت مولي مباشرةً إلى قاعة المحكمة - ذلك المبنى الحجري البارد الذي بدا أنه يحمل أسرار حزنها ويأسها - جلست بمفردها من دون أن تنطق بكلمة واحدة. تستمع ولا شيء أكثر.

في 7 حزيران/يونيو، بعد أيّام عدّة من وفاة ابنته، اصطُحِب إرنست بوركهارت من قاعة المحكمة إلى سجن المقاطعة. عندما لم يكن أحد ينظر، دسّ ملاحظة في جيب نائب العمدة، وهمس: «لا تقرأها الآن»[55].

لاحقًا، عندما قرأ النائب الملاحظة، اكتشف أنها موجهة إلى المدّعي العام جون ليهي. كان فيها سطرٌ صغير: «قابلني الليلة في سجن المقاطعة، إرنست بوركهارت».

مرّر النائب الملاحظة إلى ليهي الذي وجد بوركهارت في زنزانته يسير بقلق. كانت لديه دوائر عميقة حول عينيه، كما لو أنه لم ينم منذ أيّام. قال بوركهارت: «أنا انتهيت

من الكذب، أيها القاضي»[56]. الكلمات تخرج منه بسرعة: «لا أريد الاستمرار في هذه المحاكمة طويلًا».

قال ليهي: «كوني مع النيابة، لستُ في موضع يسمح لي بتقديم النصح لك. لماذا لا تُخبر محاميك؟». قال بوركهارت: «لا أستطيع أن أخبرهم».

نظر ليهي إلى بوركهارت، غير متأكّد ممّا إذا كان الاعتراف الوشيك خدعة أخرى. لكن بوركهارت بدا صادقًا. موت ابنته، وجه زوجته الذي يطارده كلّ يوم في المحاكمة، والإدراك بأنّ الأدلّة ضدهّ كانت تتراكم، وأنه لا يستطيع تحمّل ذلك. قال بوركهارت: «أنا عاجز تمامًا».

توسّل إلى ليهي أن يطلب من فلينت موس المحامي الذي كان بوركهارت يعرفه، أن يأتي لرؤيته. وافق ليهي، وفي 9 حزيران/يونيو، عاد بوركهارت إلى قاعة المحكمة بعد أن تحدّث إلى موس. هذه المرّة، لم يجلس بوركهارت على طاولة الدفاع مع فريق محامي هيل. مشى الى مقعد القاضي وهمس بشيء له. ومن ثمّ رجع إلى الخلف، وكان يتنفّس بصوت عالٍ، وقال: «أرغب في فصل محامي الدفاع. السيد موس سيمثّلني الآن»[57].

كانت هناك احتجاجات من الدفاع، لكنّ القاضي وافق على الطلب. وقف موس بجانب إرنست وقال: «السيد بوركهارت يرغب في سحب التماسه البراءة، ليصبح التماسه إقرارًا بالذنب». ملأت الشهقات قاعة المحكمة. سأل القاضي: «هل هذه رغبتك يا سيد بوركهارت؟».

- نعم.

- هل عرض عليك مسؤولو الولاية أو المسؤولون الفدراليون الحصانة أو تخفيض مدّة العقوبة إذا غيّرت اعترافك؟.

- لا.

قرّر أن يُلقي بنفسه تحت رحمة المحكمة، بعد أن قال لموس في وقتٍ سابقٍ: «لقد سئمت وتعبت من كلّ هذا... أريد أن أعترف بالضبط بما فعلته»[58].

قرأ بوركهارت، بعد ذلك الإقرار، بيانًا يعترف فيه بأنه أوصل رسالة من هيل إلى رامسي، مفادها «أعلم كيربي بأنه حان الوقت لتفجير منزل سميث. أشعر في قلبي

بأنني فعلت هذا العمل المشين، لأنّ هيل طلب مني القيام بذلك، وهو خالي. حقيقة ما فعلته أخبرته لكثير من الرجال، وكما أرى الأمر اليوم، الشيء الصادق والمشرف بالنسبة إلي، هو الوقوف في المحكمة والاعتراف بالحقيقة»[59].

قال القاضي إنه يحتاج لطرح سؤال قبل أن يقبل الالتماس. هل أجبر العملاء الفدراليون بوركهارت على توقيع الاعتراف تحت تهديد السلاح أو التهديد بالصعق الكهربائي؟ قال بوركهارت إنه بخلاف إبقائه ساهرًا لفترة طويلة في خلال الليل، عامله رجال المكتب «معاملة جيّدة». (في وقتٍ لاحقٍ، قال بوركهارت إنّ بعضًا من محامي هيل حثّوه على الكذب على المنصّة).

قال القاضي: «عندئذٍ يُقبل إقرارك بالذنب»[60]. وفي تلك اللحظة ثارت قاعة المحكمة. ذكرت صحيفة «النيويورك تايمز» في الصفحة الأولى إنّ «بوركهارت اعترف بجرائم قتل أوكلاهوما: اعترف أنه استعان برجلٍ لتفجير منزل سميث.... يقول إنّ ذلك تمّ بطلبٍ وتخطيطٍ من خاله»[61].



صورة لوجه إرنست بوركهارت

أرسل وايت رسالة إلى هوفر، قال فيها إنّ: «بوركهارت كان منزعجًا للغاية، والدموع في عينيه. أخبرني إنه كان يكذب، وإنه سيقول الحقيقة الآن.... بما مَعْناه سوف يشهد أمام أيّ محكمة في الولايات المتحدة بذلك»[62]. بعد اعتراف بوركهارت، انتهت حملة طرد وايت ورجاله. قال المدّعي العام في أوكلاهوما: «الفضل الأكبر لهؤلاء السادة»[63]. ومع ذلك، لم يتمّ استكمال سوى جزء بسيط من القضيّة. حيث يتعيّن على وايت والسلطات إدانة المشاركين الآخرين، بما في ذلك برايان بوركهارت ورامسي. والأكثر صعوبة على الإطلاق، أنه ما زال يتعيّن عليهم إسقاط هيل. ولكنّ وايت، بعد مشاهدة الخدع في محاكمة إرنست، لم يكن متأكّدًا من أنّ هيل يُمكن إدانته. لكنه حصل على بعض الأخبار المشجّعة على الأقلّ، عندما حكمت المحكمة العليا الأميركية أنّ المكان الذي قُتل فيه روان كان بالفعل على الأراضي الهندية. وقال وايت: «أعادنا هذا إلى محاكم المقاطعات الفدرالية»[64].

في 21 حزيران/يونيو 1926، حُكم على بوركهارت بالسجن المؤبّد والأشغال الشاقّة، ومع ذلك، لاحظ الناس من حوله راحة على وجهه. قال المدّعي العام «إنه أصبح الآن شخصًا ذا عقلٍ مطمئنًا لأنه أراح روحه المعذّبة من سرٍّ رهيبٍ، والآن يطلب التوبة والغفران»[65]. قبل أن يُقاد، وهو مكبّل بالسلاسل الحديدية، إلى سجن الدولة، استدار بوركهارت وابتسم بضعف لمولي. لكنّ تعابيرها بقيت جامدة الشعور، وربّما باردة.

20 وليكن اللّه في عونكم!

في الأسبوع الأخير من تموز/يوليو من العام 1926، كانت درجات حرارة الصيف لظى، بدأت محاكمة هيل ورامسي بتهمة قتل هنري روان في محكمة غوثري العريقة. حسبما ذكرت صحيفة تولسا تريبيون، «المسرح مهيأ: ترتفع الستارة ببطء عن أكبر مأساة في حياة الأوساج. المحاكمة الفدرالية التي طال انتظارها لاثنين من رعاة البقر القدامى. محاكمة إرنست بوركهارت، على الرغم من أنها انتهت باعترافه الميلودراميّ بمؤامرة قتل سميث التي ورّطه فيها هيل، إلّا أنها كانت مجرّد مقدّمة لمأساة الحياة والموت التي ستنكشف اليوم»[1].

وضع وايت حرّاسًا إضافيين في السجن بعد محاولات هروب الخارجين على القانون الذين كانوا سيشهدون ضدّ هيل. في وقتٍ لاحقٍ، عندما كان هيل محتجزًا في طبقة منفصلة عن زنزانة بلاكي طومسون، مرّر له ملاحظة من خلال التمديدات في السقف. اعترف بلاكي للعملاء بأنّ هيل سأله عمّا يريده «لكي لا يشهد ضده»[2] وأضاف بلاكي: «لقد كتبت ملاحظة واحدة، أنني لن أشهد فيها ضدّه إذا أخرجني من السجن». ووعده هيل بترتيب هروبه مقابل شيء آخر - أن يقوم بلاكي بعد ذلك باختطاف إرنست بوركهارت وإخفائه قبل أن يتمكّن من أن يشهد. «لقد أراد مني اصطحاب إرنست بوركهارت إلى المكسيك القديمة»، مضيفًا: «هيل لم يكن يُريد قتل بوركهارت في هذا البلد إذ سيتمّ العثور فيه على جثّته».

بالنظر إلى وفرة الأدلّة ضد هيل ورامسي، يعتقد وايت بأنّ الحكم سيعتمد، إلى حدّ كبير، على ما إذا كان الشهود وهيئة المحلّفين قد تورّطوا بالرشوة. في محاكمة إرنست بوركهارت، رُفضت أوّل هيئة من المحلّفين بعد ظهور أدلّة على أنّ هيل حاول رشوتهم. الآن، قبل اختيار هيئة المحلّفين، استجوب المدّعون المرشّحين المحتملين للتأكّد ممّا إذا كان أيّ شخص قد حاول التقرّب منهم. ومن ثمّ طلب القاضي من المحلّفين الإثني

عشر المختارين أن يُقسموا على أنهم سيصدرون حكمًا صحيحًا وفق القانون والدليل «وليكن الله في عونكم».

كان هناك سؤال واحد لم يسأله القاضي والمدّعون للمحلّفين أبدًا، ولكنه كان محوريًّا في الإجراءات: هل ستعاقب هيئة المحلّفين المؤلّفة من اثني عشر رجلًا أبيض، رجلًا أبيض آخر لقتله هنديًّا أميركيًّا؟ لاحظ مراسل واحد متشكّك في الأمر أنّ «موقف الروّاد من مربّي الماشية تجاه الهندي الأميركي معروف إلى حدٍّ ما»[3]. عبّر عضو بارز في قبيلة الأوساج عن الأمر بصراحة أكبر: «إنه سؤال يدور في رأسي: هل هيئة المحلّفين هذه تنظر إلى القضيّة على أنها جريمة قتل أم لا؟ والسؤال بالنسبة إليهم ليقرّروا ما إذا كان قتلُ الرجل الأبيض الأوساج جريمةَ قتل، أو مجرّد قسوة على الحيوانات»[4].

في 29 تموز/يوليو، عندما كان من المقرّر أن تبدأ الشهادة، وصلت حشود من المشاهدين مبكّرًا للحصول على مقعد، وكانت درجة الحرارة في الخارج اثنتين وثلاثين درجة مئويّة، وكان من الصعب التنفّس في قاعة المحكمة. وقف المدّعي العام جون



هيل (الثاني من اليسار) ورامسي (الثالث من اليسار) مع اثنين من مارشالات الولايات المتحدة

ليهي ليدلي ببيانه الافتتاحي: قال: «أيها السادة أعضاء هيئة المحلّفين، ويليام ك. هيل متّهم بالمساعدة والتحريض على قتل هنري روان، وجون رامسي متّهم بالقتل»[5]. أوجز ليهي الحقائق المزعومة لمؤامرة القتل التأمينية بشكلٍ واقعي. وأشار مراقب واحد إلى أنّ «المخضرم في المعارك القانونية لا يذهب للمشاركة في الألعاب النارية أو التمثيل المسرحي في قاعة المحكمة، لكنه يجعل نقاطه أقوى من خلال اتزانه وهدوئه»[6]. ابتسم هيل ابتسامةً طفيفةً جدًا، بينما كان رامسي متّكئًا على كرسيه، وهو يهوّي وجهه بسبب الحرارة، وفي فمه عُودُ أَسْنان.

في 30 تموز/يوليو، استدعى الادّعاء إرنست بوركهارت إلى المنصّة. كانت التكهّنات بأنّ بوركهارت سوف يخلّ بوعده مرّةً أخرى ويذهب إلى أحضان خاله. ولكن هذه المرّة أجاب بوركهارت على أسئلة الادّعاء بكل صراحة. ذكر بوركهارت، أنّ هيل وهنري غرامر ناقشا ذات مرّة كيفية القضاء على روان. لم تكن الخطّة الأصلية لرامسي أن يُطلق النار على روان، بدلًا من ذلك، كان هيل ينوي استخدام أحد أساليبه المتنوّعة الأولى؛ زجاجة من مشروب (مون شاين) المسموم. وقد كشفت شهادة بوركهارت أخيرًا ما كان يعرفه الأوساج منذ فترة طويلة: قُتل أفراد القبيلة عمدًا وبشكلٍ منهجي باستخدام كحولٍ مسموم. قال بوركهارت في قضية روان: «قرّر هيل في النهاية إطلاق النار عليه، لكنه غضب عندما علم لاحقًا أنّ رامسي لم يطلق النار، وفق التعليمات، على جبين روان ولم يترك المسدّس في مكان الحادث». يتذكّر بوركهارت: «قال لي هيل: لو كان جون رامسي قد فعل ذلك بالطريقة التي أخبرته بها، لم يكن أحد ليعرف أنه قُتل، ولكنه انتحر»[7].

في 7 آب/أغسطس، استراح الادّعاء، وسرعان ما استدعى الدفاع هيل إلى المنصّة. وأصرّ على القول، مخاطبًا المحلّفين على أنهم «سادة»: «لم أبتكر أبدًا[8] مخطّطًا لقتل روان. أنا لم أرغب قطّ في موته». على الرغم من أنّ هيل قد أدلى بشهادة مقنعة، إلّا أنّ وايت كان واثقًا من أنّ الحكومة قد أثبتت أدلّة القضيّة عليه. وبالإضافة إلى شهادة بوركهارت، شهد وايت على اعتراف رامسي، ووصف الشهود طريقة استحواذ هيل الاحتيالي على بوليصة التأمين. وصف المدّعي العام روي سانت لويس هيل بأنه: «مطلق النار الذي لا يرحم»[9]. قال مدّعٍ عامٍ آخر: «أغنى قبيلة[10] من الهنود في العالم، تُصبح فريسةً غير شرعية للرجل الأبيض. الهندي يُقتل. مبدأ عظيم معنيّ في هذه الحالة.

شعب الولايات المتحدة يتابعنا من خلال الصحافة. حان الوقت الآن أيها السادة للقيام بدوركم».

في 20 آب/أغسطس، يوم الجمعة، بدأت هيئة المحلّفين مداولاتها لساعاتٍ. في اليوم التالي، استمرّ المأزق. قالت جريدة تولسا تريبيون إنه على الرغم من أنّ قضيّة الحكومة كانت قوية، إلّا أنّ المراهنات على قرار محكمة غوثري هي «خمسة إلى واحد لتقرّ هيئة المحلّفين بذنب المتهمين»[11]. بعد خمسة أيّام من المداولات، دعا القاضي الأطراف إلى قاعة المحكمة. سأل هيئة المحلّفين «هل هناك أيّ احتمال للاتفاق على حكم؟»[12].

نهض رئيس هيئة المحلفين وقال: «لم نتوصّل إلى قرار بعد».

سأل القاضي عمّا إذا كان لدى الادعاء أيّ ملاحظات. وقف سانت لويس وكان وجهه أحمر وصوته يرتجف: «هناك بعض الرجال الطيّبين في هيئة المحلّفين، وبعضهم الآخر ليسوا جيّدين». وأضاف إنه أُبلغ بأن واحدًا على الأقل، إن لم يكن أكثر، قد تلقّى رشوة.

أخذ القاضي هذا الأمر بالاعتبار، فأمر بصرف هيئة المحلّفين وترك المتّهمين لمزيدٍ من المحاكمة.

تفاجأ وايت. أكثر من عام على عمله، وأكثر من ثلاثة أعوام من عمل المكتب، وصلت إلى طريق مسدود. تمّ تعليق هيئة المحلّفين عندما حُوكم برايان بوركهارت بتهمة قتل آنّا براون. بدا من المستحيل العثور على اثني عشر رجلًا أبيض يدينون رجلًا أبيض منهم بتهمة قتل الهنود الحمر. كان الأوساج غاضبين، وبدأوا يتهامسون بضرورة تحقيق العدالة بأيديهم. وفجأةً، اضطر وايت إلى نشر عملائه لحماية هيل، الرجل الذي كان يريد تقديمه بشدّة إلى العدالة.

في غضون ذلك، بدأت الحكومة في التحضير لإعادة محاكمة هيل ورامسي بتهمة قتل روان. كجزءٍ من هذا التوجّه، طلبت وزارة العدل من وايت التحقيق في الفساد في خلال محاكمة هيل الأولى. وسرعان ما اكتشف أنّ هناك مؤامرة لعرقلة العدالة، بما في ذلك الرشى والحنث باليمين. وقال أحد الشهود، إنّ محامي الدفاع جيم سبرينغر عرض عليه نقودًا ليكذب على المنصّة، فلمّا رفض، صوّب سبرينغر ما بدا أنه مسدّس



هيل يغادر قاعة المحكمة

في جيبه نحوه، وقال: «سأقتلك»[13]. في أوائل تشرين الأول/أكتوبر، أوصت هيئة محلّفين كبرى بتوجيه اتهامات ضد سبرينغر وعدد من الشهود في ما أسمته بمحاولات صارخة لعرقلة العدالة. وأصدرت هيئة المحلّفين الكبرى بيانًا قالت فيه: «مثل هذه الممارسات لا يجوز تحمّلها، وإلّا فستكون محاكمنا استهزاءً بالعدالة وانهزامًا»[14]. تمّ توجيه اتهامات كثيرة إلى الشهود وإدانتهم، لكنّ المدّعين قرروا عدم توجيه الاتهام إلى سبرينغر لأنه سيطالب بتأخير المحاكمة الثانية لهيل ورامسي حتى يتمّ حلّ قضيّته.

قبل بدء إعادة محاكمة هيل ورامسي بتهمة قتل روان، في أواخر تشرين الأول/أكتوبر، قال مسؤول في وزارة العدل للمدّعي العام سانت لويس: إنّ «هذا الدفاع كلّه نسيج من الأكاذيب، والأمر متروك لنا للوصول إلى الحقائق»، مضيفًا: «لن يكون هناك من نلومه إلّا أنفسنا إذا نجحوا في رشوة هيئة المحلّفين هذه»[15]، فعُيّن رجال وايت لحماية هيئة المحلّفين.

قدّم الادعاء القضيّة نفسها بشكلٍ أساسي، ولكن بشكلٍ أكثر اتساقًا وترابطًا. وما أثار الدهشة في قاعة المحكمة، استدعاء مولي لفترة وجيزة إلى المنصّة بناء على طلب محامي هيل، فريلينغ.

سألها: «هلّا ذكرتِ اسمك؟»[16].

- مولي بوركهارت.

- هل أنت الزوجة الحالية لإرنست بوركهارت؟

- نعم سيدي.

ومن ثم كشف السرّ الذي أخفته لفترة طويلة عن إرنست، وسألها: هل كان هنري روان زوجك ذات مرّة؟

- نعم سيدي.

واحتجّ الادّعاء على أنّ السؤال غير جوهري، ووافق القاضي. في الواقع، يبدو أنه لا جدوى من خطّ الاستجواب بخلاف إلحاق مزيدٍ من المعاناة بها. بعد أن تعرّفت إلى صورة روان، نزلت من المنصّة وعادت إلى الرواق. عندما كان إرنست بوركهارت على المنصّة، استجوبه المدعي العام ليهي عن زواجه من مولي.

سأله ليهي: «زوجتك هي هندية من الأوساج؟»[17].

أجاب إرنست: «إنها كذلك».

في إجراءات سابقة، سُئل عن مهنته، فقال: «أنا لا أعمل. تزوّجت من هندية»[18].

سأل أحد محامي هيل، إرنست عما إذا كان قد أقرّ بالذنب لقتل أخت زوجته بتفجير منزلها وهي كانت بالداخل.

قال: «هذا صحيح».

على أمل إلقاء اللوم في كلّ جرائم القتل على إرنست، تلا محامي هيل أسماء أفراد عائلة مولي المقتولين الواحد تلو الآخر: «هل لدى زوجتك الآن أيّ أقارب على قيد الحياة، عدا الطفلين اللذين أنجبتهما منك».

- ليس لديها أي أقارب.

كان هناك صمت في قاعة المحكمة بينما كانت مولي تنظر. لم يعد من الممكن تجنّب نظرتها.

بعد ثمانية أيّام فقط من الشهادة، استراح الطرفان. قال أحد المدّعين في مرافعته الختاميّة: «لقد حان الوقت الآن لكم يا رجال القانون والنظام والاستقامة، حان الوقت

لنزع التاج عن رأس هذا الملك، يجب بحكمكم كرجالٍ شجعانٍ، ورجالٍ محترمين، أن تُعلّقوا هذين القاتلين من رقبتيهما حتى يموتا»[19]. نصح القاضي هيئة المحلّفين الأعضاء الذين يجب عليهم تنحية التعاطف أو التحيّز لأيٍّ من الجانبين. وحذّر قائلًا: «لم يسقط بلدٌ في هذه الأرض، إلّا عند بلوغ تلك النقطة، عندما يقول المواطنون: ليس بإمكاننا تحقيق العدالة في محاكمنا»[20].

كان ذلك في مساء يوم 28 تشرين الأول/أكتوبر، وبدأت في اليوم التالي صباحًا هيئة المحلّفين بالمداولات. انتشر خبر توصّل المحلّفين إلى قرار، وامتلأت قاعة المحكمة بالمشاركين المألوفين.

سأل القاضي رئيس هيئة المحلّفين عما إذا كانت هيئة المحلّفين قد وصلت بالفعل إلى حكم، فأجاب: «نعم يا سيدي»، وسلّمه ورقة. نظر القاضي في الأمر للحظة، ثم نقله إلى الكاتب، كانت قاعة المحكمة هادئة لدرجة أنّ تكّات ساعة الحائط يُمكن سماعها. لاحظ أحد المراسلين في وقتٍ لاحقٍ: «وجه هيل يُعبّر عن شغفٍ حذرٍ، وكان رامسي يخفي حقيقة مشاعره»[21]. وقف الكاتب وقرأ: «إنّ هيئة المحلّفين وجدت أنّ جون رامسي وويليام ك. هيل مذنبان بارتكابهما جريمة قتل من الدرجة الأولى»[22].

بدت الصدمة على هيل ورامسي. قال لهما القاضي: «وجدت هيئة المحلّفين أنكما مذنبان بقتل هنود، السيد هيل والسيد رامسي، سيصبح من واجبي إصدار الحكم. قد تجدكما هيئة المحلّفين مذنبين وتحكم عليكما بعقوبة الإعدام في قضية قتل من الدرجة الأولى، ولكنّ هيئة المحلّفين جعلتها حكمًا بالسجن مدى الحياة». كان المحلّفون على استعداد لمعاقبة الرجلين لقتلهما هنديًا أميركيًا، لكنهم لم يريدوا أن يُشنقا من أجل هذا الفعل. قال القاضي لهيل ورامسي: «قفا أمام منصّة المحكمة». نهض هيل بسرعة، ورامسي بشكلٍ متردّدٍ. أعلن القاضي أنه حكم عليهما بالسجن مدى الحياة. ومن ثمّ سأل: «هل لديك أيّ شيء لتقوله، سيد هيل؟».

حدّق هيل مباشرة إلى الأمام بفراغٍ، وقال: «لا يا سيدي».

«وأنت، يا سيد رامسي؟» هزّ رامسي رأسه ببساطة.

هرع الصحافيون إلى خارج قاعة المحكمة لتقديم قصصهم، معلنين، كما عبّرت عنه صحيفة النيويورك تايمز: أنّ «ملك تلال الأوساج مُذنب بارتكاب جريمة قتل»[23].

المحامي ليهي أشاد بالنتيجة باعتبارها «واحدة من أعظم مؤشّرات القانون والعدالة التي أُنجزت في البلاد»[24]. رحّبت مولي بالحكم، ولكن كما يعرف وايت، فإنّ هناك بعض الأشياء التي لا يمكن لأي نظام قضائي أن يستعيدها من تحقيقٍ ناجح.

بعد عام، عندما حوكم قاتل آنّا براون، حضرت مولي المحاكمة. بحلول ذلك الوقت، كان موريسون قد تخلّى عن اعترافه، وغيّر ولاءه مرّةً أخرى على أمل تأمينه تعويضًا من هيل. صادرت السلطات رسالةً أوصلها إلى هيل في السجن، حيث وعد بأن «يشعل النار» في السلطات «إذا سنحت لي الفرصة»[25]. أعطى المدّعون برايان حصانة بوركهارت، معتقدين أنه كان من الضروري الحصول على إدانة موريسون. في خلال المحاكمة، استمعت مولي مرّة أخرى إلى تفاصيل مروّعة عن كيفية حصول صهرها برايان، على أختها في حالة سكر ومن ثمّ إمساكه جسدها لكي يطلق موريسون النار على مؤخرة رأسها، أو، كما قال برايان: «أنهى حياتها»[26].

يتذكّر برايان أنه عاد بعد أسبوع من إطلاق النار إلى مسرح الجريمة مع مولي وعائلتها للتعرّف إلى جثّة آنّا المتعفّنة. ظلّت الذكرى مع مولي، لكن الآن فقط تمكّنت من فهم المشهد تمامًا. كان برايان يقف بالقرب منها، يحدّق في ضحيّته بينما يتظاهر بالحزن.

سأل محامٍ برايان: «هل خرجت لرؤية الجثّة؟»[27].

- هذا ما ذهبنا جميعًا من أجله.

سأله المحامي المصدوم: «أنت تعرف أنّ جثّة آنّا براون كانت هناك، أليس كذلك؟».

- نعم سيدي.

كان موريسون من بين المتفرّجين، وكان إرنست هناك أيضًا، يُواسي مولي، على الرغم من أنه كان يعرف أنّ قاتلَي آنّا يقفان على بُعد أمتارٍ قليلة منهم. كذلك، عرف إرنست منذ اللحظة التي انفجر فيها منزل ريتا وبيل سميث من المسؤول. كان يعرف الحقيقة عندما، في وقت لاحقٍ من ذلك المساء، تسلّل إلى السرير مع مولي، وكان يعرف طوال الوقت الذي كانت فيه يائسة تبحث عن القتلة. بحلول الوقت الذي أُدين فيه موريسون بقتل آنّا، لم يعد بإمكان مولي النظر إلى إرنست. تطلّقت منه بعد فترة قصيرة، وكلّما ذُكر اسم زوجها، كانت تنْكمش رعبًا.

بالنسبة إلى هوفر، أصبح التحقيق في مقتل الأوساج عرضًا لعمل المكتب الحديث. كما كان يأمل، أثبتت القضيّة للكثيرين في جميع أنحاء البلاد الحاجة إلى مزيدٍ من قوّة مهنية ماهرة علميًّا. كتبت جريدة سانت لويس پوست ديسپاتش St. Louis Post-Dispatch عن جرائم القتل: «عُمَد الولاية حقّقوا[28] ولم يصلوا إلى نتيجة. حقّق محامو الولاية ولم يحصلوا على شيء، حقّق المُدّعِي العامّ ولم يصل إلى شيء. وعندما أرسلت الحكومة محقّقي وزارة العدل إلى مقاطعة الأوساج أصبح القانون أمرًا مهيبًا».

حرص هوفر على عدم الكشف عن أخطاء المكتب السابقة. ولم يُفصح عن هروب بلاكي طومسون وهو تحت مراقبة المكتب وعن قتله شرطيًّا. أو أنه بسبب كثير من البدايات الخاطئة في التحقيق حدثت جرائم قتل أُخرى. بدلًا من ذلك، ابتكر هوفر قصّة أصلية، وهي أسطورة تأسيسية تمكّن فيها المكتب، تحت إشرافه، من التغلب على الفوضى الحدوديّة الأخيرة في البرّية الأميركية. مدركًا أنّ الأنماط الجديدة للعلاقات العامّة يُمكن أن تُوسّع نطاق سلطته البيروقراطية وتضمن تمجيد الناس له، طلب هوفر من وايت أن يرسل له معلومات يُمكنه مشاركتها مع الصحافة قائلًا: «هناك، بالطبع[29]، كما تعلم، فرق بين وجهة النظر القانونية ووجهة نظر المصلحة الإنسانية، وما يهتم به ممثّلو الصحافة هو وجهة نظر المصلحة الإنسانية. لذلك أودّ أن تشدّد على هذه الزاوية».

أرسل هوفر القصّة إلى المراسلين المتعاطفين - أوما يُسمى بأصدقاء المكتب. تمّ نشر مقال واحد حول القضيّة، تمّ الترويج له من شركة ويليام رندولف هيرست،

القصّة التي لم تروَ من قبل!

كيف حاربت الحكومة التي تمتلك أكبر نظام بصمات أصابع على وجه الأرض، جرائم القتل بتحسينات علمية لم يُسمع بها من قبل، والكشف عن كيف أنهى المحقّقون عهد القتل والإرهاب في تلال الأوساج الهندية ومن ثمّ قاموا باعتقال العصابة الأكبر إجرامًا في البلاد[30].

في العام 1932، بدأ المكتب العمل مع البرنامج الإذاعي لاكي سترايك أَور Lucky Strike Hour لإضفاء الطابع الدرامي على قضاياها، وكانت إحدى الحلقات الأولى تستند إلى جرائم قتل الأوساج. بناءً على طلب هوفر، كتب العميل بيرغر مشاهد خيالية تمّت مشاركتها مع منتجي البرنامج. في أحد هذه المشاهد، يُظهر رامسي لإرنست بوركهارت

البندقية التي يُخطّط لاستخدامها لقتل روان، قائلًا: «انظر إليها[31]، أليست جميلة؟». واختتم البرنامج: «إذًا تنتهي قصّة أُخرى والعبرة هي نفسها في كلّ الحلقات الأخرى من هذه السلسلة.... [المجرم] لا يُضاهي العميل الفدرالي لواشنطن في معركة الدهاء»[32].

على الرغم من أنّ هوفر أثنى بشكلٍ خاصٍّ على وايت ورجاله للقبض على هيل وعصابته، ومنح العملاء علاوةً بسيطة بالأجر «كطريقة صغيرة على الأقلّ لشكرهم على كفاءتهم وتطبيق الواجب»[33]، فإنه لم يُذكرهم بالاسم مطلقًا عندما روّج للقضية، لأنهم لم يتناسبوا تمامًا مع المجنّدين خرّيجي الجامعات والذين أصبحوا جزءًا من أساطير هوفر. علاوةً على ذلك، لم يرغب هوفر في أن يطغى عليه رجاله.

كان مجلس الأوساج القبلي هو الهيئة الحاكمة الوحيدة التي أثنت علنًا على جهود وايت وفريقه، بما في ذلك العملاء السرّيون. في القرار الذي استشهد به كلّ منهم بالاسم، قال المجلس: «نُعرب عن خالص امتناننا للعمل الرائع الذي تمّ القيام به في موضوع التحقيق، وجلب المتّهمين للعدالة»[34]. في غضون ذلك، اتّخذ الأوساج خطواتهم الخاصة لحماية أنفسهم من المؤامرات المستقبلية، وأقنعوا الكونغرس بإصدار قانون جديد، يمنع أيّ شخص لم يكن على الأقلّ نصفه أوساج (أي من أبٍ أو أمٍ من الأوساج) من وراثة ملكيات من عضو القبيلة.

═══

بعد فترة وجيزة من إدانة هيل ورامسي، واجه وايت قرارًا بالغ الأهمية. مساعد المدّعي العام الأميركي الذي أشرف على نظام السجون الفدرالي، سأل وايت عمّا إذا كان يريد تولّي منصب آمر سجن ليفنوورث في كانساس، وهو أقدم سجن فدرالي، ويُعتبر واحدًا من السجون الأكثر رعبًا في البلاد. كانت هناك مزاعم بالفساد في السجن، ومساعد المدّعي العام أخبر هوفر أنّ وايت كان مثاليًا للوظيفة قائلًا: «أنا أكره التخلّي عن فرصة توظيف آمر للسجن، أعتقد أنه سيكون على القدر نفسه من كفاءة السيّد وايت»[35].

لم يرد هوفر أن يترك وايت المكتب، فقال لمساعد المدّعي العام: «ستكون خسارة فادحة للمكتب». ولكنه أضاف: «أشعر بأنني سأكون ظالمًا لوايت إذا كان هذا يتعارض مع ترقيته، كما تعلم. إنه يحظى بتقديرٍ عالٍ بالنسبة إليّ؛ شخصيًّا ورسميًّا»[36].

بعد التردّد الطويل، قرّر وايت مغادرة المكتب. أمّنَت الوظيفة له أجرًا أكبر، ما يعني أنه لن يعود بحاجة لاقتلاع زوجته وأولاده الصغار والتنقل بهم من مكان إلى آخر. كما عُرضت عليه فرصة لرئاسة السجن، تمامًا مثل والده، ولكن على مستوى أعلى بكثير، ممّا كان عليه والده.

في 17 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1926، عندما كان وايت يحاول الاستقرار في وظيفته الجديدة، نُقِل سجينان جديدان بحسب قرار مارشالات الولايات المتحدة، واتّخذ السجينان وجهتهما القاتمة: ليفنوورث، قلعة مساحتها 366,000 قدم مربّعة، وهي، كما وصفها أحد السجناء ذات مرة نهضت من حقول الذرة المحيطة بها، مثل «ضريح عملاق انجرف في بحر واسع من العدم»[37]. اقترب السجينان من المدخل مقيّدين، ومشى وايت تجاههما. كان وجهاهما شاحبين من قلّة ضوء الشمس، ولكن وايت، عرف أنهما هيل ورامسي.

قال هيل لوايت: «مرحبًا توم».

أجاب وايت: «مرحبًا بيل».

قال رامسي لوايت: «مرحبًا»[38].

وصافح وايت كلا السجينين اللذين اقتيدا بعد ذلك إلى زنزانتيهما.

21 البيت الحار

كان الأمر أشبه بالتجوال في سراديب الذكريات. مشى وايت إلى جانب الزنازين، وكان باستطاعته رؤية وجوهٍ من ماضيه، عيونهم تبرز من وراء القضبان، وأجسادهم تلمع من العرق، ورأى هيل ورامسي أيضًا. كما رأى أعضاء عصابة آل سبنسر القديمة والرئيس السابق لمكتب المحقّقين القدامى الذي تلقّى رشوةً في خلال إدارة هاردينغ الفاضحة. ورأى أيضًا الهاربين الإثنين اللذين قتلا شقيقه الأكبر، دادلي، على الرغم من أنّ وايت لم يذكر أنه شقيقه مطلقًا، لأنّه لا يريد أن يسبّب لهما أيّ توتّر أو قلق.

عاش وايت مع عائلته حول أراضي السجن. كانت زوجته في البداية غير قادرة على النوم، وتتساءل: «كيف تربّي طفلين في هذه البيئة؟»[1]. كانت تحديات إدارة السجن الذي صُمّم لاستيعاب ألف ومئتي سجين، وجود ثلاثة أضعاف هذا الرقم. كانت درجات الحرارة في الداخل ترتفع في الصيف لتصل إلى 46 درجة مئوية، ولهذا السبب أطلق السجناء في ما بعد على سجن ليفنوورث اسم «البيت الحار». في أحد أيام آب/أغسطس العام 1929، كان الجو حارًّا جدًّا لدرجةٍ مرعبة، حتى أنّ الحليب في مطبخ السجن فَسد، واندلعت أعمال الشغب في قاعة الطعام. ذكر ريد رودنسكي، وهو لصّ خزنات سيئ السمعة، أنه كانت هناك «كراهية قبيحة، وخطيرة، وقاتلة»[2]. واندفع وايت لقمع الاضطرابات: «أظهر آمر السجن وايت شجاعته. اقترب حتى أصبح على بُعد بضع أقدام منّي، على الرغم من أنّ السواطير والزجاجات المسنّنة المكسورة كانت على بُعد بوصات منه»[3].

حاول وايت تحسين الظروف في السجن[4]. يتذكّر عامل نظافة وصيانة عمل لاحقًا تحت قيادته: «كان وايت صارمًا مع السجناء، ولكنه لم يقبل أيّ سوء معاملة أو مضايقات لهم»[5]. أرسل وايت إلى رودنسكي ذات مرّة رسالة تقول: «يتطلّب الأمر قدرًا كبيرًا من الجهد لتغيير المسار الذي كنت عليه لسنوات وسنوات، ربّما أكثر ممّا أُدرك، ولكن إذا كان التغيّر في داخلك، فقد حان الوقت الآن لإظهار ذلك». يتذكّر رودنسكي: «بسبب دعم وايت، كان لدي بصيصٌ من الأمل»[6].

على الرغم من أنّ وايت شجّع جهود إعادة التأهيل، لكنه لم يأمل بإعادة تأهيل عددٍ من السجناء في البيت الحار (أي السجن). في العام 1929، كان كارل بانزرام - قاتل متسلسل اعترف بقتل واحد وعشرين شخصًا وأصرّ: «ليس لديَّ ضمير»[7] - قد ضرب أحد موظفي السجن حتى الموت. حُكم عليه بالاعدام شنقًا داخل السجن، وكان وايت على الرغم من معارضته عقوبة الإعدام، مكلّفًا بمهمّة قاتمة وهي الإشراف على التنفيذ، كما فعل والده في تكساس.

في 5 أيلول/سبتمبر 1930، عندما أشرقت الشمس فوق قبّة السجن، ذهب وايت ليأخذ بانزرام من زنزانته إلى المشنقة المبنية حديثًا. تأكّد وايت من أنّ ولديه لم يكونا حاضرين عندما كان حبل المشنقة ملتفًا حول عنق بانزرام الذي صرخ في جلّاده للإسراع، «يُمكنني شنق عشرات الرجال في هذه الدقائق التي تتلاعب بها أنت»[8]. في الساعة 6:03 صباحًا، فُتح الباب الخشبي الأرضي في منصّة الإعدام وتأرجح بانزرام حتى وفاته. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يقوم فيها وايت بإنهاء حياة إنسان.

بعد وصوله إلى ليفنوورث، عُيِّن ويليام هيل للعمل في جناح مرضى السلّ. لاحقًا، كان يكدح في مزرعة السجن، حيث كان يرعى الخنازير والحيوانات الأخرى بالطريقة التي كان يعمل بها في خلال أيامه الأولى على الحدود. قال تقرير صادر من السجن: «كان يعمل عملًا رائعًا في الاهتمام بالماشية، وكان قادرًا على القيام بعمليات مثل: فتح الخراجات وخصي الحيوانات»[9].

في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1926، طلب مراسل من وايت بعض المعلومات الخاصة والتفاصيل حول حياة هيل في السجن. رفض وايت تقديم أيّ شيء، وأصرّ على أنّ هيل سوف «يُعامَل مثل السجناء الآخرين»[10]. وبذل وايت جهدًا عظيمًا حتى لا تشعر زوجة هيل وابنته بالإهانة من مسؤولي السجن. كتبت زوجة هيل ذات مرّة رسالة إلى وايت قائلة: «هل سأُثقل عليك إذا طلبت إذنك لرؤية زوجي الإثنين المقبل؟ مرّت قرابة ثلاثة أسابيع على زيارتي الأخيرة، وبالطبع أُدرك أن نظامكم يسمح لنا بزيارة واحدة فقط كلّ شهر، ولكن.... إذا كنت تستطيع أن تمنحني هذا من فضلك، فسأكون ممتنّة لك»[11]. ردّ وايت بأنه سيكون مُرحّبًا بها.

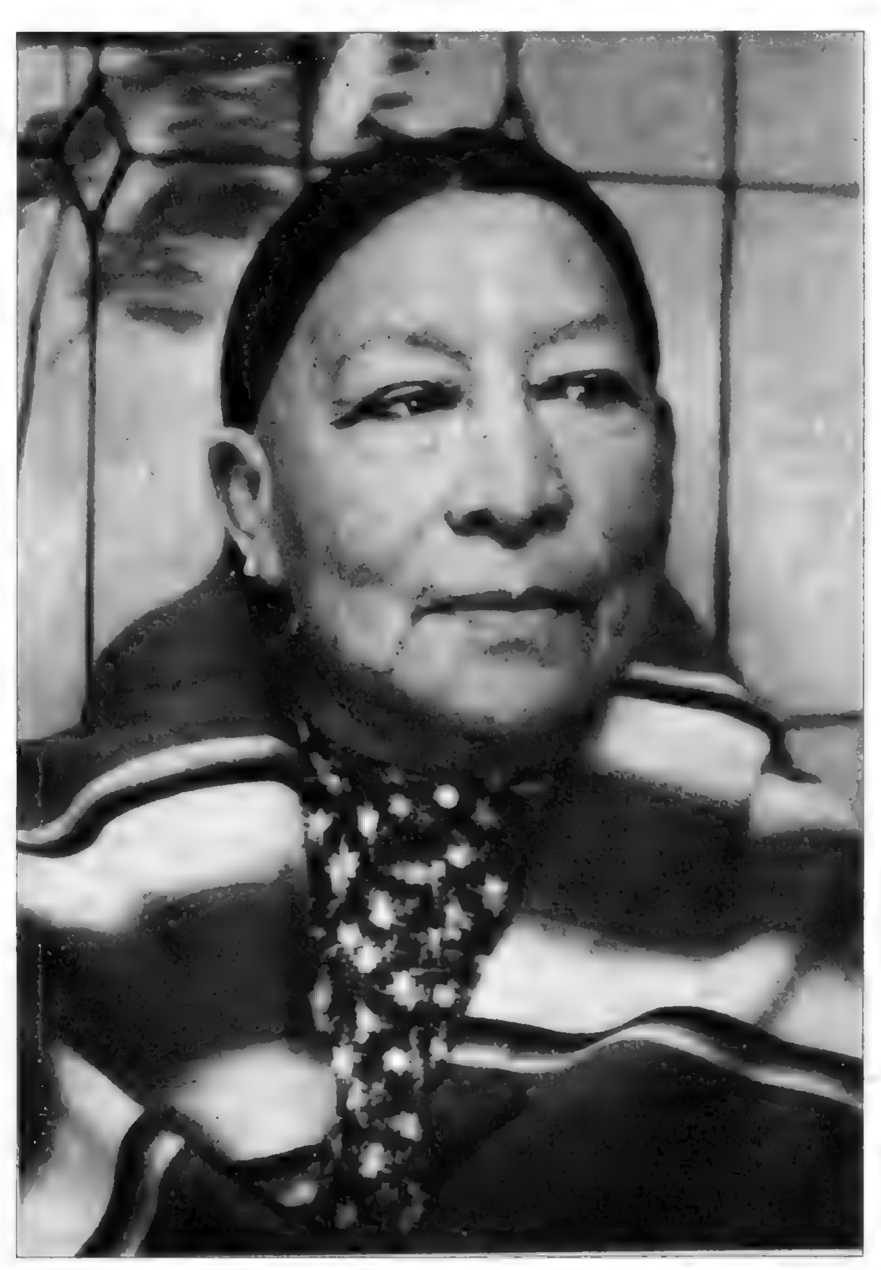
على مرّ السنين، لم يعترف هيل مطلقًا بارتكابه أيًا من جرائم القتل، لا جريمة قتل روان الذي أُدين بارتكابها، ولا العدد الذي لا يُحصى من جرائم القتل الأخرى التي أظهرت الأدلّة أنه دبّرها، ولكن لم تتمّ مقاضاته لأنه حُكِم عليه بالسجن مدى الحياة. على الرغم من رفضه الاعتراف بالمسؤولية، فقد أعطى في أثناء الشهادة التجريبية، اعترافًا باردًا نوعًا ما حول محاولة مختلفة قام بها للخداع من أجل الحصول على صك ملكية. بدا أنه يكشف عن أخلاقه: «لقد كان عرضًا تجاريًا بالنسبة إليّ»[12].

لجأ وايت ذات مرّة إلى رجال الدين لمحاولة فهم هذا النوع من الشر، لكنه أصبح يبحث الآن عن تفسير علمي لذلك الظلام. في السجن، طلب وايت تقييم هيل من الناحية العصبية والنفسية، فوجد المقيِّم أنّ هيل لم يظهر عليه بوضوح «دليلًا على الضياع أو فقدان الذاكرة، ولا على الذُهَان الصريح»[13]. ولكن مع ذلك كانت لديه «مكونات شرّيرة للغاية في تركيبته». كان يُخفي همجيته تحت راية الحضارة، ويصوّر نفسه رائدًا أميركيًّا ساعد في تشكيل أمّة كاملة من البراري المتوحّشة. لاحظ المقيِّم أنّ «حكمه السيئ يتّضح من استمرار إنكاره لجرمه الواضح. تأثيره غير مناسب... لقد وضع وراءه أيّ شعور من الخزي أو التوبة قد يكون لديه». قرأ وايت الدراسة النفسية لهيل من قِبَل المقيِّم، ولكن بدا أنّ هناك بعض الشرّ خارج نطاق العلم. على الرغم من امتثال هيل لقواعد السجن ونظامه، واصل التخطيط لتأمين الإفراج عنه. ويُزعم أنه رتّب لمحكمة استئناف تتمّ رشوتها، ولكن عندما فشلت هذه الجهود في نيل حرّيته، كما قال المقيِّم، تفاخر أمامه «بإطلاق سراحه المُحتمَل من خلال نفوذ الأصدقاء»[14].

ومع ذلك، وللمرّة الأولى منذ زمن، استمرت الحياة في مقاطعة الأوساج من دون حضوره الغامر. بدأت مولي بوركهارت مرّةً أخرى بالاختلاط مع الآخرين وحضور الكنيسة. ووقعت في نهاية المطاف في حبّ رجلٍ اسمه جون كوب كان نصفه من البيض ونصفه الآخر من كريك. وبحسب الأقارب، كان حبّهما حقيقيًّا، وتزوّجا في العام 1928.

كان هناك تغيير جذري آخر في حياة مولي، وهي التي حاربت مع الأوساج لإنهاء نظام الوصاية الفاسد. في 21 نيسان/أبريل من العام 1939، قضت محكمة بأنّ مولي لم تعد شخصًا تحت وصاية الولاية. «الأمر كما يلي: نُطقَ بالحكم من المحكمة، بأن مولي بوركهارت المذكورة، من الأوساج الموصى عليهم رقم 285، قد استعادت الأهلية، وأُلغي

الأمر الصادر بالحكم عليها بأنها شخص غير مؤهّل»[15]. في الرابعة والأربعين، استطاعت مولي أخيرًا أن تنفق أموالها كما تشاء، وتمّ الاعتراف بها كمواطنة أميركية كاملة.



مولي بوركهارت

في 11 كانون الأول/ديسمبر 1931، كان وايت في مكتبه عندما سمع ضوضاء. وقف وتوجّه نحو الباب ووجد نفسه يحدِّق إلى فوهة بندقية، كان سبعة من أخطر المدانين يحاولون الهروب[16]، بمن فيهم عضوان من عصابة آل سبنسر، وقاطع طرق كان يُلقّب بـ «بوكس كار» بسبب حجمه الضخم. كانت المجموعة مسلّحة ببندقية وينشستر وبندقية مقطوعة، وست أصابع من الديناميت، هُرّبت إلى داخل السجن. أخذ المدانون وايت وثمانية من أعضاء طاقمه رهائن واستخدموهم دروعًا بشرية. عندما خرجوا إلى البوابة الأمامية، أطلقوا سراح الرهائن الآخرين وتوجهوا إلى الطريق العام مع وايت - بوليصة التأمين الخاصّة بهم - كما أطلقوا عليه. استولى السجناء على سيّارة، وأجبروا وايت على الدخول، وأسرعوا بعيدًا.

ذكّر الخاطفون وايت بأنه لن يتبقّى شيء منه ليُدفَن إذا حدث خطأ ما. لم يكن شيء يسير على ما يرام، فانزلقت السيّارة عن الطريق الموحلة وعلقت، ما اضطرّهم إلى الفرار سيرًا على الأقدام. وانضم جنود من فورت ليفنوورث لمطاردتهم.

كانت الطائرات تُحلّق في سماء المنطقة، فدخل السجناء إلى مزرعة، وخطفوا فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا وشقيقها الصغير. ناشد وايت السجناء قائلًا: «أعلم أنكم ستقتلونني، لكنْ لا تقتلوهما، فهما ليسا على علاقة بما يجري على الإطلاق»[17].

ذهب «بوكس كار» وسجين آخر للبحث عن سيّارة ثانية، وأخذا معهما وايت. في مرحلة ما، استطاع وايت أن يرى تلك الفتاة تتحرّر وتهرب، فبدت العصابة جاهزة للبدء بالقتل. أمسك وايت بفوهة البندقية من الرجل المدان الذي كان يحتجزه، فصرخ المدان في «بوكس كار» «أطلقوا عليه النار! لقد حصل على البندقية»[18]. بينما قام «بوكس كار» بتصويب بندقيته على بُعد بوصات من صدر وايت، رفع وايت ذراعه الأيسر لحماية نفسه. ثم سمع صوتًا وشعر بالرصاصة تخترق ذراعه عبر لحمه ودمه وعظمه، ومرّت شظايا الرصاصة، من خلال ذراعه إلى صدره. ومع ذلك، كان وايت واقفًا. الأمر كان أشبه بمعجزة؛ لقد أُصيب بطلقٍ ناري، ومع ذلك كان ما يزال يتنفّس هواء شهر كانون الأول/ديسمبر البارد، ومن ثمّ شعر بأسفل البندقية يصطدِم بوجهه. انهار وايت الذي يزن 102 كيلوغرام على الأرض وسقط في الخندق ينزف دمًا، وتُرك ليموت.

بعد أقلّ بقليل من عقد من الزمان، في كانون الأول/ديسمبر من العام 1939، توقّف مراسل الصحيفة الشهير إرني بايل في سجن لا تونا، بالقرب من إل باسو، تكساس. طلب مقابلة آمر السجن واقتيد لرؤية توم وايت الذي كان يبلغ من العمر ستين عامًا تقريبًا. كتب بايل لاحقًا: «سألني وايت إن كنت أُحبّ تناول الغداء معه. فوافقت، وجلسنا وتحدّثنا. وأخيرًا أخبرني القصّة، كما كنت أتمنّى طوال الوقت أنه سيفعل. وكانت القصة عن ذراعه اليسرى»[19]. وصف وايت كيف أطلق «بوكس كار»، النار عليه، وكيف وُجد في الخندق ونُقل إلى المستشفى. لعدّة أيّام، لم يكن متأكّدًا إنْ كان سيعيش، وفكّر الأطباء ببتر ذراعه. لكنه نجا بطريقةٍ ما، وبقيت ذراعه، على الرغم من وجود شظايا رصاصة في داخلها، وكانت تتدلّى بلا فائدة. لم يذكر وايت أيّ تفصيل واحد إلى بايل، عن الفتاة التي أُخذت رهينة والتي نسبت الفضل لوايت في حمايتها هي وشقيقها، وقالت: «أنا متأكّدة من أنهم كانوا يعتزمون قتلنا جميعًا، لكن شجاعة آمر السجن وايت أنقذتنا»[20].

لم يتمكّن أيّ من المدانين من الهرب، يُعتقد أنه، إذا لمسْتَ أي مسؤول في السجن، وخاصة آمر السجن، من الأفضل لك «ألا تعود أبدًا، لأنك إذا فعلت ذلك فسوف تمرّ بوقتٍ عصيبٍ، وصعب»[21]. وهكذا عندما كانت السلطات قريبة من القبض على «بوكس كار» والهاربين الآخرين، أطلق «بوكس كار» النار على اثنين من رفاقه، ثم وضع رصاصة في جبهته. السجناء الآخرون كانوا على استعدادٍ لقتل أنفسهم بتفجير الديناميت، لكن قبل أن يتمكّنوا من إشعال الفتيل، قُبض عليهم. وقال واحد منهم: «الجزء المضحك، هو أننا عندما عدنا إلى السجن، لم يمدّ أحد يده علينا مطلقًا. كان آمر السجن وايت رجلًا بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. لقد ترك أوامر صارمة. لا أحد يمسّ هؤلاء الناس، اتركوهم وشأنهم، عاملوهم مثل باقي السجناء، ولولا تدخّله لكانت كُسِّرت رؤوسنا»[22].

علم وايت أنه استُعين برودنسكي للمساعدة في ذلك الهروب لكنه رفض. قال وايت لكاتب آخر: «لقد بدأ في تطوير حسّ المسؤولية لديه. أدرك أنني كنت عادلًا معه وكنت أحاول بصدق مساعدته على تأهيل نفسه كعضوٍ فعّالٍ في المجتمع»[23]. في العام 1944، أُطلق سراح رودنسكي بشروط وحصل على مهنة ناجحة كمؤلّف ورجل أعمال».

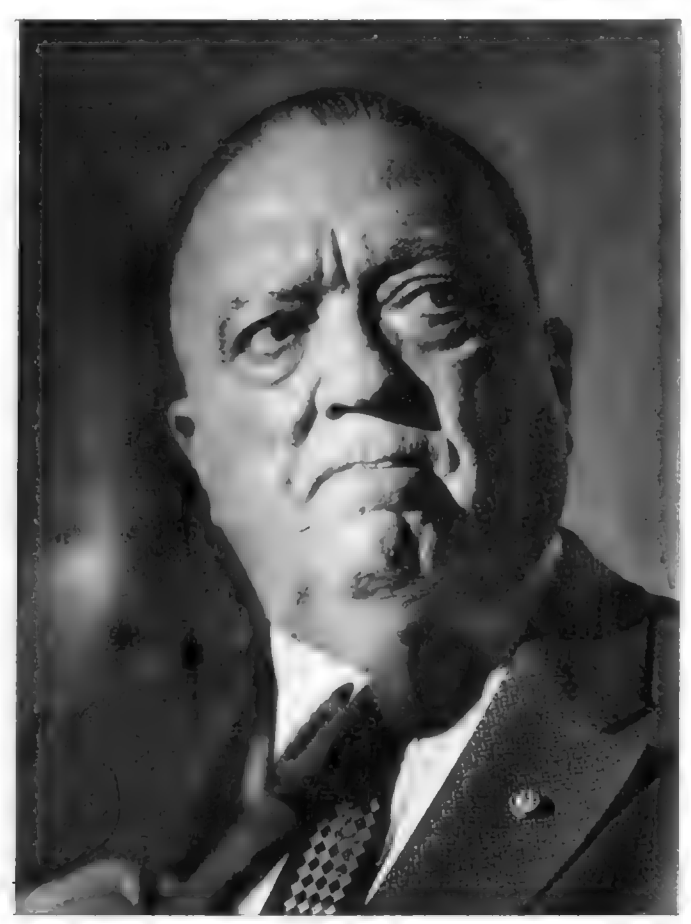
عندما تعافى وايت بشكلٍ كافٍ، تولّى منصب آمر السجن في سجن لا تونا، وهي وظيفة كانت أقلّ إجهادًا.

كتب بايل عن إطلاق النار: «أثّرت التجربة على الحارس وايت، كما كانت ستؤثّر في أيّ واحد منّا. لم تجعله خائفًا، لكنها جعلته سريع الانفعال وبشكل أو بآخر مسكونًا ولا يفارقه وسواس تلك التجربة»[24]. وتابع بايل: «لا أرى كيف، بعد تجربة من هذا القبيل، تستطيع النظر إلى أيّ محكوم عليه بأيّ شيء سوى الشعور بالكراهية. لكن وايت ليس كذلك، هو مُحترف تمامًا في عمله. إنه رجلٌ جاد ولطيفٌ، ولقد درّب نفسه على التحكّم في عواطفه».

استخدم ج. إدغار هوفر التحقيق في جرائم الأوساج عرضًا دامغًا لفعالية المكتب. وغذّت سلسلة الجرائم المثيرة في الثلاثينيات خوف الجمهور، وهو ما مكّنه من تحويل المنظّمة قوّة جبّارة مُعترفًا بها اليوم. وشملت هذه الجرائم اختطاف طفل تشارلز ليندبيرغ، ومذبحة مدينة كانساس التي قُتل فيها عددٌ من رجال الأمن في تبادلٍ لإطلاق النار في أثناء ملاحقة عضو عصابة آل سبنسر فرانك «جيلي» ناش وقتله. كان زميل وايت القديم، العميل فرانك سميث، من ضمن القافلة، لكنه نجا. (الصحافي روبرت أونغر وثّق في ما بعد كيف ادّعى سميث وعميل آخر في الأصل أنهما لم يتمكّنا من التعرّف إلى منفّذي إطلاق النار، وقد استدعاهما فجأة بعد ضغط من هوفر لحلّ القضايا). في أعقاب هذه الحوادث، أقرّ الكونغرس سلسلة من إصلاحات «الصفقة الجديدة» التي أعطت الحكومة الفدرالية أوّل قانون جنائي شامل يوسّع مهام المكتب ومهامها. فأصبح العملاء الآن مفوّضين بإجراء اعتقالات وحمل أسلحة نارية، وسرعان ما تمّ تغيير اسم القسم إلى مكتب التحقيقات الفدرالي. لاحظ كاتب سيرة حياة هوفر، كيرت جنتري أنّ «أيّام المكتب الصغير قد ولّت. ولقد ولّت، أيضًا، أيّام العملاء الخاصّين الذين بالكاد كانوا محقّقين»[25]. وكان دوك شقيق وايت مشاركًا في بعض أكبر حملات المكتب في خلال تلك الفترة من مطاردة الأعداء العامين من أمثال جون ديلنجر، وصولًا إلى قتل «الأم باركر وابنها فريد». كما انضمّ نجل توم وايت إلى المكتب، ما جعلهم ثلاثة أجيال من رجال القانون في عائلة وايت.

أكّد هوفر أنّ هويّة المكتب لا يُمكن تمييزها عن هويته، وبينما كان الرؤساء يأتون ويذهبون، بقي هذا البيروقراطي، المكتنز حول الخصر وله فكّ مثل فك كلب البلدوغ، في

منصبه. كتب مراسل في مجلّة «لايف»: «نظرت إلى أعلى وكان هناك ج. إدغار هوفر على شرفته العالية والبعيدة والهادئة، يُراقب مملكته الضبابية المستمرّة من رئيسٍ إلى رئيسٍ ومن عقدٍ إلى عقد»[26]. لم تُعلن تفاصيل كثيرة عن إساءة استخدام هوفر للسلطة إلّا بعد موته في العام 1972. وعلى الرغم من حاسّة إدراك وايت، إلّا أنه كان أعمى عن جنون عظمة رئيسه، وتسييسه للمكتب، ومؤامراته ضدّ قائمة متنامية باستمرار من الأعداء المتصوَّرين ومن بينهم الناشطون الهنود الأميركيون.



جيه - إدغار هوفر

على مرّ السنين، كتب وايت بشكلٍ دوري إلى هوفر، ودعاه ذات مرّة، إلى مزرعة أحد الأقارب: «لسنا مضطرّين لتحمّل خشونة الحياة عنده، لأنّ لديه كلّ وسائل الراحة باستثناء التبريد الهوائي. وأنت لست بحاجة إلى ذلك»[27]، لكنّ هوفر رفض بأدب. كان

مشغولًا للغاية الآن، وكان لا بدّ من حثّه على تذكّر عميله النجم السابق. عندما تنحّى وايت وهو في السبعين من عمره، كحارس لسجن لاتونا، في العام 1951، أرسل له هوفر بطاقة بعد أن ذكّره عميل آخر بمدى «امتنان وايت لبطاقة شخصية من المدير بشأن تقاعده»[28].

في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، علم وايت أنّ هوليوود على وشك القيام بتصوير فيلم عن قصّة مكتب التحقيقات الفدرالي، من بطولة جيمس ستيوارت بصفته عميلًا مكتشفًا للجرائم، والذي من شأنه أن يعرض مقطعًا عن جرائم قتل الأوساج. أرسل وايت رسالة إلى هوفر، يسأله فيها، عما إذا كان بإمكان صانعي الأفلام التحدّث معه عن القضيّة. قال وايت: «سأكون سعيدًا أن أشارك المعلومات كما أعرفها من البداية إلى النهاية»[29]. أجاب هوفر: «سأضعك في الاعتبار بالتأكيد»[30]، لكنه لم يفعل ذلك أبدًا. قدّم هوفر مظهرًا رائعًا في فيلم من العام 1959، الأمر الذي جعله يحتفظ بصورته المكرّسة في المخيلة الشعبية.

على الرغم من شيوع الفيلم، إلّا أنّ قضية الأوساج كانت تتلاشى من الذاكرة، وطغت عليها أحدث القضايا المشهورة، وسرعان ما نسيها معظم الأميركيين. في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، فكّر وايت في كتابة قصة لتوثيق القضيّة. أراد تسجيل الجرائم ضد الأوساج وأراد التأكّد من أنّ العملاء الذين عملوا معه لن يتمّ محوهم من التاريخ. لقد ماتوا جميعًا منذ ذلك الحين بعيدًا من الأضواء، وفي كثيرٍ من الأحيان ماتوا بسبب الفقر. عندما كان أحد العملاء السرّيين يحتضر، كتبت زوجته التي كانت تتمنّى أن يكون لديه حساب في صندوق تقاعد، وأخبر عميل كان يعرفه هوفر بأنّ العائلة «تواجه وضعًا كئيبًا»[31].

بعد سنوات عدّة من التحقيق في جرائم الأوساج، أُجبر العميل رين من «يوتي» على الخروج من المكتب مرّةً أخرى، ولكن هذه المرّة إلى الأبد. عندما غادر، شتم وألقى بأشياء من مكتبه. كتب لاحقًا إلى هوفر، أنّ معاملته كانت «غير عادلة وغير مبرّرة»[32]. في النهاية تبدّد غضب رين، وقبل وفاته في العام 1939، أرسل رسالة إلى هوفر قال فيها: «في كثيرٍ من الأحيان عندما أقرأ عنك، أنت ورجالك، أشعر بسرور وفخر، ومن ثمّ أبدأ بالتفكير مرّةً أُخرى في الزمن الماضي، أنا فخور بك وما زلت أُناديك برئيسي القديم»[33]. وتابع: «كثير من أصدقائي القدماء ذهبوا إلى مناطق الصيد السعيدة. كثير من الأشجار الطويلة والجميلة دُمّر، وقُطع كثير منها بسبب الرجل الأبيض. ذهبت الماشية، والديك الرومي البرّي والغزلان والخيول البرّية ولم تعد تعيش بين التلال الجميلة».

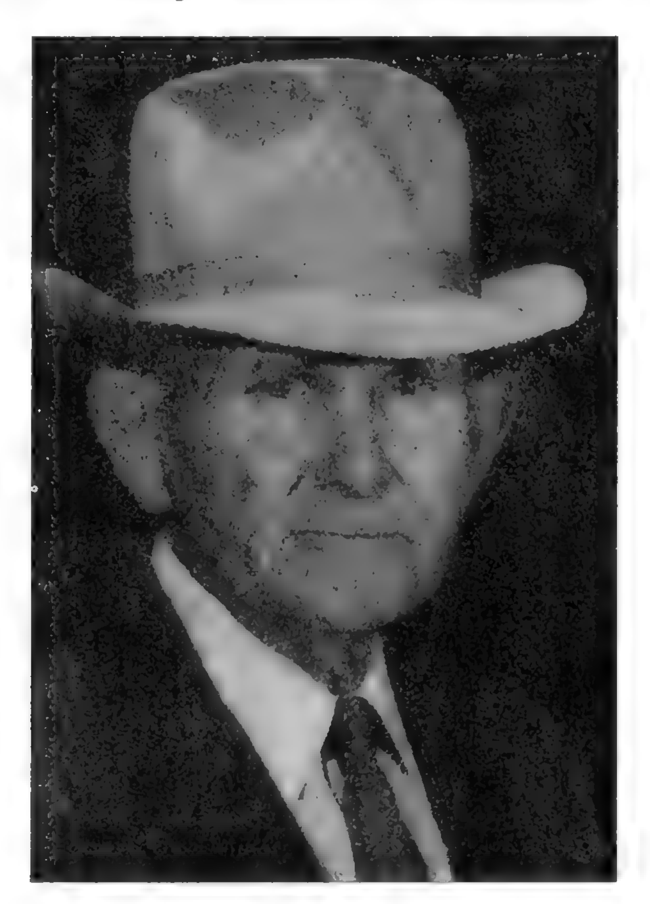
بالإضافة إلى توثيق أدوار العملاء الآخرين، لا شك في أنّ وايت كان يأمل في أن يُؤمّن لنفسه مكانًا صغيرًا في التاريخ، على الرغم من أنه لا يقول ذلك بنفسه، فقد كتب بضع صفحاتٍ متقنة، نقرأ في جزء منها:

«بعد أن أطلعني المدير[34] السيد ج. إدغار هوفر على أهمية القضيّة، أمرني بالعودة إلى هيوستن. وترتيب أموري هناك، والذهاب في أقرب وقت لأكون المسؤول عن مكتب مدينة أوكلاهوما. قال لي إنني سأختار المحقّقين الضروريين من رجالٍ أعرف أنهم الأفضل لطبيعة هذه المهمّة... ولقد أدركنا أهمية الرجال الذين يعملون بسرّية أكثر من أيّ وقت مضى عندما وصلنا إلى المنطقة، ووجدنا الحالة العقلية المرعبة التي يعيش الهنود تحت وطأتها».

أدرك وايت أنه لم يكن كاتبًا موهوبًا، وبحلول العام 1958 تعاون مع فريد غروف، مؤلف الروايات الغربية الذي كان نصفه أوساج (أي من أمٍ أو من أبٍ من الأوساج والنصف الآخر من البيض)، والذي كان يقيم في صباه في فيرفاكس، وقت انفجار منزل سميث، وهو الحدث الذي طارده إلى الأبد. وبدأ غروف بالعمل على الكتاب، فسأله وايت، في رسالة: «إذا كان بإمكانك أن تكتب الرواية بصيغة الغائب. أود أن أمحو كلمة «أنا» كلما استطعت في داخل الكتاب، لأنني لا أريد أن يُنقل أنني أنا القصّة كاملة». أوضح وايت: «لولا إبداع العملاء الذين كانوا لديّ في الوظيفة لم يكن بإمكاننا تحقيقها أبدًا. ومن ثمّ لدينا أيضًا الرئيس ج. إدغار هوفر، الرئيس المباشر لمكتب التحقيقات الفدرالي الذي كان محسوبًا علينا»[35].

في رسالة إلى هوفر، سأل وايت عما إذا كان المكتب سيزيل السريّة عن بعض ملفّات القضيّة القديمة لمساعدته في تحضير الكتاب. استفسر أيضًا عمّا إذا كان باستطاعة هوفر كتابة مقدّمة موجزة. قال وايت: «آمل ألّا أكون قد طلبت كثيرًا منك. أشعر أنّ هذا الشيء لا يُقدّر بثمن بالنسبة إلينا جميعًا نحن، الذين كنّا في ذلك الوقت وما زلنا حتى الآن مهتمّين بشكلٍ حيوي بمنظمتنا العظيمة، مكتب التحقيقات الفدرالي. أنت وأنا الوحيدان المتبقّيان من الجيل الأوّل للمكتب»[36]. في مذكّرة داخلية، قال كلايد تولسون، المدير المساعد للمكتب، والذي أصبح رفيق هوفر منذ فترة طويلة، والذي نشر شائعاتٍ عن تورّطهما في علاقة عاطفية: «يجب توفير مواد اعتياديّة ومحدودة فقط، إن وُجِدت»[37].

بدأ جسد وايت يخذله. كان يُعاني من التهاب في المفاصل، وتعثّر في المشي ذات مرّة وأصاب نفسه. في أيلول/سبتمبر من العام 1959، أخبرت زوجة وايت، غروف: «المرض من أيّ نوع كان، هو حقًّا فظيع جدًّا بالنسبة إليه ويتعبه كثيرًا. ما زلنا نأمل أن يتحسّن حتى يتمكّن من الذهاب إلى دالاس في آخر شهر تشرين الأول/أكتوبر لحضور المؤتمر الوطني للعملاء السابقين لمكتب التحقيقات الفدرالي»[38]. حتى في مرضه، ساعد وايت غروف في الكتاب، كما لو كان قد استُهلك في قضيّة لم تُحلّ حتى اكتمال المخطوطة. في رسالة إلى غروف، كتب وايت: «آمل أن يُحالفني كلّ التوفيق ونعثر في طريقنا على ناشرٍ جيد»[39]، مضيفًا أنه سيظل متفائلًا. لكنّ الناشرين وجدوا الموضوع أقلّ من آسر. وعلى الرغم من أنّ غروف في النهاية أطلق نسخة من الكتاب بصياغةٍ مُتخيّلةٍ عنوانها «سنوات الخوف»، لكن النسخة الأصلية التاريخية للكتاب لم تُنشر مطلقًا. قال أحد المحرّرين: «أنا آسف بشدّة، أن رسالتي هذه لا تجلب أخبارًا أفضل»[40].



توم وايت

في 11 شباط/فبراير من العام 1969، توفّي دوك الذي كان يقيم في المزرعة، حيث نشأ هو وتوم، عن عمرٍ يُناهز أربعة وثمانين عامًا. في رسالة، شارك وايت الأخبار مع هوفر، مشيرًا إلى أنه هو وإخوته الأربعة «وُلِدوا[41] على هذه الأرض». وأضاف بحزن: «والآن أنا الوحيد الباقي».

في تشرين الأول/أكتوبر من العام 1971، انهار وايت بسبب سكتة دماغية، كان يبلغ من العمر تسعين عامًا ولم يكن لديه مزيد من الفرص للهروب من الموت، في 21 كانون الأول/ديسمبر، في ساعات الصباح الباكر، توقف عن التنفس. قال صديق: «مات كما عاش، بهدوء وكرامة»[42]. حثّ أحد العملاء هوفر على الإسراع في إرسال التعازي لأرملة وايت مؤكّدًا أنه لا يوجد في ملفّات وايت «ما يُعرقل من فعل هذا»[43]. وهكذا أرسل هوفر باقة من الزهور وُضعت على النعش عندما أُهيل عليه التراب.

للحظة، قبل أن يبتعد وايت عن التاريخ أيضًا، أُبِّن كرجلٍ صالحٍ، حلَّ قضية جرائم قتل الأوساج. بعد سنوات، أفرج المكتب عن كثير من ملفاته في قضية تحقيق جرائم قتل الأوساج، من أجل الحفاظ على القضيّة في ذاكرة الأمّة. ولكنْ كان هناك شيء أساسي لم يُضمّن في هذه السجلّات التاريخية وغيرها، شيء فات وايت نفسه؛ كانت هناك طبقة أخرى أعمق للقضيّة، مؤامرة أكثر قتامة ورعبًا، لم يكشفها المكتب على الإطلاق.

سجلّ الوقائع الثالث:

المراسل

لدينا بعض الحكايات المرويّة؛ ننبش من الحقائب والصناديق والأدراج القديمة رسائل غير مُستهلّة بأي تحية أو مذيلة بأي توقيع، لرجالٍ ونساءٍ عاشوا وتنفسوا وأصبحوا اليوم مجرد حرفين أولين من الاسم أو الكنية بلا أي معنى وكأنهما مكتوبان باللغة السنسكريتية أو لغة التشوكتاو؛ نرى أناسًا باهتين، أناسًا نرقد في سبات في دمائهم وبذورهم الحية وننتظر، في ترهل الزمن الذي صار له الآن صفات بطولية، يؤدّون أدوارهم بشيء من الشغف والعنف البسيطين، منيعين ضد الزمن وعصيين عن الفهم.

ويليام فوكنر، أبشالوم، أبشالوم

22 أراضي الأشباح

ذهبت أشياء كثيرة الآن؛ ذهبت شركات البترول الكبرى والرافعات حيث استنفذت حقول النفط الشاسعة، وذهبت شجرة المليون دولار(شجرة الدردار). ذهبت سكك الحديد، بما في ذلك المكان الذي نجح فيه آل سبنسر وعصابته في آخر عملية سطو على قطار في أوكلاهوما في العام 1923. وذهب أيضًا الخارجون على القانون، الذين مات معظمهم ميتةً مذهلة كما عاشوا بالضبط. وذهبت تقريبًا كلّ المدن المزدهرة التي كانت تشتعل فيها الحركة من الصباح حتى المساء. بقي قليل منها، ولكن المباني المغلقة استعمرتها الخفافيش والقوارض والحمام والعناكب، أما في حالة وزبانك، فلم يعد يُوجد شيء سوى أنقاض محجوبة في بحرٍ من العشب. قبل سنوات عدّة، أعرب أحد



حانة مغلقة في والستون. المدينة التي اصطحب فيها برايان بوركهارت آنا براون للشرب في الليلة التي قُتلت فيها

المقيمين منذ فترة طويلة في إحدى المدن المزدهرة عن أسفه قائلًا: «اختفت المتاجر، وذهب مكتب البريد، وذهب القطار، والمدرسة والنفط، وذهب الأولاد والبنات. الشيء الوحيد الذي لم يختفِ هو المقبرة التي أصبحت أوسع»[1].

تمتلئ پوهوسكا بنصيبها من المباني المهجورة، وهي واحدة من المدن القليلة المتبقّية، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف وستمئة. لديها مدارس، ومحكمة (وهي المحكمة نفسها التي حوكِم فيها إرنست بوركهارت) ومطاعم كثيرة، بما في ذلك، ماكدونالدز. وما تزال پوهوسكا عاصمة ولاية الأوساج النابضة بالحياة، والتي صادقت في العام 2006 على دستورٍ جديدٍ. تحتفظ الولاية بحكومتها المُنتخبَة من عشرين ألف ناخب، على الرغم من أنّ الغالبية منتشرة في أجزاءٍ أخرى من الولاية أو الدولة، وحوالى أربعة آلاف يُقيمون في مقاطعة الأوساج فوق أرضِ المحمية. لاحظ مؤرّخ الأوساج لويس ف. بيرنز «أنهم على الرغم مما وصلوا إليه من حالة يُرثى لها، لكنهم استطاعوا القيام من رماد ماضيهم فوق أشلاء شعبٍ ممزّق»[2].

في يومٍ صيفي من العام 2012، بعد السفر من نيويورك حيث أعيش وأعمل مراسلًا، زرت پوهوسكا للمرّة الأولى، على أمل العثور على معلومات حول قضايا قتل الأوساج، التي بحلول ذلك الوقت، كان عمرها يقرب من قرن. ومثل معظم الأميركيين، عندما كنت في المدرسة، لم أقرأ عن جرائم القتل في أيّ كتاب. كان الأمر كما لو أنّ هذه الجرائم قد أُزيلت من التاريخ. لذلك عندما عثرت على إشارة إلى جرائم القتل، بدأت النظر والتدقيق فيها. ومنذ ذلك الحين، كنت مشغولًا بمحاولة حلّ الأسئلة العالقة، لسدّ الثغر في تحقيق مكتب التحقيقات الفدرالي.

في پوهوسكا، توقّفت عند متحف الأوساج الوطني، وكنت قد رتبت للقاء منذ فترة طويلة مع مديرة المتحف وتُدعى كاثرين ريد كورن، وهي امرأة في السبعينات من عمرها، ذات وجهٍ عريضٍ وشعرٍ قصيرٍ أقرب إلى الرمادي، وكانت تتمتّع بأسلوبٍ علمي لطيف، تُخفي من خلاله شدّة أُسلوبها ودقّته. أرتني معرضًا لصور كثير من أعضاء القبيلة البالغ عددهم 2229 عضوًا مسجّلًا بما في ذلك كثير من أقاربها الذين حصل كلّ واحدٍ منهم على صكّ ملكية في العام 1906. في واحدة من خزائن المعرض، رُصدت صورة

لمولي بوركهارت وهي تجلس سعيدة مع أخواتها، وأظهرت صورة أخرى أُمّها ليزي. وفي كلّ مكانٍ استدرت فيه في أثناء التجوال في المعرض، تعرّفت إلى صور ضحيّة أخرى من ضحايا عهد الإرهاب، هنا كان شابٌ ملفتٌ للنظر وهو جورج بيغهارت يعتمر قبّعة رعاة البقر، وهناك كان هنري روان بضفائره الطويلة، وهنالك كان المفعم بالحياة تشارلز وايتهورن وهو يرتدي بدلةً ويضع ربطة عنق.

وامتدّت الصورة الأكثر دراماتيكية على جانبٍ كاملٍ من الغرفة في المتحف، حيث تمّ التقاطها في احتفال في العام 1924، وكانت الصورة عبارة عن منظرٍ بانورامي لأعضاء القبيلة وهم يقفون جنبًا إلى جنب مع الشخصيات المحلّية البارزة من رجال الأعمال والقادة البيض. ولاحظت في أثناء فحص الصورة، أنّ هناك قسمًا مفقودًا، كما لو أنّ شخصًا ما أخذ مقصًّا وقصّ الجزء العلوي من الصورة، وسألت ريد كورن ماذا حدث لذلك الجزء من الصورة؟

قالت: «من المؤلم جدًّا أن نُظهرها».

عندما سُئِلت عن السبب، أشارت إلى المساحة الفارغة وقالت: «كان الشيطان واقفًا هناك».

ومن ثمّ اختفت لحظة، وعادت تحمل صورة صغيرة ضبابيّة فيها الجزء المفقود من الصورة، والتي أظهرت ويليام ك. هيل، يحدّق ببرود إلى الكاميرا. كان الأوساج قد أزالوا صورته، ليس لكي ينسوا جرائم القتل، كما فعل معظم الأميركيين، بل لأنهم لا يستطيعون أن ينسوا ما فعله.

أخبرتني ريد كورن أنها قبل بضع سنوات كانت في حفلة في بارتليسفيل، عندما اقترب منها رجلٌ وقال إن لديه جمجمة آنّا براون. من الواضح أنه كان جزءًا من جمجمة براون التي احتفظ بها متعهّد دفن الموتى في العام 1921، وأُعطيت لمكتب التحقيقات والعملاء للتحليل. وأضافت إنها قالت للرجل بغضب: «هذه الجمجمة يجب أن تُدفن هنا». واتصلت برئيس الأوساج وتمّ استرجاعها، وفي حفلٍ هادئٍ، دُفنت مع بقايا جسدها الأُخرى.

أعطتني ريد كورن أسماء عدد من الأوساج الذين تعتقد أنه قد يكون لديهم معلومات

عن جرائم القتل، ووعدت بأنها ستشاركني لاحقًا قصّة عن جدّها: «من الصعب أن نتحدّث عمّا حدث في عهد الإرهاب، لأنّ كثيرًا من الأوساج فقدوا أُمًّا أو أبًا أو أُختًا أو أخًا أو قريبًا. هذا الألم لا يزول مطلقًا».



اللوحة المفقودة من الصورة التي تظهر هيل (أقصى اليسار) بالبدلة والقبعة والنظّارة. الصورة البانوراميّة الكاملة، والتي يبدو فيها هيل في أقصى اليسار، موجودة على صفحة المحتويات، في بداية الكتاب

على مدار عطلات نهاية أسبوع من كلّ شهر حزيران/يونيو، يرقص الأوساج رقصاتهم الاحتفالية التي تُدعى إن لون سشكا[3]. هذه الرقصات تُمارس في أوقاتٍ مختلفةٍ في هوميني، وبوهوسكا وغراي هورس. وتلك هي المناطق الثلاث التي استقرّ فيها الأوساج للمرّة الأولى عندما جاؤوا إلى المحمية في سبعينيات القرن التاسع عشر. تُساعد هذه الرقصات في الحفاظ على التقاليد وربط أفراد المجتمع معًا. يأتي الأوساج من كلّ مكان لحضور الرقصات التي تُوفّر فرصةً لرؤية العائلة والأصدقاء القدامى وطهو الطعام والاستغراق في الذِّكْرَيات.

كتب المؤرّخ بيرنز ذات مرّة: «أنْ تعتقد بأنّ الأوساج نجوا من محنتهم وهم غير

مصابين بأذًى، فهذا وهمٌ. ما كان ممكنًا إنقاذه من ذكريات تاريخنا وتقاليدنا حُفظ، وهم الأعزّ على قلوبنا لأنهم نجوا. ونعتزّ بمن ذهب منّا لأنه كان ما كنّا عليه من قبل. نجمع ماضينا وحاضرنا في أعماق كياننا ونمضي قُدمًا لمواجهة الغد. نحن ما زلنا من الأوساج، نعيش ونشيخ من أجل أجدادنا»[4]. في خلال زيارتي للمنطقة، توجّهت إلى غراي هورس لمشاهدة الرقصات والتقيت شخصًا تأثّر بشدّة من جرائم القتل، كما اقترحت ريد كورن عليّ أن أفعل. لم يبقَ شيء تقريبًا من منطقة غراي هورس إلّا بعض الطوب المتعفّن المدفون في الحشائش التي تهزّها الريح بإيقاعات شبحية.

لاستيعاب الأعداد الكبيرة في خلال الرقصات، أقام الأوساج وسط البرّية خيمة كبيرة مع سقفٍ معدني قطري الشكل، وأرضية دائرية تُحيط بها صفوف من المقاعد الخشبية. عندما وصلت بعد ظهر يوم السبت، كانت الخيمة مزدحمة بأناسٍ تجمّعوا في الوسط حول طبلة مقدّسة تُستخدم للتواصل مع وا كون تاه، حيث كان هناك كثير من الموسيقيين والمغنّين الذكور، وكانت حولهم «المغنّيات» كما يُطلق عليهن، وفي دائرة أبعد، كان عشرات الراقصين، صغارًا وكبارًا، يرتدون طماقًا وقمصانًا زاهية الألوان وشرائط من الأجراس تحت ركبهم. كلّ هؤلاء الراقصين يعتمرون غطاء رأس - عادةً ما يكون مصنوعًا من ريشة نسر، وأشواك نيص، وذيل غزال – يقف مثل الموهوك.

على صوت قرع الطبول والغناء، تجمّع هؤلاء الراقصون في دائرة عكس اتجاه عقارب الساعة لإحياء ذكرى دوران الأرض، وكانت أرجلهم وأجراسهم تدقّ الأرض. مع اشتداد قرع الطبل وغناء الكورس، جثموا قليلًا وخطوا بسرعة أكبر، متحرّكين بعضهم مع بعض بدقّةٍ. أومأ رجلٌ برأسه بينما خفق آخر بذراعيه مثل النسر، وأشار آخرون بأيديهم كما لو كانوا يستكشفون أو يصطادون. مرّ وقتٌ لم يُسمح فيه للنساء بالرقص في هذه المناسبات، لكنهنّ انضممن الآن إليها أيضًا، وكنَّ يلبسنَ البلوزات والتنانير المصنوعة من الجوخ وأحزمة منسوجة يدويًّا، ويشكّلن دائرة في حركةٍ أبطأ حول الراقصين الذكور، مع الحفاظ على القسم العلوي من أجسادهنَّ ورُؤوسهنَّ مستقيمة، وهنَّ يتمايلن إلى أعلى وأسفل مع كلّ خطوة.

نظر عدد من الأوساج الجالسين على المقاعد إلى الرقصات، وهم يُهوّون أنفسهم بسبب الحرارة؛ بينما كان آخرون يسترقون النظر لرؤية شيءٍ ما في هواتفهم المحمولة،

لكن معظمهم كانوا يشاهدون باحترام. كلّ مقعدٍ يحمل اسم عائلة من الأوساج، وبينما كنت أتجوّل في الجانب الجنوبي من الخيمة، وجدت الاسم الذي كنت أبحث عنه «بوركهارت».

لم يمضِ وقتٌ طويل، حتى مشت امرأة هندية نحوي. كانت في الخمسينيات من العمر، ترتدي فستانًا أزرق فاتحًا وتضع نظارةً أنيقة، وكان شعرها الأسود اللامع الطويل مربوطًا على شكل ذيل حصان. بدا وجهها معبّرًا يُمكن تمييزه، وقد قالت وهي تمدّ يدها لتصافحني: «مرحبًا، أنا مارجي بوركهارت». كانت مارجي هي حفيدة مولي بوركهارت، وتعمل في مجلس إدارة خدمات الرعاية الصحية من أجل الأوساج. وقد أتت من منزلها في تهلكواه التي تبعد سبعين ميلًا جنوب شرق تولسا، برفقة زوجها أندرو لوي، وهو ينحدر من قبيلتَي كريك وسيمينول، إلى حفلة الرقص.



مارجي بوركهارت، حفيدة مولي وإرنست

جلسنا نحن الثلاثة على المقعد الخشبي وفي أثناء مشاهدة الراقصين، تحدّثنا عن عائلة مارجي. والدها الآن متوفّى، وهو جيمس «كاوبوي» بوركهارت، إبن مولي وإرنست

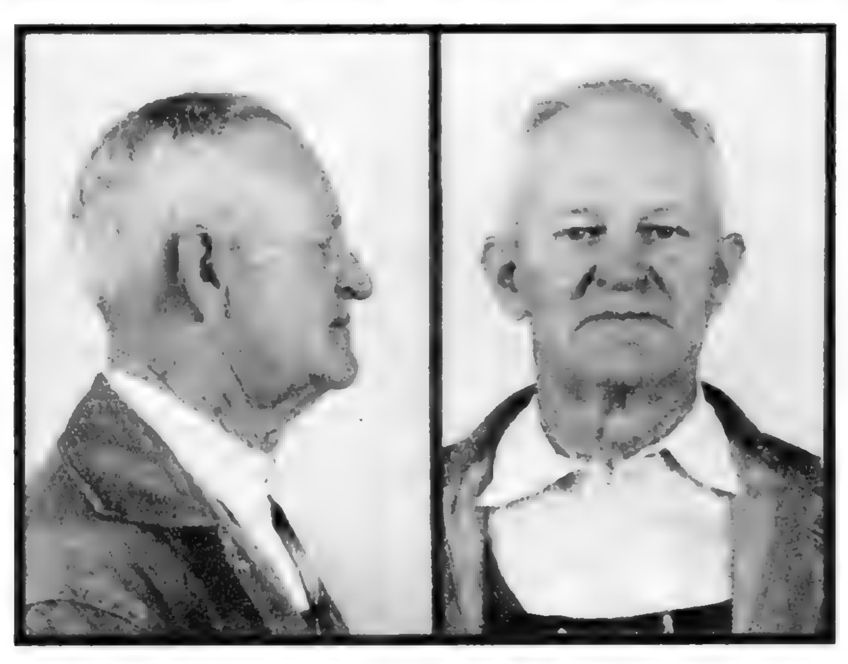
بوركهارت، كاوبوي وأخته إليزابيث المتوفّاة أيضًا، كانا قد شهدا عهد الإرهاب من داخل منزل أبيهما المليء بالأسرار. قالت مارجي عن إرنست: «لقد أخذ كلّ شيء من أبي وخالاته وأقاربه وثقته». على الرغم من أنّ كاوبوي كان مُعذَّبًا من معرفة ماضيه، لكنه كان يعشق والدته مولي. تتذكّر مارجي: «كان يتحدّث عنها دائمًا باعتزاز». عندما كان صغيرًا، عانى كثيرًا من هذه الآلام المبرّحة في أذنيه، قال «إنّ والدته مولي كانت تنفخ في أذنيه للتخلّص من الألم». بعد أن طلّقت مولي إرنست، عاشت مع زوجها الجديد جون كوب في المحمية. قيل لمارجي إنه كان زواجًا جيّدًا، وفترة سعادة بالنسبة إلى جدّتها. في 16 حزيران/يونيو 1937، تُوفّيت مولي، وفاةً طبيعية ونُعيت نعيًا بسيطًا من الصحافة. نشر رئيس فيرفاكس نعيًا قصيرًا: «السيدة مولي كوب البالغة من العمر 50 عامًا، تُوفيت في الساعة 11 مساء الأربعاء في منزلها. كانت مريضة منذ فترة، ولقد كانت أوساج بالكامل»[5].

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك العام، تمّ الإفراج عن إرنست بوركهارت. أصدر مجلس الأوساج قرارًا احتجاجيًّا حيث طالب «بعدم الإفراج عن أيّ شخص يُدان بارتكاب مثل هذه الجرائم الوحشية، ومن ثمّ العودة إلى مسرح هذه الجرائم»[6]. قالت جريدة كانساس سيتي تايمز في الافتتاحية: «الإفراج المشروط عن إرنست بوركهارت من سجن ولاية أوكلاهوما يرجع إلى الذاكرة قضيّة القتل غير العاديّة في الجنوب الغربي؛ القتل بالجملة لهنود الأوساج بسبب صكوك ملكيتهم النفطية. وتحرير أحد مخطّطي هذه المؤامرة بدمٍ باردٍ جدًا، بعد أن أمضى أكثر من عقدٍ من الزمن في السجن، يبدو أنه يكشف عن إحدى نقاط الضعف المُحيطة بنظام الإفراج المشروط»[7].

قالت مارجي، بعد خروج إرنست، إنه سرق منزل أحد الأوساج وأُعيد إلى السجن مرة أخرى. في العام 1947، بينما كان إرنست ما يزال في السجن، أُطلق سراح هيل بعد أن أمضى عشرين عامًا في ليفنوورث. وأكد مسؤولو مجلس الإفراج المشروط أنّ حكمهم كان يستند إلى أسباب تقدّم هيل في العمر - كان يبلغ من العمر اثنين وسبعين عامًا - وسجلّه كسجين كان جيّدًا. قال زعيم الأوساج «إنّ هيل كان يجب أن يُشنق على جرائمه»[8]. كان أعضاء القبيلة مقتنعين بأنّ قرار المجلس كان آخر بقايا التأثير السياسي لهيل. كان ممنوعًا من أن تطأ قدمه مرّةً أُخرى أوكلاهوما، ولكن وفق أقارب زارهم مرّة واحدة، قال: «لو أنّ إرنست اللعين لم يتفوّه بكلمة لكنّا أغنياء اليوم».

أخبرتني مارجي أنها لم تُقابل هيل قط، حيث تُوفي في العام 1962 في دار لرعاية المسنّين في ولاية أريزونا. لكنها رأت إرنست بعد خروجه من السجن مرّةً أُخرى. في العام 1959 مُنع من العودة إلى أوكلاهوما، وكان قد ذهب في البداية للعمل في مزرعة للأغنام في نيو مكسيكو، براتب قدره 75 دولارًا في الشهر. قال أحد المراسلين في ذلك الوقت عن وضعه الحالي: «سيكون بعيدًا كلّ البعد عن أيّام الثراء كزوج لامرأة غنية من الأوساج»[9]. في العام 1966، على أمل العودة إلى أوكلاهوما، تقدّم إرنست للحصول على عفوٍ، وكان استئنافه الذي تُلِيَ من مجلس مراجعة مكوّن من خمسة أعضاء في أوكلاهوما، مبنيًّا، على الأقلّ جزئيًا، على تعاونه مع مكتب التحقيقات في جرائم القتل (لطالما اعتبر وايت اعتراف بوركهارت إنقاذًا لقضيته). على الرغم من الاحتجاجات الشديدة من الأوساج، أتى حكم المجلس، ثلاثة إلى اثنين، لصالح العفو الذي منحه الحاكم في ما بعد. أعلنت جريدة أوكلاهومان أنّ قاتل حائزي صكوك الملكية[10] يفوز بالتصويت على العفو، والأوساج خائفون.

عاد إرنست، منحني الظهر وخفيف الشعر، إلى مقاطعة الأوساج، حيث أقام في البداية مع شقيقه برايان. تتذكّر مارجي: «عندما قابلت إرنست، كنت مراهقة ومندهشة،



إرنست بوركهارت

حيث بدت ملامحه كالجدّ الحنون. كان نحيلًا جدًّا ومع مشيب شعره بدت عيناه لطيفتين للغاية. لم يكن قاسيًا حتى بعد كلّ تلك السنوات التي أمضاها في السجن. ولم أستطع أن أفهم أنّ هذا الرجل قد فعل كلّ ذلك». وتلاشى صوتها وسط الضربات المستمرّة لطبل. بعد فترة، تابعت قائلة: «كان الأمر صعبًا جدًّا على والدي، ونُبذ هو وليز من القبيلة، وهذا مؤلمٌ للغاية. كانا بحاجة إلى الأسرة والدعم، ولم يكن لديهما أحد». أثارت التجربة غضب والدها وأصبح غاضبًا من العالم أجمع. أشار أندرو، زوج مارجي إلى أنّ إليزابيث كانت أيضًا شديدة التأثّر. قال: «كانت نوعًا ما مذعورة». هزّت مارجي برأسها، وقالت: «لم تستطع العمّة ليز البقاء في مكانٍ واحدٍ، وكانت دائمًا تُغيّر عنوانها ورقم هاتفها».

أبدت إليزابيث اهتمامًا قليلًا برؤية إرنست الذي انتقل في النهاية إلى مقطورة مسكونة بالفئران خارج مقاطعة الأوساج، ولكن كاوبوي كان يزوره في بعض الأحيان. قالت مارجي: «أعتقد أنّ جزءًا منه كان يتوق إلى والده، لكنه كان يعلم ما فعله والده، وكان يُطلق عليه اسم الديناميت العجوز». عندما تُوفي إرنست في العام 1986، تمّ حرق جثّته، وأُعطي رماده إلى كاوبوي في علبة. كان إرنست قد ترك تعليماته مع كاوبوي لينثر رماده على تلال الأوساج. وتذكّرت مارجي: «كان هذا الرماد في المنزل لعدّة أيّام، وأخيرًا، ذات ليلة أُصيب والدي بجنون حقيقي وأخذ العلبة وألقاها فوق الجسر».



كاوبوي وإليزابيث مع والدهما إرنست. وتم تمزيق وجهه من الصورة بعد سنوات

في أثناء استراحة الرقص، حيث بدأت الشمس تميل إلى الغروب، عرضت مارجي أن تأخذني في جولة حول غراي هورس. ركبنا نحن الثلاثة في سيّارتها، وقادت في طريقٍ ضيّقٍ ومليءٍ بالغبار. ليس بعيدًا عن الخيمة التي كانت تُعقد فيها الاحتفالات، كان أحد المنازل القليلة الموجودة في غراي هورس مخفيًّا وسط أشجار السنديان. قالت مارجي: «هذا هو المكان الذي نشأت فيه». ولدهشتي، كان منزلًا خشبيًا صغيرًا يُشبه المقصورة. لقد قضى الكساد العظيم على جزء كبير من ثروات الأوساج التي كانت موجودة، واستحوذ على أكثرها الأوصياء واللصوص. قالت مارجي «إنّ مولي ليست استثناء. وصل سعر برميل النفط إلى أكثر من 3 دولارات في خلال سنوات الطفرة، وانخفض إلى 65 سنتًا في العام 1931، وانخفضت المدفوعات السنوية إلى أقل من 800 دولار». في العام التالي، نشرت ذي لترري دايجست مقالًا بعنوان: «ثروة الأوساج النفطية تتلاشى»[11]، وذكرت: «تعوّد هؤلاء الهنود حياة مزدهرة وسهلة، لكن دخلهم الآن من النفط يختفي بسرعة، وكان هذا كلّ ما يملكون». وما زاد الوضع تعقيدًا هو الاستنفاد التدريجي لحقول النفط. في العام 1929، حتى قبل انهيار البورصة، أفادت جريدة وطنية أنه «في غضون خمس سنوات، إذا استمرّت خريطة النفط بالتحوّل، قد تضطرّ القبيلة إلى العودة إلى العمل»[12].

على مدى العقود القليلة التالية، بدأت معظم المدن المزدهرة، بما فيها غراي هورس، تموت. تقول مارجي: «عندما كنت صغيرة، كنت أسمع أصوات الآبار تضخّ النفط. ومن ثمّ في يوم من الأيّام توقّفَت». واليوم ما يزال أكثر من عشرة آلاف بئرٍ متناثرة في جميع أنحاء المحمية، لكنّ رجال النفط يسمّونها «مجرّد آبار»، كلّ واحدة يخرج منها أقلّ من خمسة عشر برميلًا في اليوم. وعندما أُقيم مزادٌ لعقود إيجار النفط، في تولسا في العام 2012، بيعت ثلاثة عقود إيجار بأقل من 15000 دولار في المجموع الكامل. مارجي، التي ورثت أكثر بقليل من نصف صكّ الملكية من والدها، ما تزال تتلقّى شيكًا ربع سنوي لحصتها في الحساب الائتماني لمداخيل النفط. يختلف المبلغ تبعًا لأسعار النفط، وفي السنوات الأخيرة كان يصل في العادة إلى بضعة آلاف من الدولارات. وقالت: «إنه يُساعد بالتأكيد، لكن لا يكفي أن تعيش على هذا المدخول فحسب».

وجد الأوساج مصادر جديدة للإيرادات من سبعة كازينوهات بُنِيت على أراضيهم. (كانت تُعرف سابقًا باسم كازينوهات المليون دولار). وكانت تدرّ عشرات الملايين من الدولارات لصالح الأوساج، ما يُساعدهم في تمويل حكومة الولاية والبرامج التعليمية

ومزايا الرعاية الصحية. تمكّن الأوساج أيضًا من استرداد جزءٍ على الأقل من أموال النفط التي أساءت حكومة الولايات المتحدة إدارتها على مدى عقود. في العام 2011، بعد معركة قانونية استمرّت 11 عامًا، وافقت الحكومة على تسوية دعوى قضائية رفعها الأوساج مقابل 380 مليون دولار.

في أثناء وجودنا في السيّارة، وصلنا إلى منطقة خالية في الغابة، حيث كانت هناك مقبرة قديمة، نزلنا من السيّارة وتوقّفت مارجي أمام شاهد قبر يحمل اسم مولي بوركهارت، نُقش عليه: «كانت زوجةً لطيفةً وأمًّا حنونًا وصديقةً للجميع». كانت المقابر في مكانٍ قريبٍ لأخوات مولي المقتولات وصهرها المقتول بيل سميث ووالدتها المقتولة ليزي وزوجها الأوّل هنري روان المقتول أيضًا. نظرت مارجي حولها في المقابر وسألت: «أيّ نوع من الأشخاص يستطيع فعل هذا؟». كانت مارجي قد وضعت في وقتٍ سابقٍ الزهور حول القبور، وانحنت إلى أسفل وبدأت بترتيبها، وقالت: «أحاول دائمًا تزيين شواهد القبور».



قبور مولي وأفراد عائلتها المقتولين

استأنفنا القيادة وقطعنا طريقًا ترابيًّا عبر البراري، حيث تنتشر الأعشاب الطويلة المورقة على مدّ البصر. وهي مساحة خضراء واسعة، شوّهتها مضخّات النفط الصدئة ورعي الماشية هنا وهناك. في وقتٍ سابق، عندما قُدتُ إلى غراي هورس، أذهلني

مشهد جواميس البيسون وهي تتجوّل في البراري برؤوسها المنحنية وأجسامها الصوفية الضخمة، والتي تقف على أرجلٍ رفيعة بشكلٍ إعجازي. في القرن التاسع عشر، اندثرت جواميس البيسون من البراري، ولكن في السنوات الأخيرة، دافع دعاة الحفاظ على البيئة عن وجودها وأعادوا تربيتها هناك. كان قطب الإعلام تيد تورنر يربّي جواميس البيسون في مزرعة مساحتها أربعون فدّانًا بين فيرفاكس وپوهوسكا؛ هذه المزرعة التي اشتراها الأوساج في العام 2016. واصلنا أنا ومارجي وزوجها الرحلة عبر البراري. كانت الشمس تطفو فوق حافة الأرض ككرة برتقالية مثالية، سرعان ما أصبحت نصف شمس، ثم ربعًا، قبل أن ينطفئ ضوؤها المبهر. قالت مارجي: «عندما تصبح السماء وردية أُحبّ مثل هذا المنظر». يبدو أننا كنّا نسير بلا هدف، صعودًا وهبوطًا عبر الأرض المتموّجة، مثل سفينة تسبح وسط الأمواج. وفجأة أوقفت مارجي السيّارة. كان هناك وادٍ، وفي القاع جدول متعرّج. قالت مارجي: «هناك، يقع المكان الذي أطلقوا فيه النار على آنّا. أخذني والدي لركوب الخيل وأراني المكان الذي قُتلت فيه. كنت صغيرة وكنّا مع خيولنا فقط، وكان الأمر مخيفًا».

في العام 2009، نشرت امرأة هندية تُدعى إليز باشن قصيدة تُسمى «وي غي» والتي تعني «الصلاة» عند الأوساج. تتحدّث القصيدة عن رؤية مولي بوركهارت، وتدور حول مقتل آنّا براون:

«لأنها ماتت حيث يقع الوادي في الماء

لأنهم جرّوها إلى الجدول

وفي موتها ارتدت تنّورتها الزرقاء المصنوعة من الجُوخ

على الرغم من أنّ الصقيع غطّى العشب، لكنها برَدت قدميها في الجدول

لأنني قلبت الخَشَبَة بقدمي

طاف نعلها في اتجاه مجرى النهر

لأنه، بعد الذوبان، اكتشف الصيّادون جسدها»[13].

وتنتهي القصيدة بهذه السطور:

«في خلال إكسها - سيكا زْهي - غا تْزي - ذي، قاتل زهور القمر

سوف أخوض عبر نهر السمكة السوداء، وثعالب الماء، والقندس
وسوف أتسلَق الضفَة حيث لا يموت الصفصاف».

بحلول الوقت الذي قادت فيه مارجي سيّارتها، كان ظلام الليل يلفّ البراري. المصابيح الأمامية المضاءة تُنير وحدها الطريق الترابي. قالت مارجي إنّ والديها أخبراها أوّلًا ماذا فعل إرنست وهيل عندما كانت طفلة. وأضافت: «كنت أقلق كثيرًا كلّما فعلت شيئًا شقيًّا. ماذا لو كنت البذرة السيّئة؟». قالت إنه من حينٍ لآخر يبثّ مكتب التحقيقات الفدرالي القصّة على التلفزيون المحلّي، وكانت هي وعائلتها تُشاهده وتبكي. في أثناء حديثها، أدركت أنّ عهد الإرهاب قد دمّر أجيالًا، وما يزال يُدمّر. أحد أحفاد هنري روان تحدّث ذات مرّة عن إرث جرائم القتل: «أعتقد في مكان ما في أذهاننا، قد لا نُدرك ذلك، لكنه موجود، خاصّةً إذا كان أحد أفراد العائلة قد قُتل. لديك هذه الفكرة فقط في رأسك، أنك لا تثق بأحد»[14].

خرجنا من البراري وتوجّهنا إلى وسط المدينة في فيرفاكس. على الرغم من أنها ما تزال مدينة رسميًّا، لكنها بدت على حافة النسيان. سنة بعد سنة، يتقلّص عدد سكّانها، ويعيش اليوم فيها أقلّ من أربعة عشر ألفًا. الشارع الرئيسي مصطفّ بالمباني ذات الطراز الغربي التي شُيّدت في خلال فترة الازدهار، لكن تمّ التخلي عنها الآن. توقّفنا عند أكبر واجهة متجر، وكانت واجهته مظلمة بسبب تجمّع الأوساخ وأنسجة العناكب عليها. قالت مارجي: «هذه شركة بيغ هيل التجارية. رأيتها عندما كانت ما تزال تعمل بقوّة. كانت شركةً ضخمةً وتحتوي على هذه الأخشاب الرائعة ومساند السلالم الجميلة والأرضيات الخشبية القديمة. وكانت رائحة الخشب تفوح في الأرجاء». نظرت إلى أسفل الشارع، وأنا أحاول تخيّل ما رأته مولي بوركهارت وتوم وايت؛ سيّارات بيرس أرو البخارية والمقاهي ورجال النفط والأرستقراطيين من الأوساج، والغضب الجامح الذي تأجّج هناك. الآن، حتى في ليلة السبت، كانت «مدينة أشباح»، على حدّ تعبير مارجي.

قادت سيّارتها مرّةً أخرى وتحوّلت عن الشارع الرئيسي إلى شارعٍ صغيرٍ في منطقة سكنية. بقي عددٌ قليلٌ من القصور القديمة، لكنها كانت مهجورة وخرِبة. بعض القصور كانت مَسجُونة ومختفية بالكامل داخل الكروم. في مرحلةٍ ما، تباطأت مارجي، كما لو كانت تبحث عن شيءٍ ما.

سأل زوجها: «عمّ تبحثين؟».

فقالت: «أبحث عن المكان الذي نُسف فيه المنزل».

قال: «أليس المنزل في الاتجاه الآخر؟».

قالت: «لا، إنه... ها هو»، توقفت بالقرب من المنطقة، حيث بُني منزل آخر فيها منذ ذلك الحين. ثم ذكرت مارجي شيئًا لم أرَه في أيّ من سجلّات مكتب التحقيقات الفدرالي. قال لها والدها إنه في ليلة الانفجار، كان هو وشقيقته ومولي يُخطّطون لقضاء الليلة في منزل سميث. لكنّ كاوبوي كان يُعاني من آلامٍ في الأذن، لذلك بقوا في المنزل. قالت مارجي: «لقد نجوا بأعجوبة! كان مجرّد قدر». استغرق الأمر فترةً حتى استوعبتُ ما قالت. قالت مارجي: «كان على والدي أن يعيش وهو يعلم أنّ والده حاول قتله».

لفترة من الوقت، جلسنا في السيّارة في الظلّام، نُحاول فهم ما لا يُمكن فهمه حتى بعد كلّ هذه السنوات. أخيرًا، تحرّكت مارجي إلى أمام، وقالت: «حسنًا، لماذا لا نعود إلى الرقص؟».

23 قضية لم تُغلق

التاريخ قاضٍ لا يرحم. إنه يكشف أخطاءنا المأسوية وزلّاتنا الحمقاء، ويفضح أسرارنا الأكثر حميمية، ويمتلك قوّة الإدراك المتأخّر مثل المحقّق المتغطرس الذي يبدو أنه يعرف نهاية اللغز منذ البداية. عندما كنت أبحث من خلال السجلّات التاريخية، كان بإمكاني رؤية ما لم تستطع مولي رؤيته عن زوجها. (قال لي هندي: «من سيصدّق أنّ أيّ شخص سيتزوّجك، ويقتل عائلتك من أجل نقودك؟»). أدركت عدم قدرة وايت على اكتشاف اعتراف لوسون المزيّف، أو دوافع هوفر الشرّيرة. وبينما كنت أتعمّق أكثر في جرائم قتل الأوساج - في ظلمة التشريح وشهادة الشهود وسجلّات الوصايا - بدأت أتلمّس ثُغرًا معيّنة في تحقيقات المكتب.

أصرّت السلطات على القبض على هيل والمتآمرين معه، وحكمت عليهم بالسجن المؤبّد، حيث اعتبرت أنها وجدت الأطراف المذنبين. وبعد أن تولّى وايت الوظيفة في ليفنوورث، أُغلقت القضايا بانتصار كبير، على الرغم من أنّ المكتب لم يكن قد ربط هيل بجميع جرائم القتل الأربع والعشرين. هل كان حقًّا مسؤولًا عن قتل كلّ واحدٍ منهم؟ من، على سبيل المثال، اختطف رجل النفط ماكبرايد في واشنطن العاصمة، أو ألقى دبليو دبليو فوغان من القطار السريع؟

اعتمد هيل على الآخرين لإراقة الدماء، ولم يكن هناك دليل على أنّ زمرة هيل المعتادة من أتباعه - بما في ذلك برايان بوركهارت وآسا كيربي وجون رامسي وكيلسي موريسون تتّبعوا ماكبرايد إلى عاصمة الولاية أو كانوا مع فوغان في القطار. يبدو أنّ كلّ من قتل هؤلاء الرجال نجوا من العقاب.

لم أتمكّن من العثور على أيّ خيوطٍ جديدة في قضية ماكبرايد. ولكن في يوم من الأيّام، كنت أقوم بإجراء بحث في أوكلاهوما سيتي، واتصلت بمارثا فوغان، حفيدة دبليو دبليو فوغان. كانت عاملة اجتماعية تعيش في ساليساو، أوكلاهوما، التي تبعد 160 ميلًا من عاصمة الولاية. كانت حريصة على الحديث عن جدّها وعرضت القدوم لرؤيتي،

وقالت: «دعنا نلتقِ في فندق سكيرفين، لترى لمحة عن بعض الثروات التي جلبها النفط إلى أوكلاهوما». عندما وصلت إلى الفندق، فهمت ما تعنيه. بنى الفندق رجل النفط دبليو بي سكيرفين في العام 1910، وكان يُطلق عليه أفضل فندق في الجنوب الغربي، حيث يضمّ قاعة رقصٍ تتّسع لخمسمائة شخص، وثريّا مستوردة من النمسا وأعمدة تعلوها تماثيل نصفية لإله النبيذ اليوناني باخوس. تُوفّي محامي هيل، سارجنت برنتيس فريلنغ - على ما يبدو بسبب نزيف دماغ- في إحدى غرف الفندق في أثناء لعبه سوليتير. في العام 1988، وسط تراجع النفط المدمّر، أُغلق الفندق وظلّ مغلقًا لسنوات. ولكن بعد ما يقرب من عقدين من الزمان، وبعد تجديده بقيمة 55 مليون دولار، أُعيد افتتاحه كجزءٍ من سلسلة فنادق هيلتون.

انتظرت مارثا في الردهة التي ما تزال تحتفظ بالمدخل الخشبي المقنطر، ووجوه باخوس تُطلّ إلى أسفل من السقف. عندما وصلت مارثا، كان برفقتها ابن عمّها ملفيل فوغان، أستاذ الأحياء في جامعة أوكلاهوما سنترال. قالت مارثا لي: «إنه يعرف أشياء كثيرة عن جدّنا فوغان».

كان ملفيل يحمل غلافين سميكين، وبينما كنّا نجلس على البار، وضعهما أمامي. كانا مليئين بالبحوث عن مقتل فوغان، التي جمعتها الأسرة بهوسٍ على مدى عقود حول مقتل فوغان. تضمّنت المجلّدات قصاصات صحفية باهتة (تمّ العثور على جثّة رجل عارٍ في پوهوسكا[1])، شهادة وفاة فوغان، وبيان مُخبر لمكتب التحقيقات الفدرالي: فوغان قبل وقت قصير من مقتله، ذكر أنه «جمع أدلّة كافية لوضع بيل هيل على الكرسي الكهربائي»[2]. قالت مارثا وملفيل إنّ روزا أرملة فوغان قد تُركت مع عشرة أولاد من دون مدخول. كان عليهم الانتقال من منزلهم المكوّن من طابقين إلى مرأب تخزين. قالت مارثا: «لم يكن لديهم المال للطعام، تجمّع الأوساج معًا، وساعدوا في إطعام الأسرة». ذهب بعض أطفال فوغان ومعهم والد مارثا، للعيش مع أُسر من الأوساج، حيث نشأ وهو يتحدّث لغة الأوساج ويتعلّم الرقصات التقليدية. قالت مارثا: «كان والدي يشعر بالأمان بين الأوساج».

وأوضحت أنه على الرغم من أنّ عددًا من أفراد عائلتها، اعتقدوا أنّ هيل أراد إسكات فوغان، إلّا أنّ هناك مزيدًا من المعلومات حول جريمة القتل. وقد تساءلوا من هو القاتل وكيف تمّ القتل؟ هل قُتل فوغان قبل أن يُلقى به من القطار، أم قُتل على أثر

وقوعه من القطار؟ تأكّد شخص ذو نفوذ من أنّ التحقيق كان خدعة حين أُدرج سبب الوفاة على أنه «غير معروف».

لفترة من الوقت، ناقشنا عناصر القضيّة. أوضح ملفيل أنّ فوغان كان كبيرًا وقويًّا، ما يعني أنّ القاتل كان قويًّا جسديًّا أو ساعده شركاؤه في قتله. تذكّرت أنّ فوغان أخبر زوجته بأنه يُخبّئ دليلًا على جرائم القتل - وكذلك المال للأسرة - في مخبأ سرّي. سألت ميلفيل ومارثا كيف تمكّن القاتل من تحديد مكان هذا المخبأ؟ قالت مارثا إنّ هناك احتمالين فقط: إما أنّ القاتل أخرج المعلومات بالقوّة من فوغان قبل إلقائه من القطار، أو كان القاتل شخصًا يثق فوغان فيه بما يكفي ليخبره بمثل هذه المعلومة.

قال ملفيل إنه بعد دخول هيل السجن، حاول أحد أقاربه مواصلة التحقيق في القضيّة، لكنه تلقّى تهديدًا من مجهول، بأنه إذا حاول التفتيش عن الموضوع هو والأسرة أكثر من ذلك، سينتهي بهم الأمر جميعًا مثل دبليو دبليو فوغان. بعد ذلك توقّفت الأسرة عن البحث والأسئلة. قالت مارثا: «أتذكّر حديثنا إلى عمّي الأكبر. كنت أنا وأختي نزوره قبل وفاته، وقلنا: من فعل هذا للجدّ فوغان؟ تذكر حينئذ التحذير، وطلب منّا عدم البحث في الموضوع. كان ما يزال خائفًا».

سألت إنْ كانت روزا، أو أيّ شخص آخر في العائلة، قد ذكر أيّ مشتبه بهم محتملين إلى جانب هيل.

قالت مارثا: «لا. لكن كان هناك رجلٌ اختلس الأموال من ملكية الجدّ فوغان بعد وفاته، ومن ثمّ رفعت روزا دعوى قضائية في محكمة مدنية عليه». سألت ما هو اسم الرجل. ذكرت مارثا «شيئًا مثل بيرت».

قال ميلفيل: «نعم، إتش جي بيرت»، كان رئيسًا لأحد البنوك. كتبت الاسم في دفتر ملاحظاتي، وعندما نظرت إلى أعلى استطعت أن أرى الشغف في أعينهم. فجأة خشيت أن أزرع أملًا كاذبًا فيهم وقلت لهم: «لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ على الحادثة. لكنني سأرى ما بإمكاني معرفته».

يقع الفرع الجنوبي الغربي من الأرشيف الوطني الأميركي في مستودع في فورت وورث، تكساس، وهو يُعتبر أكبر من معظم عنابر المطارات. في الداخل، في جوٍّ مضبوط

الرطوبة، وفي صفوفٍ ارتفاعها خمس عشرة قدمًا، تكدّس أكثر من مئة ألف قدم مكعب من السجلّات، وهي تشمل نصوصًا من محاكم المقاطعات الأميركية في أوكلاهوما بين عامي (1907-1969)، وسجلّات عن إعصار غالفستون القاتل في العام 1900، ومواد عن اغتيال جون ف. كينيدي، ووثائق عن العبودية، وإعادة الإعمار، وتقارير كثير من المكاتب الميدانية لمكتب الشؤون الهندية. يعكس الأرشيف حاجة الإنسان لتوثيق كلّ عمل وتوجيه، لوضع لمسة الترتيب الإداري على فوضى المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية والجرائم والحروب. داخل هذه الملفّات الضخمة، كنت أتمنّى أن أجد دليلًا بخصوص جريمة قتل دبليو دبليو فوغان.

لقد قمت بالفعل بمراجعة سجلّات المحكمة حول الدعوى القضائية التي كانت روزا فوغان قد رفعتها ضد إتش جي بيرت. للوهلة الأولى، بدا الخلاف، الذي بدأ في العام 1923، عاديًا. فوغان وبيرت، الذي كان رئيسًا لأحد البنوك في بوهوسكا، كانا صديقين مقرّبين، وكان فوغان يعمل لفترة طويلة كواحدٍ من محاميي بيرت. وحسب روزا، فإنّ بيرت مَدِيْن لزوجها المتوفّى بعشرة آلاف دولار، كانت تسعى لاستردادها.

ولكنّ الشياطين كانت تكمن في التفاصيل، وبينما كنت أتعمّق أكثر، اكتشفت أنّ الأموال المتنازع عليها كانت مرتبطة بضحية أُخرى في عهد الإرهاب، جورج بيغهارت. كان فوغان محامي بيغهارت أيضًا. وقبل أن يكشف بيغهارت معلومات حسّاسة حول جرائم القتل لفوغان - وقبل وفاته التي يُشتبه في أنها نجمت عن تسمّم في المستشفى في أوكلاهوما سيتي - كان بيغهارت قد سعى للحصول على «شهادة الكفاءة» من السلطات. مع هذه الوثيقة، لا يعود شخصًا تحت الوصاية من الحكومة، وبإمكانه أن يُنفق مدفوعاته المباشرة كما يشاء. ساعده فوغان بنجاح في تقديم طلبه. لصالح هذه وغيرها من الخدمات القانونية خطّط بيغهارت للدفع لفوغان مبلغ قدره عشرة آلاف دولار، وهو مبلغ يمكن مقارنته اليوم تقريبًا بمبلغ 140 ألف دولار. لكن بيرت جمع المال بطريقة ما، وبعد أيّام قليلة مات كُلّ من بيغهارت وفوغان.

رُفضت الدعوى التي رفعتها روزا فوغان ضدّ بيرت، ومثّلتها فيها شركة المحاماة نفسها التي مثّلت هيل في محاكمات القتل في محكمة الولاية. في البداية، أخبرتني مارثا أنّ الأسرة كانت على يقين من أنّ هيئة المحلّفين، قد تلقّت رشى، وعند الاستئناف

في نهاية المطاف، نقضت المحكمة العليا في أوكلاهوما القرار، وأمرت بيرت بتسليم مبلغ خمسة آلاف دولار إلى روزا فوغان، بالإضافة إلى الفائدة. وقالت لي مارثا: «أيّ نوع من الأشخاص يحاول أن يسرق من أرملة مفلسة ومعها عشرة أطفال؟». وحين راجعت سجلّات مختلفة في الأرشيف الوطني أيضًا، كمعلومات من مصادر أخرى، بدأت في تجميع صورة أوضح لبيرت. وُلد في ميسوري في العام 1874، وكان ابن مزارع، وتُشير سجلّات التعداد إلى أنه بحلول العام 1910 كان قد انتقل إلى پوهوسكا، وعلى ما يبدو كان واحدًا من جحافل المستوطنين الاستحواذيين والحالمين اليائسين. فتح متجرًا وأصبح لاحقًا رئيس بنك. ظهر في صورة في العام 1926 وهو يرتدي ثياب هيل نفسها، مع بدلة أنيقة وقبّعة؛ تحوّل من ابن مزارع متجوّل رجلَ أعمالٍ محترمًا.

ومع ذلك، فإنّ كثيرًا من ثروته تدفّق من «الأعمال الهندية» المستغرقة في الفساد، وهي عملية احتيال على أصحاب الملايين من الأوساج. أشار سجلّ المحكمة إلى أنّ بيرت كان يدير قروضًا تجارية تستهدف الأوساج، في خلال جلسة استماع في العام 1915 أمام لجنة مشتركة للكونغرس التي كانت تحقّق في شؤون الهنود الأميركيين. قال محامي إحدى القبائل إنّ بيرت كان يقترض المال من البيض الآخرين ومن ثمّ يعيده إلى الأوساج بأسعار فائدة فلكية. وقد شهد بذلك المحامي: «السيد بيرت وهو أحد الرجال[3] الذين أعتقد أنه من أصحاب النفوذ في الشؤون الداخلية في پوهوسكا، قال لي إنه كان يدفع 6 في المائة فقط مقابل هذا المال، وكان بإمكانه أن يكسب كثيرًا منه عن طريق إعادته إلى الهنود. إنه يحصل على المال مقابل 6 في المائة، وربما سيكون في مقدرته الحصول على نسبة فائدة أعلى بكثير - أخشى أن أخمّن النسبة - لكن في مكان ما، من 10 إلى 50 في المائة».

استخدم بيرت أساليب محاسبية غريبة لإخفاء سَرِقَته للأوساج، في جلسة استماع لوصيّة جورج بيغهارت بعد موته. أعرب المحامي عن حيرته بسبب القروض التي أُصدرت ظاهريًا من بنك بيرت إلى الأوساج من دفتر شيكات بيرت الشخصي.

أصرّ بيرت على أنه: «لم يعقد أيّ صفقات ليتستّر عليها».

- لم أقصد أيّ شيء شخصي يا سيد بيرت، لكنّ هذا غير عادي.

- إنها الطريقة التي تعاملنا بها دائمًا».

في أرشيف فورت وورث، سحبت السجلّات من مكتب المدّعي العام للمنطقة الغربية من أوكلاهوما في الولايات التي حقّقت في جرائم قتل الأوساج. لقد احتوت على شيءٍ لم أره في أيّ مكان آخر من قبل، الشهادة السرّية لهيئة المحلّفين التي حقّقت في العام 1926 في جرائم قتل الأوساج. من بين الشهود الذين أدلوا بشهاداتهم، كان هناك كثير من الشخصيات الرئيسة في القضيّة، مثل إرنست بوركهارت وديك غريغ، ولم يكن هناك شهادة لبيرت. ومع ذلك، فإنّ وكيل التأمين على الحياة الذي أصدر بوليصة لهنري روان، والتي كانت قد عيّنت هيل مستفيدًا، شهد أنّ بيرت أوصى أيضًا بهندي أميركي آخر ليستهدفه في مؤامرة بوليصة التأمين.

لقد وجدت لاحقًا، وسط آلاف الصفحات من السجلّات، في أرشيف مكتب التحقيق لجرائم القتل، إشارتين إلى بيرت. الأولى في تقرير عميل من محادثة مع مخبر موثوق به، والذي أشار إلى أنّ بيرت وهيل كانا صديقين «حميمين للغاية»[4]. وما هو أكثر من ذلك، قال المخبر: «إن بيرت وهيل اقتسما مبلغًا كبيرًا من مجموع المال الذي حُصل عليه من بيغهارت[5]. لم يكن واضحًا من التقرير ما هو المبلغ بالضبط، لكن المكتب لاحظ ذلك بعد وفاة بيغهارت. نجح هيل في المطالبة بممتلكاته مقابل ستة آلاف دولار، عن طريق تقديم مذكّرة دائن مزيّفة. ربّما تضمّنت «المؤامرة» أيضًا مبلغ عشرة آلاف دولار الذي حاول بيرت جنيه.

ومع ذلك، على عكس حقوق الملكية التي لا تُقدّر بثمن، المشمولة في قتل أفراد عائلة مولي - أو بوليصة التأمين على الحياة البالغة خمسة وعشرين ألف دولار في حال وفاة روان - لم يمثّل أيّ من هذه المبالغ، خاصةً إذا تمّ تقسيمها، حافزًا كبيرًا للقتل. قد يفسّر هذا سبب عدم قيام وزارة العدل بمقاضاة هيل بتهمة قتل بيغهارت ولم تلاحق بيرت أكثر من ذلك. كان واضحًا أنّ وايت ورجاله كانوا مرتابين بشدّة بشأن بيرت. في تقريرٍ ثانٍ وجدته في ملفّات المكتب، وصف العملاء بيرت بأنه «قاتل»[6].

لعدّة أيّام، عدت إلى الأرشيف محاولًا العثور على دافعٍ مالي لقتل بيغهارت. نظرت من خلال سجلّات الأوصياء لمعرفة من كان سيستفيد من وفاته. كتبت مارثا إليّ: «كما قال والدي دائمًا، اتّبع المال». لم يكن هناك دليل على أنّ هيل أو بيرت أو أيّ رجلٍ أبيض آخر قد ورث ثروة بيغهارت، والتي كانت انتقلت إلى زوجته وابنته الصغيرة. ولكنّ

ابنة بيغهارت كان لها وصيّ ما يجعله يُسيطر على المال. لقد قلبت السجلّات حتى رأيت على ملفّ اسم الوصيّ عليها: هـ . ج. بيرت.

شعرت بنبضات قلبي تتسارع عندما راجعت الحقائق. علمت أنّ بيرت كان شريكًا وثيقًا لهيل الذي كان متورّطًا في الاستغلال المنهجي للأوساج، وكنت أعرف أنّ بيرت تمكّن من الوصول إلى ثروة بيغهارت بأن جعل نفسه وصيًّا على ابنته. وكنت أعرف، من سجلّات الحكومة، أنّ بيرت كان أيضًا وصيًّا على كثير من الأوساج الآخرين، بما في ذلك الشخص الذي مات. كما كنت أعرف أنّ بيرت كان مع بيغهارت في الوقت الذي كان فيه مستسلمًا لتسمّم واضح. لاحظ رجل القانون المحلّي أنّ كلًّا من بيرت وهيل زارا بيغهارت قبل وقتٍ قصيرٍ من موته. وعرفت أنّ المكتب اعتبر بيرت قاتلًا.

أشارت أدلّة أُخرى إلى تورّط بيرت في الجريمة. أظهرت سجلّات المحكمة، على سبيل المثال، أنّ بيرت قد سرق الأموال التي كان بيغهارت ينوي إعطاءها إلى فوغان، على الرغم من أنّ بيرت زعم أنه صديق فوغان المقرّب. ربّما كان فوغان متعاميًا عن مكائد صديقه، وقام بذكر التحقيق الذي أجراه، وأفشى بمكان المخبأ الذي يحتوي على أمواله والأدلّة. وعندما ذهب فوغان ليرى بيغهارت على فراش الموت، ربّما يكون بيغهارت قد اتّهم، ليس هيل فحسب، ولكن بيرت أيضًا، في مؤامرات القتل.

إن نظرية تورّط بيرت في مقتل بيغهارت وفوغان، على الرغم من ذلك، ما تزال تستند إلى أدلّة ظرفية. لم أكن أعرف حتى من كان مع فوغان عندما تمّ إلقاؤه من القطار. ومن ثمّ، في أثناء بحثي في الصحف القديمة، وجدت مقالًا في جريدة پوهوسكا ديلي كابيتال عن مأتم فوغان. في جزءٍ من القصّة، ذُكر أنّ بيرت كان استقلّ القطار مع فوغان في أوكلاهوما سيتي وكانا في الرحلة نفسها عندما اختفى فوغان من مقعده. ووفق قصّة أخرى في الصحيفة، كان بيرت هو من أبلغ عن اختفاء فوغان. قبل أن أغادر دار الأرشيف الوطني في فورت وورث، صادفت ملفًّا يحتوي على مقابلة مع مُخبر المكتب الذي كان قريبًا من هيل وقدّم أدلّة حاسمة ضدّه في قضايا القتل الأخرى. سُئل المخبر إذا كان لديه أيّ معلوماتٍ بخصوص مقتل فوغان.

أجاب: «نعم، أعتقد أنّ هيرب بيرت مسؤولٌ عن هذه الجريمة»[7].

كنت مدركًا ظلم اتهام رجلٍ ببشاعة الجرائم، عندما لا يستطيع الإجابة عن الأسئلة أو الدفاع عن نفسه. عندما اتصلت بمارثا فوغان لأخبرها بما توصّلت إليه، شدّدت بالتحديد على ما يمكن أن نعرفه على وجه اليقين. ومن ثمّ قرأت لها البحث الذي جمعته، كما ذكرت أنه في مكتبة في نيو مكسيكو، صادفت ملاحظات من مقابلة غير منشورة مع مارشال مدينة فيرفاكس، الذي كان قد حقّق في مقتل الأوساج. وأشار إلى أنّ بيرت كان متورّطًا في مقتل فوغان وأنّ عمدة إحدى مدن الازدهار في العام 1925، - وهو مجرم (أو سفاح)- قد ساعد بيرت على التخلّص من فوغان ورميه من القطار. كان بيرت خائفًا جدًّا وكان يفكّر جديًّا بالهروب. وفي الواقع، انتقل بيرت فجأة إلى كانساس في العام نفسه. عندما انتهيت من استعراض كلّ التفاصيل، صمتت مارثا، ثم بكت بهدوء.

قلت: «أنا آسف».

قالت: «لا، هذا يبعث على الارتياح. لقد كانت هذه القصّة عالقة مع عائلتي لفترة طويلة».

في أثناء البحث عن جرائم القتل، غالبًا ما شعرت أنني كنت أطارد التاريخ حتى عندما كان يهرب بعيدًا، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ بعد أن تحدّثنا أنا ومارثا، حتى علمت بعدها أنّ مارثا ماتت بسبب قصور في القلب، كانت بعمر الخامسة والستين. قال لي ميلفيل بحزن: «لقد فقدنا رابطًا آخر مع الماضي».



24 الوقوف بين عالمين

في إحدى الليالي في أيار/مايو من العام 2013، كان من المقرّر أن يُعرض على مسرح قسطنطين في پوهوسكا، تسجيل فيديو لأداءٍ من رقص الباليه «واهزازي»، فمنذ فترة طويلة رُبِط الأوساج بعالم الرقص الكلاسيكي، بعد أن أنجبت المقاطعة اثنتين من أعظم راقصات الباليه، وهما الأختان ماريا ومارجوري تالشيف. تُعتبر ماريا أوّل راقصة باليه محترفة في أميركا، وُلِدت في فيرفاكس في العام 1925، وفي سيرتها الذاتية، تذكّرت ثروات النفط، ولاحظت أنّ والدها بدا وكأنه يمتلك المدينة: «كان لديه ممتلكات في كلّ مكان، ومن بينها دار السينما المحلّية في الشارع الرئيسي، وقاعة البلياردو المواجهة له، وكان منزلنا المبني من الطوب والمؤلّف من عشر غرف يقف على تلّ يُطلّ على المحمية»[1]. كما تذكّرت «أنّ منزلًا قريبًا تعرّض للانفجار وأنّ الجميع في الداخل قُتلوا من أجل صكوك ملكيتهم»[2].

سجّلت «واهزازي» التاريخ الكاسح للأوساج، بما في ذلك فترة عهد الإرهاب، و«واهزازي» تعني «أوساج». كنت أتوق لرؤية الباليه، حتى لو كان مجرّد شريط تسجيل لواحد من العروض. وبعد شراء التذكرة توجّهت إلى مسرح پوهوسكا، حيث جلست مولي وإرنست بوركهارت ذات مرّة على الكراسي المخملية، وحيث كان بارونات النفط يتجمّعون للمزادات في أثناء الطقس السيّئ.

في أوائل الثمانينيات، كان المسرح معرّضًا للهدم، لكنّ مجموعة من السكّان المحلّيين تطوّعت لاستعادته، وإزالة شبكات العنكبوت، وتلميع الألواح النحاسية على الباب الأمامي، وإزالة طبقات من المواد اللزجة على أرضية الردهة لتكشف عن فسيفساء على شكل نجمة.



ما تزال المحكمة التي حوكم فيها إرنست بوركهارت تلوح في الأفق فوق بوهوسكا

كانت القاعة مزدحمة، ووجدت مقعدي وانطفأت الأضواء وبدأ الفيلم. وجاء في البيان الافتتاحي: «في وقتٍ مبكر غالبًا ما تصف المجلّات التبشيرية الأوساج بأنهم أسعد الناس في العالم... كانوا أحرارًا لأنهم لم يمتلكوا شيئًا، ولم يمتلكهم شيء. لكن أمة الأوساج كانت في طريق الاندفاعة الاقتصادية للعالم الأوروبي... والحياة كما عرفوها ذات يوم لن تكون أبدًا كما كانت». وتابع البيان: «قُلوبنا اليوم مُنقسمة في عالمين، نحن أقوياء وشجعان، نتعلّم أن نمشي في هذين العالمين متشبّثين بخيوط ثقافتنا وتقاليدنا حيث نعيش في مجتمعٍ لا يغلب عليه الطابع الهندي. وسيبقى تاريخنا وثقافتنا وقلوبنا ومنزلنا دائمًا هنا، سنمدّ أرجلنا عبر السهول ونُغنّي الأغاني في الصباح وسنُواصل المسيرة بقلبٍ ينبض على صوت الطبل باستمرار، ونسير في العالمين».

أظهرت رقصة الباليه بقوّة هذين العالمين المتصادمين. وأظهرت الأوساج من الوقت الذي جابوا فيه السهول إلى أوّل لقاءٍ مع المستكشفين والمبشّرين الأوروبيين، وصولًا إلى طفرة الذهب الأسود. في وقت من الأوقات، ظهر الراقصون وهم يرتدون زيّ الزعانف، ويلتفّون بشكل جامحٍ على موسيقى الجاز، وفجأة قاطعتهم أصوات الانفجار. أصبحت الموسيقى والرقص حزينين، حيث نقلت سلسلة من الرقصات الجنائزية عهد الإرهاب القاتل. أحد المعزّين يُمثّل دور هيل ويرتدي قناعًا ليُخفي وجهه الشرّير. مشهدٌ لاحقٌ

يُصوّر مساهمات الأوساج في الجهود العسكرية الأميركية؛ كان كلارنس ليونارد تينكر، عضوًا في قبيلة الأوساج، وأول أميركي أصلي بالكامل (أي من أمٍ وأبٍ من الأوساج) يصل إلى رتبة رائد عام، وتوفّي عندما فُقدت طائرته في خلال الحرب العالمية الثانية. ولدهشتي، ظهرت شخصية مألوفة على الشاشة. كانت مارجي بوركهارت، التي كان لها دور قصير غير راقص في الباليه، مثّلت فيه والدة أحد الجنود المغادرين. كانت تتحرّك برشاقة عبر خشبة المسرح، وترتدي شالًا حول كتفيها، مثل الطريقة التي تعوّدت مولي فيها ارتداء بطّانيتها الهندية.

في ختام العرض ظلّ عدد من الناس لفترة حول المسرح. لم أرَ مارجي حاضرة، لكنها أخبرتني لاحقًا أنها عندما رأت لأوّل مرّة تصوير الباليه لعهد الإرهاب آلمها المشهد كثيرًا. وأضافت: «لم أكن أعتقد أنه سيُؤثّر فيّ هكذا، لكنه فعل. كان هناك كثير من المشاعر». والآن، التقيت بين الحضور مديرة المتحف كاثرين ريد كورن، وسألتني كيف يسير بحثي، وعندما ذكرت التورّط المحتمل لإتش جيه بيرت - شخص لم يُربط علنًا بعمليات القتل- لم تتفاجأ وطلبت مني أن آتي لرؤيتها في المتحف في اليوم التالي صباحًا.

عندما وصلت، وجدتها جالسة إلى مكتبها المحاط بالتحف، قالت: «انظر إلى هذا»، وسلّمتني نسخة من خطاب قديمٍ هشّ، كان مكتوبًا بخطٍ أنيقٍ، وكان بتاريخ 27 نوفمبر 1931. قالت ريد كورن: «انظر إلى التوقيع الموجود في الأسفل». كان الاسم «دبليو. ك. هيل».

وأوضحت أنّ هيل أرسل هذه الرسالة من السجن إلى أحد أفراد القبيلة، وأنه منذ وقت ليس ببعيد تبرّع أحد أحفاده بالنسخة إلى المتحف. عندما قرأت الرسالة، أُصبت بالدهشة من خلال لهجة التفاؤل التي كانت لديه. وكتب هيل: «أنا بصحة جيدة، ووزني 83 كيلو غرامًا، وليس لديّ شيب»[3]. وقال إنه عندما يخرج من السجن، كان يأمل في العودة إلى المحمية، مضيفًا: «أُفضّل العيش في غراي هورس أكثر من أيّ مكان على وجه الأرض». وأصرَّ: «سأظلّ دائمًا الصديق الحقيقي للأوساج». هزّت ريد كورن رأسها وقالت: «هل بإمكانك تصديق ذلك؟».

افترضت أنها دعتني إلى المتحف من أجل أن تريني الرسالة، لكن سرعان ما

اكتشفت أنّ لديها سببًا آخر. وقالت لي: «اعتقد أنّ هذا قد يكون الوقت المناسب لأخبرك تلك القصّة التي ذكرتها من قبل، عن جدي». وشرحت لي أنه بعد أن طلّق جدُّها جدّتَها تزوّج من امرأة بيضاء، وفي العام 1931، بدأ يشكّ في أنّ زوجته الثانية كانت تُسمّمه ببطء. تتذكّر ريد كورن أنه عندما كان الأقارب يزورن منزل جدّها، كان خائفًا ويقول لهم: «لا تأكلوا أو تشربوا أيّ شيء في هذا المنزل». بعد فترة ليست بطويلة، سقط جدّ ريد كورن على الأرض ميتًا، وكان يبلغ من العمر ستّة وأربعين عامًا. قالت ريد كورن: «حتى ذلك الحين كان في صحّة جيّدة. لم يكن يشكو من أيّ شي، وقد سرقت زوجته مالًا كثيرًا». كانت الأسرة مقتنعة بأنه قد تسمّم، لكن لم يكن هناك تحقيق مطلقًا: «في ذلك الوقت، كان الجميع يُغطّون هذه الأشياء، من متعهّدي الدفن، والأطبّاء والشرطة». لم تعرف ريد كورن أكثر من هذه التفاصيل المتشظّية التي رواها لها الأقارب، وأعربت عن أملها في أن تتمكّن من التحقيق بوفاة جدّها. بعد وقفة طويلة، قالت: «كان هناك كثير من جرائم القتل في عهد الإرهاب أكثر من العدد الذي عرفه الناس، أكثر بكثير».

في خلال السنوات التي قضيتها في البحث عن جرائم قتل الأوساج، كنت قد حوّلت مكتبي الصغير في نيويورك إلى مستودعٍ قاتم. كانت الأرض والرفوف مكدّسة بآلاف صفحات مكتب التحقيقات الفدرالي من الوثائق، وتقارير التشريح، والوصايا الأخيرة، ومسرح الجريمة والصور الفوتوغرافية، ومحاضر المحاكمات، وتحليلات المستندات المزوّرة، وبصمات الأصابع، ودراسات المقذوفات والمتفجّرات، والسجلّات المصرفية، وإفادات شهود العيان، والاعترافات، ومذكّرات السجن المُعترَض عليها، وشهادة هيئة المحلّفين الكبرى، وسجلّات المحقّقين الخاصّين، وصور المشتبه بهم. كلّما حصلت على وثيقة جديدة، مثل نسخة رسالة هيل التي أظهرتها لي ريد كورن، كنت أضعها وسط الأكوام (نسختي المثيرة للشفقة من نظام حفظ ملفّات هوفر). على الرغم من ظلامية الموضوع، أعطاني كلّ اكتشاف جديد بعض الأمل في أنني قد أكون قادرًا على سدّ الثغر في السجلّات التاريخية، تلك المساحات التي يبدو أنها لم تُسجّل شهودًا أو أصواتًا، بل صمت القبور فحسب.



صورة لبلاكي طومسون، من مسرح الجريمة الذي قُتل بالرصاص في العام 1934 بعد هروبه من السجن

كانت حالة جدّ ريد كورن أحد تلك الفراغات التي حاولت سدّها. لم يكن هناك تحقيق بالوفاة، وجميع الشخصيات الرئيسية ماتت، ولذلك لم أجد أيّ أثرٍ للأدلّة لاتّباعه. عمليًّا، يبدو أنّ كلّ آثار حياة الجدّ وموته، والعواطف والاضطرابات والوحشية المُحتمَلة التي مرّ بها، قد جُرِفت بعيدًا. ومع ذلك، دفعتني المحادثة مع ريد كورن إلى ذلك التحقيق بشكلٍ أعمق، وربّما كان أكثر ما يُحيّر في قضايا قتل الأوساج، تلك الخاصّة بتشارلز وايتهورن.

جريمة القتل التي تحمل جميع علامات التخطيط المدبّر من هيل، والتي وقعت في أيار/مايو من العام 1921، تمّت في الفترة الزمنية نفسها التي قُتلت فيها آنّا براون، وهي الفترة التي تُعتبر بداية السنوات الأربع لعهد الإرهاب. ومع ذلك، لم يظهر أيّ دليل على الإطلاق يُشير إلى تورّط هيل أو أتباعه في مقتل وايتهورن.

على الرغم من أنّ القضيّة لم تحلّ، فقد كانت في الأصل نقطة تركيز رئيسيه للمحقّقين، وعندما عدت إلى نيويورك جمعت مواد إثبات تتعلّق بالجريمة. في واحدةٍ من الأكوام الكبيرة والكثيرة في مكتبي، وجدت السجلّات من المحقّقين الخاصّين الذين

عيّنهم الأوصياء على ممتلكات وايتهورن بعد وفاته. كانت قراءة تقاريرهم تُشبه الرواية الرخيصة الممزّقة، مع سطور مثل «يأتي هذا الدليل من مصدر موثوق»[4]. في أثناء قراءتي التقارير، دوّنت التفاصيل الأساسية:

آخر مرّة شُوهد فيها وايتهورن على قيد الحياة، كانت في پوهوسكا في أيار/ مايو من العام 1921. رصده الشاهد حوالى الساعة 8:00 مساءً، خارج مسرح قسطنطين.

اكتُشفت الجثّة بعد أسبوعين على تلّة تبعد حوالى ميل واحد من وسط مدينة پوهوسكا.

وبحسب ما قاله متعهّد دفن الموتى، فإنّ «وضع الجسد يُشير إلى أنه سقط في هذا الوضع، ولم يتمّ نقله إلى هناك».

السلاح: مسدّس من عيار 0.32، أُطلق منه النار - مرّتين - بين العينين. قاتل محترف؟

وأشارت التقارير إلى أنّ المحامي فوغان كان حريصًا على مساعدة المخبرين الخاصّين، وكتب محقّق خاصّ: «فوغان[5] الذي يعرف الهنود جيّدًا، أبدى اهتمامه الحقيقي بالقضية، وكان يريد مقاضاة الطرف المذنب». لا هذا ولا ذاك من المحقّقين الخاصّين، ولا فوغان، كانت لديهم أيّ فكرة عن أنّ فوغان نفسه سيصبح في النهاية هدفًا، وسيُقتل في غضون عامين، ووجدت نفسي أتوسّل إليهم لأرى ما لم يتمكّنوا من رؤيته. أثبت كومستوك - المحامي والوصيّ - على الرغم من أنّ هوفر كانت لديه شكوك أولية تجاهه، أنه جدير بالثقة، وقد حاول أيضًا مساعدة المحقّقين الخاصّين الذين يحقّقون في جرائم القتل. كتب محقّق خاص: «السيد. كومستوك تلقّى بعض المعلومات» مشيرًا إلى أنّ كومستوك قد ذكر أنه في 14 أيار/مايو شاهد رجلًا مجهول الهوية يتربّص على التلّة، حيث تمّ العثور على جثة وايتهورن في وقت لاحق»[6].

ولأنّ قضيّة وايتهورن لم تُحلّ رسميًا، توقّعت أن تختفي آثار الأدلّة في مستنقع. في الواقع، كانت التقارير واضحة جدًّا. استنادًا إلى خيوط من المخبرين ومن الأدلّة الظرفية، بدأ المحقّقون الخاصّون تطوير نظرية بلّورية للجريمة. بعد وفاة وايتهورن، تزوّجت أرملته هاتي نصفها أبيض ونصفها الآخر من الشيان، من رجل أبيض عديم

الضمير اسمه ليروي سميثرمان. عَلِم المحقّقون الخاصّون أنّ الزواج كان مدبّرًا من ميني سافاج وهي «امرأة ذكية، لا أخلاقية، قادرة»[7]، كما قال المحقّق، وكانت تُدير فُندُقًا في پوهوسكا. شكّ المحقّقون الخاصون في أنها وسميثرمان، بالإضافة إلى آخرين من المتآمرين، رتّبوا لقتل وايتهورن من أجل سرقة صكّ ملكيته وثروته. مع مرور الوقت، بدأ كثير من المحقّقين يصدّقون أنّ هاتي وايتهورن التي سرعان ما بدّدت بعضًا من ثروة زوجها بعد وفاته كانت أيضًا متواطئة.

أخبر أحد المخبرين محقّقًا خاصًا أنه ليس هناك شكٌّ في أنّ هاتي وايتهورن كانت «لاعبًا أساسيًّا في قتل تشارلي وايتهورن»[8].

وُضِع مخبر خاصّ متخفّ في فندق سافاج «ليتنصّت على ما يُقال عبر الهاتف»[9]. وكتب المحقّق في تقريره أنّ المخبر المتخفيّ جيّد على ما أعتقد، ولكنه سيحتاج إلى بعض التدريب. وفي الوقت نفسه، أصبحت أخت ميني سافاج مصدرًا غنيًّا للمعلومات للمحقّقين. كشفت أنها رأت ما كان من المُحتمَل أن يكون ملفّ سلاح جريمة القتل: «كانت ميني تعدّ[10] السرير وكان المسدّس تحت الوسادة فالتقطته... كان المسدّس كبيرًا نوعًا ما، ولونه داكن». على الرغم من كلّ هذا، فإنّ المحقّقين الخاصّين بطريقة أو بأخرى فشلوا في تأمين أدلّة كافية لمقاضاة أيٍّ من المشتبه بهم، أو ربّما رُشوا. بدأ العملاء من مكتب التحقيقات التحقيق في القضيّة، في العام 1923، وخلصوا أيضًا إلى أنّ سافاج وسميثرمان وهاتي وايتهورن كانوا مسؤولين عن القتل.

كتب أحد العملاء: «من الأدلّة التي جُمعت حتى الآن، يبدو أنّ هاتي وايتهورن هي التي تسبّبت في مقتله من أجل أن تحصل على ممتلكاته»[11]. نفت هاتي أيّ تورّطٍ لها في الجريمة، لكنها قالت لأحد العملاء: «أنا ذكية مثلك أنت، ولقد حُذِّرت منك»[12]. أضافت: «أنت تريد فقط أن أثق بك، وإذا أخبرتك سترسلني إلى الكرسي الكهربائي».

بحلول ذلك الوقت، كان هناك كثير من التقلّبات المزعجة في القضيّة. فرَّ زوج هاتي الجديد، سميثرمان من البلاد إلى المكسيك، وأخذ معه سيّارتها وقسمًا من مالها. ومن ثم أقحم رجل يُدعى ج. ج فوكنر، وصفه عميل بأنه «محتال، لا مبادئ له، ومنافق[13]»، نفسه في حياة هاتي، ومن الواضح أنه ابتزّها بمعلوماتٍ كانت تُشاركها معه بخصوص دورها في جريمة القتل. إحدى شقيقات هاتي صرخت في فوكنر بأنه «ابن عاهرة ويجب أن يتوقّف عن ابتزاز هاتي»، فردّ فوكنر على الفور بأنه يعرف كلّ شيء عن هاتي والقتل، ومن الأفضل أن تكونا حذرتين عندما تتحدّثان إليه. في تقرير، صرّح العميل بيرغر

وزميله: «نحن نُؤمن بقوّةٍ[14] بأنّ فوكنر قد نجح في الحصول على نوعٍ من الاعتراف من هاتي، واستخدمه ليجعلها تفعل ما يراه مناسبًا، من خلال تهديدها بالملاحقة القضائية وفضحها، وأنّ هدفه هو السيطرة على ممتلكاتها عند وفاتها، والحصول على المال منها في أثناء حياتها».

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أُصيبت هاتي بمرض يبدو غير قابل للشفاء. وأشار العملاء إلى أنها بدت «عرضة للموت في أيّ وقت»[15]. بشكلٍ لافت. لم يعبّر أيّ من العملاء عن شكوكهم حول طبيعة مرضها، على الرغم من أنّ كثيرًا من الضحايا في خلال عهد الإرهاب قد تسمّموا. كان لفوكنر زوجة، وقد أخبرت العملاء أنه «يرفض السماح بنقل هاتي إلى المستشفى[16] ... ليبقيها تحت تأثيره»[17]. ووفق أخوات هاتي، كان فوكنر قد بدأ في سرقة المال منها وهي «تحت تأثير المخدّر».

تمكّنت الأخوات في النهاية من إدخال هاتي إلى المستشفى، وحاول العملاء إقناعها بالإدلاء باعتراف، معتقدين أنها على وشك الموت. في تقرير، كتب العملاء أنها اعترفت لكومستوك بأنها «تعرف الحقائق ولم تقل ما تعرفه»[18] وأنّ «هم» - من المفترض أن تكون ميني سافاج ومتآمرين آخرين- أرسلوا هاتي بعيدًا في الوقت الذي قُتل فيه وايتهورن. لكنّ هاتي لم تكشف عن أيّ شيء آخر. وليس مثيرًا للدهشة أنها تعافت من مرضها الغامض بعد أن تحرّرت من قبضة فوكنر.

بحلول الوقت الذي ظهر فيه توم وايت لبدء تحقيقه في العام 1925، كان المكتب قد أسقط قضيّة وايتهورن. وكتب العميل بيرغر باستخفاف أنها كانت «جريمة قتل منفردة»[19]، وغير مرتبطة بعمليات القتل المنهجية. ولأنّ القضية لا تنسجم مع النظرية الدرامية للمكتب عن جرائم القتل، وهي أنّ العقل المدبّر كان مسؤولًا عن جميع عمليات القتل، وعندما تمّ القبض عليه وعلى أتباعه، حُلّت قضيّة جرائم قتل الأوساج. ومع ذلك، وبعد فوات الأوان، تبيّن أنّ هيل لم يكن له دورٌ في مؤامرة وايتهورن، لكنه كان السبب الرئيسي في منهجية القتل، مثل الموت المشبوه لجدّ ريد كورن، والمؤامرة ضدّ وايتهورن، والمؤامرة الفاشلة ضدّ أرملته. كشف التاريخ السرّي لعهد الإرهاب، أنّ شرّ هيل لم يكن حالة شاذّة.

25 المخطوط الضائع

عندما زرت مقاطعة الأوساج مرّةً أخرى في حزيران/يونيو من العام 2015، قالت لي ريد كورن: «يجب أن تذهب إلى هناك وترى ما يحدث». وبحسب توجيهاتها، قُدت سيّارتي عبر مدينة پوهوسكا، وتوجّهت غربًا عبر البراري، والأعشاب الطويلة، حتى رأيت ما وصفته لي بوضوح؛ عشرات الأبراج المعدنية تغزو السماء، كان طول كلّ واحدٍ منها 420 قدمًا، أيّ ما يُعادل ناطحة سحاب من ثلاثين طابقًا، ولها ثلاث شفرات طنّانة، وكان النصل الواحد بطول جناح طائرة ركّاب. كانت الأبراج جزءًا من مزرعة رياح امتدّت على أكثر من ثمانية آلاف فدان، وكان من المتوقّع في نهاية المطاف توفير الكهرباء لحوالى خمسة وأربعين ألف منزل في أوكلاهوما.

بعد أكثر من مائة عام من اكتشاف النفط في أرض الأوساج، كان مصدر ثوري جديد للطاقة يُحوّل المنطقة. لكن هذه المرّة اعتبر الأوساج أنه يُمثّل تهديدًا لهم ولنفطهم تحت أرض المحمية. قالت ريد كورن عندما عدت: «هل رأيتها؟» وهي تقصد التوربينات. «جاءت هذه الشركة إلى هنا ووضعتها من دون إذن منّا». الحكومة الاتحادية التي تُمثل مقاطعة الأوساج، رفعت دعوى قضائية ضدّ (شركة) إينيل، تكتّل الطاقة الإيطالي الذي يمتلك مزرعة الرياح. بالاستناد إلى شروط قانون التخصيص للعام 1906، زعمت الدعوى أنّ الشركة كانت تنقّب عن الحجر الجيري والمعادن الأخرى في أثناء بناء أُسس التوربينات، وكانت بحاجة إلى موافقة الأوساج على مواصلة العمليات، ومن ناحية أخرى كانت شركة إينيل تنتهك سيادة الأوساج على أرض محميتهم. أصرّت الشركة على أنها لم تكن تعمل في مجال التعدين، وبالتالي لم تكن بحاجة إلى عقد إيجار من الأوساج قال ممثّل عن المشروع للصحافة: «نحن لا نتعرّض لحقوق الأوساج من المعادن»[1].

في 10 تموز/يوليو من العام 2015، عند الفجر، ظهر الرئيس وعشرات من الأعضاء من شعب الأوساج تحت طواحين الهواء للصلاة إلى واه كون تاه. وعندما أشرق ضوء الشمس من خلال الضباب الأزرق الرقيق وشعّ من خلال الشفرات، قال أحد المصلّين: «إنّ الأوساج أناس متواضعون، يطلبون مساعدتك».



تم بناء مزرعة رياح جديدة فوق محمية أوساج

بعد فترة وجيزة، انحازت المحكمة إلى إينيل، قائلة إنه على الرغم من أنّ تفسير الحكومة لقانون المخصّصات لا شكّ فيه وهو لصالح الأوساج، لم يقم «المدّعى عليهم بتسويق أو بيع المعادن أو المشاركة في تطوير المعادن[2]، ونتيجة لذلك هم ليسوا مُطالَبين بالحصول على عقد إيجار». كانت الخطط قيد التنفيذ بالفعل لمزرعة رياح ثانية في المقاطعة.

كان للوائح البيئية الحكومية الجديدة للتنقيب عن النفط تأثير أكثر عمقًا على نفط محمية الأوساج تحت الأرض. كانت اللوائح الصادرة في العام 2014 مكلفة للغاية، ونتيجة لذلك توقّف عمّال النفط عمليًّا عن حفر آبارٍ جديدة، بالنظر إلى أنها تنتج عوائد هامشية فقط. قال منتج نفط لأحد المراسلين: «لأوّل مرّة منذ مائة عام، لا يوجد حفرٌ في مقاطعة الأوساج»[3].

واصلت البحث عن جرائم القتل، لكنْ كان هناك عددٌ أقل من الأرشيفات لفحصها، وبالتالي عددٌ أقلّ من الوثائق. ذات يوم، في مكتبة عامة في پوهوسكا، لاحظتُ مخطوطة، مطوية بشكلٍ حلزوني وسط مجلّدات عن تاريخ الأوساج عنوانها «قتل ماري دينويا بيليو

لويس»، ويبدو أنها جمعت باليد وصفحاتها مطبوعة على الكمبيوتر. وفق مذكّرة تمهيدية مؤرّخة في كانون الثاني/يناير من العام 1998، جمعت المخطوطة آنّا ماري جيفرسون، حفيدة أخت ماري لويس. كتبت جيفرسون «جدّة أمي... أخبرتني أوّلًا قصّة ماري. سمعت عن هذا لأوّل مرّة حوالى العام 1975». بدأت جيفرسون تجميع أجزاءٍ من المعلومات حول جريمة القتل من الأقارب ومقتطفات الصحف وغيرها من السجلّات. إنه مَجهُودٌ امتدّ على مدى عقدين من الزمن، ولا بدّ من أنها تركت نسخة من المخطوطة في المكتبة، عازِمةً على ألّا تقع القصّة في فَجوَة التاريخ.

جلست وبدأت القراءة؛ ماري لويس، المولودة في العام 1861، كانت عضوًا مسجّلًا في القبيلة. كتبت جيفرسون: «بهذا المال، كانت قادرة على الاستمتاع بحياة مزدهرة». انتهى زواجا لويس بالطلاق. في العام 1918، في منتصف الخمسينات من عمرها، كانت تُربّي ولدًا بالتبنّي يبلغ من العمر عشر سنوات. في ذلك الصيف، اصطحبت لويس ابنتها في رحلة صغيرة إلى ليبرتي، تكساس، مدينة تبعد حوالى أربعين ميلًا عن هيوستن على ضفاف نهر تيرنيتي. كانت لويس برفقة رجلين أبيضين، توماس ميدلتون صديقها، ورفيق له. اشتروا بمال لويس قارب سكن، وبقوا على النهر، ثم في 18 آب/أغسطس اختفت لويس. بعد أن فشلت السلطات في التحقيق، قال أحد أقارب لويس: «لم يكونوا ليفعلوا أيّ شيء على الإطلاق». عيّنت عائلتها محقّقًا خاصًا، اكتشف بعد اختفاء لويس أنّ ميدلتون تظاهر بأنه هو الابن المتبنّى لصرف عدد من الشيكات الخاصّة بها. في كانون الثاني/يناير من العام 1919، بعد أن احتجزت الشرطة ميدلتون ورفيقه، استجوبهما المحقّق الخاص. قال لميدلتون إنه «من الأفضل مائة مرّة أن يجد السيّدة العجوز على قيد الحياة بدلًا من أن يجدها ميتة»، مضيفًا: «إذا كان بإمكانك إعطاء أيّ معلومات لتحديد مكانها، فذلك سوف يساعدك». فأصرّ ميدلتون على أنه لا يعرف إلى أين ذهبت، وقال: «أنا لست خائفًا».

لم يفشِ هو وصديقه أيّ شيء، لكنّ شاهدين كشفا أنهما رأيا في اليوم الذي اختفت فيه لويس على بُعد أميال من مركبها العائم، سيّارة تتّجه نحو مستنقع يعجّ بالثعابين. في 18 كانون الثاني/يناير من العام 1919، قام المحقّقون بلف بناطيلهم، وبدأوا في تمشيط غابة الغطاء النباتي. قال مراسل إنّ أحد رجال القانون، وهو يخطو في مياه الجدول «علقت قدماه في الماء فحاول تحريرهما، وعندما وصل إلى الجزء السفلي من

رجله ليحرّرها سحب معه شعر امرأة كثيفًا»[4]. ثم عمل على تجريف عظام الساق. وبعد ذلك جاء بجذعٍ بشري وجمجمة بدا أنهما تعرّضا للضرب بآلة معدنية ثقيلة. جاء في أحد عناوين الصحف المحلية أنّ البحث توقف عندما عُثر على جثة ماري لويس[5].

اعترف رفيق ميدلتون بضرب لويس على رأسها بمطرقة. كانت المؤامرة من تخطيط ميدلتون: بعد أن قُتلت لويس، كانت الخطّة هي استخدام شريكة، امرأة لانتحال شخصيتها حتى يتمكّن الأصدقاء من تحصيل مبالغ صكّ الملكية. (لم تكن هذه الاستراتيجية فريدة من نوعها، فقد كان الورثة الزائفون مشكلة شائعة، وبعد وفاة بيل سميث في انفجار المنزل، كانت الحكومة في البداية تخشى أن يكون أحد أقاربه الذي يدّعي أنه وريثه، محتالًا). في العام 1919، أُدين ميدلتون بالقتل، وحُكم عليه بالموت. وكتبت جيفرسون: «كانت هناك نقطة تحوّل في عائلة ماري، التي شعرت بالارتياح، وأنّ المحنة انتهت. لكنّ الشعور بالرضا تبعه الغضب»، حيث تمّ تخفيف الحكم على ميدلتون إلى السجن المؤبّد، ومن ثمّ، بعد أن أمضى ست سنوات ونصف السنة في السجن، عفا عنه حاكم ولاية تكساس. كان لميدلتون صديقة، وكانت عائلة لويس تعتقد أنها قامت برشوة السلطات. كتبت جيفرسون: «القاتل تلقّى صفعةً على اليد فقط».

بعد أن انتهيت من قراءة المخطوطة التي تُوثّق قتل لويس، بقيت أعود إلى تفصيل واحدٍ. لقد قُتلت من أجل صكّ ملكيتها في العام 1918. ووفق معظم الروايات التاريخية، فإنّ عهد الإرهاب في الأوساج امتدّ من ربيع العام 1921، عندما قتل هيل آنّا براون، حتى كانون الثاني/يناير من العام 1926، عندما أُلقي القبض عليه. لذا فإنّ مقتل لويس يعني أنّ القتل من أجل صكوك الملكية بدأ قبل ثلاث سنوات على الأقلّ، ومن المفترض أنّ سنوات بداية القتل كانت معروفة للجميع. ولمّا كان جدّ ريد كورن قد تسمّم في العام 1931، فإنّ عمليات القتل استمرت أيضًا بعد فترة طويلة من اعتقال هيل، وأكّدت هذه الحالات أنّ جرائم قتل الأوساج بسبب صكوك الملكية لم تكن نتيجة مؤامرة واحدة دبّرها هيل. ربّما قاد هيل أكثر موجة قتل دموية وأطولها، ولكن كانت هناك عمليات قتل أخرى لا حصر لها، عمليات قتل لم تُضمّن في التقديرات الرسمية، والتي على عكس حالات أفراد عائلة لويس أو مولي بوركهارت، لم يُحقّق فيها وحتّى لم تصنّف جرائم قتل.

26 الدمُ يصرخ

عدت إلى الأرشيف في فورت ورث، واستأنفت البحث في الصناديق والملفّات المتعفّنة التي لا نهاية لها. دفع أمين المحفوظات أحدث مجموعة من الصناديق على عربة إلى غرفة القراءة الصغيرة، قبل أخذِ المجموعة السابقة والمغادرة. فقدت وهم أنني سأجد حجر الرشيد الذي سيفتح الأسرار من الماضي. كانت معظم السجلّات فارغة، وهي عبارة عن مصروفات طبّية، وتقارير التعداد، وعقود إيجار النفط.

في أحد الصناديق كان هناك سجلّ ممزّق مغطّى بالقماش من مكتب الشؤون الهندية الذي يُصنّف أسماء الأوصياء في عهد الإرهاب. كان هناك دفتر مكتوب باليد، يتضمّن اسم كلّ وصيّ، وتحته، اسم شخص تحت الوصاية من الأوساج، وإذا مات شخص تحت الوصاية عادة ما تُكتب كلمة واحدة تحت اسمه أو اسمها: «ميت». بحثت عن اسم إتش جيه. بيرت، المُشتبَه به في مقتل دبليو دبليو فوغان. وأظهر السجل أنه كان وصيًّا على ابنة جورج بيغهارت، بالإضافة إلى أربعة هنود آخرين. بجانب كلّ اسمٍ من هؤلاء الأشخاص تحت الوصاية كلمة «ميت».

ثمّ نظرت إلى اسم سكوت ماتيس، مالك شركة بيغ هيل التجارية. كان، وفق السجلّ، وصيًّا على تسعة هنود، بما في ذلك آنّا براون ووالدتها ليزي. عندما قرأت القائمة، لاحظت أنّ هنديًّا ثالثًا مات تحت حكم ماتيس، وكذلك الرابع والخامس والسادس. إجمالًا، من بين تسعة أشخاص مدرجة أسماؤهم تحت وصايته، مات سبعة، واثنتان على الأقل من الوفيات المعروفة كانتا جريمتيْ قتل.

بدأت النظر في السجلّ بحثًا عن أوصياء آخرين للأوساج في ذلك الوقت. كان لدى أحدهم أحد عشر شخصًا من الأوساج تحت الوصاية، توفي ثمانية منهم. وصيّ آخر لديه ثلاثة عشر شخصًا، وتمّ إدراج أكثر من نصفهم على أنهم أموات. وصيّ واحد لديه خمسة

أشخاص، كلهم ماتوا، وهكذا استمر الأمر مرارًا وتكرارًا. كانت الأرقام مذهلة وتتحدّى بوضوح معدل الوفيات الطبيعي لأنّ معظم تلك القضايا لم يُحقّق فيها مطلقًا، وكان من المستحيل تحديد كم عدد الوفيات التي كانت مريبة، ناهيك عمّن قد يكون مسؤولًا عن أيّ مخطّطٍ شرّير. ومع ذلك، كانت هناك إشارات قوية إلى انتشار القتل. في سجلّات مكتب التحقيقات الفدرالي، وجدت إشارة إلى آنّا سانفورد، رأيتها في السجلّ مع كلمة «ميت» تحت إسمها. على الرغم من أنّ قضيّتها لم تصنّف على أنها جريمة قتل، إلّا أنّ العملاء يشتبهون بشكلٍ واضحٍ في أنها حالة تسمّم.

تُوفيت امرأة أخرى من الأوساج تحت الوصاية، وتُدعى هولاتومي بمرض السلّ. لكن وسط الملفّات، كانت هناك برقية من مخبر إلى المدّعي العام الأميركي تدّعي أنّ وصيّ هولاتومي تعمّد حرمانها من علاجها ورفض إرسالها إلى مستشفى في الجنوب الغربي للرعاية. وصيّها «يعلم أنّ ذلك كان المكان الوحيد الذي تعيش فيه. وإذا بقيت في غراي هورس يجب أن تموت هناك»[1]. وأضاف المخبر أنه بعد وفاتها، جعل الوصيّ نفسه مديرًا لممتلكاتها القيّمة. في حالة أخرى حصلت في العام 1926، وهي وفاة هندي اسمه إيفز تول شيف، السبب كان يُنسب إلى الكحول. ولكنّ شهود عيان شهدوا في ذلك الوقت أنه ما شرب قطّ، ولكنه تسمّم. ورد في مقال من العام 1926: «أفراد عائلة القتيل خائفون»[2].

حتى عندما ذُكِر هندي تحت الوصاية على أنه حيّ في السجلّ، فهذا لا يعني أنه لم يُستهدف. تُعتبر ماري إلكينز، وهي كانت تحت الوصاية، أغنى عضو في القبيلة لأنها ورثت أكثر من سبعة صكوك ملكية. في 3 أيار/مايو من العام 1923، عندما كانت إلكينز في الحادية والعشرين من عمرها، تزوّجت من ملاكم أبيض من الدرجة الثانية. ووفق تقرير من مسؤول في مكتب الشؤون الهندية، شرع زوجها الجديد في حبسها داخل منزلهما، وكان يجلدها، وأجبرها على تعاطي «المخدّرات والأفيون والخمور[3] في محاولة للتعجيل بموتها حتى يتمكّن من الحصول على ميراثها الضخم». ولكن في حالتها، تدخّل المسؤول الحكومي، ونجت من زوجها. كشف تحقيق عن دليل على أنّ الملاكم لم يتصرّف بمفرده، ولكنه كان جزءًا من مؤامرة دبّرتها مجموعة من المواطنين المحلّيين. على الرغم من أنّ المسؤول الحكومي ضغط لمحاكمتهم، إلّا أنه لم يُتّهم أحد، ولم يُكشف عن هويات المواطنين.

ثمّ كانت هناك حالة سيبيل بولتون، وهي هندية من بوهوسكا، كانت تحت وصاية زوج أمّها الأبيض. في 7 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1925، وُجدت بولتون التي وصفها مراسل محلّي بأنها «فتاة من أجمل الفتيات التي نشأت في المدينة»[4] ميتة برصاصة قاتلة في صدرها. تُوفيت وكانت تبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، وقد أفاد زوج والدتها بأنه انتحار، وتمّ إغلاق القضيّة بسرعة من دون تشريح الجثّة. في العام 1992، حقّق حفيد بولتون، دينيس ماكوليف جونيور، وهو محرّر في واشنطن بوست، في وفاتها بعد اكتشاف تناقضات وأكاذيب عدّة في الرواية الرسمية. كما أوضح في مذكّراته أنه سُرق كثير من أموال صكوك ملكيات، «وفيّات سيبيل بولتون» (The Deaths of Sybil Bolton)، التي نُشرت في العام 1994. وتُشير الأدلّة إلى أنها اغتيلت في الهواء الطلق، في حديقتها، وطفلتها البالغة من العمر ستة عشر شهرًا - والدة ماكوليف - بجانبها. وكان لدى وصيّها أربعة أشخاصٍ تحت وصايته، ماتوا أيضًا.

على الرغم من أنّ المكتب قدّر أنّ هناك أربعًا وعشرين جريمة قتل للأوساج، كان العدد الحقيقي أعلى بلا شكّ. أغلق المكتب تحقيقاته بعد القبض على هيل وأتباعه، لكن بعض من في المكتب عرفوا أنّ هناك جرائم قتل كثيرة تمّ التستّر عليها بشكلٍ منهجي والتهرّب من بذل الجهد في الكشف عن المجرمين الآخرين. وصف عميل في تقرير، أنّ واحدة من الطرائق التي اعتمدها القتلة هي: «في ما يتّصل بالغموض في مقتل عددٍ كبيرٍ من الهنود، فإنّ مرتكبي الجريمة يسقون الهندي خمرًا، ومن ثمّ يطلبون من طبيب فحصه، وإعلان أنه مخمور. وبعد رحيل الطبيب يحقنون المورفين تحت جلد الهندي، ما سيؤدي إلى الوفاة. وبعد ذلك تُقرأ شهادة الطبيب في وقتٍ لاحقٍ «الموت من تسمّم كحولي»»[5]. يشير مراقبون آخرون في مقاطعة الأوساج إلى أنّ الوفيّات المشبوهة تُنسب بشكلٍ روتيني وكاذب إلى أمراضٍ مثل «داء السلّ» أو «مرض هزال» أو «أسباب غير معروفة». يعتقد العملاء والمحقّقون الذين نظروا في جرائم القتل منذ ذلك الحين أنّ عدد القتلى الأوساج كان بالعشرات، إن لم يكن بالمئات. وللحصول على فكرة أفضل عن حالات الموت، نظر ماكوليف إلى الأمر في كتاب «سجلّ أسماء الأوساج الأصليين» الذي يُشير إلى وفاة كثيرٍ من أفراد القبيلة المُخَصَّصين الأصليين. وكتب: «على مدى ستّة

عشر عامًا من العام 1907 إلى العام 1923، تُوفّي 605 هنود، في المتوسط حوالى 38 في السنة، وهو معدل وفيّات سنوي يبلغ حوالى 19 لكل 1000، ومعدّل الوفيّات الوطني الآن حوالى 8.5 لكل 1000؛ في عشرينيات القرن الماضي، عندما لم تكن طرائق العدّ دقيقة جدًّا، وصُنِّفت الإحصائيات فئات عرقية بيضاء وسوداء، بلغ متوسطها حوالى 12 لكل 1000 للبيض. بكل المقاييس، كان ينبغي لمستوى معيشتهم الأعلى، أن يجعل معدّل الوفيات لدى الأوساج أقلّ من معدل الوفيات بين البيض في أميركا. ومع ذلك، كان الأوساج يموتون بمعدّل أكثر من مرّة ونصف من المعدّل الوطني، وهذه الأرقام لا تشمل المولودين الأوساج بعد العام 1907، وغير المدرجين في القائمة»[6].

لاحظ لويس ف. بيرنز، مؤرّخ الأوساج البارز: «لا أعرف عائلة هندية واحدة لم تخسر على الأقلّ أحد أفرادها بسبب صكوك الملكية»[7]. أدرك عميل واحد على الأقل في المكتب، ترك القضية قبل وصول وايت، أنّ هناك ثقافة قتل. وفق نسخة من مقابلة مع أحد المخبرين، قال العميل: «هناك عدد من حالات القتل هذه، هناك المئات والمئات منها»[8].

حتى الحالات التي يعرفها المكتب كانت لها أبعاد خفية. في خلال إحدى زياراتي الأخيرة للمحمية في حزيران/يونيو من العام 2015، ذهبت إلى محكمة الأوساج، حيث كان الأوساج يطبّقون عدالتهم الخاصة في القضايا الجنائية. أخبرني محامي الأوساج بأنه لم يكن عهد الإرهاب «نهاية تاريخنا»، مضيفًا: «كانت عائلاتنا ضحيّة هذه المؤامرة، لكننا لسنا ضحايا».

في إحدى قاعات المحكمة، قابلت مارڤن ستيبسون، وهو رجل من الأوساج في السبعينات من عمره بحاجبين رماديين وبأسلوب متأنّ، شغل منصب رئيس قضاة المحكمة الابتدائية. وهو حفيد وليام ستيبسون، بطل مسابقات رعاة البقر الذي مات من تسمّم مشتبه به في العام 1922.

لم تُحاكم السلطات أيّ شخص بتهمة قتل ستيبسون، لكنها تعتقد أنّ كيلسي موريسون الذي قتل آنّا براون هو المسؤول. بحلول العام 1922، طلّق موريسون زوجته التي كانت من الأوساج، وبعد وفاة ستيبسون، تزوج تيلي، أرملته جاعلًا نفسه وصيًّا على طفليها. أخبر أحد شركاء موريسون المكتب أنّ موريسون اعترف له بأنه قتل ستيبسون حتى يتمكّن من الزواج من تيلي والسيطرة على ممتلكاتها التي لا تُقدّر بثمن.

شملت الحصيلة الرسمية لجرائم القتل في عهد الإرهاب وفاة ستيبسون. وحين جلست مع مارڤن على أحد مقاعد القاعة الخشبية، كشف لي أنّ استهداف عائلته لم ينتهِ مع جدهّ. بعد زواج موريسون، بدأت تيلي بالشكّ فيه، خاصّةً بعدما سمعت الحديث عن آثار سمّ الإستركنين من موريسون. أخبرت تيلي محاميها أنها تريد منع موريسون من وراثة ثروتها وإسقاط ولايته على الطفلين. ولكن في تموز/يوليو من العام 1923، قبل أن تقوم بتنفيذ هذه التغييرات، ماتت هي أيضًا من تسمّمٍ مُشتبهٍ به. وسرق موريسون كثيرًا من ثروتها. وفق الرسائل التي كتبها موريسون، فقد خطّط لبيع جزءٍ من الأملاك التي كان قد نصبها من تيلي، لشخص آخر وهو بيرت، المصرفي الذي بدا أنه متورّط في قتل فوغان. لم يُحقّق في وفاة تيلي مطلقًا، على الرغم من أنّ موريسون اعترف لشريكه بأنه قتلها. وسأله لماذا لا يحصل على هندية ويفعل الشيء نفسه؟ مارڤن ستيبسون الذي أمضى سنوات في البحث عمّا حدث لأجداده، قال لي: «قتلهم كيلسي بكل برودة دم، وترك والدي يتيمًا».

لم تكن تلك نهاية المؤامرة، بعد وفاة وليام ستيبسون وتيلي، أصبح والد مارڤن الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات في ذلك الوقت الهدف التالي، إلى جانب شقيقته البالغة من العمر تسع سنوات. في العام 1926، بينما كان موريسون يقضي عقوبة السجن بتهمة قتل آنّا براون، كان يحاول تمرير رسالة إلى هيل اعترضها الحرّاس. كانت الملاحظة مليئة بالأخطاء النحوية: «بيل، أنت تعلم أنّ طفلي تيلي سيحصلان على مئتين أو ثلاثمئة ألف دولار في خلال بضع سنوات، وأنا وصيّ على هذين الطفلين. كيف أستطيع الحصول أو السيطرة على تلك الأموال عندما أخرج؟ أنت تعرف أنني أستطيع أن آخذ هذين الطفلين خارج الولاية وليس بإمكانهم فعل شيء لمنعي، لا أحد يُمكنه إلقاء القبض عليّ بتهمة الاختطاف»[9]. كان يُخشى أنّ موريسون كان يخطّط لقتل كلا الطفلين. كتب أحد المدرّسين في مقاطعة الأوساج ذات مرّة «في أثناء المشي عبر مقبرة الأوساج كنت أرى شواهد القبور التي تظهر الأعداد الهائلة من الشباب الذين ماتوا في تلك الفترة. كان بالفعل منظرًا تقشعر له الأبدان»[10].



مارفن ستيبسون هو حفيد ويليام ستيبسون، الذي كان ضحية عهد الإرهاب

كان مارفن ستيبسون يتمتّع بالحكمة وهو الذي قضى حياته المهنية كاملة في خدمة القانون. لكنه قال لي إنه عندما علم بالقصّة وما فعله موريسون بأسرته، أصبح يخشى ما قد يكون قادرًا على فعله. وقال: «لو دخل موريسون إلى الغرفة الآن، فأنا أودّ أن...» وخفت صوته وتردّد في إكمال جملته.

في الحالات التي يراوغ فيها مرتكبو الجرائم ضد الإنسانية العدالة في وقتهم، يمكن للتاريخ، في كثير من الأحيان، أن يقدّم على الأقلّ بعض المحاسبة النهائية، من خلال توثيق جرائم القتل وفضح المخالفين. ومع ذلك، فإنّ كثيرًا من جرائم قتل الأوساج كانت قد أُخفيت بشكلٍ جيّد، ولم يعد فضح مرتكبيها ممكنًا. في أغلب الحالات، لم يكن لدى أسر الضحايا أيّ شعور بأنّ القضايا ستُحلّ. فقد أجرى الأحفاد التحقيقات الخاصّة بهم، والتي لم توصلهم إلى إجابة أو نتيجة. إنهم يعيشون مع الشكوك، ويشتبهون في أقاربهم المتوفّين أو أصدقاء العائلة القدامى أو الأوصياء الذين قد يكون بعضهم مذنبًا وقد يكون بعضهم بريئًا. عندما حاول ماكوليف العثور على قاتل جدّته، في البداية اشتبه في جدّه هاري الذي كان أبيض. ومن ثمّ مات هاري، لكنّ زوجته الثانية كانت ما تزال على قيد الحياة وأخبرت ماكوليف: «يجب أن تخجل من نفسك، ديني، تنَبّش أشياء تخصّ بولتون. لا أستطيع أن أفهم لماذا تريد

أن تفعل مثل هذا الشيء»[11]. وظلّت تكرّر: «هاري لم يفعل ذلك، لم يكن له علاقة بالموضوع»[12].

أدرك ماكوليف لاحقًا أنها ربّما كانت على حقّ، وهو أصبح يعتقد، بأنّ زوج أم سيبيل هو المسؤول. لكن لا توجد طريقة للتأكّد. وكتب ماكوليف: «لم أثبت[13] مَنْ قتل جدّتي، ولم يكن هذا بسبب فشلي في إظهار الحقيقة، فمرتكبو الجرائم اقتلعوا كثيرًا من صفحات تاريخنا.... وكان هناك كثير من الأكاذيب أيضًا، وأُتلف عدد من الوثائق، ولم يُفعل شيء أو يُحقّق بأيّ شي في ذلك الوقت لتوثيق كيف ماتت جدّتي». وأضاف: «لا يحقّ للناجين من عائلة الهندي المقتول معرفة من هو قاتل أبنائهم أو أمّهاتهم أو آبائهم أو إخوتهم أو أخواتهم أو أجدادهم. يستطيعون التخمين فحسب، مثلما أُجبرت على أن أفعل».



ماري جو ويب

قبل أن أُغادر مقاطعة الأوساج للعودة إلى المنزل، توقّفت لأرى ماري جو ويب، وهي معلّمة متقاعدة قضت عقودًا تحقّق في وفاة جدّها المشبوهة في خلال فترة عهد الإرهاب. عاشت ويب، التي كانت في الثمانينيات من عمرها، في منزل خشبي مؤلّف

من طابق واحد في فيرفاكس، ليس بعيدًا عن منزل سميث الذي انفجر. دعتني امرأة بصوت مرتعشٍ وجلسنا في غرفة جلوسها. كنت قد اتّصلت في وقتٍ سابقٍ للترتيب للزيارة، وعند وصولي، أحضرت عدّة صناديق من المستندات - بما في ذلك تقارير نفقات الوصيّ، وسجلّات الأوصياء، وشهادة المحكمة - التي جمعتها حول قضيّة جدّها بول بيس. قالت ويب: «لقد كان أحد هؤلاء الضحايا الذين لم يظهروا في ملفّات مكتب التحقيقات الفدرالي، والقَتَلَة لم يدخلوا السجن».

في كانون الأول/ديسمبر من العام 1926، اشتبه بيس في زوجته التي كانت من البيض، بأنها كانت تُسمّمه. كما أكّدت الوثائق، فقد ذهب لرؤية المحامي كومستوك الذي وصفته ويب بأنه أحد المحامين البيض القلائل المحترمين في ذلك الوقت. أراد بيس الحصول على الطلاق وتغيير وصيّته لحرمان زوجته من الميراث. شهد شاهدٌ لاحقًا أنّ بيس ادّعى أنّ زوجته كانت تطعمه «نوعًا من السمّ، وأنها كانت تقتله». عندما سألتُ ويب كيف يُمكن أن يكون جدّها قد تسمّم، قالت: «هؤلاء الأطبّاء، كانوا إخوة». قالت والدتي إنّ الجميع يعرفون أنّ هذا هو المكان الذي يحصل الناس فيه على أنواعٍ متعدّدةٍ من السمّ، لتسميم الأوساخ.

سألتُها: «ما اسمهم؟» فأجابت: الأخوان شون.

وتذكّرت الأخوين شون. كانا الطبيبين اللذين ادّعيا أنّ الرصاصة التي قتلت آنّا براون اختفت، وهما نفسهما اللذان أخفيا في البداية أنّ بيل سميث قد أدلى بتصريح أخير يجرّم فيه هيل، وكل هذا كان من أجل أن يصبح أحدهما مسؤولًا عن صكوك ملكية ريتا سميث التي لا تُقدّر بثمن. وهما اللذان اشتبه المحقّقون بأنهما كانا يضعان السمّ لمولي بوركهارت بدلًا من الأنسولين. بدت حالات كثيرة مرتبطة بشبكة من المتآمرين الصامتين: فكان ماتيس، مالك شركة بيغ هيل التجارية والوصيّ على آنّا براون ووالدتها، عضوًا في التحقيق في قضية قتل براون الذي فشل في إظهار الرصاصة، كما تولّى نيابةً عن عائلة مولي، فريق من المخبرين الخاصين بشكلٍ واضحٍ عدم التصدّي لأي من الحالات. قال شاهد للمكتب إنه بعد مقتل هنري روان، كان هيل حريصًا على التخلّص من الجثّة من خلال متعهّد دفن الموتى، بأن يتمّ تسليمها إلى دار الجنائز في شركة بيغ هيل التجارية. اعتمدت مؤامرات القتل على الأطبّاء الذين زوّروا شهادات الوفاة، وعلى

حفّاري القبور الذين دفنوا الجثث بسرعة وبهدوء. كان الوصيّ الذي اشتبه ماكوليف في قتله لجدّته محاميًا بارزًا يعمل لصالح القبيلة ولم يتدخّل مطلقًا في الشبكات الإجرامية التي لطالما عملت تحت إمرته. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المصرفيين، بمن فيهم القاتل بيرت، الذين كانوا يستفيدون من «الأعمال الهندية» الإجرامية. ولم يفعل رئيس بلدية فيرفاكس، الذي يقبل الرشوة، أيّ شي، وهو الذي كان حليفًا لهيل، وقد شغل منصب وصيّ أيضًا، إضافةً إلى العدد الذي لا يُحصى من رجال القانون والمدّعين العامين والقضاة الذين كان لهم يد في هذه الأموال الملطّخة بالدماء.

في العام 1926، علّق زعيم الأوساج بيكون ريند أنّ «هناك رجالًا بين البيض، شرفاء، ولكنهم نادرون للغاية»[14]. قال لي عالم الأنثروبولوجيا الرائد في ثقافة الأوساج جاريك بيلي: «لو اعترف هيل بما يعرفه، لكانت نسبة عالية من المواطنين البارزين في المقاطعة في السجن». في الواقع، كان كلّ عنصر من عناصر المجتمع تقريبًا متواطئًا في نظام القتل. ولهذا السبب يمكن وجود أكثر من عضو في هذا المجتمع مسؤول عن مقتل ماكبرايد في واشنطن، لأنه هدّد بإسقاط، ليس هيل فحسب ولكن بإسقاط عملية إجرامية واسعة النطاق كانت تجني الملايين والملايين من الدولارات.

في 23 شباط/فبراير من العام 1927، بعد أسابيع من تعهّد بول بيس بأن يطلّق الزوجة التي اشتبه في أنها كانت تقوم بتسميمه، وبحرمانها من الميراث، أصيب في حادث اصطدام وتُرك لينزف على الطريق. أخبرتني ويب أنّ القوات المألوفة قد تآمرت للتّكتّم على خبر وفاته. وقالت: «ربّما تستطيع النظر في الأمر». أومأت برأسي موافقًا، بالرغم من أنني كنت أعرف، على طريقتي، بأنني كنت في حالة ضبابية مثل توم وايت أو مولي بوركهارت.

اصطحبت ويب إلى الخارج ووقفنا على الشرفة الأمامية. كان الوقت غسقًا، وأطراف السماء أظلمت، وكانت المدينة والشارع خاليين من الناس، وخلفهما البراري أيضًا. قالت ويب: «هذه الأرض مشبّعة بالدماء». للحظة، صمتت، وكان بإمكاننا سماع صوت أوراق السنديان وهي تهتزّ في الريح. ثم كرّرت ما قاله الله لقابيل بعد أن قتل هابيل: «الدم يصرخ من الأرض».



البراري شمال بوهوسكا



شكر وتقدير

أنا ممتنّ لجميع الأشخاص الذين أسهموا في هذا المشروع، وأخصّ بالشكر كلّ الأوساج الذين وثقوا بي من خلال إخباري قصصهم وشجّعوني على التعمّق والبحث أكثر في الموضوع. على مرّ السنين، شاركني أوساج كُثُر، ليس أفكارهم ومعلوماتهم الخاصّة فحسب، ولكن صداقتهم أيضًا. أريد أن أشكر بشكلٍ خاص مارجي بوركهارت، كاثرين ريد كورن، تشارلز ريد كورن، ريموند ريد كورن، جو كونر، دولوريس جوديغل، دينيس ماكوليف، إليز باشن، مارڤن ستيبسون، ماري جو ويب، والراحل جوزي تال شيف.

قادتني رحلة البحث التي أجريتها إلى كثير من الأفراد الكرماء الآخرين. فقد سلّطت الراحلة مارثا فوغان وابن عمّها ملڤيل الضوء على جدّهم دبليو دبليو فوغان. أقارب توم وايت - بما في ذلك جيمس م.وايت، وجان وايت، وجون شيهان وايت، وتوم وايت الثالث- كانوا مصادر لا تُقدّر بثمن، وكذلك كانت زوجة توم وايت الثالث ستريوس، التي بحثت وعالجت الصور الأرشيفية، وألكسندرا ساندز التي نقلت تفاصيل عن جدّها جيمس ألكسندر ستريت، الذي كان أحد الناشطين السرّيين. أرسل لي فرانك باركر الأب صورًا وأوراقًا تخصّ والده يوجين باركر، وهو كان عميلًا سرّيًّا آخر. هومر فينكون وشقيقه بيل شاركا ثروة من المعلومات حول جدّهما الأكبر إيه. دبليو كومستوك. وقد أجاب عددٌ من العلماء والخبراء بصبرٍ على أسئلتي التي لا تنتهي، ومنهم جاريك بيلي، وهو عالم أنثروبولوجيا متخصّص في ثقافة الأوساج تجاوز أيّ حدود معقولة للواجب، وقرأ المخطوطة بأكملها قبل نشرها. إنه غير مسؤول عن أيّ شيء كتبته، لكنه جعل الكتاب أفضل بلا شكّ. مؤرخ مكتب التحقيقات الفدرالي جون ف. فوكس كان مصدرًا هائلًا للمعلومات لا يقدّر بثمن. وكذلك كان دي كوردري، العميل الخاص السابق في مكتب التحقيقات في ولاية أوكلاهوما الذي أمضى سنوات في البحث والكتابة عن رجال القانون الغربيين. وقد شارك كلّ من غاريت هارتنس، روجر هول لويد وآرثر شوميكر بعضًا من معرفتهم الهائلة عن تاريخ مقاطعة الأوساج. ديڤيد أ. وارد، أستاذ فخري لعلم

الاجتماع في جامعة مينيسوتا، أعطاني نسخة شريط تسجيل من مقابلته مع أحد السجناء الذين أخذوا توم وايت رهينة. وجدت لويز ريد كورن، ناشرة جريدة بيغهارت تايمز ومراسلة لا تعرف الكلل، صورًا لي ومع زوجها، ريموند، الذي كان مضيفًا لطيفًا كلّما زرت مقاطعة الأوساج. فتح جو كونر وزوجته كارول منزلهما أمامي وحوّلا منزلهما إلى مكان مركزي لإجراء المقابلات. وتحدّث معي غي نيكسون عن أسلافه الأوساج، وأرتشي إل ماسون، وهو عضو في كونغرس من الأوساج أرسل لي نسخة من الصورة البانورامية المذهلة لوليام هيل والأوساج.

لا توجد هديّة أعظم لمؤلّف من مركز دورثي ولويس ب. كولمان للعلماء والكتّاب في المكتبة العامة في نيويورك. أتاحت لي زمالة كولمان وقتًا أساسيًا للبحث وفرصة للتعمّق في أرشيف المكتبة الإعجازي. أمضينا جميعًا في المركز - جان ستروس، ماري دي أوريني، وبول ديلافيرداك، وكذلك الزملاء الآخرون - مدّة سنة كانت منتجة وممتعة.

أرشدتني الزمالة أيضًا إلى مصدرٍ غير متوقّع. أخبرني في يوم من الأيّام، كيفين وينكلر الذي كان في وقت سابق مديرًا لمواقع المكتبة وخدماتها، أنه كان على علم بجرائم الأوساج. اتضح أنه كان حفيد هوراس بوركهارت الذي كان شقيقًا لإرنست وبرايان بوركهارت. كان هوراس يُعتبر الأخ الصالح، لأنه لم يكن متورّطًا في أيّ من الجرائم. ساعدني وينكلر للتواصل مع والدته، جين كراوتش، واثنتين من خالاته، مارثا كي وروبيان سوريت اللواتي كنَّ يعرفن إرنست وكاي الذي مات منذ ذلك الحين، وقد عرفن مولي أيضًا. ثلاث نساء تحدّثن بصراحة عن تاريخ العائلة وشاركن مقطع فيديو تسجيل إرنست الذي التُقط قبل وقت قصير من وفاته، والذي تحدّث فيه عن مولي وماضيه.

كانت مؤسسات بحثية كثيرة حاسمة في هذا المشروع، وأنا مدينٌ لها وللعاملين فيها. على وجه الخصوص، أود أن أشكر ديفيد.س فيريبرو، أمين محفوظات الولايات المتحدة، وكذلك غريغ بوغنيتش، جيك إرسلاند، كريستينا جونز، إيمي ريتار، رودني روس، باربرا روست، وآخرين في الأرشيف الوطني؛ الجميع في متحف الأوساج، بما في ذلك لو بروك، وبولا فريد والمديرة السابقة كاثرين ريد كورن، وديبي نيس في متحف التاريخ في منطقة بارتلسفيل؛ ومالوري كوفينغتون، وجنيفر داي، وراشيل موسمان،

وديبرا أوزبورن سبيندل من جمعية أوكلاهوما التاريخية؛ وسارة كيكيزن من جمعية كنساس التاريخية؛ ريبيكا كول من جمعية مونتانا التاريخية؛ جينيفر شافيز في مكتبة جامعة الولاية نيو مكسيكو؛ جويس ليونز وشيرلي روبرتس وماري ك. وارن في متحف المجتمع التاريخي لمقاطعة الأوساج؛ كارول تايلور من لجنة مقاطعة هانت التاريخية؛ كارول جيليامز في أرشيف ولاية أوكلاهوما؛ أماندا كرولي في تكساس رينجرز، قاعة الشهرة والمتحف. كيرا نيوباي في ناشيونال كاوبوي ومتحف التراث الغربي؛ وكريستينا ساوثويل وجاكلين دريس في مجموعات التاريخ الغربية في جامعة أوكلاهوما.

ساعدني كثير من الباحثين الموهوبين في العثور على المستندات في زوايا بعيدة من البلاد ومنهم: راشيل كريغ، رالف إلدر، جيسيكا لويدز وأماندا ولدراب. ومهما أشكر سوزان فذلك لا يكفي، وهي الصحافية الموهوبة بشكلٍ غير عادي والتي لا غنى عنها في هذا المشروع، والتي ساعدتني على اكتشاف السجلّات وتخصيص ساعاتٍ لتدقيق الحقائق.

التقط آرون توملينسون صورًا رائعة لمقاطعة الأوساج وكان رفيق سفرٍ رائعًا. وارن كوهين، إيلون غرين، وديفيد غرينبرغ صحافيون عظماء بل وحتى أعظم الأصدقاء الذين قدموا الحكمة والدعم طوال العملية. وصديقي ستيفن ميتكالف وهو من أذكى الكُتّاب، الذي لم يتعب أبدًا من مساعدتي في التفكير في عناصر الكتاب. في ذا نيويوكر، أنا محظوظ لأنني كنت قادرًا على الاعتماد على نصيحة كثير من الناس الذين لديهم معرفة أكثر وأوسع منّي، بما في ذلك، هنري فايندر، ودورثي ويكندن، وليو كاري، وفيرجينيا كانون، وآن غولدشتاين، وماري نوريس. كان إريك لاش مدقّقًا للحقائق لا يكلّ، وكان حريصًا على الاقتراحات التحريرية. سألت بوركارد بيلغر كثيرًا من الأسئلة. تاد فريند، رافي خاتشادوريان، لاريسا ماكفاركوهار، نيك بومغارتن، وإليزابيث بيرسون غريفيث، كانوا يملأون أجزاء من المخطوطة، وفي بعض الحالات كلّها، وساعدوني في رؤيتها بوضوحٍ أكثر. لقد علّمني دانيال زالوسكي عن الكتابة أكثر من أيّ شخص آخر، ونشر غباره السحري على المخطوطة. وكان ديفيد رمنك بطلًا منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى ذا نيويوركر، والذي مكّنني من متابعة شغفي وتطوير نفسي ككاتب.

إذا قلت إنّ كاثي روبينز وديفيد هالبيرن، في مكتب روبينز، وماثيو سنايدر، في الإدارة الفدرالية للطيران، هم أفضل العملاء، فهذا لن يعطيهم حقهم، إنهم أكثر من ذلك بكثير، إنهم حلفاء، ومؤتمنون، وأصدقاء.

كمؤلّفٍ، وجدت الدار المثالية في دوبلداي. هذا الكتاب لم يكن ممكنًا لولا المحرّر اللامع والناشر بيل توماس. هو أوّل من شجعني على متابعة هذا الموضوع، وأرشدني في خلال النجاحات والإخفاقات، وحرّر هذا الكتاب ونشره بالنعمة والحكمة. ولا يمكن أن يكون هذا الكتاب ممكنًا لولا الدعم الثابت لـ سوني ميهتا، رئيس دار نوبف دوبلداي للنشر. ولم يكن ذلك ممكنًا لولا الفريق الرائع في دوبلداي وهم: توم داوتي، وسوزان هيرز، وجون فوتانا، وماريا كاريلا، ولورين هايلاند، وماريا ماسي، وروز كورتو، ومارغو شيكمانتر.

كانت عائلتي أعظم نعمة على الإطلاق، جون ونينا دارنتون، والدا زوجتي، قرآ المخطوطة ليس مرّة واحدة، بل مرّتين، وأعطياني الشجاعة للاستمرار، وأختي أليسون وأخي إدوارد، لقد كانا سندًا لي غير قابل للكسر. وكذلك فعلت أمي، فيليس التي قدمت أنواعًا من اللمسات المثالية للمخطوطة، فهي وحدها القادرة على ذلك، وأبي، فيكتور الذي شجعني دائمًا؛ وأمنيتي الوحيدة هي أن يكون جيّدًا بما يكفي لقراءة هذا الكتاب الآن بعدما انتهي.

و أخيرًا، هناك أولئك الذين يذهب امتناني لهم بشكلٍ أعمق من أن تصفه الكلمات، أو أن تُعبّر عنه، وهما: طفلاي، زكاري وإيلا، اللذان ملآ بيتي مع جنون الحيوانات الأليفة وجمال الموسيقى وبهجة الحياة، وزوجتي كيرا، التي كانت أفضل قارئٍ لي، وأعظم صديق، وحبّي الأبدي.

ملاحظة على المصادر

يعتمد هذا الكتاب اعتمادًا كبيرًا على مواد أوّلية وغير منشورة، وهي تتضمّن آلاف الصفحات من ملفّات مكتب التحقيقات الفدرالي وهيئة المحلّفين الكبرى السرّية، والشهادات، ومحاضر المحكمة، وتصريحات المخبرين، وسجلّات من المخبرين الخاصين وسجلّات العفو والإفراج المشروط ومراسلات خاصة، ومخطوطة غير منشورة شارك في تأليفها أحد المحقّقين، ومقدّمات اليوميات، وسجلّات مجلس الأوساج القبلي، والتواريخ الشفوية، والتقارير الميدانية من مكتب الشؤون الهندية، وسجلّات الكونغرس، ومذكرات وزارة العدل وبرقياتها، وصور مسرح الجريمة، والوصايا، وشهادات المتوَفّين قبل لحظات من وفاتهم، وتقارير الأوصياء، واعترافات القتلة. تمّ الحصول على هذه المواد من الأرشيف في جميع أنحاء البلاد. بعض السجلّات تمّ الحصول عليها من خلال قانون حرّية المعلومات، فوثائق مكتب التحقيقات الفدرالي التي حجبتها الحكومة، وفّرها لي ضابطٌ سابقٌ في قوات الأمن بعد أن أُزيلت عنها الرقابة. علاوةَ على ذلك، كثير من الأوراق الخاصة جاءت مباشرةً من الأحفاد، من بينهم أقارب ضحايا عهد الإرهاب؛ ومزيد من المعلومات غالبًا ما تمّ استخلاصها من مقابلاتي مع أفراد الأسر.

كما استفدت من عددٍ من الصحف المعاصرة والرسائل والحسابات المنشورة الأخرى. في إعادة بناء تاريخ الأوساج، كنت سأضيع لولا العمل الأساسي لكاتبين من الأوساج: المؤرخ لويس ف. بيرنز والشاعر جون جوزيف ماثيوز. إضافة إلى ذلك، تلقّيت مساعدة كبيرة من تيري ويلسون في البحث، الأستاذ السابق لدراسات الأميركيين الأصليين في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، وجاريك بيلي، الرائد في عالم الأنثروبولوجيا من الأوساج.

أجرى الكُتّاب دينيس ماكوليف، لورانس هوغان، دي كوردري، الراحل فريد غروف بحوثهم الخاصّة في جرائم قتل الأوساج، وكان عملهم مفيدًا للغاية. وكذلك كانت السيرة

الذاتية القصيرة لفردون آر آدامز، توم وايت: The life of A lawman. أخيرًا، وفي تفصيل تاريخ إدغار هوفر وتشكيل مكتب التحقيقات الفدرالي، اعتمدت على عدد من الكتب الممتازة، لاسيّما كتب (جنتيري، جيه. إدغار هوفر، مكتب التحقيقات الفدرالي لسانفورد أنغار، وكتاب ريتشارد جيد باورز Secrecy & Power وكتاب برايان بوروغ Public Enemies، لقد حدّدت هذه المصادر وغيرها من المصادر المهمّة في قائمة المراجع. وإذا كنت مدينًا بشكلٍ خاصٍ لأحدهم، فقد حاولت الاستشهاد به وبالملاحظات كذلك. إنّ أيّ شيء يظهر في النصّ بين علامات التنصيص يأتي من نصّ المحكمة أو اليوميات أو الخطاب أو أيّ حساب آخر. تمّ الاستشهاد بهذه المصادر في الملاحظات، باستثناء الحالات التي يكون فيها واضحًا أنّ الشخص يتحدّث معي مباشرة.



أرشيف ومصادر غير منشورة

- أوراق كومستوك العائلية، ومجموعة خاصّة من هومر فنكنن.
- مكتب التحقيقات الفدرالي: رفع مكتب التحقيقات الفدرالي السرّية عن ملفات جرائم القتل الهندية في الأوساج.
- مكتب التحقيقات الفدرالي- قانون حرّية المعلومات: سجلّات مكتب التحقيقات الفدرالي التي تمّ الحصول عليها بموجب قانون حرّية المعلومات.
- الجمعية التاريخية في ولاية بنسلفانيا HSP.
- جمعية كانساس التاريخية KHS.
- مكتبة الكونغرس LOC.
- إدارة المحفوظات والسجلّات الوطنية، الكلية بارك، ماريلاند NARA-CP.
  - مجموعة السجلّات 48، سجلّات مكتب وزير الداخلية.
  - مجموعة السجلّات 60، سجلّات وزارة العدل.
  - مجموعة السجلّات 65، سجلّات مكتب التحقيقات الفدرالي.
  - مجموعة السجلّات 129، سجلّات مكتب السجون.
  - مجموعة السجلّات 204، سجلّات مكتب محامي العفو.
- إدارة الأرشيف والسجلّات الوطنية، واشنطن العاصمة NARA-DC.
- إدارة الأرشيف والسجلّات الوطنية، فورت ورث، تكساس.
  - مجموعة السجلّات 21، سجلّات المحكمة الجزائية للولايات المتحدة، المحكمة الجزائية الأميركية للمنطقة الغربية.
  - مجموعة السجلّات 75، سجلّات المكتب الخاص بالشؤون الهندية، وكالة الأوساج الهندية.

- مجموعة السجلّات 118، سجلّات المحامين الأميركيين، الغربية الدائرة القضائية في أوكلاهوما.

- مكتبة جامعة ولاية نيو مكسيكو NMSUL.
  - أوراق فريد غروف، مجموعات ريو غراندي التاريخية.
- جمعية أوكلاهوما التاريخية OHS.
- متحف الأوساج ONM.
- إدارة الأرشيف والسجلّات بولاية أوكلاهوما OSARM.
- مكتبة پوهوسكا العامة PPL.
- مكتبة جامعة ولاية سان دييغو SDSUL.
- مكتبة ولاية تكساس ولجنة الأرشيف TSLAC.
- مجموعات التاريخ الغربي بجامعة أوكلاهوما UOWHC.
  - أوراق فوغان العائلية، مجموعة خاصة من مارثا وملفيل فوغان.

شكر لمالكي الصور

4-5 Archie Mason

17 Credit: Corbis

18 Courtesy of Raymond Red Corn

20 Courtesy of Raymond Red Corn

26 Courtesy of the Federal Bureau of Investigation

29 Courtesy of the Osage Nation Museum

34 Courtesy of the Bartlesville Area History Museum

35 Courtesy of the Oklahoma Historical Society

40 Courtesy of the Bartlesville Area History Museum (أعلى)

40 Courtesy of the Bartlesville Area History Museum (أسفل)

49 Courtesy of the Western History Collections, University of Oklahoma Libraries, Finney No. 231

50 Osage Nation Museum

52 Courtesy of the Western History Collections, University of Oklahoma Libraries, Finney No. 215

53 Courtesy of the Western History Collections, University of Oklahoma Libraries, Finney No. 224

55 Courtesy of Raymond Red Corn

57 Courtesy of the Western History Collections, University of Oklahoma Libraries, Cunningham No. 184

61 Courtesy of the Bartlesville Area History Museum

65 Courtesy of the Osage Nation Museum

66 Courtesy of the Library of Congress

70 Credit: Corbis

73 Courtesy of the Osage Nation Museum

77 Courtesy of the Bartlesville Area History Museum

79 Courtesy of the Bartlesville Area History Museum

81 Courtesy of Guy Nixon (أعلى)
81 Courtesy of the Osage County Historical Society Museum (أسفل)
83 Courtesy of Raymond Red Corn
90 Credit: Corbis
94 Courtesy of the Montana Historical Society
95 Courtesy of the Federal Bureau of Investigation
97 Credit: Corbis (أعلى)
97 Credit: Corbis (أسفل)
100 Courtesy of Melville Vaughan
103 Courtesy of the Osage Nation Museum
108 Courtesy of the Western History Collections, University of Oklahoma Libraries, Rose No. 1525
112 Courtesy of the Library of Congress
120 Courtesy of Frank Parker Sr.
125 Courtesy of the Federal Bureau of Investigation
129 Courtesy of Homer Fincannon
133 Courtesy of the National Archives at Kansas City
136 Courtesy of Alexandra Sands
139 Courtesy of James M. White
141 Austin History Center, Austin Public Library
145 Courtesy of James M. White
146 Courtesy of the Western History Collections, University of Oklahoma Libraries, Rose No. 1525
150 Courtesy of the Western History Collections, University of Oklahoma Libraries, Rose No. 1806
154 Courtesy of Raymond Red Corn
163 Courtesy of the Oklahoma Historical Society, Oklahoman Collection
166 Unknown
172 Courtesy of the Kansas Historical Society
174 Courtesy of the Bartlesville Area History Museum
175 Courtesy of the National Cowboy and Western Heritage Museum
177 Courtesy of the Federal Bureau of Investigation
184 Courtesy of the Oklahoma Historical Society, Oklahoman Collection
187 Credit: Corbis

197 Courtesy of the Oklahoma Historical Society, Oklahoman Collection
205 Courtesy of the Osage Nation Museum
209 Courtesy of Raymond Red Corn
212 Courtesy of the Oklahoma Historical Society, Oklahoman Collection
215 Courtesy of the Oklahoma Historical Society, Oklahoman Collection
226 Courtesy of Margie Burkhart
230 Credit: Neal Boenzi/The New York Times
233 Courtesy of Tom White III
237 Aaron Tomlinson
240 Courtesy of Archie Mason
242 Aaron Tomlinson
244 Courtesy of the Oklahoma Historical Society, Oklahoman Collection
245 Courtesy of Margie Burkhart
247 Aaron Tomlinson
260 Aaron Tomlinson
263 Credit: Corbis
268 Aaron Tomlinson
276 Aaron Tomlinson
277 Aaron Tomlinson
280-281 Aaron Tomlinson

الهوامش

الفصل الأول

1 لمزيدٍ من المعلومات حول عبارة الأوساج «قتلة زهرة القمر»، انظر: Mathews's *Talking to the Moon*

2 المرجع نفسه، ص 61.

3 NARA CP-NARA FW وصفي لاختفاء آنّا براون واليوم الأخير الذي زارت فيه منزل مولي بوركهارت مستمدّ أساسًا من شهادة الشهود الذين كانوا حاضرين. تحدّث كُثُر منهم مرّات عدة إلى محقّقين مختلفين، بما في ذلك عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي المخبرون الخاصّون. كما أدلى هؤلاء الشهود في كثير من الأحيان بشهاداتهم في عدد من إجراءات المحكمة. لمزيد من المعلومات، انظر في السجلّات.

4 مقتبس من: Franks, *Osage Oil Boom*, 117

5 «Lo and behold»: Sherman Rogers, «Red Men in Gas Buggies», Outlook, Aug. 22, 1923

6 Estelle Aubrey Brown, «Our Plutocratic Osage Indians», Travel, Oct. 1922

7 William G. Shepherd, «Lo, the Rich Indian!», Harper's Monthly, Nov. 1920

8 Brown, «Our Plutocratic Osage Indians»

9 Elmer T. Peterson, «Miracle of Oil», Independent (N.Y.), April 26, 1924

10 مقتبس من: Harmon, *Rich Indians*, 140

11 المرجع نفسه، 179.

12 Brown, «Our Plutocratic Osage Indians»

13 أوكلاهوما سيتي تايمز، 26 تشرين الأوّل/أكتوبر 1959.

14 Statement by H. S. Traylor, U.S. House Subcom-mittee on Indian Affairs, Indians of the United States: Investigation of the Field Service, 202.

15 تقرير توم وايس وجون برغر، 10 كانون الثاني/يناير، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

16 بريان، أخ إرنست: كان اسمه عند ولادته بايرون، وكانوا ينادونه بريان، ولتجنّب أيّ لبس، استخدمت ببساطة برايان في كتابة النص.

17 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لـ (مارثا دوتي).

18 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لـ (آنّا سيتيلي).

19 المرجع نفسه.

20 المعلومات المتعلّقة باختفاء وايتهورن مستمدّة إلى حد كبير من الصحف المحلية والمحقّقين الخاصّين وتقارير مكتب التحقيقات الفدرالي في الأرشيف الوطني.

21 الجدير بالذكر أنّ صحيفة واحدة تقول إنّ زوجة وايتهورن كانت جزءًا من قبيلة الشيروكي. ومع ذلك، فإنّ ملفّات مكتب التحقيقات الفدرالي تشير إليها كجزء من قبيلة الشايان.

22 پوهوسكا ديلي كابيتال، 30 أيار/مايو 1921.

23 NARA-FW تأتي الاقتباسات من الصيّادين من شهادة هيئة المحلّفين.

24 تقرير وايس وبرغر، 10 كانون الثاني/يناير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

25 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى ل ف.س ترتون.

26 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لآندي سميث.

الفصل الثاني

1 كانت أوصافي للتحقيق في المقام الأوّل من شهادات شهود العيان، بما في ذلك االإخوة شون. لمزيد من المعلومات، راجع السجلّات في NARA-CP,NARA-FW

2 مقتبس من: A. L. Sainer, Law Is Justice: Notable Opinions of Mr. Justice Cardozo (New York: Ad Press, 1938), 209

3 Quoted in Wagner, Science of Sherlock Holmes, 8

4 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لآندي سميث.

5 Quoted in Cordry, Alive If Possible—Dead If Necessary, 238

6 Thoburn, Standard History of Oklahoma, 1833

7 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لروي شيريل.

8 شَوْني نيوز، 11 أيار/مايو 1911.

9 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديفيد شون.

10 مقتبس من: Wilson, «Osage Indian Women During a Century of Change», 188

11 A. F. Moss to M. E. Trapp, Nov. 18, 1926, OSARM

12 وصفي للجنازة مأخوذ في المقام الأوّل من أقوال الشهود، بما في ذلك متعهّد دفن الموتى، ومن مقابلاتي مع الأحفاد.

13 بيان صادر عن أ.ت.وودوارد، لجنة مجلس النواب الأميركي للشؤون الهندية، تعديل قيود صندوق الأوساج، 103.

14 تعوّد الأوساج على ترك موتاهم فوق الأرض، في كيرنز. عندما تمّ دفن رئيس الأوساج تحت الأرض، في القرن التاسع عشر قالت زوجته: «أقول إنه من المقبول أن نرسم على وجه زوجي، وأن نلفّه ببطّانية. فهو أراد أن يُدفن في قبر الرجل الأبيض، وأقول إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. وأقول إننا سنرسم على وجه زوجي لكي لا يضيع في جنّة الهنود».

15 From introduction to Mathews, Osages

الفصل الثالث

1 پوهوسكا دايلي كابيتال، 28 أيار/مايو 1921.

2 Louis F. Burns, History of the Osage People, 442

3 موديستو نيوز-هارالد، 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1928.

4 تصوّري الخاص عن وليام هيل مأخوذ من عدد من المصادر، بما في ذلك سجلّات المحكمة، والتاريخ الشفوي للأوساج، وملفات مكتب التحقيقات الفدرالي، وحسابات صحافية معاصرة، ومراسلات هيل، ومقابلاتي مع الأحفاد.

5 Sargent Prentiss Freeling in opening statement, U.S. v. John Ramsey and William K. Hale, Oct. 1926, NARA-FW

6 مقالة لـ Merwin Eberle, «'King of Osage' Has Had Long Colorful Career», n.p., OHS

7 غوثري ليدر، كانون الثاني/يناير، 1926.

8 Pawnee Bill to James A. Finch, n.d., NARA-CP

9 C. K. Kothmann to James A. Finch, n.d., NARA-CP

10 M. B. Prentiss to James A. Finch, Sept. 3, 1935, NARA-CP

11 Hale to Wilson Kirk, Nov. 27, 1931, ONM

12 تولسا تريبيون، 7 حزيران/يونيو 1926.

13 NARA-CP جورج رايت إلى تشارلز بيرك 24 حزيران/يونيو 1926.

14 NARA-FW شهادة مولي بوركهارت أمام المحامي والمسؤولين الآخرين.

15 شهادة في التحقيق الجنائي لبرايان بوركهارت، في تقرير المكتب، 15 آب/أغسطس، 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

16 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لإرنست بوركهارت.

17 Boorstin, Americans, 81

18 جيمس جي فيندلاي إلى ويليام ج.بيرنز، 23 نيسان/أبريل، 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

19 McConal, Over the Wall, 19

20 أريزونا ريبليكان، 5 تشرين الأول/أكتوبر 1923.

21 سجلّات المباحث الخاصة المدرجة في التقرير، 12 تموز/يوليو، 1923مكتب التحقيقات الفدرالي.

22 المرجع نفسه.

23 پوهوسكا ديلي كابيتال، 29 تموز/يوليو 1921.

24 پوهوسكا ديلي كابيتال، 23 تموز/يوليو 1921.

25 Quoted in Crockett, Serial Murderers, 352

26 Roff, Boom Town Lawyer in the Osage, 106

27 المرجع نفسه، ص.107.

28 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لـ ف.س.تورتان

29 پوهوسكا ديلي كابيتال، 30 أيار/مايو 1921.

30 Frank F. Finney, «At Home with the Osages», Finney Papers, UOWHC

الفصل الرابع

1 في وصف تاريخ الأوساج، استفدت من عدّة مراجع ممتازة: See Louis F. Burns, History of the Osage People; Mathews, Wah'kon-Tah; Wilson, Underground Reservation; Tixier, Tixier's Travels on the Osage Prairies; and Bailey, Changes in Osage Social Organization. I also drew on field reports and Tribal Council documents held in the Records of the Osage NARA-FW.Indian Agency,

2 Louis F. Burns, History of the Osage People, 140

3 المرجع نفسه.

4 مقتبس من: Ambrose, Undaunted Courage, 343

5 Mathews, Osages, 271

6 السجلّات الموجودة لا تشير إلى اسم أوساج لها.

7 وصايا لوالدة مولي، ليزي، «طلب شهادة الكفاءة»، 1 شباط/فبراير 1911- NARA-FW.

8 Tixier, Tixier's Travels on the Osage Prairies, 191

9 المرجع نفسه ص.192.

10 مقتبس من: Brown, Frontiersman, 245245

11 Wilder, Little House on the Prairie, 46–47

12 مقتبس من: Wilson, Underground Reservation, 18

13 Isaac T. Gibson to Enoch Hoag, in Report of the Commissioner of Indian Affairs to the Secretary of the Interior for the Year 1871, 906.

14 Mathews, Wah'kon-Tah, 33–34

15 مقتبس من: Louis F. Burns, History of the Osage People, 448

16 تمّ تغيير اسم مكتب الشؤون الهندية في العام 1947.

17 Gibson to Hoag, in Report of the Commissioner of Indian Affairs to the Secretary of the Interior for the Year 1871, .487

18 Finney and Thoburn, «Reminiscences of a Trader in the Osage Country», 149

19 مقتبس من: Merchant, American Environmental History, 20

20 Mathews, Wah'kon-Tah, 30

21 Information on the Osage delegation, including any quotations, comes from Mathews's account in ibid., 35–38

22 Frank F. Finney, «At Home with the Osages»

23 Frank F. Finney, «At Home with the Osages»

24 Louis F. Burns, History of the Osage People, 91

25 Mathews, Wah'kon-Tah, 79

26 Mathews, Sundown, 23

27 مقتبس من: McAuliffe, Deaths of Sybil Bolton, 215–16

28 Mathews, Wah'kon-Tah, 311

29 ديلي أوكلاهوما ستايت كابيتال، 18 أيلول/سبتمبر 1893.

30 ديلي أوكلاهوما ستايت كابيتال، 16 أيلول/سبتمبر 1893.

31 Quoted in Trachtenberg, Incorporation of America, 34

32 واه-شا-شي نيوز، 23 حزيران/يونيو 1894.

33 Russell, «Chief James Bigheart of the Osages», 892

34 Thoburn, Standard History of Oklahoma, 2048

35 مقتبس من: Leases for Oil and Gas Purposes, Osage National Council, 154

36 Indians of the United States: Investigation of the Field Service, 398

37 تمكّن كثير من المستوطنين البيض من أن يشقّوا طريقهم في القائمة وجنوا ثروة في النهاية من عائدات النفط التي تنتمي إلى الأوساج. وقدّر عالم الأنثروبولوجيا جاريك بيلي أنّ مبلغ المال المأخوذ من الأوساج كان يقدر على الأقل بقيمة 100 مليون دولار.

38 مقتبس من: Franks, Osage Oil Boom, 75

39 Mathews, Life and Death of an Oilman, 11

40 Gregory, Oil in Oklahoma, 13–14

41 مقتبس من: Miller, House of Getty, 1881

الفصل الخامس

1 سجلّات الوصايا لآنّا براون، «طلب سلطة تقديم المكافآت النقدية» NARA-FW

2 H. L. Macon, «Mass Murder of the Osages», West, Dec. 1965

3 أدا ويكلي نيوز، 23 شباط/فبراير، 1922.

4 Summerscale, Suspicions of Mr. Whicher, xii

5 لمزيد من المعلومات حول عبارة: «the devil's disciples»، انظر: Lukas Big Trouble, 76

6 وكالة المباحث الوطنية بينكرتون، الجنرال، مبادئ وقواعد وكالة المباحث الوطنية بينكرتون LOC

7 McWatters, Knots Untied, 664–65

8 Shepherd, «Lo, the Rich Indian!»

9 William J. Burns, Masked War, 10

10 النيويورك تايمز، 4 كانون الأول/ديسمبر 1911.

11 مقتبس من: William K. Hunt, Front-Page Detective, 104

12 أوصاف لأنشطة العيون الخاصّة مستمدّة من سجلّاتهم اليومية، والتي تمّ تضمينها في تقارير المكتب بواسطة جيمس فيندلاي، تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

13 تقرير بوساطة فيندلاي، 10 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

14 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لآنّا ستيرلي.

15 تقرير بوساطة فيندلاي، 10 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

16 المرجع نفسه.

17 المرجع نفسه.

18 المحقّق: وكالة بينكرتون للمحقق الوطني، المبادئ العامة وقواعد لوكالة بينكرتون للمحقّق الوطني، LOC

19 المرجع نفسه.

20 تقرير بواسطة فيندلاي، 10 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

21 المرجع نفسه.

22 تقرير بواسطة فيندلاي، 10 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

23 NARA-FW مولي بوركهارت وآخرون. ضد إيلا روجرز، المحكمة العليا، ولاية أوكلاهوما.

24 NARA-FW مولي بوركهارت وآخرون. ضد إيلا روجرز، المحكمة العليا، ولاية أوكلاهوما.

25 المرجع نفسه.

26 «Scientific Eavesdropping», Literary Digest, June 15, 1912

27 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لبوب كارتر،

28 في إجراءات قضية وير ضد بيتش، المحكمة العليا في ولاية أوكلاهوما، أوراق عائلة كومستوك.

29 تقرير بواسطة فيندلاي، 10 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

30 Christison, Treatise on Poisons in Relation to Medical Jurisprudence, Physiology, and the Practice of Physic, 684

31 المرجع نفسه.

32 أوسكار ت شولتز وإي إم مورغان، «الطبيب الشرعي والفاحص الطبّي، نشرة المجلس القومي للبحوث، تموز/يوليو 1928.

33 واشنطن بوست 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1935.

34 واشنطن بوست 6 أيلول/سبتمبر 1922.

35 واشنطن بوست 14 تموز/يوليو 1923.

36 واشنطن بوست، 12 آذار/مارس 1925.

الفصل السادس

1 پوهوسكا ديلي، 18 آذار/مارس 1925.

2 پوهوسكا ديلي كابيتال 5 نيسان/أبريل 1923.

3 پوهوسكا ديلي كابيتال، 14 حزيران/يونيو 1921.

4 Rister, Oil 190

5 ديلي أوكلاهومان، 28 كانون الثاني/يناير 1923.

6 أدا أيفننغ نيوز، 24 كانون الأول/ديسمبر 1924.

7 ديلي جورنال كابيتال، 29 آذار/مارس 1928.

8 Gunther, The Very, Very Rich and How They Got That Way, 124

9 مقتبس من: Allen, Only Yesterday, 129

10 مقتبس من: McCartney, The Teapot Dome Scandal, 113

11 پوهوسكا ديلي كابيتال، 6 نيسان/أبريل 1923.

12 وصفي للمزاد مأخوذ من مقالات الصحف المحلية، ولاسيّما الحساب التفصيلي في ديلي أوكلاهومان، 28 كانون الثاني/يناير 1923.

13 Thoburn, Standard History of Oklahoma, 1989

14 ديلي أوكلاهومان 28 كانون الثاني/يناير 1923.

15 Shepherd, «Lo, the Rich Indian!»

16 Brown, «Our Plutocratic Osage Indians»

17 مقتبس من: Harmon, Rich Indians, 181

18 المرجع نفسه ص.185.

19 لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر المرجع نفسه.

20 F. Scott Fitzgerald, The Crack-Up (1945; repr., New York: New Directions, 2009), 87

21 Gregory, Oil in Oklahoma, 4

22 Gregory, Oil in Oklahoma, 4 ص.43

23 Modifying Osage Fund Restrictions, 73

24 من القرار الصادر في قضية بارنيت بارنيت، المحكمة العليا في أوكلاهوما، 13 تموز/يوليو 1926.

25 Indians of the United States: Investigation of the Field Service, 399

26 H. S. Traylor to Cato Sells, in Indians of the United States: Investigation of the Field Service, 20

27 المرجع نفسه ص. 204.

28 Modifying Osage Fund Restrictions, 60

29 پوهوسكا ديلي كابيتال، 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1921.

30 نسخة من وقائع المجلس القبلي، 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1926، ONM

31 پوهوسكا ديلي كابيتال، 22 كانون الأول/ديسمبر 1921.

32 Indians of the United States: Investigation of the Field Service, 281

الفصل السابع

1 ويأتي وصفي لاكتشاف جثّة روان وتشريح الجثّة من شهادة الشهود الحاضرين، بمن فيهم رجال القانون، لمزيد من المعلومات، راجع السجلّات في NARA-FW وNARA-CP

2 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجي آر رودس-

3 المرجع نفسه.

4 NARA-CP- بيتس بيتي إلى جيمس أ.فينش 21 آب/أغسطس 1935.

5 Lamb, Tragedies of the Osage Hills, 178

6 شهادة ويليام ك.هيل، الولايات المتحدة وجون رامسي وويليام ك.هيل، تشرين الأول/أكتوبر 1926 NARA.

7 تولسا ديلي وورلد، 19 آب/أغسطس، 1926.

8 NARA-FW، شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجي آر رودس-

9 المرجع نفسه.

10 «أوساج شيف»، 9 شباط/فبراير 1923.

11 Charles W. Sanders, The New School Reader, Fourth Book: Embracing a Comprehensive System of Instruction in the Principles of Elocution with a Choice Collection of Reading Lessons in Prose and Poetry, from the Most Approved Authors; for the Use of Academies and Higher Classes in Schools, Etc. (New York: Vison & Phinney, 1855), 155.

12 سرّ مولي في ما يتعلق بزواجها من روان تمّ الكشف عنه لاحقًا في قضية الولايات المتحدة ضد جون رامسي وويليام ك. هيل، تشرين الأول/أكتوبر 1926 NARA-FW

13 ديلي أوكلاهومان 6 كانون الثاني/يناير 1929.

14 تقرير فيندلاي، 13 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

15 حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت، NMSUL

16 Manitowoc Herald-Times, Jan. 22, 1926

17 وصفي لبيل وريتا سميث والانفجار في خلال تلك الفترة مستمدّ إلى حدّ كبير من الشهود وأقوال المحقّقين وفي أثناء إجراءات المحكمة ؛كما تمّ الحصول على بعض التفاصيل من حسابات الصحف المحلية والحساب الواقعي غير المنشور من تأليف غروف مع وايت. لمزيدٍ من المعلومات، راجع السجلّات في NARA-FW NARA-CP

18 المرجع نفسه.

19 تقرير رين، 6 تشرين الأول/أكتوبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

20 أوساج شيف، 22 حزيران/يونيو 1923.

21 Shoemaker, Road to Marble Hills, 107

22 NMSUL قصّة واقعية غير منشورة من قبل غروف مع وايت،

23 تصريح إرنست بوركهارت، 6 كانون الثاني/يناير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

24 مقتبس من: Hogan, Osage Murders, 66

25 مقتبس من: Gregory, Oil in Oklahoma, 56

26 أوساج شيف، 16 آذار/مارس 1923.

27 NARA-FW شهادة هيئة المحلفين الكبرى لديفيد شون.

28 NMSUL قصّة واقعية غير منشورة من قبل غروف مع وايت

29 تقريران، 29 كانون الأول/ديسمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

30 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لهوراس إي ويلسون.

31 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لـ أف.س. تورتون.

32 تقرير بقلم برغر وفايس، 12 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

33 تقرير بقلم فرانك سميث، جيمس ألكسندر ستريت، برغر، وجيه في ميرفي، 1 أيلول/سبتمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

34 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لروبرت كولومب.

35 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديفيد شون.

36 أوساج شيف، 16 آذار/مارس 1923.

37 تقرير رين، 29 كانون الأول/ديسمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

38 إنديانا إيفننغ غازيت، 20 أيلول/سبتمبر 1923.

39 تمّ الحصول على تفاصيل تحقيق فوغان وقتله من عدّة مصادر، بما في ذلك مكتب التحقيقات الفدرالي والسجلّات وحسابات الصحف والأوراق الخاصّة لعائلة فوغان،والمقابلات مع أحفاده.

40 إعلان عن ترشيح فوغان للمقاطعة كمحام، أوراق عائلة فوغان.

41 Student file of George Bigheart, accessible on Dickinson College's Carlisle Indian School Digital Resource Center website and held in Record Group 75, Series 1327, at NARA-DC.

42 تولسا ديلي وورلد، 1 تموز/يوليو 1923.

43 شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لهوراس إي ويلسون، NARA-FW

44 لترري دايجست، 3 نيسان/أبريل 1926.

45 مانيتووك هارالد - تايمز، 22 كانون الأول/يناير 1926.

46 John Baxter, «Billion Dollar Murders», Vaughan Family Papers

47 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لـ س.أ.كوك.

48 تقرير بقلم فرانك ف. رايت، 5 نيسان/أبريل 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

49 شغل تشارلز كيرتس لاحقًا منصب نائب رئيس الولايات المتحدة في أثناء إدارة هربرت هوفر.

50 بالمر إلى كرتيس، 28 كانون الثاني/يناير 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

51 NARA-CP شهادة فرانك سميث، المدرجة في سجلّات الرأفة لإرنست بوركهارت.

52 تقرير المكتب بعنوان «جرائم قتل الأوساج»، 3 شباط/فبراير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

53 NARA-CP سجلّات الوصي على مولي بوركهارت، كانون الثاني/يناير 1925.

الفصل الثامن

1 وايت إلى هوفر، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1955، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

2 تريسي، «توم تريسي يخبرعن ديترويت وأوكلاهوما».

3 مقتبس من: Gentry, J. Edgar Hoover, 112

4 NMSUL نسخة من مقابلة مع توم وايت.

5 جيمس م. وايت (حفيد دوك وايت)، مقابلة مع المؤلف.

6 هاستدت، «الإخوة وايت في تكساس لديهم وظائف ملحوظة في مكتب التحقيقات الفدرالي».

7 لمزيد من المعلومات عن: J. Edgar Hoover and the early history of the FBI, see Gentry's J. Edgar Hoover; Ungar's FBI; Powers's Secrecy and Power; and Burrough's Public Enemies. For more background on the Teapot Dome scandal, see McCartney's Teapot Dome Scandal; Dean's Warren G. Harding; and Stratton's Tempest .over Teapot Dome.

8 مقتبس من: Lowenthal, Federal Bureau of Investigation, 292

9 مقتبس من: Gentry, J. Edgar Hoover, 129

10 سينسيناتي إنكوايرر، 14 آذار/مارس 1924.

11 جيه إم تولر إلى هوفر، 6 كانون الثاني/يناير 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

12 هوفر إلى فيردون آدامز، 19 أكتوبر 1970، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرية المعلومات.

13 مقتبس من: Burrough, Public Enemies, 51

14 سي إس ويكلي إلى فيندلاي، 16 آب/أغسطس 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

15 دبليو دي بولينغ إلى هوفر، 3 نيسان/أبريل 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

16 تقرير وايس وبرغر، 24 أيار/مايو 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

17 المرجع نفسه.

18 فندلي لإبرشتاين، 5 شباط/فبراير 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

19 هوفر إلى بولينغ، 16 آذار/مارس 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

20 بالمر إلى كرتيس، 28 كانون الثاني/يناير 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

21 هوفر إلى وايت، 8 آب/أغسطس، 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

22 هوفر إلى وايت، 1 أيار/مايو 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

23 NMSUL نص المقابلة مع وايت،

24 هوفر إلى وايت، 21 أيلول/سبتمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

25 وايت إلى هوفر، 5 آب/أغسطس 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

26 هوفر إلى بولينغ، 3 شباط/فبراير 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

الفصل التاسع

1 تقرير وايس وبرغر، 29 نيسان/أبريل 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

2 NMSUL نسخة من المقابلة مع وايت.

3 تقرير وايس وبرغر، 12 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

4 NMSUL نسخة من المقابلة مع وايت.

5 تأتي معلومات عن أعضاء فريق توم وايت إلى حدّ كبير من ملفات موظفي العملاء، والتي تمّ الحصول عليها من خلال قانون حرّية المعلومات؛ وتقارير مكتب التحقيقات الفدرالي من وايت ورسائل وكتابات؛ حسابات الصحف ومقابلات المؤلف مع أحفاد العملاء.

6 تمّت تسمية شريف ولاية نيو مكسيكو السابق جيمس ألكسندر ستريت.

7 كان يوجين هول باركر عضوًا في تكساس رينجرز سابقًا وكان جزءًا من فريق وايت السرّي.

8 ملفّ الموظف باركر، 9 نيسان/أبريل 1934، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

9 كان العميل المتخفّي عميلًا اسمه تشارلز ديفيس.

10 ملفّ الموظّف سميث، 13 آب/أغسطس 1932، FBI /قانون حرّية المعلومات.

11 ملفّ الموظّف سميث، 22 تشرين الأول/أكتوبر 1928، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

12 لويس دنيت إلى بيرنز، 2 حزيران/يونيو 1920، مكتب التحقيقات الفدرالي.

13 هوفر إلى رين، 28 آذار/مارس 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

14 تقرير من وايس وبيرغر، 31 كانون الأول/ديسمبر 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي، قبل تولّي توم وايت التحقيق، كان بيرغر قد عمل على القضيّة مع العميل توم إف وايس؛ وقد تمّ تقديم تقارير بيرغر بالاشتراك معه.

15 تقرير وايس، 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

16 من هارولد ناثان إلى جوس تي جونز، في 10 آب/أغسطس، 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

الفصل العاشر

1 أوصافي لتحقيقات المكتب في جرائم القتل تأتي من عدّة مصادر، بما في ذلك مكتب التحقيقات الفدرالي؛ تقارير، ملفّات موظفي المكتب؛ شهادة هيئة محلّفين كبرى، محاضر المحكمة ومراسلات وكتابات وايت الخاصّة.

2 تظاهر رين في بعض الأحيان بأنه يمثّل مصالح معينة للماشية.

3 وايت إلى هوفر، 2 شباط/فبراير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

4 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لهوراس إي ويلسون

5 المرجع نفسه.

6 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديفيد شون

7 Arthur Conan Doyle, The Sign of Four (London: Spencer Blackett, 1890), 93

8 تقرير ويس، 1 أيلول/سبتمبر 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

9 تقرير بقلم برغر وايس، 22 نيسان/أبريل، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

10 المرجع نفسه.

11 تقرير من ويكلي، 7 آب/أغسطس 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

12 تقرير وايس وبرغر، 2 شباط/فبراير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

13 المرجع نفسه.

14 المرجع نفسه.

15 المرجع نفسه.

16 Tarbell, «Identification of Criminals»

17 جمعت شعبة تحديد الهويّة التابعة للمكتب في البداية بصمات الأصابع من الملفّات التي يحتفظ بها السجن الأميركي في ليفنوورث والرابطة الدولية لرؤساء الشرطة.

18 مقتبس من: Powers, Secrecy and Power, 150

19 تقرير وايس وبيرغر، 2 شباط/فبراير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

20 ادّعى موريسون في البداية، كذبا، أنّ روز ورّطت صديقها.

21 تقرير وايس وبيرغر، 2 شباط/فبراير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

22 تقرير وايس وبيرغر، 16 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

الفصل الحادي عشر

1 هوفر إلى وايت، 2 حزيران/يونيو 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

2 هوفر إلى بولينغ، حزيران/يونيو 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

3 وايس وبيرغر إلى ويليام ج. بيرنز، 24 آذار/مارس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

4 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لإيد هيني.

5 OSARM شهادة محاكمة بيري هيني، ولاية أوكلاهوما ضد كيلسي موريسون.

6 تقرير من ويكلي، 15 آب/أغسطس 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

7 تقرير وايس وبيرغر، 8 كانون الثاني/يناير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

8 تقرير وايس وبيرغر، 10 كانون الثاني/يناير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

9 المرجع تفسه.

الفصل الثاني عشر

1 تقرير سميث، 28 أيلول/سبتمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

2 المرجع نفسه.

3 فيندلاي إلى بيرنز، 19 كانون الأول/ديسمبر 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

4 يوستاس سميث إلى المدّعي العام، 15 آذار/مارس 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

5 تقرير وايس وبيرغر، 2 تموز/يوليو 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

6 المرجع نفسه.

7 تقرير وايس وبيرغر، 12 تموز/يوليو 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

8 تقرير وايس وبيرغر، 2 تموز/يوليو 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

9 تقرير وايس وبيرغر، 16 آب/أغسطس 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

10 NMSUL نسخة من المقابلة مع وايت.

11 تقرير وايس وبرغر، 11 شباط/فبراير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

12 تقرير وايس وبرغر، 11 نيسان/أبريل 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

13 تقرير وايس وبرغر، 14 آب/أغسطس 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

14 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لألبيرت بايك.

15 تقرير وايس، 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

الفصل الثالث عشر

1 Daniell, Personnel of the Texas State Government, 389

2 Adams, Tom White, 6

3 أوستن ويكلي ستيتسمان، 31 آذار/مارس 1892.

4 باستروپ أدڤرتايزر، 5 آب/أغسطس 1899.

5 أوستن ويكلي ستيتسمان، 1 أيلول/سبتمبر 1892.

6 أوستن ويكلي ستيتسمان، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1894.

7 أوستن ويكلي ستيتسمان، 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1893.

8 أوستن ويكلي ستيتسمان، 11 كانون الثاني/يناير 1894.

9 ديلي مورنغ نيوز، 13 كانون الثاني/يناير 1894.

10 المرجع نفسه.

11 Adams, Tom White, 8

12 مقتبس من: Parsons, Captain John R. Hughes, 275

13 Leonard Mohrman, «A Ranger Reminisces», Texas Parade, Feb. 1951

14 NMSUL نسخة من المقابلة مع توم وايت

15 مقتبس من: Robinson, Men Who Wear the Star, 79

16 تدرّب توم وايت على إطلاق النار من خلال مسَدَّس سُدَاسي الطلقات. كان الحرّاس هم من اعترفوا بثورة هذا المسدّس متتالي الطلقات وقوته، بعد فترة طويلة، تجاوزت المحاربين الهنود الأميركيين الذين بإمكانهم إطلاق وابل من السهام قبل أن يتمكّن رجال القانون من إعادة تحميل بنادقهم ذات الطلقة الواحدة. في العام 1844، في أثناء اختبار مسدّس كولت خماسي الطَّلَقَات، اجتاحت مجموعة من الخيالة عددًا كبيرًا من الكومانتشي (قبيلة هندية). بعد ذلك، أبلغ أحد أعضاء الخيّالة صانع السلاح صموئيل كولت أنه مع التحسينات، فإنّ المسدّس يمكنه أن يكون «السلاح الأكثر مثالية في العالم» وتمّ الأخذ بملاحظات هذا الحارس، وصمّم كولت مسدّسًا سداسي الطَّلَقَات (إيه ستب تشايلد أوف ذا ويست)كما أسماه أحد المؤرّخين - أنّ من شأنه أن

يساعد على تغيير توازن القوى بشكل لا رجعة فيه بين قبائل السهول والمستوطنين. على طول مكبس المحرّك تمّ نقش صورة معركة الخيالة المنتصرين ضد الكومانتشي.

17 لصقل هدفه، مارس وايت إطلاق النار على أيّ كائن متحرك تقريبًا مثل: الأرانب، الصقور، وحتى كلاب البراري، لقد أدرك أنّ إطلاق النار بشكل دَقِيق كان أكثر أهمية من أن تكون سريعًا في سحب مسدّسك.على حد تعبير شقيقه دوك، «ما فائدة أن تكون سريعًا في سحب المسدّس إذا لم تكن دقيقًا في إطلاق النار على هدفك؟». قال دوك إنّ كثيرًا من الأساطير حول المسلّحين الغربيين كانت «مرحًا»: «كل هذه الضجّة حول وايت إيرب بأنه فنّان سريع كان مبالغًا فيها، هو كان فقط دقيقًا في إطلاق النار على الهدف».

18 Adams, Tom White, 19

19 Ben M. Edwards to Frank Johnson, Jan. 25, 1908, TSLAC

20 Hastedt «كان للأخوة وايت في تكساس مهنة ملحوظة في مكتب التحقيقات الفدرالي».

21 Adams, Tom White, 16

22 مقتبس من: Parsons, Captain John R. Hughes, xvii

23 من توماس مورشينسون إلى القائد العام، 2 آذار/مارس 1907 TSLAC

24 مقتبس من: Alexander, Bad Company and Burnt Powder, 240

25 Adams, Tom White, 24

26 TSLAC مساعد عام لتوم روس، 10 شباط/فبراير، 1909.

27 بومونت أنتربرايز 15 تموز/يوليو 1918.

28 مساعد عام إلى جيه. دي. فورتينبيري، 1 آب/أغسطس 1918.

الفصل الرابع عشر

1 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديفيد شون.

2 المرجع نفسه.

3 المرجع نفسه.

4 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجيمس شون.

5 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديفيد إي.جونسون.

6 المرجع نفسه.

7 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجيمس شون.

8 تقرير سميث، ستريت، بيرغر، ومورفي، 1 أيلول/سبتمبر، 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

9 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديفيد شون.

10 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديفيد شون.

11 Survey of Conditions of Indians, 23018

12 Gertrude Bonnin, «Oklahoma's Poor Rich Indians: An Orgy of Graft and Exploitation of the Five Civilized Tribes and Others», 1924, HSP.

13 المرجع نفسه.

14 سانت لويس بوست - ديسباتس، 15 أيار/مايو 1925.

15 Memorandum by Gertrude Bonnin, «Case of Martha Axe Roberts», Dec. 3, 1923, HSP

16 المرجع نفسه.

17 Shepherd, «Lo, the Rich Indian!»

الفصل الخامس عشر

1 تقرير بقلم رين وديفيس وباركر، 10 أيلول/سبتمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

2 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجون ماكلين.

3 المرجع نفسه.

4 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لألفريد ت. هال.

5 تولسا تريبيون 6 آب/أغسطس 1926.

6 NARA-FW بيرت فارار إلى روي سانت لويس، 22 كانون الأول/ديسمبر 1928.

7 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجون ماكلين.

8 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى دبليو. إيتش. آرون.

9 NARA-FW الولايات المتحدة ضد جون رامسي وويليام ك. هيل، تشرين الأول/أكتوبر 1926.

10 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

11 تقرير بقلم برغر وايس، 12 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

12 NARA-CP طلب هيل للتَسَاهُل، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1935.

13 تقرير بقلم رايت، 5 نيسان/أبريل 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

14 تقرير وايس وبرغر، 10 كانون الثاني/يناير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

15 تقرير بعنوان «جرائم القتل الأوساج»، 3 شباط/فبراير، 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

الفصل السادس عشر

1 من إدوين براون إلى هوفر، 22 آذار/مارس 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

2 تقرير رين، 6 تشرين الأول/أكتوبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

3 تقرير بعنوان «حالات قتل الأوساج الهندية» 10 تموز/يوليو 1953، مكتب التحقيقات الفدرالي.

4 هوفر إلى وايت، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

5 مقتبس من: Nash, Citizen Hoover, 23

6 لمزيد من المعلومات حول التغيّيرات التي أجراها هوفر للمكتب، انظر جنتري جيه. أدغر هوفر؛ باورز، Se-crecy and Power; Burrough, Public Enemies; and Ungar, F.B.I. For more on the dark side of Progressivism, also see Thomas C. Leon ard's journal articles «American Economic Reform in the Progressive Era» and «Retrospective»

7 سان برنردينو كاونتي سان، 31 كانون الأول/ديسمبر 1924.
8 مقتبس من: Powers, Secrecy and Power, 146
9 سان برنردينو كاونتي سان، 31 كانون الأول/ديسمبر 1924.
10 هوفر إلى وايت، 21 أيلول/سبتمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.
11 هوفر إلى وايت، 1 أيار/مايو 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.
12 Quoted in Gentry, J. Edgar Hoover, 149
13 هوفر إلى وايت، 15 نيسان/أبريل 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.
14 مقتبس من: Gentry, J. Edgar Hoover, 67
15 Tracy, «Tom Tracy Tells About—Detroit and Oklahoma»
16 Adams, Tom White, 133
17 وايت إلى هوفر، 28 أيلول/سبتمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.
18 وايت إلى هوفر، 10 حزيران/يونيو 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي / قانون حرّية المعلومات.
19 مذكرة هوفر، 12 أيار/مايو 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي /قانون حرّية المعلومات.
20 مقتبس من: Gentry, J. Edgar Hoover, 170
21 مقتبس من: Powers, Secrecy and Power, 154

الفصل السابع عشر

1 ماري جو ويب، مقابلة مع المؤلّف.
2 أوساج شيف، 28 تموز/يوليو 1922.
3 تقرير وايس وبيرغر، 12 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
4 NMSUL وايت إلى غروف، 23 حزيران/يونيو 1959.
5 KHS السجلّ الجنائي لديك غريغ، 9 كانون الثاني/يناير 1925.
6 NMSUL- وايت إلى غروف 23 حزيران/يونيو 1959.
7 تقرير وايس وبيرغر، 24 تموز/يوليو 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
8 بيان ديك غريغ، 8 حزيران/يونيو 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
9 مقتبس من: Fred Grove in The War Chief of the Indian Territory Posse of Oklahoma Westerners 2, no. 1 (June 1968)
10 NMSUL وايت إلى غروف 23 حزيران/يونيو 1959.
11 المرجع نفسه.
12 تقرير وايس وبرغر، 14 آب/أغسطس 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
13 Lamb, Tragedies of the Osage Hills, 119
14 موسكوجي تايمز - الديمقراطية، 5 آب/أغسطس 1909.
15 تقرير بقلم بيرغر، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1928، مكتب التحقيقات الفدرالي.

16 كانت هناك شكوك في أنّ غرامر أصيب برصاصة بالقرب من إبطه الأيسر.
17 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجون مايو.
18 تقرير وايس وبيرغر، 2 تموز/يوليو 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
19 تقرير وايس وبيرغر، 16 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
20 تقرير رين، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
21 وثيقة بعنوان «حالات قتل الأوساج» 10 تموز/يوليو 1953، مكتب التحقيقات الفدرالي.
22 NMSUL نص المقابلة مع وايت.

الفصل الثامن عشر

1 حكاية واقعية غير منشورة بقلم غروف مع وايت، في سجلّات المكتب، الاسم الأوّل لوسون وتهجئته بيرت، وفي السجلّات الأخرى، يتمّ تهجئته أحيانًا برت ولتجنّب الالتباس، لقد استخدمت بيرت في جميع أنحاء النصّ.
2 وايت إلى غروف، 2 أيار/مايو، 1959.
3 NMSUL حكاية واقعية غير منشورة بقلم غروف مع وايت.
4 تقرير سميث ومورفي، 25 تشرين الأول/أكتوبر، 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
5 وايت إلى هوفر، 24 تشرين الأول/أكتوبر، 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
6 هوفر إلى وايت، 26 تشرين الأول/أكتوبر، 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
7 هومر فينكانون، مقابلة مع المؤلف.
8 تقرير رين، 6 تشرين الأول/أكتوبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
9 NARA-CP من إدوين براون إلى جورج رايت، تموز/يوليو 18، 1925.
10 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.
11 غوثري ليدر 6 كانون الثاني/يناير 1926.
12 NMSUL نسخة من المقابلة مع وايت.
13 NARA-FW بيان من لورينغ في إجراءات هيئة المحلّفين الكبرى.
14 NMSUL نسخة من المقابلة مع وايت.
15 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.
16 Gentry, J. Edgar Hoover, 386
17 تولسا تريبيون، 5 كانون الثاني/يناير 1926.
18 تقرير وايس وبيرغر، 30 نيسان/أبريل 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
19 NARA-CP شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لسميث، 5 كانون الثاني/يناير، 1926.
20 بيان من إرنست بوركهارت بتاريخ 6 كانون الثاني/يناير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.
21 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.
22 بيان من إرنست بوركهارت بتاريخ 5 شباط/فبراير1927، مكتب التحقيقات الفدرالي.
23 بيان من إرنست بوركهارت، 6 كانون الثاني/يناير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

24 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لفرانك سميث.

25 NMSUL نص المقابلة مع وايت.

26 بيان من إرنست بوركهارت، 6 كانون الثاني/يناير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

27 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لفرانك سميث.

28 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

29 تولسا تريبيون، 13 آذار/مارس 1926.

30 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لفرانك سميث.

31 بيان جون رامسي، 6 كانون الثاني/يناير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

32 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

33 مذكرة بقلم إم أيه جونز إلى لويس ب.نيكولز، 4 آب/أغسطس 1954، مكتب التحقيقات الفدرالي.

34 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لجيمس شون.

35 NARA-FW شهادة مولي بوركهارت من قبل المحامي القبلي والمسؤولين الآخرين.

36 Macon, «Mass Murder of the Osages»

37 مقتبس من: Gregory, Oil in Oklahoma, 57

38 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

39 تقرير وايس وبيرغر، 2 شباط/فبراير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

40 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

41 المرجع نفسه.

الفصل التاسع عشر

1 ليتريري دايجست، 23 كانون الثاني/يناير 1926.

2 إيفننغ إندبندنت، 5 كانون الثاني/يناير 1926.

3 Holding, «King of the Killers»

4 NARA-FW ليزي جون بيتس إلى جورج رايت،21 تشرين الثاني/نوفمبر.

5 رينو، إيفننغ - غازيت، كانون الثاني/يناير 1926.

6 إيفننغ إندبندنت، 5 آذار/مارس 1926.

7 وايت إلى هوفر، 18 أيلول/سبتمبر 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

8 NARA-FW بيتس إلى رايت 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1922.

9 NARA-FW نسخة من قرار جمعية هنود أوكلاهوما.

10 مقتبس من: Irwin, Deadly Times, 331

11 ليمانيوز، 29 كانون الثاني/يناير 1926.

12 من إدوين براون إلى أ. جيه. ريدجلي، 21 تموز/يوليو 1925،مكتب التحقيقات الفدرالي.

13 سيقواياه كاونتي ديمقراط، 9 نيسان/أبريل 1926.

14 سارجنت برنتيس فريلينغ، حياة رجلٍ عصامي OHS.

15 Lamb, Tragedies of the Osage Hills, 174

16 NARA-CP بيان بوركهارت في الإيداع، 5 شباط/فبراير 1927.

17 ذات ليلة في كانون الأول/ديسمبر 1926، لوثر بيشوب، رجل القانون في الولاية الذي ساعد في قضايا قتل الأوساج كان قد قُتِل في منزله. اتهمت زوجته بالقتل ولكنها بُرّئت في وقت لاحق من هيئة محلّفين. دي كوردري، محقّق شرطة سابق ومؤلف، ومطّلع على القضيّة في كتابه في العام 2005، «Alive If Possible—Dead If Necessary» كان يشتبه في أنّ هيل، في الفصل الأخير من الانتقام أمر بعملية القتل.

18 تقرير بقلم دبليو إيه كيتشن، 2 آذار/مارس 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

19 تقرير سميث، 8 شباط/فبراير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

20 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لديوي سيلف.

21 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

22 وايت إلى هوفر، 31 آذار/مارس 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

23 تقرير بقلم بيرغر، 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1928، مكتب التحقيقات الفدرالي.

24 NARA-FW شهادة هيئة المحلّفين الكبرى لبوركهارت.

25 NMSUL نسخة من المقابلة مع وايت.

26 وايت إلى هوفر، 26 حزيران/يونيو 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

27 NARA-CP وايت إلى تشارلز بيرك، 24 حزيران/يونيو 1926.

28 NARA-FW شهادة مولي بوركهارت أمام محام قبلي وغيره من المسؤولين.

29 NARA-FW مولي إلى إرنست بوركهارت في 21 كانون الثاني/يناير 1926.

30 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

31 المرجع نفسه.

32 وايت إلى هوفر، 3 تموز/يوليو 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

33 تولسا تريبيون 13 آذار/مارس 1926.

34 بسمارك تريبيون 17 حزيران/يونيو 1926.

35 تولسا تريبيون 13 آذار/مارس 1926.

36 مقتبس من: Hogan, Osage Murders, 195

37 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

38 تولسا ديلي وورلد، 20 آب/أغسطس 1926.

39 تولسا ديلي وورلد، 13 آذار/مارس 1926.

40 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

41 NARA-CP مذكّرة ليهي وسجلات الرأفة.

42 وايت إلى هوفر، 5 حزيران/يونيو 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

43 شهادة من جلسة الاستماع الأوّلية لإرنست بوركهارت، المدرجة في قضيّة الولايات المتحدة ضدّ جون رامسي وويليام ك. هيل .NARA-FW

44 NMSUL نص المقابلة مع وايت.

45 تولسا تريبيون 30 أيار/مايو 1926.

46 مقتبس من: Gentry, J. Edgar Hoover, 117

47 واشنطن بوست 8 حزيران/يونيو 1926.

48 NMSUL وايت إلى غروف، 10 آب/أغسطس 1959.

49 وايت إلى هوفر، 8 حزيران/يونيو 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

50 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

51 OSARM شهادة كيلسي موريسون، ولاية أوكلاهوما ضد موريسون.

52 شهادة موريسون في إرنست بوركهارت المحاكمة، أدرجت لاحقًا في المرجع نفسه.

53 شهادة موريسون في إرنست بوركهارت المحاكمة، أدرجت لاحقًا في المرجع نفسه

54 NARA-FW بيان صادر عن كاثرين كول بتاريخ 31 كانون الثاني/يناير 1926.

55 NARA-CP وصفي لبوركهارت تغيّر وصار مستمدًّا من تغطية المحاكمة في الصحف المحلّية، ومخطوطة غروف الواقعية، ورسالة كتبها ليهي عام 1927 وتمّ عقدها في سجلّات الرأفة بوركهارت.

56 تولسا ديلي وورلد، 10 حزيران/يونيو 1926، ومخطوطة غروف غير روائية.

57 تولسا ديلي وورلد، 10 حزيران/يونيو 1926.

58 NMSUL حساب غير روائي غير منشور بقلم غروف مع وايت.

59 كابيتال ديلي جورنال 9 حزيران/يونيو 1926.

60 تولسا ديلي وورلد، 10 حزيران/يونيو 1926.

61 النيويورك تايمز، 10حزيران/يونيو 1926.

62 وايت إلى هوفر، 15 حزيران/يونيو 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

63 مقتبس من: 1926 missive from Short to Luhring NARA-FW

64 NMSUL نص المقابلة مع وايت.

65 تولسا ديلي وورلد، 19 آب/أغسطس، 1926.

الفصل العشرون

1 تولسا تريبيون 29 تموز/يوليو 1926.

2 تقرير بقلم بيرغر، 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1928، مكتب التحقيقات الفدرالي.

3 تولسا تريبيون 21 آب/أغسطس 1926.

4 المرجع نفسه.

5 تولسا ديلي وورلد، 30 تموز/يوليو 1926.

6 تولسا ديلي وورلد، 29 تموز/يوليو 1926.

7 تولسا ديلي وورلد، 31 تموز/يوليو 1926.

8 Lamb, Tragedies of the Osage Hills, 179

9 تولسا ديلي وورلد، 19 آب/أغسطس، 1926.

10 صحيفة الكابيتال اليومية، 20 آب/أغسطس 1926.

11 تولسا تريبيون 21 آب/أغسطس 1926.

12 لهذا الاقتباس وتفاصيل أخرى من المشهد، انظر أوكلاهوما سيتي تايمز، 25 آب/أغسطس، 1926.

13 تقرير بقلم إتش إي جيمس، 11 أيار/مايو 1928، مكتب التحقيقات الفدرالي.

14 Daily Oklahoman, Oct. 8, 1926 صحيفة أوكلاهوما اليوميّة، 8 تشرين الأوّل/أكتوبر 1926.

15 NARA-FW أوسكار آر لورينغ إلى روي سانت لويس في 23 أيلول/سبتمبر 1926.

16 NARA-FW الولايات المتحدة ضد جون رامسي ووليام ك.هيل، تشرين الأول/أكتوبر 1926.

17 NARA-FW الولايات المتحدة ضد جون رامسي ووليام ك.هيل، تشرين الأول/أكتوبر 1926.

18 NMSUL بيان من إرنست بوركهارت في محاكمته في العام 1926.

19 البيان الختامي لأوسكار ر. لورينغ، الولايات المتحدة الأميركية جون رامسي وويليام ك. هيل، تشرين الأول/أكتوبر 1926.

20 المرجع نفسه.

21 صحيفة أوكلاهوما اليوميّة، 30 تشرين الأوّل/أكتوبر 1926.

22 تولسا ديلي وورلد، 30 تشرين الأول/أكتوبر 1926.

23 النيويورك تايمز، 30 تشرين الأول/أكتوبر 1926.

24 ليهي إلى المدعي العام الأميركي، 1 شباط/فبراير 1929، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

25 OSARM موريسون إلى هيل، المدرجة في ولاية أوكلاهوما ضد كيلسي موريسون.

26 OSARM شهادة برايان بوركهارت، ولاية أوكلاهوما ضد كيلسي موريسون.

27 المرجع نفسه.

28 سانت لويس بوست - ديسباتش، 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1926.

29 هوفر إلى وايت، 9 كانون الثاني/يناير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

30 مقال صحافي، بدون تاريخ، مكتب التحقيقات الفدرالي.

31 مذكرة من بيرغر، 27 تشرين الأول/أكتوبر 1932، مكتب التحقيقات الفدرالي.

32 The Lucky Strike Hour, Nov. 15, 1932, accessed from http://www.otrr.org/

33 هوفر إلى وايت، 6 شباط/فبراير 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

34 مقتبس من: Adams, Tom White, 76

35 مابيل ووكر ويلبرانت إلى هوفر في 15 شباط/فبراير1927، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

36 هوفر إلى ويلبرانت، 9 كانون الأول/ديسمبر 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرية المعلومات.

37 إيرلي، البيت الحار، ص. 30.

38 Daily Oklahoman, n.d., and transcript of interview with White, NMSUL

الفصل الحادي والعشرون

1 Adams, Tom White, 84

2 Rudensky, Gonif, 32

3 المرجع نفسه.

4 معتقدًا أنه كان ضروريًّا بالنسبة للسجناء لكي يظلّوا مشغولين، سمح وايت لروبرت ستراود، وهو قاتل مُدان، بالحفاظ على قفص في زنزانته مع حوالى ثلاثمائة طائر كناري، وأصبح يعرف باسم بيردمان أو «رجل الطيور». في رسالة، أعربت والدة ستراود وايت عن مدى امتنانها لذلك الشخص الذي كان في موقف السلطة وفهم «الطبيعة البشرية ونقاط ضعفها الكثيرة».

5 Adams, Tom White, 133

6 Rudensky, Gonif, 27

7 سيرة ذاتية Carl Panzram, Nov. 3, 1928, Panzram Papers, SDSUL

8 Nash, Almanac of World Crime, 102

9 NARA-CP تقرير ليفنوورث عن هيل، تشرين الأول/أكتوبر 1945.

10 NARA-CP وايت إلى موريس ف.مور، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1926.

11 NARA-CP السيدة دبليو ك. هيل إلى وايت، أيلول/سبتمبر. 29، 1927.

12 NARA-CP ترسب هيل، 31 كانون الثاني/يناير 1927.

13 NARA-CP تقرير ليفنوورث عن هيل، 1 آب/أغسطس 1941.

14 استأنف هيل إدانته، وفي العام 1928 نقضت محكمة الاستئناف حكمه بشكل صادم. اعترف رجل ساعد فريق الدفاع في وقت لاحق بأنّ هيل كان لديه شخص «يرشي». لكنّ هيل على الفور حوكم مرة أخرى وأدين، كما رامسي تمامًا.

15 NARA-FW سجلّات وصية مولي بوركهارت، رقم الملف. 2173.

16 يستند شرحي لمحاولة الهروب في المقام الأوّل إلى سجلّات مكتب التحقيقات الفدرالي التي تمّ الحصول عليها من خلال قانون حرّية المعلومات. نسخة من مقابلة مع أحد المحكوم عليهم التي نفّذها المؤلف ديفيد أ. وارد؛ ورسائل توم وايت وحسابات الصحف وآدامز، توم وايت.

17 دانكيرك إيفننغ أوبزرڤر، كانون الأول/ديسمبر 1931.

18 Adams, Tom White, 114

19 بتسبرغ برس، 14 كانون الأول/ديسمبر 1939.

20 دانكيرك إيفننغ أوبزرڤر، كانون الأول/ديسمبر 1931.

21 Ward, Alcatraz, 6

22 المرجع نفسه.

23 Adams, Tom White, 109–10

24 بتبرغ برس، 14 كانون الأول/ديسمبر 1939.

25 Gentry, J. Edgar Hoover, 169

26 مقتبس من المرجع نفسه، ص.58.

27 وايت إلى هوفر، 1 تموز/يوليو 1938، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

28 العميل الخاص المسؤول في إل باسو إلى هوفر، 12 شباط/فبراير 1951، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

29 وايت إلى هوفر، 3 أيلول/سبتمبر 1954، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

30 هوفر إلى وايت، 9 أيلول/سبتمبر 1954، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

31 جوس تي جونز إلى هوفر، 16 حزيران/يونيو 1934، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

32 رين إلى هوفر، 2 آب/أغسطس، 1932، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

33 رين إلى هوفر، 4 تشرين الأول/أكتوبر، 1936، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

34 وايت إلى هوفر، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1955، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

35 NMSUL وايت إلى غروف، 10 آب/أغسطس 1959. .

36 وايت إلى هوفر، 20 آذار/مارس 1958، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

37 جونز إلى جوردون نيز، 4 نيسان/أبريل 1958،مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

38 NMSUL بيسي وايت إلى غروف 21 أيلول/سبتمبر 1959.

39 توم وايت إلى غروف، 4 كانون الثاني/يناير 1960، مكتب التحقيقات الفدرالي/ قانون حرّية المعلومات.

40 NMSUL جيه. إي. ويمز إلى غروف، 28 حزيران/يونيو 1963.

41 وايت إلى هوفر، 15 شباط/فبراير 1969، مكتب التحقيقات الفدرالي/قانون حرّية المعلومات.

42 Adams, Tom White, in postscript

43 العميل الخاص المسؤول في إل باسو إلى هوفر، 21 كانون الأول/ديسمبر 1971، مكتب التحقيقات الفدرالي/ قانون حرّية المعلومات.

الفصل الثاني والعشرون

1 Morris, Ghost Towns of Oklahoma, 83

2 Louis F. Burns, History of the Osage People, xiv

3 For more detailed information on Osage dances, see Callahan, Osage Ceremonial Dance I'n-Lon-Schka

4 Louis F. Burns, History of the Osage People, 496

5 فيرفاكس شيف، 17 حزيران/يونيو 1937.

6 نسخة من قرار مجلس الأوساج رقم 78، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1937.

7 كانساس سيتي تايمز، 21 كانون الأول/ديسمبر 1937.

8 ديلي جورنال - كابيتال، 3 آب/أغسطس 1942.
9 أوكلاهوما سيتي تايمز، 26 تشرين الأول/أكتوبر 1959.
10 ديلي أوكلاهومان 14 شباط/فبراير 1966.
11 ثي لترري دايجست 14 أيار/مايو 1932
12 هاميلتون إيفننغ جورنال، 28 أيلول/سبتمبر 1929.
13 Paschen's «Wi'-gi-e», in Bestiary
14 Webb-Storey, «Culture Clash», 115

الفصل الثالث والعشرون

1 ديلي أوكلاهومن، 2 تموز/يوليو 1923.
2 تقرير سميث، 28 أيلول/سبتمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
3 جلسات الاستماع أمام اللجنة المشتركة لكونغرس الولايات المتحدة، 1505.
4 تقرير وايس وبيرغر، 11 نيسان/أبريل 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
5 تقرير وايس وبيرغر، 11 نيسان/أبريل 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
6 تقريران، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.
7 تقرير سميث، 3 نيسان/أبريل 1926، مكتب التحقيقات الفدرالي.

الفصل الرابع والعشرون

1 Tallchief, Maria Tallchief, 4
2 المرجع نفسه ص.9.
3 ONM هيل إلى ويلسون كيرك، 27 تشرين الثاني/نوفمبر، 1931.
4 تقرير فيندلاي، 13 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.
5 المرجع نفسه.
6 تقرير فيندلاي، 13 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.
7 تقرير بقلم بيرغر، 12 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
8 تقرير فيندلاي، 13 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.
9 المرجع نفسه.
10 تقرير فيندلاي، 13 تموز/يوليو 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.
11 تقرير بقلم بيرغر، 12 آب/أغسطس، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
12 تقرير بقلم بيرغر، 13 آب/أغسطس 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
13 تقرير من وايس وبيرغر، 10 كانون الثاني/يناير، 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.
14 المرجع نفسه.
15 تقرير وايس وبيرغر، 26 كانون الأول/ديسمبر 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

16 تقرير وايس وبيرغر، 2 كانون الثاني/يناير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

17 تقرير وايس وبيرغر، 10 كانون الثاني/يناير 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

18 تقرير وايس وبيرغر، 26 كانون الأول/ديسمبر 1923، مكتب التحقيقات الفدرالي.

19 تقرير بقلم بيرغر، 13 آب/أغسطس 1924، مكتب التحقيقات الفدرالي.

الفصل الخامس والعشرون

1 المحكمة الجزئية الأميركية للمنطقة الشمالية أوكلاهوما، الولايات المتحدة ضد أوساج ويند، وإينيل كانساس، وإينيل غرين باور أميركا الشمالية، 30 أيلول/سبتمبر 2015.

2 المرجع نفسه.

3 تولسا وورلد، 25 شباط/فبراير 2015.

4 پوهوسكا ديلي كابيتال 30 كانون الثاني/يناير 1919.

5 مقتبس من: «The Murder of Mary Denoya-Bellieu-Lewis», PPL

الفصل السادس والعشرون

1 إي. شيبرد إلى مكتب المدّعي العام الأميركي، 8 كانون الثاني/يناير 1926.

2 صحيفة أوكلاهومان اليومية، 25 تشرين الأول/أكتوبر 1926.

3 مقتبس من: Wilson, Underground Reservation, 144

4 مقتبس من: McAuliffe, Deaths of Sybil Bolton, 109

5 مكتب التحقيقات الفيديرالي، تقرير من المكتب بعنوان «جرائم قتل في المحمية الهندية»، 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1932.

6 McAuliffe, Deaths of Sybil Bolton 251

7 Ball, Osage Tribal Murders

8 مقابلة أجراها إف جي غريمس جونيور وإدوين براون، 17 حزيران/يونيو 1925، مكتب التحقيقات الفدرالي.

9 تقرير بقلم سميث، 30 تشرين الأول/أوكتوبر، 1926، مكتب التحقيقات الفيديرالي.

10 Robert Allen Warrior, «Review Essay: The Deaths of Sybil Bolton: An American History», Wicazo Sa Review 11 (1995): 52

11 McAuliffe, Deaths of Sybil Bolton, 137. 311 «Harry didn't do it»: Ibid., 139

12 المرجع نفسه.

13 من طبعة ماكوليف المنقحة والمحدّثة من وفيات سيبيل بولتون، والتي أعيدت تسميتها أرض الدم: قصّة عائلة النفط والجشع والقتل في محمية الأوساج (سان فرانسيسكو: مجلس أوك بوكس، 1999)، ص 287.

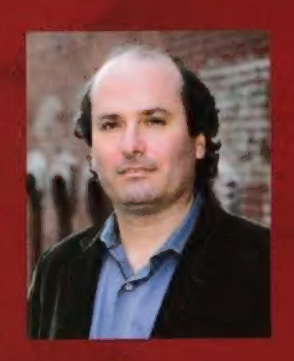
14 مقتبس من: Wallis, Oil Man, 152



في العام 1920، وبعد اكتشاف الذهب الأسود في الأراضي التي استقرّت فيها قبيلة الأوساج من الهنود الأميركيين في أوكلاهوما، أصبحت هذه الأمّة من أغنى شعوب العالم. عرّضها ذلك لأطماع جماعات شريرة من طبقات المجتمع الأميركي كافّة، التي احتمت بالقانون لتنفّذ جرائمها المتسلسلة العنيفة والغريبة والغامضة بحقّ الأوساج، وأشدّها مأسوية تلك التي طالت عائلة مولي بوركهارت. بدأ مسلسل القتل بتصفية الهنود الأغنياء، ومن ثمّ القَتَلَة المأجورين أنفسهم الذين أوكِلوا قتل الهنود، لتصل إلى اغتيال المحقّقين الخاصّين الموكّلين جمع الأدلّة في هذه القضية، ونشر الشائعات الكاذبة لتضليل التحقيق.

على وقع هَوْلِ هذه الجرائم، تقرّرت إعادة تكوين مكتب التحقيق الفدرالي بفكر حديث ومنهجيّة علميّة بقيادة المُخضرَمين من العملاء للكشف عن أكبر مؤامرة في تاريخ الولايات المتحدة في القرن العشرين، ووضع حدّ لما سمّاه الأوساج «عهد الإرهاب».

اعتُبر قتلة زهرة القمر، «جوهرة كتب التحقيقات» بحسب صحيفة النيويورك تايمز و«خلاصة الإثارة والتشويق» بحسب الفايننشال تايمز، واعتبر «كتاب العام» في ثماني صحف مرموقة في الولايات المتّحدة. حوّل الكتاب فيلمًا سينمائيًا عالميًا وشارك في معظم المهرجانات المرموقة كمهرجان «كان».



ديڤيد غران، كاتب أميركي ومدير تحرير وصحافي استقصائي في مجلّة «النيويوركر»، متخصّص في العلاقات الدوليّة والكتابة الإبداعية. حاز جائزتي توماس واتسن وجورج بولك عن كتابه «المدينة الضائعة: زي».

اشتهر غران في العالم بسبب كتبه الّتي تحوّلت أفلامًا سينمائية ناجحة مثل «المدينة الضائعة: زي» في العام 2017، و«جريمة العجوز والبندقيّة» في العام 2018، و«الظلام الأبيض» في العام 2022، و«الرهان» الّذي اشترى المخرج سكورسيزي والممثّل ليوناردو دي كابريو، كمنتجَين، حقوق تحويله فيلمًا قبل صدوره.





للاطلاع على منشوراتنا

www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر